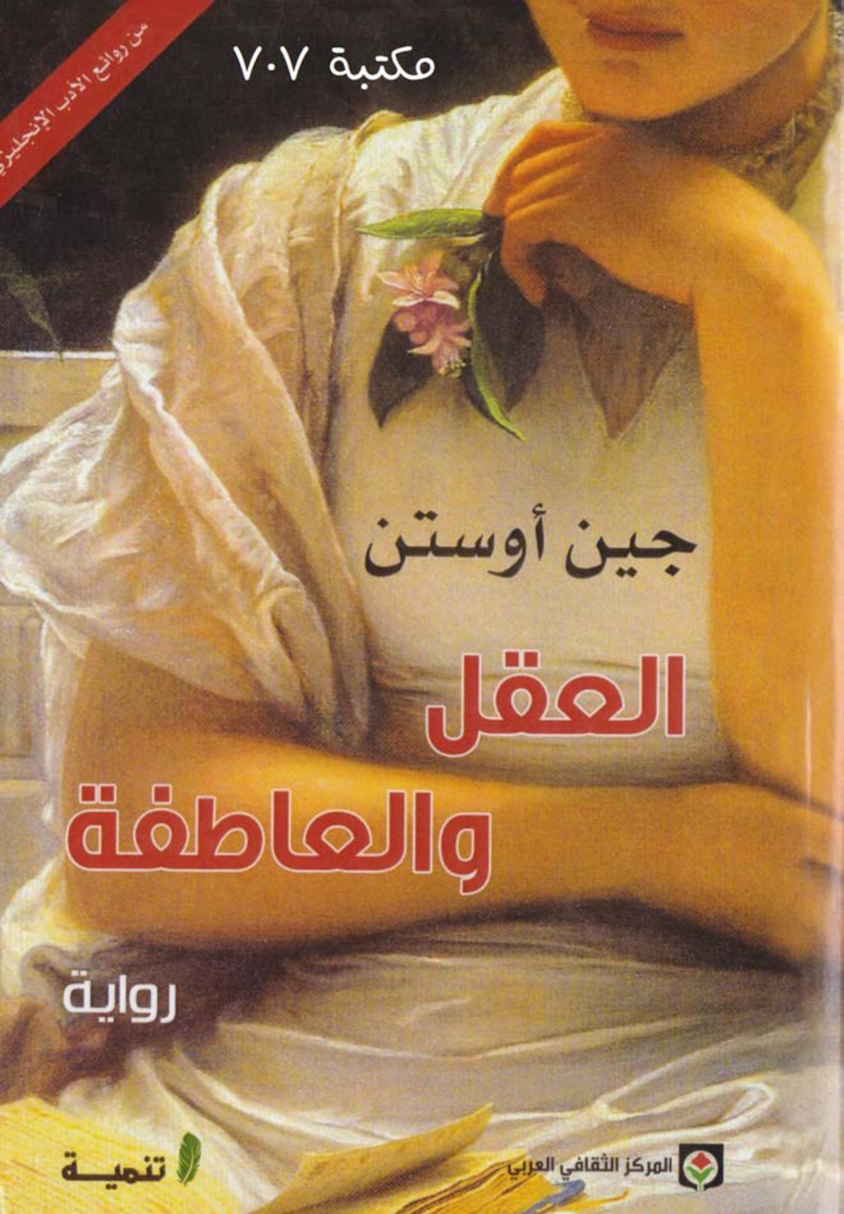

من روائع الأدب الإنجليزي

مكتبة ٧٠٧

جين أوستن

العقل والعاطفة

رواية

تنمية

المركز الثقافي العربي

مكتبة | 707
سُر مَن قرأ

جين أوستن

العقل والعاطفة

جين أوستن

مكتبة | 707
سُر مَن قرأ

العقل والعاطفة

رواية

ترجمة:

أمين الشريف

مراجعة:

مصطفى حبيب

تنمية

المركز الثقافي العربي

الكتاب

العقل والعاطفة

تأليف

جين أوستن

ترجمة

أمين الشريف

الطبعة

الأولى، 2017

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-836-7

جميع الحقوق محفوظة

الناشران

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 303339 0522 ـ 307651 0522

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

مكتبة تنمية

القاهرة ـ مصر

19 شارع هدى شعراوي من شارع

طلعت حرب - وسط البلد - القاهرة

محمول: 00201004367744

هاتف: 23926249 / 00202

Email: khaled_tanmia@hotmail.com

Facebook: tanmiabookstore

t.me/t_pdf

الفصل الأول

مكتبة 707
سُر مَن قرأ

لقد ظل آلُ داشوود يقيمون زمناً طويلاً في مقاطعة سسكس، ولهم فيها ضيعة كبيرة. وكانوا يقيمون في قصر نورلاند بارك الذي يتوسَّطُ أملاكهم حيث ظلوا يحيَوْن - أجيالاً طوالاً - حياةً جديرةً بالاحترام أكسبتهم تقديرَ جيرانهم. وكان صاحب هذه الضيعة الراحل رجلاً أعزبَ قد طعن في السن، وكانت أخته هي التي تُؤْنس وحدتَه، وتدبّر منزله خلال عدة سنوات من حياته، ولكنَّ الموتَ أعجلها دونه بعشر سنوات، فأحدثت وفاتها تغييراً كبيراً في حياته المنزلية، إذْ أراد أن يعوّض ما خسره بفقدها، فدعا إلى قصره ابنَ أخيه، السيد هنري داشوود، الوريثَ الشرعيّ لضيعة نورلاند، والرجلَ الذي اعتزم هو أن يوصى له بالضيعة. وقضى الشيخ الكبير أيامه الباقية ينعم بالراحة والهدوء في كَنَف ابن أخيه وزوجته وأطفالهما، وزادت محبّته لهم جميعاً إذ كان السيد هنري داشوود وزوجته يهتمان دائماً بتلبية رغباته، لما فُطِرا عليه من طيبة القلب، لا لاهتمامهما بأمره فحسب، فوفرا بذلك للشيخ الكبير جميع وسائل الراحة اللائقة بسنِّه، وزاده حباً في الحياة ما كان يراه من بشاشة الأطفال وابتهاجهم.

وكان للسيد هنري داشوود ولدٌ واحدٌ رزق به من زوجته

السابقة، وثلاثُ بنات من زوجته الحالية. وكان الولد شاباً رزيناً مُبَجّلاً، تركت له أمه، وكانت ذات ثروة كبيرة، مبلغاً كبيراً من المال. وآلَ إليه نصفُ هذا المبلغ عندما بلغ سن الرُّشد، ثم ما لبث أن تزوج، فزاد هذا الزواج من ثروته أيضاً ولذلك فإنّ إرْثه لضيعة نورلاند لم يكن يهمه في الواقع بقدر ما كان يهم أخواته البنات؛ لأن ثرْوتهن كانت ضئيلة بصرف النظر عمّا يؤول إليهن من إرث أبيهن لهذه الضيعة. وكانت أمهن لا تملك شيئاً؛ أما أبوهن فلا يملك إلا سبعة آلاف جنيه؛ لأن النصف الباقي من مال زوجته الأولى كان وقفاً على ابنها وليس لزوجها إلّا حقُّ الانتفاع به حالَ حياته.

ثم توفي الشيخ الكبير، وتُليت وصيته، فأحدثت من خيبة الأمل مثلَ ما أحدثت من الرضا، شأنها في ذلك شأن أي وصية أخرى. ولم يكن الرجل ظالماً ولا جاحداً للمعروف بحيث يحرم ابن أخيه من الضيعة، ولكنه قيّدها بشروط ذهبت بنصف قيمتها. وكان السيد داشوود يطمع في الضيعة حرصاً على مصلحة زوجته وبناته، أكثر منه على مصلحته هو أو مصلحة ابنه - ولكن الشيخ الكبير أوصى بها لابنه وابن ابنه البالغ من العمر أربع سنوات، على نحو جعله عاجزاً عن توفير أسباب الحياة الكريمة لأحبّ الناس إليه، وأحوجهنّ إلى المال سواء بأن يكون لهن أي حق على العقَار، أو الانتفاع ببيع أشجاره الثمينة، فوُهِبَتْ الضيعةُ بحذافيرها لهذا الطفل الذي استمال قلب عمه أثناء الزيارات التي قام بها أبواه إلى نورلاند بين الفينة والفينة بفضل الشمائل الحلوة التي يزدان بها الأطفال ممّن تتراوح أعمارهن بين سنتين وثلاث كالعجز عن سلامة النطق، والإصرار على تنفيذ رغباتهم، وحيلهم الماكرة الكثيرة، وضجيجهم الكبير،

حتى لقد نسي الشيخ الكبير ضروب الرعاية التي لقيها عدة سنوات من زوجة ابن أخيه وبناتها الثلاث، على أنه لم يشأ أن يَثني عنهن عطْف رحمته فأوصى لكلّ بنت منهن بألف جنيه، دليلاً على محبته لهن.

وكانت خيبة أمل السيد داشوود شديدة في بداية الأمر؛ ولكنه كان رجلاً مرحاً متفائلاً بطبعه؛ يأمل أن يعيش عدة سنوات؛ ويقتصد في المعيشة وبذلك يدّخر مبلغاً من المال لا يُستهان به من ريع ضيعة كبيرة قابلة للاستصلاح العاجل، ولكن الثروة التي جاءت متأخرة لم يزد عمرها على سنة هي التي عاشها بعد عمه. وكان كل ما تركه لأرملته وبناته هو عشرة آلاف جنيه بما في ذلك الميراث الذي آل إليه أخيراً.

ولما حضر السيد داشوود الموتُ، استدعى ابنه فأوصاه بكلّ ما سمح به المرض من قوة وإلحاح، بزوجة أبيه وأخواته.

ولم يكن السيد جون داشوود يتّصف بما يتصف به بقية أفراد الأسرة من قوة العاطفة، ولكنه تأثر بهذه الوصية التي صدرت إليه في مثل هذا الوقت فوعد أباه أن يبذل كلّ ما في وسعه لتوفير الحياة الرغيدة لهن؛ فاطمأن بالُ أبيه لهذا الوعد، وكان أمام السيد جون داشوود فسحةٌ من الوقت يتدبر فيها ما يستطيع أن يُسْديه لهن.

لم يكن جون داشوود شاباً سيئ الطوية اللهم إلّا إذا كان فتور العاطفة والميل إلى الأنانية دليلاً على سوء الطوية. ولكنه كان شاباً مبجلاً بوجه عام، إذ كان يحافظ على الآداب المرعية في أداء واجباته العادية. ولو أنه تزوج امرأةً أحبَّ إلى الناس من امرأته لكان من الجائز أن يظفر بقدر أكبر من احترامهم، بل من حبهم؛ وذلك لأنه تزوج في حداثته وكان شديد الكَلَف بزوجته، ولكن السيدة جون

داشوود كانت أشبه الناس به، إلا أنها تفوقه في ضيق الأفق والأنانية.

ولما وعد أباه بمساعدة أخواته نوى في دخيلة نفسه أن يزيد ثروتهن بأن يهبَ كلاً منهن ألف جنيه. وكان يعتقد حينئذٍ أنّ في وسعه أن يعطيهن هذا القدر من المال. وممّا ملأ قلبه بالحنان والعطف وأشعره بالقدرة على السخاء والبذل أنه كان يأمل في الحصول على أربعة آلاف جنيه في العام بالإضافة إلى دخله الحالي، وذلك علاوة على الشطر الباقي من مال أمه. وكان يحدث نفسه طَوَالَ هذا اليوم، ولعدة أيام متواليات دون أن يشعر بشيء من الندم - «نعم، سأعطيهن ثلاثة آلاف جنيه: إنه مبلغ سخي وكبير! يكفي لتوفير أسباب الرغد والرفاهية لهن. ثلاثة آلاف جنيه! إنه يستطيع أن يوفر ذلك المبلغ دون كبير عناء».

وما إن شُيِّعت جنازةُ أبيه، حتى قدِمَت زوجته بأولادها وخدمها إلى القصر دون أن ترسل إلى حماتها أيّ إخطار بعزمها على الحضور. ولم يكن في وسع أحد أن ينازعها الحقَّ في الحضور، فالبيت أصبح بيت زوجها منذ اللحظة التي توفي فيها أبوه، ولكن هذا التصرف كان مجافياً للذوق والأدب، وأدعى إلى إثارة امرأة في مثل موقف السيدة داشوود التي تتصف بجفوة الطباع ولكنها شديدة الإحساس بالكرامة والنخوة إلى حدّ أنّ أي اعتداء عليهما - بصرف النظر عن المعتدِي والمعتدَى عليه - يثير في نفسها أشدّ الامتعاض والاشمئزاز. ولم تظفر السيدة جون داشوود قط بمحبة أي فرد من أسرة زوجها، ولم يسبق أن تهيأت لها الفرصة، كما تهيأت لها الآن لتثبت لهن عدم مبالاتها براحة غيرها من الناس حينما تتطلب الظروف ذلك.

وقد بلغ من استياء السيدة داشوود لهذا المسلك غير الكريم واحتقارها الشديد لزوجة ربيبها، أنها هَمَّت بمغادرة المنزل إلى غير رجعة عند قدومها، لولا أنّ بنتها الكبرى حملتها على التريث في الأمر، لما في ذلك من مجافاة للذوق، ثم تغلبت عليها عاطفةُ الحنان والحب لبناتها الثلاث، فقررت البقاءَ وتجنّب أسباب القطيعة بينهن وبين أخيهن، حرصاً على مصلحتهن.

وكانت إلينور - هذه البنت الكبرى التي كان لنصحيتها أثر فعّال - تزدان بقوة الفهم، ورصانة الرأي، مما أَهَّلها - وإن لم يزد عمرها على تسعة عشر ربيعاً - لأن تكون الناصحة الأمينة لأمها، ومكَّنها في أغلب الحالات من أن تُلطِّف - لمصلحتهن جميعاً - من حِدة أمها. ولولا ذلك لأدّت هذه الحدة والحمية إلى التهور والحماقة. وكانت إلينور طيبة القلب، مطبوعة على الحنان قويةَ العاطفة ولكنها كانت تعرف كيف تتحكم في هذه العاطفة، وهي خَصْلة كانت أمها في حاجة إلى تعلّمها، وإحدى أختيها تأبى أن تتعلّمها.

كانت خصال مَريان تُماثِل خصال إلينور في كثير من الوجوه، فكانت تزدان بالعقل والذكاء ولكنها تذهب إلى حدّ الإفراط في كل شيء، لا تعرف الاعتدال في أفراحها وأتراحها. كانت كريمة ومحبوبة وأنيسة. اجتمعت فيها كلّ الخصال الحميدة إلا الحكمة، لقد كان وجه الشبه بينها وبين أمها قوياً إلى حدّ يلفت النظر.

نظرت إلينور بعين القلق إلى ما اتّصفت به أختها من فرط العاطفة، ولكنَّ أمَّها قدرت فيها هذه الخصلة، وأخذت كل منهما تشجِّع الأخرى على التهويل من مصابهما، وتجددان طوعاً غمرة الأحزان التي استولت عليهما في بادئ الأمر وتتلمسان أسبابها وتؤجّجان أُوارها حيناً بعد حين، وأسلمت كلّ منهما قيادها للأحزان

واسترسلت في الأفكار التي تثير الأشجان، وقطعت الأمل في التماس أي عزاء في المستقبل وكانت إلينور هي الأخرى تتجرّع غصص الآلام، ولكنها استطاعت أن تجاهد نفسها وتتجلد، وتوطن نفسها على الصبر فشاورت أخاها واستقبلت زوجة أخيها عند قدومها، وعاملتها بما يليق بها من لطف ورعاية، واستطاعت أن تحمل أمها على إبداء مثل هذا التجلّد، وشجّعتها على إظهار ما أظهرته هي من الحلم والصبر.

أما مرغريت - الأخت الصغرى - فكانت فتاة منشرحة الصدر، طيبة القلب، ولكنها تشبّعت بكثير ممّا تتصف به مريان من قوة العاطفة دون أن تتحلى بما تتحلى به من وفرة العقل، ولذلك لم تكن تُبشِّر وهي في الثالثة عشرة بأن تضارع أختيها حينما تتقدم بها السن.

الفصل الثاني

أصبحت الآن السيدة جون داشوود هي ربة البيت، وحماتها وأخوات زوجها بمنزلة الضيوف. ومع ذلك عاملتهن - بهذا الاعتبار - بأدب ولطف، وأظهر لهن زوجُها من العطف ما يُظهره لأيّ شخص آخر خلاف نفسه وزوجته وولده. والواقع أنه طلب إليهن - في شيء من الإلحاح - أن يعتبرون نورلاند منزلهن، فقبلن هذه الدعوة لأنه لم يكن أمام السيدة داشوود إلا البقاء حتى يتسنى لها العثور على منزل مجاور.

وكان البقاءُ في المنزل الذي يذكّرها فيه كل شيء بنعيمها السابق، هو الأمر الذي يوافق هواها تماماً. ولم يكن أحد في وقت البهجة والحبور أشدَّ من السيدة داشوود بهجةً وحبوراً ولا أكثر منها تعلقاً بالأمل في السعادة الذي هو السعادة نفسها. لكنها في أوقات الحزن كانت تنساق وراء الخيال كذلك، وتتمادى فيه إلى حدّ يعزّ معه العزاء والسلوان، كما كانت تنسى جميع الأحزان في أوقات السرور.

لم توافق السيدة جون داشوود إطلاقاً على كلّ ما اعتزم زوجها أن يقدّمه لأخواته لأنها رأت أن إعطاءَهن ثلاثة آلاف جنيه من مال طفلها الصغير جدير أن يُلْقي به في مَهْواة الفقر، فطلبت إلى زوجها أن يعيد النظر في الأمر وتساءلت: كيف تُسَوِّل له نفسه أن يسلب

ولده - وولده الوحيد أيضاً - هذا المبلغ الكبير! وبأيّ حق تطالبه بنات داشوود أن يتبرع لهن بمثل هذا المبلغ الكبير ولا صلة تربطه بهن إلا أنهن أخواته غير الشقيقات، وهي صلة لا تعدّ قرابة على الإطلاق والمعروف جيداً أن الحب مفقود بين الإخوة غير الأشقاء. وأيّ داعٍ لأن يجلب الخراب على نفسه وعلى طفلهما الصغير هاري، فيتبرع بماله كله لأخواته غير الشقيقات؟

فأجاب زوجها «لقد كان آخر طلب تقدَّم به أبي إليّ أن أساعد أرملته وبناته».

«أؤكد لكَ أن أباك لم يكن يعي ما يقول، وأُراهِن أنه كان يهذي في ذلك الحين. ولو كان في وَعْيه لما خطر بباله أن يلتمس منك التبرع بنصف مالك على حساب ولدك».

«إنه لم يشترط مبلغاً معيناً يا عزيزتي فاني. وكل ما قاله أنه طلب بعبارات عامة أن أساعدهن، وأن أجعلهن أحسن حالاً ممّا كنّ عليه في حال حياته. وربما كان يحسن أن يترك لي الأمرَ كلَّه، لأنه لم يَدُر بِخَلَده أني أهمل شأنهن. ولكنه طلب إليّ أن أعِدَه بمساعدتهن، فلم يسعني أن أرفض طلبه، أو على الأقل هذا ما بدا لي في ذلك الحين. فأعطيته الوعدَ على ذلك، ولا بدَّ لي من الوفاء بوعدي، وتقديم بعض العون لهن عندما يغادرن نورلاند، ويُقِمن في منزل جديد.

«لا بأس حينئذٍ بأن تقدم لهن بعض العون، ولكن هذا البعض لا يلزم أن يكون ثلاثة آلاف جنيه» واستطردت قائلة «تذكَّر أن المال متى خرج من يديك، فلا يمكن أن يعود إليك. إن أخواتك سيتزوجن وسيذهب المال الذي تعطيهن إلى غير رجعة، وَددْتُ لو عاد هذا المال يوماً ما لولدنا الصغير المسكين».

فقال زوجها بلهجة الجد «حقاً إنّ لهذا أهميته الكبرى، فقد يأتي الوقت الذي يأسف فيه هاري على ضياع هذا المبلغ الكبير. وإذا كثر أفراد أسرته مثلاً، كان هذا المبلغ عوناً له على سَد حاجته».

«لا ريب في ذلك».

«إذَنْ ربما كان من المستحسن لصالح الجميع أن يُخفض المبلغ إلى النصف وأعتقد أن خمسمائة جنيه تزيد ثروتهن زيادة هائلة».

«كلا! بل أكثر من هائلة! أيُّ أخٍ على وجه الأرض يعطي أخواتِه نصف هذا القدر، حتى ولو كنّ أخواتِه حقاً! فما بالك إذا كنّ نصف أخوات كما هي الحال في قضيتك! ولكن يا لك من رجلٍ سخي اليدين!».

فأجاب «إنني لا أريد أن آتي عملاً دنيئاً، لأنه خير للمرء في مثل هذه الأحوال، أن يكون في جانب الإفراط من أن يكون في جانب التفريط، فأنا لا أريد أن يقول أحد - على الأقل - إنني لم أعطهن ما فيه الكفاية، بل لا أريدهن أنفسهن أن يتوقعن أكثر ممّا أعطيهن».

فقالت السيدة «لا سبيل لمعرفة ما قد يتوقعنه. ولكنه ليس علينا أن نفكِّر فيما يتوقعنه إذ المهم هو ما تستطيع أنت أن تعطيهن».

«يقيناً - وأنا أعتقد أنه في وسعي أن أعطي كل واحدة منهن خمسمائة جنيه والواقع أن كلاً منهن سيكون لديها أكثر من ثلاثة آلاف جنيه بعد وفاة أمهن وذلك بدون أن أعطيهن شيئاً - وهذا مبلغ كافٍ جداً لأي فتاة صغيرة».

«لا ريب أنه كافٍ جداً. والواقع أنه يبدو لي أنهن لسن بحاجة إلى المزيد لأنه سيكون لديهن عشرة آلاف جنيه موزّعة بينهن، فإذا

تزوجن كان في هذا المبلغ غناء لهن، وإذا لم يتزوجن أمْكَنَ أن يعِشْن معاً في سعة على فوائد عشرة الآلاف جنيه».

«حقٌّ ما تقولين. ولذلك لا أدري هل يكون من الأفضل على وجه العموم أن أرتبَ لأمهن لا لهن مبلغاً من المال في حال حياتها - أريد مبلغاً أشبه بمعاشٍ سنوي - ولا شك أنّ هذا المعاش سيعود على إخوتي بالنفع كما يعود على أمهن. وأعتقد أنّ مائة جنيه في العام توفر لهن جميعاً أسباب الحياة الرغيدة».

على أنّ زوجته ترددت قليلاً قبل أن تُبدي موافقتها على هذا الرأي.

ثم قالت: «حقاً إن ذلك أفضل من دفع خمسمائة جنيه في الحال. ولكن - من جهة أخرى - إذا امتدّ الأجل بالسيدة داشوود خمس عشرة سنة عاد ذلك علينا بالغُرم».

«خمس عشرة سنة! عزيزتي فاني؛ لا يمكن أن تعيش نصف هذه المدة».

«نعم! ولكنك إذا أنعمت النظر رأيت الناس يعيشون إلى الأبد متى رتبت لهم معاشاً سنوياً. ثم هي قوية البنية، جيدة الصحة، لم تبلغ الأربعين. إنّ المعاش السنوي شأنه عظيم لأنه يتكرر كل عام، ولا سبيل للخلاص منه. وأنت لا تدري ما أنت فاعله، فأنا أعرف الشيء الكثير من متاعب المعاشات السنوية لأن أمي كانت مُلزَمة بموجب وصية أبي بدفع معاشٍ سنوي لثلاثة من الخدم المتقاعدين. وقد تدهش إذا علمت أنها لقيت الأمَرَّين من هذا الأمر، إذ كانت هذه المعاشات تُدفع مرتين في العام ثم تأتي مشكلة توصيل هذه المعاشات إليهم ثم قِيل إن أحدهم توفي، وتبيَّن أن شيئاً من هذا لم يحدث، حتى لقد ضاقت أمي ذَرْعاً بالأمر، وكانت تقول: إن دخلها

ليس ملكاً لها بإزاء هذه المطالب التي لا تنتهي؛ وممّا يزيد في قسوة العمل الذي أوصى به أبي أنه لولا ذلك لاستطاعت أمي أن تكون حرة التصرّف في مالها. والواقع أن هذا الحادث جعلني أمقت المعاشات السنوية إلى حدّ لا أطيق معه أن أرتبط بدفع أيّ معاش سنوي لأيّ سبب من الأسباب».

فأجاب السيد داشوود «لا ريب أن هذه الالتزامات التي تستنزف دخل المرء في كلّ عام أمر ممقوت. فمال الإنسان - كما قالت أمك بحق - ليس ملكاً له، وارتباطه بدفع مثل هذه المبالغ بصفة منتظمة في موعد دفع الإيجار، أمر غير مرغوب فيه على الإطلاق. إنه يسلب المرء ثروته».

«بلا ريب! ثم لا حمدَ ولا شُكر في نهاية الأمر! فإنهن آمنات، وأنت لا تفعل أكثر ممّا ينتظرنه منك، فلا وجه للشكر. ولو كنت في مكانك لتصرَّفت في الأمر بحسب تقديري الشخصي تماماً، ولما التزمت بدفع أي مبلغ سنوي، فقد يتعذَّر عليك في بعض السنين أن توفر مائة جنيه، بل خمسين جنيهاً من نفقاتنا».

«أعتقد أنك على حق فيما تقولين يا حبيبتي. من الأفضل ألّا نرتبط بأيّ معاش. سيجدن في كلّ ما يمكن أن أعطيه لهن من حين إلى آخر عوناً أكبر بكثير من المعاش السنوي لأنهن إذا تأكّدن من زيادة دخلهن توسعن في معيشتهن ولن تزيد ثروتهن شروى نقير في نهاية العام، وستكون هذه الطريقة المثلى بلا ريب. وإهداؤهن خمسين جنيهاً من وقت إلى آخر سيحُول دون شعورهن بأيّ ضائقة مالية، وسيكون فيه كما أعتقد وفاء كبير بوعدي لأبي».

«لا ريب في ذلك. والحق أني أعتقد في قرارة نفسي أنّ أباكَ لم يفكِّر قط في أن يعطيهن شيئاً من المال على الإطلاق. ولعلّ

المساعدة التي فكّر فيها هي أن تعاونهن بما تقدِر عليه في حدود المعقول، كأن تبحث لهم عن بيت صغير مريح وتساعدهن على نقل أمتعتهن إليه، وترسل لهن بعض الهدايا من السمك والصيد في الوقت المناسب إلى غير ذلك. وأراهِن أنّ أباك لم يقصد أكثر من ذلك. والواقع أنه لو قصد غير ذلك لكان أمراً غريباً ومنافياً للعقل. تأمّل يا عزيزي السيد داشوود كم تستطيع زوجة أبيك وبناتها أن يعشن في رغد على فائدة سبعة آلاف جنيه فضلاً عن الألف جنيه التي تملكها كلّ بنت من بناتها والتي تدرّ فائدة قدرها خمسون جنيهاً على كلّ منهن، وبالطبع سيدفعن لأمهن منها نفقة طعامهن. وجملة الفوائد التي ستعود عليهن هي خمسمائة جنيه في العام موزّعة بينهن. بربّك حدثني ماذا يطلب أربع نساء أكثر من ذلك؟ إنّ المعيشة لن تكلفهن شيئاً! سيعشن حياة رخيصة! تدبير المنزل لن يكلفهن شيئاً. لن يحتجن إلى عربة ولا إلى جياد، بل ولا إلى أيّ خادم. ولن يجِدن كثيراً من الصديقات ولن يتجشّمن نفقات من أي نوع! تأمل كم سيعشن في رغد من العيش! خمسمائة جنيه في العام! أنا لا أدري فيما ينفقن نصف هذا المبلغ. ومن السخف أن تفكر في أن تعطيهن أكثر من ذلك. إنهن سيكنّ أقدر على أن يعطينك أنت شيئاً».

قال السيد داشوود «أقسم لكِ بشرفي أنني أعتقد أنك على حق فيما تقولين. إن أبي لا يمكن أن يعني بما طلبه أكثر ممّا تقولين. وأنا أفهم ذلك الآن بوضوح وجلاء. وسأفي بوعدي لأبي بأن أسدي لهن من العون والمعروف مثل ما ذكرت. وحينما تنتقل زوجة أبي إلى منزلِ آخر سأبذل جهدي في نقلِ متاعها بقدر ما أستطيع. وربما أهديتها بعض قطع صغيرة من الأثاث فتقع لديها موقع القبول».

فأجابت السيدة داشوود «يقيناً ولكنَّ هناك أمراً واحداً جديراً بالنظر وهو أنه عندما انتقل أبوك وزوجته إلى نورلاند احتفظا - مع بيعهما أثاث ستاندهل - بجميع الأواني الصينية والأطباق، والبياضات، وآلَ كلّ ذلك لزوجة أبيك الآن. ولذلك سيكون بيتها كامل الآثاث والأدوات عندما تأخذ هذه الأشياء معها».

«لا شك أن هذا أمر له أهميته، وميراث له قيمته! وأعتقد أننا بحاجة إلى بعض هذه الأطباق لتزيد من جمال ما عندنا منها».

«أجل وطقم الأواني الصينية الخاصة بوجبة الإفطار يبلغ جماله ضعف جمال بعض الأطباق في ذلك البيت، بل هي أجمل في نظري من أن يصلح لها أيّ بيت يُقمن فيه. ولكن هكذا كان. إن أباك لم يفكِّر إلا فيهن. وأرى لزاماً عليَّ أن أقول لك هذا: لستَ مَدِيناً له بالشكر، ولا ملزماً بتلبية رغباته، لأننا نعلم حقّ العلم أنه لو استطاعَ لوَهَب لهن سائر الأشياء في العالم».

وكانت هذه الحجة حجةً مفحمة، قطعت الشك باليقين، فقرّ رأيه نهائياً على أنه لا داعي إطلاقاً إن لم يكن من المعيب، أن يسدي يداً لأرملة أبيه وبناته، اللهم إلا ما أشارت به زوجته من رعاية حقّ الجوار.

الفصل الثالث

بقيت السيدة داشوود في نورلاند عدة شهور، لا لأنها كانت تكره الانتقال عندما يزول من نفسها أثر الانفعالات الشديدة التي تثيرها في نفسها مؤقتاً مشاهدة المعالم التي تعرفها جيداً، فقد كانت - حين يشيع في نفسها السرور، وينصرف ذهنها عن التفكير في الذكريات الحزينة التي تضاعف من آلامها - تتوق إلى الانتقال من البيت، وتجدُّ في البحث عن مسكن لائق في جوار نورلاند، لأنها لم تكن تطيق الإقامة بعيداً عن هذا المنزل المحبوب. ولكنها لم تعثر على منزل يتوافر فيه ما تصبو إليه من الراحة والسعة، ويتفق الوقت نفسه مع حكمة بنتها الكبرى التي رفضت برأيها الحصيف عدة منازل كان يمكن أن تلقى قبولاً لدى أمها، بحجة أنّ هذه المنازل أوسع من أن يحتملها دخلهن.

وكانت السيدة داشوود قد علمت من زوجها بالوعد القاطع الذي أعطاه ابنه لصالحهن، وطمأن بال أبيه في أيامه الأخيرة. ولم تشكّ في صدق هذا الوعد أكثر ممّا شك فيه زوجها. ونظرت بعين الارتياح إلى هذا الوعد لما فيه من فائدة لبناتها، وإن كانت هي نفسها تستطيع أن تعيش في سعة بمبلغ يقلّ عن سبعة آلاف جنيه بكثير، وفرحت حين عرفت أن أخاهن يضمر لهن أطيب النوايا،

وأنحت على نفسها باللائمة لأنها لم تقدّره حق قدره حين اعتقدت أنه لا يميل إلى الكرم والسخاء، وشاهدت من اهتمامه بها وبأخواته ما أقنعها بحرصه على توفير أسباب الرفاهية لهن، وظلّت زمناً طويلاً وهي تُعَوِّل على كرم نواياه.

وقد ازداد كثيراً ذلك الاحتقار الذي شعرت به نحو زوجة ربيبها في الأيام الأولى التي عرفتها فيها، بعد أن ازدادت معرفةً بأخلاقها خلال الشهور الستة التي عاشرتها فيها، وربما كان من المستحيل على هاتين السيدتين أن تعيشا معاً هذه الفترة الطويلة، على الرغم من أن واجب المجاملة وعاطفة الأمومة كانا يقضيان على السيدة داشوود بالبقاء مع زوجة ربيبها، لولا أنْ جدَّ حادث خاص فرغّب السيدة داشوود في بقاء بناتها في نورلاند.

وهذا الحادث هو ازدياد المحبة بين بنتها الكبرى وشقيق السيدة جون داشوود وكان شاباً دمث الأخلاق حلو الشمائل، تعرَّف إليهن عقب إقامة أخته في نورلاند، وظل منذ ذلك الحين يقضي سائر وقته هناك.

وربما كانت بعض الأمهات يشجّعن هذه المحبة بدافع المصلحة لأن إدوارد فيرارز كان أكبر أبناء رجل توفي عن ثروة طائلة. وربما كان بعضهن لا يشجّعها بدافع الحكمة لأنه لم يكن يتصرف في أمواله ما عدا مبلغاً تافهاً إلا بأمر أمه. ولكن السيدة داشوود لم تتأثر بأي من هذين الاعتبارين لأنه كان يكفيها أن يكون شخصاً محبوباً، وأن يحبّ ابنتها، وأن تبادله إلينور هذا الحب. وكان ممّا يخالف مبادئها القول بأنّ التفاوت في الثروة يوجِب التفرقة بين الزوجين اللذين يؤلف بينهما تشابه الطباع، وكانت لا تتصور أن ثمة إنساناً يعرف إلينور ثم لا يعترف بمزاياها.

لم يظفر إدوارد فيرارز بحُسن تقديرهن لجمال شخصه أو لعذوبة حديثه، لأنه لم يكن وسيم الوجه، ولا تبدو أخلاقه على حقيقتها إلا لمن عرفه معرفة وثيقة. وكان شديد الخجل إلى حد يجعل الناس يغمطون قدره. ولكنه إذا زايله الخجل أرسل نفسه على سجيتها وبدت رقة عواطفه. وكان ذكي الفؤاد، قد شحذ التعليم من قريحته. بيْد أنه لم يكن بمواهبه ولا بطباعه صالحاً لتحقيق ما تصبو إليه أمه وأخته، وهو أن يكون رجلاً مشهوراً - مثلَ - لا يعرفان مثلَ مَنْ. كانتا تريدان أن يكون رجلاً بارزاً في المجتمع على نحوٍ ما. أمه تريد أن يشتغل بالسياسة حتى يدخل البرلمان، أو يصاهر بعض العظماء في عصره وأخته تتمنى له مثل ذلك. ولكن إلى أن تتحقق إحدى هذه المزايا الرفيعة كانتا تطمحان أن يكون له عربة يجرّها جواد. ولكن إدوارد لم يكن يميل إلى العظمة أو العربة، بل كان كلّ ما يتمناه أن ينعم بالهناءة في حياته العائلية، ويتمتع بالهدوء في حياته الخاصة. ولحسن الحظ كان له أخ أصغر منه يبشّر بمستقبل زاهر.

أقام إدوارد عدة أسابيع في المنزل قبل أن يلفت نظر السيدة داشوود لأنّ حزنها إذ ذاك صرفها عن الاهتمام بما حولها. ولم تلحظ إلا أنه رجل هادئ غير فضولي، فأحبّته لذلك، إذ لم يكن يثير أشجانها بحديث لا يناسب المقام. وكان أول ما لفت نظرها إليه، وعطَفَ قلبها عليه، ملاحظة بدرت من إلينور ذات يوم عن الفرق بينه وبين أخته، فكان هذا التباين بين الأخ وأخته ممّا حببه إلى نفسها.

قالت: «يكفي أنه لا يشبه فاني، لأنّ ذلك معناه أنه يتحلى بكلّ الخصال المحبوبة. إنني أحبه حقاً».

وقالت إلينور: «أعتقد أنك ستميلين إليه متى ازددتِ معرفة به».

فابتسمت أمها وقالت: «أميل إليه! إنّ شعوري نحوه لا يقلّ عن الحب».

«لعلك تُقَدِّرينه».

«إنني لم أعرف حتى الآن ما هو الفرق بين التقدير والحب».

ومن ذلك الحين طفِقت السيدة داشوود تهتم بمعرفة أخلاقه، فصارت تتودّد إليه، وسرعان ما نَضَا عنه ثوب التحفّظ والاحتشام فما لبثت أن أدركت كلّ مزاياه ولعل اقتناعها بحبه لإلينور ممّا ساعدها على التغلغل في أعماق نفسه. ولكنها في الواقع أُعجِبت بمواهبه الذاتية، حتى إن الهدوء الذي يتعارض مع الشمائل التي ينبغي أن يتحلى بها الفتى صار الآن عندها أمراً محبباً عندما عرفت ما ينبض به قلبه من العطف، وما تنطوي عليه جوانحه من الحب.

وما إن لمحت إحدى أمارات الحب في تصرفاته مع إلينور حتى تحقّقت أنّ عرى المحبة قد توثقت بينهما، وأن زواجهما سيتم قريباً.

قالت: «عزيزتي مَرْيان! أكبر الظن أنه لن تمضي أشهر معدودات حتى تكون إلينور قد استقرت في منزل الزوجية. إننا سنشعر بوحشة شديدة لفراقها، ولكنها ستكون سعيدة».

«أُمَّاه! أنَّى يكون لنا أن نستغني عنها؟».

«حبيبتي! لن يكون هذا فراقاً. فإننا سنقيم على بضعة أميال منها، وسنلتقي معها كل يوم، وسنكسب أخاً، أخاً صادقاً وحبيباً. إنني أكِنُّ لإدوارد أكبر التقدير. ولكن ما لي أراكِ ساهمة الوجه يا مريان! ألا توافقين على اختيار أختك؟».

فقالت مريان «ربما كان هناك ما يدعوني لأن أنظر إليه ببعض الدهشة: إن إدوارد لطيف جداً وأنا أحبه كثيراً، لكنه ليس من ذلك

الطراز من الشبان - ثمة شيء ينقصه - وجهه غير وسيم، ليس فيه من المحاسن ما أعتقد أنه يستهوي فؤاد أختي فعيناه ليس فيهما البريق الذي ينبئ عن الفضيلة والذكاء معاً. ثم إنني أخشى يا أماه ألّا يكون له ذوق فني حقيقي، إذ يبدو لي أنه لا يحب الموسيقى. وإذا كان قد أبدى إعجابه الكبير بصور إلينور فليس ذلك بإعجاب مَن يقدِّر قيمة هذه الصور، وإذا أطال التأمل في صورها وهي مُكِبة على الرسم كان من الواضح أنه لا يفهم فيها شيئاً، فإعجابه إعجاب المحبّ لا الخبير، وأنا لا يرضيني إلّا مَن يجمع بين الخصلتين. أنا لا يمكن أن أشعر بالسعادة مع رجل لا يتفق ذوقه مع ذوقي في كل شيء. يجب أن يدخل في جميع مشاعري: يُحب مثلَ ما أحب من الكتب، ويهوى ما أهوى من الموسيقى. ألم تلاحظي يا أماه في الليلة الماضية أنّ طريقة إدوارد في القراءة كانت طريقة غَثّة لا روح فيها؟

لقد تألمت لأختي أشدّ الألم، ولكنها تجلَّدت وكأنها لم تلاحظ شيئاً. أما أنا فلم أطِق الجلوس في مقعدي. لَشدّ ما دُهِشت حينما سمعت منه هذه الأبيات الشعرية التي طالما جعلتني أهيم من الوجد، وهو ينشدها بصوت هادئ لا ينفذُ إلى الحس، وفتور قاتل لا يؤثر في النفس!».

«أعتقد أنه كان في وسعه أن يجيد قراءة النثر السهل الفصيح. هذا ما خطر لي في ذلك الوقت. ولكنك أصررتِ على إعطائه شعر كوبر».

«نعم يا أماه، إذا لم يكن ليتأثر بشعر كوبر! ولكن يجب ألّا ننسى أن الناس يتباينون في الأذواق، فإلينور يختلف إحساسها عن إحساسي، ولذلك قد تتغاضى عن هذا الأمر، وتشعر معه بالسعادة.

ولكني إذا سمعته يقرأ بمثل هذه العاطفة الفاترة تحطَّم قلبي لو كنت أحبه. وأنا يا أماه كلما ازددتُ معرفة بالناس ازددتُ إيماناً بأني لن ألقى الرجل الذي أحبّه حباً صادقاً. إنني أطلب الشيء الكثير: أن يحوز جميع فضائل إدوارد، وأن تزدان هذه الفضائل بكافة المحاسن الخَلْقية والخُلقية».

«تذكري يا حبيبتي أنك لم تبلغي السابعة عشرة، ولا يجدر بك أن تيأسي في هذه السن المبكرة من بلوغ هذه السعادة. لماذا تكونين أقل حظاً من أمك؟ كل ما أرجوه يا مريان أن يختلف حظك عن حظها في أمر واحد!».

مكتبة
t.me/t_pdf

الفصل الرابع

قالت مريان «وا أسفاه! إن إدوارد لا يتذوق فن الرسم».

فأجابت إلينور «لا يتذوق فن الرسم؟ لماذا تظنين ذلك؟ حقاً إنه لا يمارس هذا الفن بنفسه، ولكنه يجدُ لذة كبيرة في مشاهدة أعمال غيره، وأؤكد لك أنه لا يعوزه الذوق الطبيعي بأي حال، وإن لم تتَح له الفرصة لُترقية هذا الذوق. ولو أنه تلقى أصول الفن لأجاد الرسم فيما أعتقد. وهو لا يثق كثيراً بحكمه على مثل هذه الأمور، ولذلك فهو يُحْجم عن إبداء رأيه في أية صورة، ولكنه أوتي ذوقاً فطرياً سليماً يمكِّنه على وجه العموم من صحة الحكم».

وخشيت مريان أن تُغضب أختها، فأمسكت عن الكلام في هذا الصدد، ولكنها كانت ترى أن الإعجاب الذي يثيره في نفسه - كما زعمت أختها - ما يرسمه غيره من الصور، هو أبعد ما يكون عن تلك النشوة التي يمكن أن تسمى برأيها ذوقاً. ولكنها ابتسمت في نفسها لما وقعت فيه أختها من خطأ، ولم تلُمها على حبّها الأعمى لإدوارد.

واستطردت إلينور قائلة: «أرجو ألّا تظني أن إدوارد ينقصه الذوق العام. وفي وسعي أن أقول: إنك لا تظنين ذلك لأن مسلكك مع إدوارد يتَّسم بصادق الودّ. ولو كان هذا هو رأيك لما كان في وسعك أن تعامليه بشيء من الأدب قط».

ولم تدرِ مريان ما تقول، لأنها لم تشأ أن تجرح شعور أختها لأيّ سبب من الأسباب، ولا أن تقول ما لا تعتقد، لأنّ هذا ضرب من المستحيل. وأخيراً قالت:

«لا تغضبي يا إلينور إذا كان ثَنائي عليه لا يرتفع إلى مستوى إدراكك لفضائله فإني لم يُتَح لي ما أتيح لكِ من الفرص حتى يتسنى لي تقدير ميوله النفسية ورغباته وأذواقه. ولكني أقدر فضله وعقله أعظم التقدير، وأعتقد أنه يتحلى بجميع الخصال الفاضلة المحبوبة».

فأجابت إلينور وهي تبتسم «لا شك أنّ أعز أصدقائه لا يسوؤهم مثل هذا الثناء، ولست أدري كيف تعبرين عن رأيك بأحسن من هذا القول الذي يَنُمُّ عن الإخلاص والحب».

وفرحت مريان حتى رأت أختها قد سُرّت بقولها بمثل هذه السهولة.

واستطردت إلينور قائلة «أمّا فضله وعقله فلا يستطيع أن ينكرهما فيما أعتقد أحد ممّن اختلط به كثيراً بحيث يسترسل معه في الحديث غير متحفّظ. وإنّ ذكاءه وسموّ مبادئه لا يحجبهما إلّا الخجل الذي يحمله على الصمت في أغلب الأحيان، وأنت تعرفين عنه ما يكفي لأن تقدّريه حق قدره. أما عن ميوله النفسية كما تسمّينها فأنتِ تجهلينها أكثر مني لظروف خاصة، ذلك بأني اجتمعت معه كثيراً في بعض الأحيان وأنت منهكمة في الحديث مع أمي بشأن أحبّ الأزواج إليك: لقد عرفت عنه الكثير، ودرست عواطفه، واستمعت إلى آرائه في موضوع الأدب والذوق وفي وسعي أن أقول بوجه عام: إنه رجل واسع الاطّلاع، مُحبّ للقراءة، قوي الخيال، دقيق الملاحظة، لطيف الذوق وكلما ازداد الإنسان معرفة به تجلّت

له مواهبه كما تجلت أخلاقه وشخصيته. وحديثه لا يلذّ للمرء لأول وهلة، ووجهه لا يبدو وسيماً إلى أن يتفرس المرء في نظرات عينيه التي تنمّ عن طيبة نفسه، فيتبيّن الناظر حلاوة ملامحه. إنني أعرفه الآن جيداً، وأعتقد أنه وسيم الطلعة حقاً، أو على الأقل يكاد يكون كذلك. فما قولك يا مريان؟».

«أعتقد أنه سيبدو وسيم الطلعة عمّا قريب، إن لم يبدُ لي الآن كذلك. وعندما تطلبين أن أحبه بوصفه أخاً، فإني لن أرى عيباً في وجهه، كما لا أرى الآن عيباً في قلبه».

ففزعت إلينور لهذا القول، وأسفت على الحمية التي حملتها من حيث لا تشعر على البوح بسرها في حديثها عنه وكانت تشعر أنها تقدّر إدوارد تقديراً عظيماً وتعتقد أنه يبادلها حباً بحب، ولكن الأمر كان يتطلب مزيدَ تأكيد لهذا الحب حتى تجعل اعتقاد مريان بشأن حبها لإدوارد مطابقاً لاعتقادها، وكانت تعرف أنّ الظن في عرف مريان وأمها سرعان ما ينقلب إلى يقين، وأنّ التمني عندهما معناه الأمل، والأمل معناه الرجاء. ولذلك حاولت أن تشرح لأختها حقيقة أمرها.

قالت: «إنني لا أحاول أن أنكر أنني أحسن الظن به كثيراً - إنني أقدره كثيراً، إنني أميل إليه».

«تقدرينه! تميلين إليه! ما أقسى قلبك يا إلينور! بل إنه أقسى من القسوة! يا للخزي والعار إذا كان الأمر بخلاف ذلك! لئن أعدتِ عليّ هذه الكلمات فسأغادر الحجرة في الحال».

فما تمالكت إلينور أن ضحكت، وقالت «معذرة، وثقي أنني لم أرد الإساءة إليك حين عبرت عن عواطفي بهذا الأسلوب الهادئ، اعتقدي أن عواطفي أقوى ممّا صرّحت الآن به. اعتقدي -

بالاختصار - أنها بالقدر الذي يتكافأ مع مزاياه ومع ظني فيه - أي أملي في حبه لي، وذلك بدون طيش ولا حمق، ولكن لا تعتقدي أكثر من ذلك فإنني غير متأكدة بأي حال من الأحوال من حبّه لي، إذ تأتي عليّ لحظات يساورني فيها الشك في مدى هذا الحب، وإلى أن أعرف حقيقة شعوره، لا تدهشي إذا أنا رغبت في تجنّب كل ما يشجع حبي له، كالمبالغة فيه، أو تسميته بأكثر من حقيقته. وأنا لا أشعر - بل لا أكاد أشعر - في سويداء قلبي بأي شك في حبه لي، ولكن هناك أموراً جديرة بالنظر خلاف حبه لي. من ذلك أنه لا يملك حرية التصرّف في أمواله، وأننا لا نعرف حقيقة أخلاق أمه. ولكن يؤخذ ممّا تذكره فاني أحياناً عن سلوكها وآرائها أنها أبعد من أن تكون امرأة محبوبة، ولا أعدو الصواب إذا قلت إن إدوارد نفسه يشعر أنه سيلاقيَ كثيراً من العقبات إذا حاول أن يتزوج امرأة ليست ذا مال أو حسب».

ودُهشت مريان حين وجدت أن خيالها هي وأمها قد جاوز الحقيقة.

فقالت: «وهل صحيح أنك غير مخطوبة له! لكن من المؤكد أن هذه الخطبة ستتم عمّا قريب. ولهذا التأخير فائدتان: أنني لن أحرم منك عاجلاً، وأن الفرصة ستتاح لإدوارد كي يرقي ذوقه الطبيعي، فيقدر هوايتك المحبوبة التي ستكون بلا ريب عنصراً لازماً لسعادتك المقبلة. آه لو أنّ عبقريتك حفّزته إلى تعلم الرسم لكان ذلك أمراً رائعاً».

أبدت إلينور لأختها رأيها الحقيقي فأفهمتها أنّ حبها لإدوارد ليس سعيداً كما تعتقد مريان، وقالت: إنه تخيّم عليه أحياناً سحابة من الكآبة إن لم تدلّ على عدم الاكتراث فهي لا تبشِّر بالخير الكثير.

وإذا كان يساوره شكّ في حبها له، فلا داعي لأن يبعث هذا الشك في نفسه سوى الشعور بالقلق لا تلك الكآبة التي تخيّم عليه في أغلب الأحيان. ولعلّ أقرب الأسباب إلى العقل أنها ترجع إلى وضعه الخاص الذي حرمه حرية التصرُّف في أمواله، فمنعه من الاسترسال في الحب وكانت إلينور تعلم أنّ أمه تضيق عليه في المعيشة، فلا توفر له وسائل الراحة في بيته الحالي، ولا تَعِدُه بتأسيس بيت له ما لم يوافقها على آرائها التي ترمي إلى إعلاء قدره. وكان من المتعذّر على إلينور بعد وقوفها على تلك المعلومات أن تشعر بالطمأنينة في هذا الأمر، ولم تعلّق كثيراً من الأمل على نتيجة حبه لها، وهي النتيجة التي كانت أمها وأختها تعدانها أمراً محققاً، بل لقد كانت تزداد ارتياباً في حبّه لها كلّما طال اجتماعها به، وتعتقد أحياناً لبضع لحظات أليمة أنّ هذا الحب لا يعدو أن يكون ضرباً من الصداقة.

ولكن مهما تكن حدود هذا الحب في واقع الأمر، فقد كانت أخته - إذا آنت منه ذلك - يساورها القلق وتخرج عن حدّ الأدب (وكان هذا هو الغالب عليها) في الوقت نفسه. وقد انتهزت أول فرصة لإهانة حماتها في هذا الأمر، فتحدّثت إليها بصراحة عن آمال أخيها الكبيرة، واعتزام السيدة فيرارز أن تزوّج ولديها من بيوتات المَجد، كما تحدّثت إليها عن الخطر الذي يحيق بأي فتاة تحاول أن «تستدرجه» إلى الزواج بها، فلم تستطع السيدة داشوود أن تتغابى عن الأمر أو تحاول السكوت عليه، فردّت عليها رداً ملؤه الاحتقار، ثم غادرت الغرفة في الحال، مصمّمة ألّا تعرِّض ابنتها لمثل هذه المغامز أسبوعاً آخر، مهما تجشّمت من المتاعب والنفقات التي تترتب على هذا الرحيل المفاجئ.

وبينما كانت تعاني هذه الحالة النفسية تلقت خطاباً بالبريد يتضمن اقتراحاً جاء في الوقت المناسب، ويعرض عليها بيتاً صغيراً بشروط غاية في السهولة، يملكه أحد أقاربها من الأعيان وأصحاب الأملاك في ديفونشاير. وكان الخطاب مُرسَلاً من هذا الرجل نفسه ومكتوباً بروح الودّ الخالص. قال فيه: إنه علم أنها في حاجة إلى منزل وإذا كان البيت الذي يعرضه عليها ليس سوى منزلٍ ريفي، فهو على استعداد لإجراء كافة الإصلاحات التي تدعو إليها الضرورة متى راقَ لها موقعه، وألحَّ عليها بعد أن أتى على وصف المنزل والحديقة أن تزوره هي وبناتها في منزل بارتون بارك الذي يُقيم فيه، حتى يتسنى لها أن تقرِّر بنفسها التعديلات التي تراها كفيلة بتوفير أسباب الراحة في منزل بارتون كوتيج، وكان المنزلان يقعان في أبرشية واحدة. ووضح من كلامه أنه شديد الاهتمام بتوفير المسكن اللائق بهن. وكان الخطاب كله مكتوباً بأسلوب ودي أدخَل السرور على ابنة عمه، وبخاصة في وقت ضاقت فيه ذرعاً بمسلك أقاربها الأدنين الذي اتَّسم بالغلظة والفظاظة. ولم يكن ثمة داعٍ لإضاعة الوقت في التفكير أو البحث، فكوّنت رأيها وهي تقرأ الخطاب وأعجبها موقع بارتون في مقاطعة ديفونشاير التي تبعُد كثيراً عن سسكس، وكان مثل هذا الموقع يثير عندها - منذ ساعات قلائل - اعتراضات تتلاشى بجانبها سائر مزاياه، فلم تعُد مغادرة نورلاند نقمة في نظرها، بل أصبحت غاية مرادها، ونعمة بجانب الشقاء الذي تلقاه من بقائها ضيفة على زوجة ربيبها: وأصبح الرحيل عن ذلك البيت المحبوب أقلّ إيلاماً من الإقامة فيه أو زيارته طالما ظلّت هذه المرأة هي ربّته. لذلك كتبت من فورها إلى سير جون ميدلتون تُعرب عن شكرها لبرّه وعطفه وقبولها لاقتراحه، ثم

سارعت إلى إطلاع بناتها على الخطّاب، حتى تستوثق من موافقتهن قبل أن ترسل الجواب.

وكان من رأي إلينور دائماً أنه يحسن بهن أن يُقِمن بعيداً عن نورلاند بدلاً من الإقامة وسط معارفهن الحاليين. ولهذا لم تُعارض فيما اعتزمته أمها من الانتقال إلى ديفونشاير، يُضاف إلى ذلك أن المنزل كما وصفه سير جون يمتاز بالبساطة واعتدال الإيجار بحيث لا مجال للاعتراض على أيّ الأمرين، فلم تثبط همة أمها عن إرسال الجواب بالموافقة، على الرغم من أن هذا الأمر لم يكن يصادف هوى في نفسها؛ وأن البُعد عن جوار نورلاند لا يتفق مع رغباتها.

مكتبة 707
سُر مَن قرأ

الفصل الخامس

وما إن أرسلت السيدة داشوود جوابها، حتى راحت - والسرور يغمر قلبها - تعلن لربيبها وزوجته أنها وفِّقت بمنزل، وأنها لن تزعجهما بالإقامة معهما إلّا ريثما يتمّ الاستعداد للسكنى في المنزل الجديد، فدُهشا لسماع هذا النبأ، ولم تنبس السيدة داشوود ببنت شفة، ولكن زوجها أعرب بعبارة مهذّبة عن أمله ألّا تقيم بعيداً عن نورلاند، فأجابت بارتياح كبير أنها ستنتقل إلى ديفونشاير - والتفت إدوارد إليها من فوره عندما سمع بهذا الخبر، وقال مردِّداً بصوت ينمّ عن الدهشة والقلق «ديفونشاير! أحقاً ستنتقلين إلى هناك؟ ما أبعد هذا المكان! وإلى أيّ موقع فيه؟» فشرحت له الموقع وقالت: إنه في حدود أربعة أميال شمال إكستر.

واستطردت تقول: «إنه ليس سوى منزلٍ ريفي، ولكني أرجو أن أرى كثيراً من أصدقائي فيه. ومن الممكن إضافة حجرة أو حجرتين إليه. وإذا لم يجد أصدقائي نصباً في السفر إلى هذا المكان البعيد لزيارتي، فأنا واثقة أنني لن ألقى أية مشقة في إيوائهم».

ثم ختمت كلامها بتوجيه دعوة رقيقة إلى السيد والسيدة جون داشوود لزيارتها في بارتون ولكنها وَجَّهت إلى إدوارد دعوة أرقّ. وإذا كان حديثها الأخير مع زوجة ربيبها جعلها تعتزم ألّا تبقى في

نورلاند أكثر ممّا تقضي به الضرورة، فإنه لم يؤثر فيها أدنى تأثير من ناحية الأمر الذي تهواه كثيراً، إذ كان التفريق بين إدوارد وإلينور أبعد ما يكون عن قصدها. وقد قصدت بتوجيه هذه الدعوة الصريحة إلى إدوارد أن تبيِّن للسيدة جون داشوود أنها لا تُبالي إطلاقاً باعتراضها على هذا الزواج.

وردَّد السيد داشوود على مسامع زوجة أبيه شدّة أسفه لسكناها في منزل بعيد عن نورلاند بحيث لا يستطيع أن يساعدها في نقل الأثاث. والواقع أنه شعر بوخز الضمير لعجزه عن تقديم هذه المساعدة، إذ تمّ نقل الأثاث كله من طريق البحر، وبذلك تعذَّر عليه القيام بالعمل الذي أراد به أن يتحلَّل من تبِعَة وعده لأبيه وكان الأثاث يتكون من البياضات والصحاف والخزَف الصيني والكتب وبيانو مريان الجميل، وتنهدت السيدة جون داشوود حسرة وتأسفاً حينما رأت رُزَمَ الأثاث وهي تخرج من البيت: إذ عزَّ عليها أن تأخذ السيدة داشوود قطع الأثاث الثمينة لا سيما أنّ دخلها سيكون ضئيلاً بالنسبة إلى دخلها هي وزوجها.

استأجرت السيدة داشوود المنزل لمدة سنة، وكان مؤثثاً ومعداً للسكنى، وفي وسعها أن تحتله على الفور. وَلم تنشأ أية عقبة في سبيل الاتفاق بين طرفي العقد. وكلّ ما في الأمر أنها انتظرت حتى تتصرف في أموالها المنقولة في نورلاند، وَتُحدد عدد الخدم الذين تستعين بهم في المستقبل قبل أن ترحل إلى الغرب. وسرعان ما بتَّت في الأمر جرياً على عادتها في إنجاز كل ما يهمها على وجه السرعة وكانت قد باعت الجياد التي تركها لها زوجها عقب موته بقليل؛ ثم سنحت لها الآن فرصة لبيع «العربة»؛ فوافقت على بيعها إطاعة لنصيحة ابنتها الكبرى. ولو أنها حكَّمت رغبتها الشخصية لاحتفظت

بهذه «العربة» حرصاً على راحة أولادها؛ ولكن حكمة إلينور تغلّبت في النهاية. وكذلك كان لحكمتها الفضل في تخفيض عدد الخدم إلى ثلاثة: وَصيفتين ورجل، اختبروا من بين الخدم الذين كانوا يعملون معهن في نورلاند.

وتوجّه في الحال الخادم وإحدى الوصيفتين لإعداد المنزل لاستقبال ربة الأسرة إذ لم يسبق للسيدة داشوود التعرُّف إلى ليدي ميدلتون، فآثرت أن تتوجّه مباشرة إلى منزلها الريفي على أن تنزل ضيفة عليها في بارتون بارك، وكانت تثق في وصف سير جون للبيت، فلم ترغب في تفقده قبل النزول فيه. وكان ممّا قوّى عزمها على الرحيل ما أبدته زوجة ربيبها من ارتياح ظاهر لقُرب رحيلها، حاولت إخفاءه تحت ثوب الرياء بأن دعتها بلهجة فاترة لتأجيل السفر. والآن حان الوقت المناسب الذي يستطيع ربيبها أن يفي فيه بالوعد الذي قطعه لأبيه. وإذا كان قد أهمَل الوفاء بهذا الوعد عند قدومه إلى الضيعة، فإنّ رحيلهن يمكن أن يُعدّ أنسب وقت للوفاء به. ولكن السيدة داشوود سرعان ما قطعت كلّ أمل من هذا القبيل، واقتنعت من فحوى حديثه أنّ مساعدته لهن لا تزيد على الإنفاق عليهن ستة أشهر في نورلاند. ثم إنه ظلّ يُكثر التحدث عن زيادة نفقاته المنزلية والمطالب المستمرة التي تستنزف ماله دون أن تقع في الحسبان، والتي يتعرض لها كلّ رجل من الأعيان حتى لقد خُيِّل إليها أنه أصبح أحوج إلى المال من أن يتبرع به لغيره.

ولم تمضِ بضعة أسابيع على اليوم الذي ورد فيه خطاب سير جون ميدلتون حتى أصبح كل شيء معداً في المنزل الجديد، بحيث تستطيع السيدة داشوود وبناتها أن تبدأن رحلتهن.

وما أغزر العبرات التي سكبنها ساعة الوداع للمنزل المحبوب.

قالت مريان تودع البيت، وهي تتجول وحدها أمامه في مساء آخر يوم قضته فيه «عزيزي، عزيزي نورلاند! متى تنقطع حسرتي عليك! متى أطيق الإقامة في غيرك! أواه أيها البيت السعيد! آه لو عرفت ما أكابده من الأشجان، وأنا أنظر إليك من هذا المكان، وربما لا أراك منه بعد اليوم! وأنتِ أيتها الأشجار المعهودة! لكنك ستظلين يانعة مورقة، لن تبلى ورقة من أوراقك حزناً على فراقنا، ولن يسكن غصن من أغصانك لأننا لن نستطيع بعد اليوم أن نمتع نواظرنا برؤيتك كلا! ستظلين يانعة مورقة غير شاعرة بما تبعثينه في نفوسنا من متعة أو لوعة، ولا شاعرة بما يعتري مَن تفيَّأ ظلالك من تغيُّر الأحوال! ولكن مَن ذا الذي سيبقى حتى يمتع ناظريه بمُشاهدتك!».

الفصل السادس

أتـمَمْنَ الـجزء الأول من رحلتهن، وهن في حال من الحزن والكآبة من شأنها أن تبعث في النفس الضجر والكدر. ولكنهن عندما اقتربن من نهاية الرحلة ذهبت عنهن الكآبة لارتياحهن إلى منظر الإقليم الذي سيُقمن فيه، وتألّقت وجوههن بشراً عندما دخلن في وادي بارتون وألقين نظرة عليه. وكان هذا الوادي خصيباً جميل المنظر، كثير الأشجار، غزير المراعي. وبعد أن سِرْن في طريق متعرِّج أكثر من ميل وصلن إلى منزلهن فوجدن أمامه فناء صغيراً يكسوه العشب الأخضر، هو كلّ الأرض الملحقة به، وله باب صغير أنيق دخلن منه.

وكان بارتون كوتيج على صغره مريحاً ومحكماً بوصفه منزلاً. أمّا بوصفه منزلاً ريفياً فلا يخلو من العيوب فبناؤه منتظم، وسقفه مغطى بالقرميد، ومصاريع نوافذه غير مطلية باللون الأخضر، وجدرانه غير مغطاة بالياسمين البري. وكان في البيت طرقة ضيقة تمتد خلال المنزل وتؤدي مباشرة إلى الحديقة إلى الخلف. وعلى كلّ من جانبي المدخل حجرة للجلوس تبلغ مساحتها حوالي ست عشرة قدماً مربعة يليهما المرافق والسلم ثم أربع حجرات للنوم، وعُلِّيّتان. ولم يمضِ على بناء المنزل كثير من السنين، ولم يكن

يحتاج إلى إصلاح أو ترميم. ولكن إذا قيس بنورلاند كان متواضعاً وصغيراً حقاً! ولكن العربات التي أهاجتها الذكرى سرعان ما جفت، وسُرِّيَ عنهن، عندما رأين فرحة الخدم بقدومهن، وأنشأت كلّ واحدة تظهر السرور حرصاً على شعور الأخرى. وكان وصولهن في شهر سبتمبر إذ كان الطقس لطيفاً. وكانت مشاهدتهن للمنزل أول مرة في هذا الطقس الجميل ذات أثر حسن في نفوسهن، فأبدين موافقتهن النهائية على الإقامة فيه.

وكان موقع المنزل جميلاً، تكتنفه تلال عالية تقع خلفه مباشرة، وعلى مسافة ليست كبيرة من الجوانب الأخرى، وبعض هذه التلال ماحل أجرد، وبعضها تكسوه الزروع والأشجار. وكانت قرية بارتون خاصة تقع على أحد هذه التلال، ويبدو منظرها رائعاً من نوافذ المنزل الريفي. أمّا المناظر التي تتجلى أمام البيت فكانت مترامية الأطراف تطلّ على الوادي كله وتمتدّ إلى الإقليم التالي. وكانت التلال التي تحيط بالمنزل الريفي تحدّ نهاية الوادي في هذه الجهة، ثم يمتد الوادي مرة أخرى بين تلين شديدي الانحدار، ولكن باسم آخر وفي طريق آخر.

وأبدت السيدة داشوود ارتياحها بوجه عام لحجم المنزل وأثاثه، وقد استلزم أسلوب حياتها الماضية إضافة الكثير إلى الأثاث، ولكنها كانت تجد متعة في الزيادة والتجديد، وتملك من المال ما يكفي لإضافة كل ما يضفي الأناقة إلى جميع الحجرات. وقالت: لا ريب أنّ البيت أصغر من أن يتّسع لأسرتنا ولكنا سنرضى به في الوقت الراهن لأن وقت الإصلاح قد فات في هذا العام. ولكن ربما قمنا بالبناء في الربيع إذا تيسّر لنا المال وأرجو أن يتيسر. فهاتان الردهتان أصغر من أن تتسعا لأصدقائنا الذين أرجو أن أراهم

مجتمعين هنا. وأنا أفكِّر في فتح الطرقة على إحدى الردهتين، وربما على جزء من الردهة الأخرى على أن أجعل جزأها الآخر مدخلاً؛ وهذا علاوة على حجرة استقبال جديدة يمكن إضافتها بسهولة، وحجرة نوم، وعليّة، وذلك من شأنه أن يجعل منه منزلاً ريفياً صغيراً وأنيقاً. وكنت أتمنى لو كان الدرَج أرحب من ذلك ولكن «ما كل ما يتمنى المرء يدركه» وإن كنت أعتقد أن توسيعه ليس بالأمر العسير. وسأرى كم يتيسر لنا من المال في الربيع، وأضع تصميم الإصلاحات التي أريدها على هذا الأساس.

على أنهن كن من الحكمة بحيث رضين بالإقامة في المنزل على ما هو عليه، إلى أن يتسنى إجراء كل هذه التغييرات ممّا تدّخره امرأة لم تتعود الادّخار قط من دخل يبلغ خمسمائة جنيه في العام، وانهمكت كلّ منهن في ترتيب شؤونها الخاصة، وبذلت جهدها في إعداد البيت. فرتبن الكتب وغير ذلك من أمتعتهن ووضعت مريان البيانو في المكان المناسب، وعلقت إلينور رسومها وصورها على جدران حجرة الجلوس.

وإنهن لمنهمكات في هذه الشؤون إذ قدِم صاحب البيت في اليوم التالي عقب الفطور بقليل ليرحب بمقدمهن إلى بارتون، وليقدِّم لهن كل ما يطلبنه من بيته وحديقته ممّا لا يجدنه في منزلهن. وكان سير جون ميدلتون رجلاً وسيم الطلعة يناهز الأربعين، سبق له أن قدِم ستاندهل زائراً، ولكن طول العهد على هذه الزيارة جعل من المتعذّر على بنات عمه أن يتذكّرنه. وكان وجهه يفيض بالبشر، ومسلكه يتّسم بالودّ كأسلوب خطابه. وبدا عليه الارتياح الشديد لقدومهن، وشدة الاهتمام براحتهن. وأعرب لهن عن رغبته في رفع الكلفة بينهن وبين أسرته، وألحّ عليهن، بلهجة تشفّ عن الود، أن

يتناولن طعام الغداء في بارتون بارك كل يوم حتى يستقر بهن الحال في المنزل الجديد، وبلغ هذا الإلحاح حداً يجاوز حدود المجاملة، ولكنهن لم يستَأْنَ منه. ولم يكن عطفه وبره مجرد كلام، إذ لم تمضِ ساعة على انصرافه حتى أرسل سلة كبيرة حافلة بثمرات الحديقة والفاكهة أتبعَها قبل أن تنقضي سحابة النهار بهدية من لحوم الصيد، وأصرّ على القيام بنقل جميع خطاباتهن من البريد وإليه كما أصرّ على ألّا يحرمنه شرف إرسال جريدته اليومية إليهن كل يوم.

وبعثت ليدي ميدلتون معه رسالة غاية في الرقة، تعرب فيها عن اعتزامها زيارة السيدة داشوود متى تأكّدت أن هذه الزيارة لن تزعجهن، فأرسلت إليها دعوة رقيقة كذلك، فقدمت السيدة في الغد وتعرفت إليهن.

وكنّ بالطبع يحرصن على رؤية سيدة يتوقف عليها الكثير من راحتهن في بارتون، وكانت أناقتها مدعاة لارتياحهن. ولم تزد سن ليدي ميدلتون على ستة أو سبعة وعشرين عاماً. وكان وجهها صبوحاً، وقوامها فارعاً وحديثها ظريفاً. وكانت تزدان بكلّ ما ينقص زوجها من الظرف والكياسة، ولكنها كانت تفتقر إلى شيء من صراحة زوجها وحرارة عاطفته. وقد طالت زيارتها إلى حدّ قلّل من الإعجاب الذي شعرن به نحوها في بداية الأمر، إذ ظهر لهن أنها مع كرم محتدها تتّصف بالتحفّظ وبرود الطبع ولا يزيد حديثها عن الأسئلة أو الملاحظات التافهة.

على أنّ الاجتماع لم يخلُ من الحديث، إذ كان سير جون محدِّثاً أنيس المحضر ورأت ليدي ميدلتون من الحكمة أن تحتاط للأمر، فاصطحبت معها أصغر أطفالها، وهو صبي ظريف يبلغ من العمر حوالي ست سنوات، فأتاحت بذلك للسيدات موضوعاً واحداً

يلجأن إليه دائماً حينما تعوزهن مادة الحديث، كأن يسألن عن اسم الصبي وسنه، ويبدين إعجابهن بجماله ويوجِّهن إليه بعض الأسئلة التي تتولى أمه الإجابة عنها نيابة عنه، بينما هو يتعلق بها منكساً رأسه فتزداد دهشة أمه لما يبديه من الخجل أمام الناس، بقدر ما يحدثه من الضجة في المنزل. والواقع أنه ينبغي أن يصطحب الإنسان معه طفلاً في كل زيارة رسمية ليكون مادة للحديث، وفي قضيتنا هذه قضى جميع الحاضرين عشر دقائق ليقرروا: هل الصبي أشبه بأمه أو بأبيه، وما وجه الشبه بينه وبينهما، إذ كان كلٌّ يرى ما لا يراه الآخر ويدهش من رأي غيره.

وتقرّرت إتاحة فرصة أخرى أمام آل داشوود للمناقشة في أمر بقية الأطفال، لأن سير جون لم يشأ أن يغادر المنزل قبل أن يأخذ وعداً منهن بتناول الغداء في منزله غداً.

الفصل السابع

كان قصر بارتون بارك يبعد عن المنزل الريفي زهاء نصف ميل، وقد مرّ به السيدات في طريقهن على طول الوادي، ولكن كان يقوم دونه تلّ يحُول دون رؤيته من المنزل الريفي. وكان القصر يمتاز بالسعة والجمال ويتصف أهله - آل ميدلتون - بخصلتين: كرم الضيافة، والظرف، أولاهما من خصائص سير جون، والأخرى من خصائص زوجته. وقلّما خلا قصرهما من بعض الأصدقاء الذين ينزلون عندهما. وكان لهما أصدقاء من كلّ نوع أكثر من أصدقاء أية أسرة في جوارهما. وكان هذا من مستلزمات سعادتهما؛ لأنهما على اختلافهما في الطباع والسلوك الظاهري كانا يتفقان بشكل واضح في افتقارهما الكلي إلى المواهب العقلية والفنية، ممّا جعل نشاطهما الاجتماعي محصوراً في دائرة ضيقة، فكان سير جون رياضياً، وكانت ليدي ميدلتون أماً: هو يهوى الصيد والرماية وهي تهوى تدليل الأطفال، وهذا هو كلّ عملهما. وكانت ليدى ميدلتون تمتاز بالقدرة على إفساد أخلاق أطفالها على مدار السنة، في حين أن أعمال سير جون الخاصة لا تستغرق إلّا نصف وقته فقط. بيد أن مواعيدهما المستمرة داخل المنزل وخارجه كانت تسدّ كافة وجوه النقص لديهما من حيث التعليم والمواهب العقلية، كما كانت تُدخل

السرور إلى نفس سير جون، وتتيح الفرصة لزوجته لتُظهر ما تتحلى به من أخلاق طيبة.

وكانت ليدي ميدلتون تتباهى بأناقة مائدتها، وحسن نظام بيتها، وتجد في ذلك أكبر متعة لها في المآدب التي تقيمها. ولكن سير جون كان يجد متعته الكبرى في الاجتماع بالناس، فيلذّ له أن يجمع حوله من الشباب أكثر ممّا يتسع له منزله، ويزداد سروراً كلما علا ضجيجهم. والواقع أن وجوده كان نعمة على شباب الحي لأنه كان يُقيم لهم في الصيف حفلات خلوية يُطعمهم فيها اللحم المقَدَّد ولحم الدجاج، ويقيم لهم في الشتاء حفلات رقص عديدة في منزله تشبع رغبة كلّ سيدة شابة، لا تكابد من الصبابة ما تكابده الفتاة في سن الخامسة عشرة.

وكان يسرّه دائماً قدوم كل أسرة جديدة إلى الريف، وزاد من سروره قدوم السيدات اللائي جئن إلى منزله الريفي في بارتون، وكانت بنات داشوود تمتَزْن بالجمال والشباب ولا تعرفن التصنع، وهذا يكفي للظفر بحُسن تقديره، لأنّ عدم التصنع هو كل ما تحتاج إليه الفتاة الجميلة حتى تكون جذابة فاتنة في ذاتها وشخصيتها. وكان ما طُبع عليه من صدق الوداد يجعله يشعر بالسعادة لإسكان فتيات تنكَّر لهن الحظ إذا قيس حاضرهن بماضيهن. ولذلك كان يشعر براحة الضمير حين يغدق بره وعطفه على ذوي قرابته، ويجد في إسكان أسرة كلها من الإناث في منزله الريفي كلّ ما يشعر به الرجل الريفي من ارتياح وغبطة، لأن الرجل الرياضي وإن لم يقدِّر من بني جنسه إلّا مَن كان رياضياً مثله لا يرغب غالباً في تشجيعهم على الرياضة عن طريق إسكانهم في منزل يقع في حدود ضيعته.

استقبل سير جون السيدة داشوود وبناتها عند باب قصره،

فرحَّب بمقدمهنّ إلى بارتون بارك ترحيباً صادقاً لا يشوبه التصنع، وردّد على مسامعهن، وهو يرافقهن إلى حجرة الاستقبال، ما ردده بالأمس، وهو أسفه لأنه لم يستطِع إحضار أي شاب أنيق لمقابلتهن وقال: إن الرجل الوحيد الذي سيشاهدنه خلافه، هو صديق خاص ينزل في البارك. ولكنه ليس صغير السن، ولا كثير المرح. وأعرب عن أمله أن يغفرن له قلة المدعوين إلى المأدبة، وأكّد لهن أن ذلك لن يتكرر أبداً، وأنه طاف على عدة أسر في صباح ذلك اليوم بقصد زيادة العدد ولكن الليالي في ذلك الوقت كانت مقمرة، وكان كلّ إنسان مرتبطاً بميعاد. ولحسن الحظ وصلت والدة ليدي ميدلتون إلى بارتون في الساعة الأخيرة، وكانت امرأة لطيفة مرحة. ولذلك كان يرجو ألّا يشعرن بالضجر والملل كما كن يتصوّرن، فأعربت الفتيات وأمهن عن ارتياحهن التام لوجود شخصين غريبين على المأدبة ولم يرغبن في أكثر من ذلك.

وكانت السيدة جِنِنْجز - والدة ليدي ميدلتون - امرأة عجوزاً سمينة تفيض مرحاً وبشاشة، وتكثر من الحديث وتبدو عليها أمارات السعادة وتميل إلى شيء من التبذل، وتُكثر من النكات والضحك، فقصَّت عليهن في أثناء الغداء كثيراً من المُلَح والطرف عن العشاق والأزواج، وأعربت عن أملها ألا يكنّ قد تركنَ خلفهن أحبابهن في سسكس، وادعت - إن حقاً وإن باطلاً - أنّ حمرة الخجل تعلو وجوههن، فامتعضت مريان لذلك إشفاقاً على أختها، وصَوَّبت نظرها إلى إلينور لترى كيف تتحمل هذه الغمزات، وكانت مريان تحدق النظر بصورة آلمت إلينور أكثر ممّا آلمها مزاح السيدة جننجز المبتذل.

لم يكن ثمة تشابه في الأخلاق بين كولونيل براندون - صديق

سير جون - وسير جون حتى يصلح صديقاً له، ولا بين ليدي ميدلتون وزوجها حتى تكون زوجة له، ولا بين السيدة جننجز وليدي ميدلتون حتى تكون أماً لها. وكان براندون رجلاً صامتاً رزيناً، ولكن مظهره لم يكن منفراً، وإن رأت مريان ومرغريت أنه شيخ عزب لأنه نيف على الخامسة والثلاثين، وكانت ملامح وجهه، وإن لم يكن وسيماً، تنمّ عن رقة مشاعره، وحديثه حديث الرجل المهذب.

ولم يكن أي واحد من الحاضرين يتصف بشيء يحبِّبه إلى بنات داشوود، ولكن ما اتصفت به ليدي ميدلتون من برود الطبع وثِقل الظلّ كان يبعث على الاشمئزاز الشديد، بحيث إذا قيس بهما وقار كولونيل براندون، بل المرح الصاخب الذي يتصف به سير جون وحماته، كان شيئاً مقبولاً. ولم يتألق وجه ليدي ميدلتون بالسرور إلّا عندما دخل أطفالها الأربعة الصاخبون بعد الغداء، وطفقوا يجذبون رداءها، ويمزقون ثيابها، ويقاطعون كلّ حديث، اللهم إلا ما كان يدور حول أشخاصهم.

وفي المساء طلب الحاضرون إلى مريان أن تعزف لهم على البيانو، بعد أن عرفوا أنها تَحْذِق الموسيقى، ففتحت البيانو، واستعدّ الجميع لتشنيف آذانهم، وأجادت مريان العزف، وطلبوا إليها أن تعزف لهم أهم الأغاني التي أحضرتها ليدي ميدلتون معها عند زواجها، والتي يُحتمل أن تكون بقيت في مكانها على البيانو من ذلك الحين، لأن هذه السيدة هجرت الموسيقى ابتهاجاً بزواجها على الرغم من إجادتها الغناء بشهادة أمها، وولوعها به كما قالت هي.

قابل الحاضرون غناء مريان بالتصفيق والهتاف، ورفع سير جون

عقيرته إعجاباً بها بعد كل أغنية كما كان يرفع صوته في حديثه مع غيره في أثناء كلّ أغنية، وكثيراً ما طلبت إليه ليدي ميدلتون أن يحافظ على النظام، وتساءلت كيف يتسنى لإنسان أن يتلهى عن الغناء لحظة واحدة، وطلبت من مريان أن تُعيد أغنية معيّنة بعد عزفها. وكان كولونيل براندون هو الشخص الوحيد الذي سمع غناءها دون أن يشعر بنشوة الطرب. وكلّ ما فعله هو أنه أولاها شرف الاستماع، فشعرت نحوه بالاحترام دون غيره، لما أبدوه من عجز فاضح عن تذوق الغناء، وكان ما شعر به الكولونيل من لذة الغناء، وإن لم يرتفع إلى حدّ النشوة التي تسمو إلى نشوتها هِيَ، أمراً جديراً بالتقدير إذا قيس بما أبداه غيره من بلادة الإحساس، وأنصفت الكولونيل حين قدرت أن رجلاً في سن الخامسة والثلاثين جدير بأن يفقد حدة الإحساس والشعور المرهف بالمتعة واللذة، وطابت نفسها بالتماس كلّ عذر له تقضي به الإنسانية بسبب تقدّمه في السن.

الفصل الثامن

كانت السيدة جننجز أرملة ذات بائنة عقارية كبيرة، ولم يكن لها سوى بنتين زوّجتهما في حياتها من رجلين جليلين، ولذلك أصبح شغلها الشاغل هو تزويج بقية الناس، فسعت جاهدة لتحقيق هذا الغرض بقدر ما اتسع له الذرع، ولم تدع فرصة تمرّ دون تدبير خطة لتزويج كلّ مَن تعرفه من الشباب. وكانت تكشف الحب بين الرجل والمرأة بسرعة غريبة، وتمتاز بإثارة حمرة الخجل في وجه الكثيرات من الفتيات، وتبعث الغرور في نفوسهن، كأن تلوِّح لهن بأن لهن سلطاناً على قلوب الشبان، ومكّنتها هذه القدرة على اكتشاف الحب من أن تصرّح بلهجة قاطعة عقب وصولها إلى بارتون مباشرة أن كولونيل براندون يهيم حباً بمريان داشوود. والغالب أنها لحظت هذا الحب مساء أول يوم اجتمعوا فيه بسبب إصغائه الشديد لها وهي تغني لهم. ولما رد آل ميدلتون الزيارة لهن وتناولوا الغداء في منزلهن تأكّدت من هذا الحب حين رأته يصغي لها مرة أخرى، فجزمت بأنه يحبها، ورسخ هذا الاعتقاد في نفسها، ورأت أنه سيكون زواجاً رائعاً لأنه ذو مال، وهي ذات جمال. وكانت السيدة جننجز تحرص على تزويج كولونيل براندون من امرأة طيبة منذ أن

عرفته من طريق سير جون، كما كانت تحرص دائماً على إيجاد زوج طيب لكل فتاة جميلة.

وكانت الفائدة المباشرة التي تعود عليها من وراء ذلك لا يُستهان بها على الإطلاق، لأنها كانت تجد في ذلك معيناً لا ينضب من النكات التي تتندّر بها على الطرفين. ففي البارك تندرت على الكولونيل، وفي المنزل الريفي تندرت على مريان. وكانت هذه النكات بالنسبة إلى الأول أمراً عادياً يثير اهتمامه، أما بالنسبة إلى الأخرى فلم تفهم الغرض منها في بداية الأمر، ولما فهمته لم تدرِ أتضحك على سخافتها أم تقدح في سخافتها، لما تتضمنه من تهكُّم قاسٍ على تقدم الكولونيل في السن، وما يعانيه من بؤس وشقاء بسبب عزوبته وكبرِ سنه؟

وحاولت السيدة داشوود أن تبرئ السيدة جننجز من تهمة الرغبة في التهكّم على سنه، لأنها لم تعتقد أن رجلاً يصغرها بخمس سنوات يُعد عجوزاً طاعناً في السن، كما بدا ذلك لخيال ابنتها الفَتِيّ.

«ولكنك يا أماه لا تستطيعين - على الأقل - أن تنكري سخافة التهمة وإن كنت تعتقدين أنها لم تصدر عن سوء نيّة وخبث طوية. لا شكّ أنّ كولونيل براندون أصغر من السيدة جننجز، ولكنه كبير إلى حدّ يُعدّ في سن أبي. وإذا كان قد شعر بالحب يوماً ما فلا ريب أنه فقد هذا الشعور منذ أمد طويل. إن الأمر يدعو إلى الضحك والسخرية! متى يأمن الإنسان مثل هذه النكات إذا كانت سنه وعجزه لا يحميانه منها؟».

فقالت إلينور: «عجزه! أتصفين كولونيل براندون بالعجز؟ في وسعي أن أفترض أنه يبدو لك أكبر بكثير ممّا يبدو لأمي. ولكن ليس في وسعك أن تخدعي نفسك فتقولي: إنه عاجز عن الحركة!».

«ألم تسمعي أنه يشكو وجع المفاصل. أليس ذلك هو أكثر حالات العجز الدال على تدهور الصحة؟».

فضحكت أمها وقالت: «يا بنيتي العزيزة! على هذا الأساس لا بدَّ أنك تشعرين بالفزع دائماً لتدهور صحتي، وتَرَيْن أني عشت إلى سن الأربعين بمعجزة».

«أماه! أنت لا تفهمين قصدي. أنا أعرف جيداً أن كولونيل براندون لم يبلغ من السن حداً يجعل أصدقاءه يخشون فقده حسبما جرت به سنة الحياة، فقد يعيش عشرين سنة أخرى. ولكن رجلاً بلغ الخامسة والثلاثين لا يصلح للزواج».

قالت إلينور «ربما لا يصلح رجل في سن الخامسة والثلاثين للزواج بامرأة في سن السابعة عشرة. ولكن إذا اتفق وجود امرأة في السابعة والعشرين فلن يكون ثمة فيما أعتقد أي اعتراض على زواجها من كولونيل براندون الذي يبلغ الخامسة والثلاثين».

فأطرقت مريان هنيهة ثم قالت «ليس لامرأة في سن السابعة والعشرين أيّ أمل في أن تشعر بالحب، أو تبعثه في قلب رجل مرة أخرى. وإذا كان بيتها غير مريح، أو كانت رقيقة الحال، ففي وسعي أن أقول: إنه يجدر بها أن تروض نفسها على الاضطلاع بمهمة الممرضة حتى توفر لنفسها وسائل العيش والطمأنينة. ولن يكون زواجه بمثل هذه المرأة أمراً غير مناسب، لأنه سيكون زواج منفعة ومصلحة، يرضي كلا الطرفين. وفي نظري أنّ مثل هذا الزواج لا يعدّ زواجاً على الإطلاق، بل ليس بشيء، إنه في نظري ليس إلا ضرباً من المبادلات التجارية التي يروم فيها كلّ من الطرفين أن ينتفع على حساب الآخر».

فقالت إلينور «أنا أعلم أنه ليس من المستحيل أن أقنعك بأنّ في

وسع امرأة في سن السابعة والعشرين أن تشعر نحو رجل في الخامسة والثلاثين بعاطفة قريبة جداً من الحب تجعل منه رفيقاً محبوباً، ولكني أرى لزاماً عليّ أن أعترض عليك حتى تحكمين على كولونيل براندون وزوجته بالاعتكاف الدائم في حجرة المرض لا لسبب إلا أنه اتفق أن شكا أمس (وكان الطقس قارس البرد مشبعاً بالرطوبة) ألماً بسيطاً في كتفه».

قالت مريان: «ولكنه تكلم عن الصُّدْرة المصنوعة من الفَانِلة. وعندي أنّ الصدرة المصنوعة من الفانلة تقترن دائماً بالألم والتشنج وداء المفاصل، وكافة ضروب العلل التي تعتري الشيوخ والضعفاء».

«لو أنه أصيب بحمى شديدة فقط لما نزل من عينيك نصف هذا القدر. أصدقيني القول يا مريان: ألا تلذّ لك الوجناتُ المتوردة، والعيون الغائرة والنبض السريع ممّا يصاحب الحمى؟»

وسرعان ما قالت مريان عندما غادرت إلينور الحجرة «أُمَّاه! إن حديث المرض يُدخل في روعي من الفزع ما لا أستطيع إخفاءه عنك. وأنا واثقة أن إدوارد فيرارز متوعّك المزاج. لقد مضى علينا هنا قرابة أسبوعين دون أن يحضر وما من شيء يمكن أن يحبسه عن الحضور إلا وعكة ألمّت به. وإلا فماذا يحبسه في نورلاند؟».

فقالت السيدة داشوود «وهل كنت تتوقعين حضوره في مثل هذا الموعد القريب؟ إنني لم أتوقع ذلك، بل على العكس. إن كان ساورني شيء من القلق فلأنه لم يبدِ ارتياحاً أو استعداداً لقبول دعوتي حينما دعوته لزيارة بارتون. وهل تتوقع إلينور فعلاً حضوره؟».

«لم أذكر لها هذا الأمر قط، لكن أعتقد أنها تتوقع حضوره».

«يغلب على ظني أنك مخطئة لأني حين تحدّثت معها بالأمس

في تركيب شبكة من القضبان لغرفة النوم الاحتياطية، أجابت أنه لا ضرورة عاجلة لها لأنه لا يحتمل أن نحتاج إلى هذه الحجرة قريباً».

«ما أغرب ذلك! وما معناه يا ترى! لقد كان مسلك كلّ منهما تجاه الآخر ضرباً من الألغاز! كان وداعهما الأخير فاتراً هادئاً! وكان حديثهما في آخر اجتماع لهما فاتراً! ولم يميّز إدوارد فيرارز في وداعه بيني وبين إلينور إذ أعرب في وداعه عن التمنيات الطيبة التي يتمناها الأخ الودود لأختيه. وقد تعمّدت الابتعاد عنهما مرتين في صباح آخر يوم، فكان في كلّ مرة يخرج من الحجرة على أثري بطريقة لم أستطع أن أفهم لها سبباً. وعندما ودعت إلينور نورلاند لم تبكِ كما بكيت، ولا تزال حتى الآن تحتفظ بضبط النفس كما كانت يومئذٍ. متى ترينَها تحاول أن تعتزل الناس، أو تشعر بالقلق أو الاستياء من مخالطتهم؟».

الفصل التاسع

استقر الآن آل داشوود في بارتون، وشعرن بقدر لا بأس به من الراحة في الإقامة به، وألِفْن المنزل والحديقة بكلّ ما يحيط بهما من المناظر، وعُدن إلى الأعمال العادية التي كانت تضفي على قصر نورلاند نصف ما فيه من سحر وجاذبية، فأقبلن على ممارستها بشغف ولذة أكبر بكثير ممّا وجدنه في نورلاند منذ وفاة أبيهن. ولم يخفِ سير جون الذي زارهن كل يوم خلال الأسبوعين الأولين دهشته لما رآه من انهماكهن الدائب في العمل، إذا لم يتعوّد أن يرى مثل هذا العمل الكثير في منزله.

ولم يتردَّد عليهن زوار كثيرون إذا استثنينا أهل بارتون بارك، لأنّ حب الاستقلال الذي فطرت عليه السيدة داشوود تغلب على رغبتها في اختلاط بناتها بالمجتمع، على الرغم من إلحاح سير جون عليهن بالاختلاط مع جيرانهن وتأكيده الدائم لهن أنّ عربته تحت تصرّفهن في أي وقت، وصمّمت ألا تزور أية أسرة لا يمكن زيارتها مشياً على الأقدام، لكن الأسر التي ينطبق عليها هذا الشرط كانت قليلة، ولم يكن من الميسور زيارتها جميعاً، وكانت البنات قد اكتشفن في إحدى جولاتهن الأولى قصراً قديماً فخماً يبعد عن منزلهن زهاء ميل ونصف، ويقع على طول وادي ألِنْهام الضيق

المتعرِّج الذي يتفرع من وادي بارتون كما وصفنا آنفاً. وكان هذا القصر يشبه نورلاند بعض الشبه، فاشتقن لرؤيته، وتاقت نفوسهن إلى التعرُّف بأهله، ولكنهن عندما استقصين خبره علمن أن صاحبته سيدة عجوز حميدة الخصال، ولكن لسوء الحظ وهن منها العظم فلا تستطيع الاختلاط بالناس ولا تتحرّك من البيت.

وكان الإقليم الذي يحيط بهن عامراً بالمتنزهات الجميلة، ومنظر التلال والمروج العالية يدعوهن من سائر نوافذ المنزل إلى الخروج لتنسُّم الهواء العليل على قمم التلال، فكنّ يؤثرن التوجّه إليها إذا حجبت أقذار الوديان السفلى جمال التلال الرائع. وفي صباح يوم مشهود توجهت مريان ومرغريت إلى أحد هذه التلال يحدوهما سطوع بعض أشعة الشمس في سماء يوم مطير، بعد أن ضاقتا ذرعاً بالاعتكاف في المنزل بسبب هطول المطر طول اليومين الماضيين. ولم يكن الطقس مغرياً لدرجة تحمل الأُخْرَيَيْنِ بترك القلم والكتاب، على الرغم من تصريح مريان أنّ الطقس سيظل جميلاً طول اليوم، وأن السُّحب الداكنة ستنقشع عن التلال وهكذا خرجت الفتاتان معاً.

فصعدتا التلال وشعرتا بالبهجة والسرور كلما نظرتا إلى السماء، ورَثَتا - حينما لفحت وجهيهما الرياحُ العاصفة من جهة الجنوب الغربي - للمخاوف التي منعت أمهن وإلينور من المشاركة في هذه المتعة.

وقالت مريان: «هل من متعة أعظم من ذلك يا مرغريت؟ سنتنزه هنا ساعتين على الأقل». فوافقتها مرغريت على ذلك، وواصلتا المسير في وجه الريح، وهما تقاومانها في ضحك وشغف زهاء عشرين دقيقة، وإذا بالسحب تتجمع فوق رأسيهما، والمطر الغزير ينهمر على وجهيهما، فاضطرتا إلى العودة على مضض وهما تشعران

بالأسى والدهشة، لأنه لم يكن ثمة مأوى أقرب إليهما من منزلهما، غير أنه لم يكن أمامهما سوى وسيلة واحدة للخلاص اقتضتها ضرورة الموقف ألا وهي الهرولة بأقصى سرعة على التلّ الشديد الانحدار المؤدي إلى باب الحديقة مباشرة. فشرعتا تهبطان، وسبقت مريان أختها، ولكن زلَّت قدمها فسقطت على الأرض فجأة. ولم تستطع مرغريت أن تتوقف عن الهبوط لمساعدة أختها، فأسرعت مضطرة في النزول ووصلت إلى السفح بسلام.

وكان رجل يحمل بندقية وحوله كلبان يلعبان، يهمّ بطلوع التل على مسافة قصيرة من مريان حينما وقع هذا الحادث، فألقى بندقيته، وسارع إلى نجدتها، ونهضت من عثرتها، ولكنها لم تستطع الوقوف، لأنّ قدمها التوَت عند سقوطها، فعرض عليها أن يساعدها، ولكن الحياء منعها من قبول ما يقتضيه الموقف، فما كان منه إلّا أن حملها بين ذراعيه بدون تردّد ولا توانٍ، ونزل بها من التل، ثم اخترق الحديقة وكانت مرغريت قد تركت بابها مفتوحاً، فأدخلها إلى المنزل مباشرة حيث وصلت مرغريت لتوها، ولم يتركها حتى أجلسها على كرسي في ردهة المنزل.

فوقفت إلينور وأمها في دهشة عند دخولهما، وصَوَّبتا إليه النظر في عَجَبٍ ظاهر، وإعجابٍ كامنٍ مبعثهما جمال منظره، فاعتذر لهما عن تطفّله لدخول المنزل، وقصّ عليهما أمره بأسلوب يتسم بالصراحة والظرف والكياسة، وكانت عذوبةُ صوته، ورقّةُ تعبيره تزيد من مفاتن وجهه الذي يمتاز بالجمال الأخّاذ. وحتى لو كان هذا الرجل عجوزاً ودميماً وسُوقياً لكان جديراً بشكر السيدة داشوود وبرّها لاهتمامه بابنتها، ولكن شبابه وجماله وظرفه زاد من قيمة العمل الذي مسَّ إحساسها.

فكرَّرت له الشكر، ودعته إلى الجلوس بلهجتها الرقيقة التي لا تفارقها قط. ولكنه أبى واعتذر لأنّ ثيابه قذرة ومبتلة. وحينئذٍ طلبت إليه أن يُعرِّفها بنفسه، فقال: إن اسمه ولبي وأنه يقيم حالياً في أَلنِهَام: ثم طلب إليها أن تسمح له بشرف الزيارة في الغد ليسأل عن صحة الآنسة داشوود، فأولته هذا الشرف دون تردّد. ثم انصرف والمطر ينهمر غزيراً، فزاده ذلك حباً في نفوسهن.

وسرعان ما أصبح جماله ومروءته وظرفه الفائق مثاراً لإعجابهن جميعاً، وتضاحكن من مريان لما أبداه من شهامة في إنقاذها، وزادهن إغراقاً في الضحك جمال منظره. ولم تكن مريان قد أنعمت فيه النظر مثلما فعل غيرها، لأنّ حمرة الخجل التي علت وجهها عندما رفعها بين ذراعيه، سلبتها القدرة على النظر إليه، بعد أن دخلا المنزل، ولكنها شاهدت من جماله ما يكفي لأن تشاركهن الإعجاب به، وتلهج بالثناء عليه. وكانت شخصيته وشمائله تطابق الصورة التي رسمتها في خيالها لفتى أحلامها. وممّا زادها ثناء على تصرفه ما أبداه من سرعة البديهة في حملها إلى المنزل دون كلفة. وكانت كلّ أحواله أمراً محبباً إلى النفس، فاسمه جميل، ومحلّ إقامته في قريتهن المحبوبة. وسرعان ما رأت أنّ سترة الصيد هي أجمل ملابس الرجال، وأصبح فؤادها مشغولاً به، وقلبها عامراً بالبهجة والسرور، ونسيت الألم الناشئ عن التواء كاحلها.

وزارهن سير جون بمجرّد أن سمحت له الفترة التالية من الطقس الجميل في ذلك الصباح بالخروج من المنزل، وحكين له قصة الحادث الذي وقع لمريان وسألنه باهتمام، هل يعرف رجلاً باسم ولبي في قرية ألنهام؟

فصاح سير جون «ولبي! أموجود هو بالريف؟ إنه لخبر مدهش!

ومع ذلك فهو خبر سار. سأركب غداً وأدعوه لتناول الغداء يوم الخميس».

فقالت السيدة داشوود «كأنك تعرفه إذن؟».

«كيف لا! أعرفه حقاً. إنه يأتي هنا كل عام».

«وماذا تعرف عنه؟».

«أؤكد أنه من خيرة مَن عرفتهم من الرجال، فهو صياد ماهر، وليس في إنجلترا من هو أجرأ منه فارساً».

فصاحت مريان غاضبة «هل هذا كل ما تعرفه عنه؟ ما أخلاقه التي عرفتها بحكم صلتك الوثيقة به؟ ما أعماله ومواهبه وعبقريته؟».

فارتبك سير جون بعض الارتباك.

وقال: «لعمري إنّ مبلغ علمي عنه لا يصل إلى هذا الحدّ. ولكنه إنسان لطيف طلق المحيا. له كلبة سوداء لم أرَ أجمل منها، هل كانت هذه الكلبة معه اليوم؟».

ولكن مريان لم تستطع أن تذكر له لون كلبته، كما لم يستطع هو أن يذكر لها شيئاً عن مواهبه وعبقريته.

وسألته إلينور: «ولكنِ ما هو؟ وما بلده؟ وهل له منزل في ألنهام؟».

ولم يستطع سير جون أن يجيب عن هذه الأسئلة جواباً مؤكداً. وأخبرهن أنّ السيد ولبي ليس له أملاك خاصة في الريف، وأنه لا يقيم هناك إلا ريثما يزور السيدة العجوز في ألنهام كورت التي تربطه بها صلة القربى، والتي سيرث هو أملاكها، وأضاف قائلاً: «نعم نعم! أؤكد لك يا آنسة داشوود أنه جدير بالاصطياد! فله ضيعة صغيرة خاصة في مقاطعة سومرستشاير المجاورة. ولو كنت مكانكِ لما زوجته صغرى بناتي على الرغم من التعثر على جوانب التلال.

وعلى الآنسة مريان ألّا تتوقع أن تستولي على جميع الرجال. إنّ براندون سيشعر بالغيرة إذا لم تأخذ حِذْرها».

فتبسّمت السيدة داشوود وتهلّل وجهها بالبشر وقالت «لا أعتقد أنّ محاولة إحدى ابنتَيّ لما تسميه بالاصطياد سيسبب للسيد ولبي شيئاً من الضيق والانزعاج. فهذا عمل لم يألفاه. ولا خطر منا على الرجال مهما كانوا أثرياء. ولكني سررتُ حين علمت من حديثك أنه شاب جدير بالاحترام، وأنه لا ضير من معرفته».

فردّد سير جون ما قاله من قبل: «إنه من خيرة مَن عرفتُ من الرجال، وأذكر أننا أقمنا حفلة رقص في عيد الميلاد الماضي فرقص فيها من الساعة الثامنة إلى الساعة الرابعة دون توقف».

فصاحت مريان وقد برقت عيناها «أصحيح أنه رقص، ورقص برشاقة ونشاط؟».

«نعم، ثم استيقظ في الساعة الثامنة ليركب إلى حمى الصيد».

«هذا هو ما أحبُّ وأهوى. وهكذا ينبغي أن يكون الفتيان! مهما يكن العمل الذي يمارسونه فعليهم أن ينهمكوا فيه إلى حدّ الإفراط، دون أن يشعروا بأيّ تعب».

فقال سير جون «نعم نعم! قد فهمت ما ترمين إليه. تريدين أن تظفري به ولا تفكرين في براندون المسكين».

فقالت مريان محتدة: هذا تعبير أمقته مقتاً شديداً. إنني أمقت كلّ عبارة مبتذلة يُراد بها التندر والدعابة، وأبغض العبارات من قَبيل «الظفر بالرجال» و«غزو قلوب الرجال» إنها عبارات سمجة وغير كريمة. وإذا كان في صياغتها شيء من البراعة فقد فات زمن هذه البراعة.

ولم يفقه سير جون معنى لهذا التعنيف، فقهقه ضاحكاً ثم أجاب:

«نعم، إنني أعتقد أنك ستغزين قلب هذا الرجل أو ذاك غزواً كاملاً. واحسرتاه على براندون المسكين! لقد جُرح فؤاده من قبل، وأعتقد أنه جدير بإعجابك على الرغم من كلّ هذا التعثر على جوانب التلال، والتواء الأقدام».

الفصل العاشر

جاء «منقذ مريان» كما شاءت مرغريت أن تسمي ولبي، وهو اسم أقرب إلى الرقة منه إلى الدقة، وزارهن في منزلهن الريفي صباح اليوم التالي يسأل بنفسه عن صحة مريان، فاستقبلته السيدة داشوود بأدب جمّ وحفاوة بالغة مبعثهما ثناء سير جون عليه، وعرفانها بجميله. وكان كلّ ما دار في هذه الزيارة من شأنه أن يؤكّد له ما تتصف به الأسرة، التي ساقته الصدفة إلى التعرّف إليها، من عقل راجح وظرف فائق، وحبّ متبادل، وهناء «عائلي». ولم يكن بحاجة إلى زيارة أخرى ليقتنع بما يتحلين به من المحاسن الشخصية.

كانت السيدة داشوود ذات وجه نحيف منتظم القسمات، كما كانت بارعة الحسن والجمال، وكانت مريان تفوقها حسناً وجمالاً، وكان قوامها - وإن لم يكن سَوِياً كقوام أختها - أخَّاذاً يلفت الأنظار لأنه كان فارعاً، وكانت طلعتها تزدان بالبهاء بحيث إذا وُصفت في لغة الثناء العادية بأنها جميلة لم يكن هذا الوصف تجنياً على الحقيقة. وكانت بشرتها شديدة السمرة ولكنها تبدو متألقة لشفوفها، ومعارف وجهها كله لطيفة، وابتسامتها حلوة جذابة، وعيناها دعجاوان يتوقدان حيوية وحمية، بحيث لا يسَع مَن ينظر إليها إلا أن يشعر بالسرور. وكانت في بداية الأمر تغض بصرها

عن ولبي لما تشعر به من حرج عندما تتذكّر إنقاذه لها، ولكن عندما ارتفع هذا الحرج واستجمعت قواها، وعرفت أنه يجمع بين الخلق المهذب والصراحة والمرح، وسمعته فوق ذلك كله يصرِّح أنه شديد الولع بالموسيقى والرقص - صارت تنظر إليه بعين الرضا والقبول حتى خصّها بأكبر قسط من الحديث طوال الفترة الباقية من الزيارة.

وكان يكفي ذكر أيّ ضرب من ضروب التسلية المحبوبة حتى تشترك في الحديث، فلم تكن تطيق السكوت عندما تُثار هذه الأمور، ولا يعتريها الخجل أو التحفّظ في مناقشتها. وسرعان ما عرفا أنهما يشتركان في حبّ الرقص والموسيقى، وسبب هذا الحب هو اتفاقهما في الحكم على ما يتّصل بهذين الأمرين، وشجّعها ذلك على استقصاء رأيه في بقية الأمور، فانتقلت إلى موضوع الكتب، فذكرت له أسماء الكتّاب الذين تحبهم، وأخذت تغدق عليهم الثناء بحيث لا يسَع أي شاب في سن الخامسة والعشرين إلّا أن يؤمن بجودة مؤلفاتهم مهما كانت منبوذة من قبل، واتضح أن ذوقهما واحد بصورة تلفت النظر، كلاهما يهوى من الكتب والفصول ما يهواه الآخر، وإذا بدا منه أيّ خلاف أو اعتراض لم يلبث أن يزول أمام قوة حجّتها وبريق عينيها، ولا يسعه إلّا أن يوافق على كلّ آرائها ويُبدي مثل حماستها. وقبل انتهاء زيارته بفترة طويلة ظلا يتحدثان بدون كلفة حديث الصديقين اللذين تعارفا منذ زمن طويل.

وما إن ودّعهن حتى قالت إلينور: «حسناً يا مريان! أعتقد أنكِ قمت بعمل رائع في صباح يوم واحد. لقد تبيّنت آراء السيد ولبي في كلّ أمر ذي بال، فعرفت رأيه في كوبر وسكوت، وتأكّدت أنه يقدِّر مؤلفاتهما الرائعة كما ينبغي، وتلقيتِ منه كل تأكيد بأنه لن يعجب

ببوب أكثر ممّا ينبغي. ولكن كيف يطول تعارفكما بعد أن قتلتما كلّ موضوع بحثاً في هذا الحديث العجيب؟! ولن تلبثا أن تستنفدا كلّ موضوع شائق. وأعتقد أنّ اجتماعاً آخر سيكفي لإيضاح رأيه في المناظر الجميلة التي تستحق التصوير ورأيه في الزواج الثاني، وحينئذٍ لن تجدي ما تسألينه.

فصاحت مريان «أهذا من الإنصاف؟ أهذا من العدل؟ أأفكاري بمثل هذا القدر من الضآلة؟ لكني لا أعرف ما تقصدين، لقد أرسلت نفسي على سجيتها، وأبديت من السرور والصراحة ما يُجاوز الحدّ المألوف، وخرجت عن حدّ الحشمة والوقار، فتحدّثت بصراحة وإخلاص حيث كان يبنغي أن ألوذ بأهداب التحفّظ والانقباض والخداع. ولو أني تحدّثت عن حالة الطقس والطرق، ولم أتكلم إلّا مرة واحدة كلّ عشر دقائق، ما أنحيتِ عليّ باللائمة.

فقالت أمها: «حبيبتي! لا ينبغي لك أن تغضبي من إلينور، فهي تمزح معك وأنا نفسي لا أتردّد في توبيخها إذا أرادت أن تحرمك من لذة الحديث مع صديقنا الجديد». فهدأ ذلك من روع مريان في الحال.

وقدَّم ولبي من جانبه كلّ دليل على سروره بالتعرُّف إليهن يمكن أن تقدّمه الرغبة الواضحة في توثيق أواصر هذه المعرفة، فصار يتردّد عليهن كل يوم، وكانت حجته في البداية هي السؤال عن صحة مريان، ولكن ما كان يلقاه من حفاوة، ومظاهر الحب التي تزداد يوماً بعد يوم، لم يجعل لهذه الحجة ضرورة قبل أن تصبح غير ذات موضوع بشفاء مريان التام. وظلّت مريان تلازم الفراش بضعة أيام. ولكن ملازمتها للفراش لم تكن قط أبعد عن السآمة والملل كما كانت في تلك الأيام. وكان ولبي فتى ذكي الفؤاد، سريع البديهة،

خفيف الروح، صريح اللهجة، حلو الشمائل، كأنه خلق ليوافق هوى مريان تماماً، إذ لم يكن يجمع إلى هذا كله شخصية ساحرة فحسب، بل وحميّة فطرية يزيد من توقّدها واحتدامها، اتصافها هي بهذه الخصلة التي حبّبتها فيه أكثر من أي خصلة أخرى.

وصارت صحبته بالتدريج أكبر متعة لها، فكانا يقرآن معاً ويتحدثان معاً ويغنيان معاً. وكانت له مواهب غنائية عظيمة، كما كان يُقبِل على القراءة بلذّة وشغف ينقصان إدوارد لسوء الحظ.

وكانت السيدة داشوود ترى كما ترى مريان أنه رجل لا عيب فيه. أما إلينور فكانت لا تعيب فيه إلّا ميله للمبالغة والإفصاح عن رأيه في كلّ الأمور دون مراعاة لشعور الأشخاص أو مقتضيات الأحوال، وهي خصلة تشبه خصلة أختها شبهاً قوياً وتسرّها كثيراً. وكان في تسرُّعه في الحكم على الناس وإبداء هذا الحكم، وفي مجافاته لأصول المجاملة مع الناس بانصرافه عنهم ليُقبِل بكلّيته على مناجاة مَن يهواه، وفي استهتاره بالأصول المرعية التي تواضع عليها الناس - يبدي من عدم الحذر ما تستنكره إلينور على الرغم من كلّ ما يسوق هو ومريان من حجج في الدفاع عن هذه الخصلة.

وبدأت مريان تدرك الآن أنّ اليأس الذي اعتراها في السادسة عشرة والنصف من رؤية إنسان توافر فيه صفات الكمال التي تصبو إليها ضرب من النزق والطيش، فقد كان ولبي هو الصورة الكاملة التي تخيّلتها في تلك الفترة الأليمة، وفي كلّ لحظة مشرقة للرجل الذي يملك القدرة على استمالة قلبها، وكان سلوكه يدلّ على رغبته الصادقة في استمالة قلبها تُعادل قدرته على ذلك.

ولم يمضِ أسبوع حتى أصبحت أمها ترجو وتتوقع - دون أن يكون الباعث على هذا الأمل هو ثروته المستقبلة - أن يتمّ

زواجهما، وتغتبط في سرّها لفوزها بزوجين لابنتيها هما إدوارد وولبي.

ثم تبيَّنت إلينور - لأول مرة - محبة كولونيل براندون لمريان التي اكتشفها أصدقاؤه في بداية الأمر، ثم صرفوا النظر عنها، وتحوّل اهتمامهم ونكاتهم إلى غريمه الذي كان أسعد منه حظاً، فكفّوا عن النكات التي تندّروا بها على الكولونيل قبل أن يحب مريان، في الوقت الذي أخذت فيه مشاعره تستوجب التهكّم الذي وجّه بحق إلى العاطفة الجامحة. واضطرت إلينور - على كره منها - أن تعتقد أنّ أختها أصبحت تثير في نفسه الآن تلك العاطفة التي سبق أن نسبتها إليه السيدة جننجز بمحض هواها، وأن التباين الشديد بين أخلاقها وأخلاقه لم يمنعه من حبها على الرغم من أنّ تشابه الطباع بينها وبين ولبي من شأنه أن يوثق أواصر المحبة بينهما.

ولذلك ساورها الشعور بالقلق، إذ أيّ أمل لرجل صامت وقور في الخامسة والثلاثين في مواجهة فتى مرح طروب في الخامسة والعشرين؟ وتمنّت من صميم فؤادها أن ينصرف عن محبة أختها لأنها لم ترَ له أيّ أمل في النجاح. وكانت إلينور تضمر له الودّ على الرغم من رزانته وتحفّظه لأنها كانت تراه جديراً بالمودة، فقد كان دمث الأخلاق وكان يبدو أنّ تحفظه يرجع إلى الشعور بالأسى لا إلى الكآبة الطبيعية، وقد سبق أن أشار سير جون إلى ما اعتراه من خيبة الأمل وحلّ به من الأذى، ممّا يبرر الاعتقاد بأنه رجل سيئ الحظ، ولذلك كانت تنظر إليه بعين الاحترام والعطف.

ولعلّ ممّا زادها احتراماً له وإشفاقاً عليه إهانة ولبي ومريان له، ودأبهما على الغض من قدره، وتحاملهما عليه لأنه لا يستخفّه المرح، ولا يترقرق فيه ماء الشباب.

قال ولبي ذات يوم وهما يتحدثان عنه: «براندون هو ذاك الذي يُثْني الناس عليه، ولا يأبهون له، ويحبّون رؤيته، ولا يفكرون في التحدّث إليه».

فصاحت مريان: «هذا هو رأيي فيه تماماً».

فقالت إلينور: «لا تتباهَيْ بذلك لأنّ ذلك الرأي يُجانب الإنصاف منكما فإنّ أهل بارتون بارك يجلّونه كل الإجلال، وأنا لا أراه قط دون أن أحرص على التحدث إليه».

فأجاب ولبي «لا ريب أنّ دفاعك عنه شهادة طيبة في حقه. أمّا احترام غيرك له فإنه سُبَّة في حدّ ذاته. مَن ذا الذي يقبل على نفسه معرة التقدير الذي يصدر عن امرأتين أمثال ليدي ميدلتون والسيدة جننجز لا يعبأ بهما أحد؟».

«ولكن لعل سبابك وسباب مريان يكفّر عن احترام ليدي ميدلتون وأمها. وإذا كان مدحهما ذماً فإنّ ذمكما قد يكون مدحاً، لأنهما إذا افتقرتا إلى صحة التمييز، فأنتما تفتقران إلى الإنصاف».

«إنك تذهبين في الدفاع عن صنيعتك إلى حدّ الوقاحة».

«إن صنيعتي - كما تسميه - رجل عاقل، وسأظلّ أحب العقل دائماً. نعم أحب العقل يا مريان حتى في رجل بين الثلاثين والأربعين. إنه رجل جاب كثيراً من الأقطار، وكابد الأسْفار، وقرأ كثيراً من الأسْفار وله عقل مفكر. وقد أمدني بكثير من المعلومات في مختلف الموضوعات، وأجاب عن أسئلتي بأدب ولطف».

فصاحت مريان بلهجة الاحتقار «أي أنه حدّثك عن جزر الهند الشرقية، فقال: إن المناخ حار، والبعوض ضار».

«لا ريب أنه كان يخبرني بذلك لو وجهت إليه مثل هذه الأسئلة. ولكني كنت أعرف هذه الأمور من قبل».

فقال ولبي: «لعله شاهد - فيما شاهد - النُّوّابَ، والأمهار، وتَخْت رُوَان[1]».

«في وسعي أن أقول إن مشاهداته أوسع ممّا تقول. ولكن حدّثني لماذا تكرهه؟».

«أنا لا أكرهه. ولكني - على العكس - أعدّه رجلاً جديراً بالاحترام، يثني عليه الناس خيراً، ولا يعيرونه التفاتاً، وعنده من المال أكثر ممّا ينفق، ومن الوقت أكثر ممّا يلزم، وسترتان جديدتان في كلّ عام».

وصاحت مريان: «أضف إلى ذلك أنه مجرّد من العبقرية والذوق والمرح، وأنه ليس ذكي الفؤاد، ولا مشبوب العاطفة، ولا طلق اللسان».

فأجابت إلينور «إنك تقررين عيوبه على وجه الإجمال، وتعتمدين على قوة خيالك بحيث يبدو ثَنائي عليه فاتراً وتافهاً بالنسبة لما ذكرتِ من عيوبه. وقصارى ما أقوله: إنه رجل عاقل مهذب واسع الاطّلاع ذو حديث لطيف، وأعتقد أنه يحمل بين جنبيه قلباً رقيقاً».

وصاح ولبي: «آنسة داشوود! إنك تعاملينني بقسوة، وتحاولين أن تجرّديني من سلاحي بقوة العقل والمنطق، وتقنعيني على كره مني. ولكن ذلك لن يُجدي. ستجدين أنني أوتيتُ من العناد، بقدر

---

(1) النواب جمع نائب وهو نائب الحاكم في الهند، أو الحاكم المغولي لإحدى المقاطعات الهندية. والأمهار جمع مُهر وهو بالإنجليزية غزال في شمال أفريقيا. وتخت روان محفة تشبه الهودج كانت تستخدم سابقاً في شرق آسيا لنقل شخص واحد، وهي صندوق خشبي يُحمل على أكتاف الرجال - (المترجم).

ما أوتيت من الدهاء. إنني أكره كولونيل براندون لأمور ثلاثة لا سبيل للردّ عليها: أنذرني أن الطقس سيكون مطيراً، وأنا أريده جميلاً، وانتقد ستائر «عربتي»، ولم يقبل شراء فرسي الكُمَيْت. وإذا سرّك أن أقول: إنه لا غُبار على أخلاقه فيما عدا ذلك، فأنا مستعد للاعتراف بذلك وفي نظير هذا الاعتراف الذي يؤلمني بعض الألم أرجو أن تسمحي لي بأن أكرهه كما كرهته من قبل».

الفصل الحادي عشر

قلّما كانت السيدة داشوود وبناتها يتصوّرن عندما جئن أول مرة إلى ديفونشاير، أنهن سيرتبطن بمواعيد كثيرة تشغل وقتهن كتلك المواعيد التي ارتبطن بها في المستقبل القريب أو أنهن سيتلقين من الدعوات الكثيرة، ويستقبلن سيلاً لا ينقطع من الزائرين لا يدَع لهن متسعاً من الوقت للعمل الجدي. ولكن هكذا كان شأنهن. فما إن شفيت مريان حتى أخذ سير جون ينفذ ما فكّر فيه من ضروب اللهو والتسلية داخل المنزل وخارجه. فبدأت حفلات الرقص الخاصة في الحديقة، ونظّمت النزهات في أغلب الأوقات التي سمح بها شهر أكتوبر المطير.

وشهد ولبي كل هذه الاجتماعات، وكان جوّ الإلفة ورفع الكلفة الذي يسود هذه الحفلات بالطبع، من شأنه أن يوثق أواصر الودّ بينه وبين أسرة داشوود، وأن يتيح له الفرصة لمشاهدة محاسن مريان، وإبداء الإعجاب الشديد بها، وأن يلمس بنفسه من سلوكها معه ما يؤكد حبها له كلّ التأكيد.

ولم تدهش إلينور لما شعرا به من الحب. وكلّ ما كانت تريده أن يقلّلا من مظاهر الحب. وقد نصحت مريان مرة أو مرتين بالتزام شيء من ضبط النفس. ولكن مريان كانت تمقت كلّ كتمان لهذا

الحب لأنها لم تجد أي عار في إظهاره، وكانت ترى أنّ كبت العواطف غير المذمومة في حدّ ذاتها أمر لا ضرورة له، بل هو ضرب من إخضاع العقل لرق الأفكار الخاطئة البالية. وكان ولبي يرى رأيها، وتصرّفهما في جميع الأوقات يعبّر عن رأيهما.

ولم تكن مريان تنظر في حضوره إلى أحد سواه، وكانت ترى كلّ ما يفعله صائباً، وكلّ ما يقوله سديداً. وإذا ختما السهرة في الحديقة بلعب الورق غش هو نفسه وغش بقية اللاعبين ليمكنها من الفوز عليهم. وإذا كان الرقص هو وسيلة التسلية في الليل رقصا معاً نصف الوقت، وإذا تخليا عن الرقص ليرقص غيرهما وقفا يتحدثان معاً، دون أن يوجِّها كلمة إلى أحد. وكان مثل هذا السلوك منهما مدعاة لإثارة السخرية، ولكن السخرية لم تُثِر في نفسيهما شيئاً من الخجل أو الاستفزاز.

وكانت السيدة داشوود تشاركهما في جميع مشاعرهما بحرارة لم تترك (في نفسها) ميلاً للحد من إسرافهما في إظهار عواطفهما، وكان من رأيها أن هذا نتيجة طبيعية للحب الشديد عند الشباب المشبوب العاطفة.

كلّ هذا هو موسم السعادة في حياة مريان، إذ هام قلبها بحب ولبي، وأضفت صحبته على منزلها الحالي جواً من السحر والجاذبية خفَّف بدرجة لم تكن تتصورها من حدة الحب العميق لنورلاند الذي حملته معها من سسكس.

أما إلينور فلم تشعر بمثل هذه السعادة، ولم تنعم براحة البال، ولم تجد متعة خالصة في وسائل لهوهم لأنّ هذه الوسائل لم تتح لها رفيقاً يعوّضها عمّن خلّفته وراءها، أو يخفف من لوعة فراقها

لنورلاند. ولم يكن في حديث ليدي ميدلتون ولا السيدة جننجز ما يعوضها عن الحديث الذي فقدته، وإن كانت الأخيرة محدِّثة لا ينضب معين حديثها، وقد حَبَت إلينور منذ البداية بعطفها وخصّتها بالشطر الأكبر من حديثها، وقصّت عليها تاريخها ثلاث مرات أو أربعاً، ولو أنّ إلينور كانت قوية الذاكرة لعرفت أن السيدة جننجز سبق أن حكَت لها في بداية حديثها جميع تفاصيل مرض السيد جننجز الأخير، وما قاله لزوجته قبل موته بدقائق معدودات. وكانت ليدي ميدلتون أحب إلى إلينور من أمها في خصلة واحدة، ألا وهي الصمت. على أن إلينور لم تكن بحاجة إلى إمعان النظر لتُدرك أنّ صمتها لم يكون سوى ضربٍ من الهدوء لا صلة له بالعقل، وكان مسلكها حيال زوجها وأمها كمسلكها حيالهن، ولذلك لم تسعَ إلى توثيق أواصر الودّ معهن وكانت لا ترغب في ذلك، ولا تقول اليوم ما لم تقله بالأمس، وكانت ثقيلة الظلّ لا يتغير مزاجها ولا يتبدّل، ولا تعارض في الحفلات التي يقيمها زوجها بشرط أن تجري على السنن المألوف، وأن يرافقها ولداها الكبيران، ولكنها لا تجد فيها من المتعة أكثر ممّا تجده في الجلوس بالمنزل، وقلما كانت تُدخل السرور على الحاضرين، فتشاركهم في الحديث، حتى لقد كانوا ينسون أنها موجودة بينهم لولا اهتمامها بشغب أولادها.

وكان كولونيل براندون هو الشخص الوحيد من بين معارف إلينور الذي تحترم هي مواهبه، وتحبّ صداقته، وتهوى صحبته. أما ولبي فكان من المستحيل أن تفكِّر في صحبته. وكانت تخصّ براندون بالاحترام والمحبة، بل تحبه محبة الأخت لأخيها، ولكنه كان يحب مريان ويوليها كلّ اهتمامه. ولو أن رجلاً أقل منه لطفاً وأنساً تقدم إليها لكان من المحتمل أن يظفر على وجه العموم

برضاها. ولكن كولونيل براندون لم يلقَ منها لسوء الحظ مثل هذا التشجيع حتى يفكِّر فيها فقط، فوجد في حديث إلينور أعظم عزاء له عن إعراض مريان.

وممّا زاد من عطف إلينور عليه أنها عرفت أنه أصيب بخيبة الأمل في الحب وخامرها هذا الظن من بضع كلمات بدرت منه مصادفة وهما في الحديقة ذات ليلة، وكانا قد اتفقا على الجلوس معاً بينما كان الآخرون يرقصون.

وكانت عيناه معقودتين بمريان ثم قال - بعد أن أطرق بضع دقائق وعلى شفتيه ابتسامة خفية: «علمت أن أختك لا توافق على الزواج الثاني».

فأجابت إلينور «نعم، إن آراءها كلها خيالية».

«أو بعبارة أصح - فيما أعتقد - ترى أنه من المستحيل وجود مثل هذا الزواج».

«أعتقد أنها ترى ذلك. ولكني لا أدري كيف تذهب إلى هذا الرأي دون أن تفكر فيما فعله أبوها الذي تزوج مرتين. ولكن آراءها ستقوم بعد بضع سنوات على أساس من حسن الإدراك ودقة الملاحظة، وحينئذٍ يسهُل على أيّ إنسان آخر أن يحدِّد هذه الآراء ويبررها».

فأجاب «أكبر الظن أن هذا ما سيصير الأمر إليه. ومع ذلك فإن الشبان يجدون لذة في اتباع أهوائهم، ولذلك يأسف المرء لانقيادهم وراء الآراء التي تقوم على التعميم».

فقالت إلينور «لا يمكن أن أوافقك على ذلك، فهناك متاعب تترتب على مثل هذه العواطف التي تشعر بها مريان ولا يمكن

تبريرها بالحماسة والجهل بأحوال الدنيا، فهي تميل بطبعها كل الميل إلى الاستخفاف بأصول اللياقة وهو أمر يدعو إلى الأسف. وإني لآمل أن تجني أكبر الفائدة متى ازدادت خبرة بأحوال الدنيا».

وبعد أن أطرق هنيهة استأنف حديثه قائلاً: «ألا تفرق أختك في اعتراضها على الزواج الثاني؟ وهل هو جريمة في حق كلّ إنسان على السواء؟ وهل الذين لم يوفقوا في اختيارهم الأول بسبب الخيانة الزوجية أو سوء الحظ، سَواءٌ في الحكم طوال المدة الباقية من حياتهم؟».

«لعمر الحق لا أدري تفصيلات رأيها. وكل ما أعرفه أنني لم أسمعها قط تغتفر أية حالة من حالات الزواج الثاني».

فقال: «هذا لا يستقيم. ولكن لا ترغبي في تغيير عواطفها تغييراً تامّاً كلا - كلا! لأن الشباب حينما يُصاب بخيبة الأمل في الحب والغرام يعتنق هذه الآراء الشاذة الخطرة! إنني أتكلم عن خبرة وتجربة. فقد عرفت ذات مرة سيدة تشبه أختك في طباعها وعقلها شبهاً شديداً، وتفكر وتحكم على الأشياء مثلها ثم طرأت سلسلة من الظروف المحزنة..».

وهنا أمسك عن الكلام فجأة، وبدا له أنه جاوز القصد في تعبيره، وأثارت أسارير وجهه في نفس إلينور ظنوناً ما كانت لتخطُر ببالها قط. وكان من المحتمل ألا تحوم الشبهات في ذهن إلينور حول هذه السيدة لولا أنه أقنعها أنه ينبغي له ألا ينبس ببنت شفة تمس هذه السيدة. والواقع أن المرء لم يكن بحاجة إلى إجهاد ذهنه ليرى أنه هاجت به ذكريات حب مضى، ووقفت إلينور عند هذا

الحد.. ولكن مريان لو كانت مكانها لما اكتفت بهذا القدر اليسير من التفكير، بل كانت لتفكر في الأمر حتى تكتمل خيوط القصة كلها بسرعة في خيالها النشيط ثم تُرجِع كل شيء إلى حب مشؤوم أثار فيه أشد الشجون.

الفصل الثاني عشر

بينما كانت إلينور ومريان تتنزهان معاً في صباح اليوم التالي أفضت هذه لأختها بنبأ أثار في نفسها الدهشة لما كان يحمله من شهادة صارخة على اتّصافها بالتهور والنزق، وذلك على الرغم من أنّ إلينور كانت تعرف عن أختها هاتين الخصلتين. أخبرتها مريان - وهي تبدي أعظم السرور - أن ولبي أهداها جواداً ربّاه بنفسه. في ضيعته بمقاطعة سومرستشاير، وأعده إعداداً تامّاً لركوب امرأة، فقبلت الهدية دون تردّد، وأخبرت أختها الخبر وهي في أشد الفرح، دون أن تتدبّر أن أمها لا تنوي أن تقتني جواداً، وأنها إذا غيّرت نيتها من أجل هذه الهدية وجب أن تشتري جواداً آخر للخادم، وتخصّص له خادماً يركبه، ثم تبني - فوق ذلك كله - إصطبلاً للجوادين.

واستطردت قائلة: «إنه ينوي أن يرسل سائسه إلى سومرستشاير في الحال ليسوس الجواد، ومتى وصل ركبناه كل يوم، وستشتركين معي في ركوبه. تصوّري يا عزيزتي إلينور لذة العَدْو على بعض هذه المروج.

وأبَت مريان كلّ الإباء أن تفيق من هذا الحلم اللذيذ، وأن تدرك الحقائق الأليمة التي تكتنف هذا الموضوع. وظلّت بعض الوقت ترفض التسليم بهذه الحقائق، فقالت: إن النفقات التي يتطلّبها خادم

جديد أمرها هين، وأكّدت أن ماما لن تعارض في ذلك أبداً، وأن أيّ جواد يكفي الخادم إذ يستطيع أن يحصل دائماً على جواد من الحديقة. أما الإصطبل فإنّ أي حظيرة تكفي. وحينئذٍ ذكرتها إلينور أنه ليس من اللائق أن تقبل هدية من شخص لم يعرفنه كثيراً، أو على الأقل عرفنه أخيراً. وكان هذا الكلام أكثر ممّا تطيقه مريان.

فقالت محتدة «تخطئين يا إلينور حين تظنين أنني لا أعرف عنه ولبي إلا قليلاً. صحيح أنني لم أعرفه منذ عهد بعيد، ولكني أصبحت أكثر الناس - ما عداكِ أنت وماما - معرفة به في العالم. إن الذي يحدد الألفة ليس هو الزمن أو الفرصة. وإنما يحدّدها الطبع وحده، فسبع سنين قد لا تكفي لتعارف بعض الناس، وسبعة أيام تكفي غيرهم وزيادة، وأعتقد أنني لو كنت قبلت جواداً من أخي لكنت جاوزت حدود اللياقة أكثر ممّا لو قبلته من ولبي لأني لا أعرف عن أخي إلا القليل، وإن كنت عشت معه عدة سنين. أما ولبي فقد كوّنت عنه رأيي منذ عهد بعيد».

ورأت إلينور من الحكمة أن تكف عن الحديث في هذا الشأن لأنها تعرف طبع أختها، والمعارضة في هذا الموضوع الحساس من شأنها أن تزيدها إصراراً على رأيها، ولكنها ذكرتها بحبها لأمها، وشرحت لها المتاعب التي ستجلبها هذه الأم الرؤوم على نفسها (وهذا ما يحتمل أن يحدث) إذا ما وافقت على زيادة خدمها، وسرعان ما اقتنعت مريان بقولها، ووعدت ألا تزين لأمها الإقدام على هذا العمل الأحمق، فلا تذكر لها نبأ الهدية، وأن تخبر ولبي عندما تراه ألّا مناص من رفض الهدية.

وبرَّت مريان بوعدها وعندما قدم ولبي إلى المنزل في اليوم نفسه سمعتها إلينور تعرب له عن أسفها بصوت خفيض لاضطرارها

إلى رفض هديته وسردت عليه أسباب الرفض في الوقت نفسه على نحوٍ لم يدع له مجالاً للكلام والإلحاح. ولكن أمارات القلق ارتسمت على وجهه فقال بصوت خفيض بعد أن أعرب عن قلقه بشدة: «ولكن يا مريان سيظل الجواد جوادك، وإن لم تستطيعي استخدامه الآن. سأحتفظ به حتى تطلبيه. وعندما تغادرين بارتون لتستقري في منزلك الدائم، فإن «كوين ماب» سوف تستقبلك».

سمعت إلينور كلّ ذلك عرَضاً، ولمست في هذه الجملة كلها وفي طريقة إلقائها ومخاطبته لأختها باسمها الشخصي وداً صادقاً، ومعنى صريحاً يدلّان على وجود اتفاق تام بينهما. ومنذ تلك اللحظة لم تشك أنهما تواعدا على الزواج، ولم يثِر هذا الاعتقاد في نفسها من الدهشة سوى ما كانت تشعر به هي أو إحدى صديقاتها لو اكتشفت وجود هذا الاتفاق بالصدفة بفضل ما فطرا عليه من الصراحة.

وقصَّت عليها مرغريت في اليوم التالي ما ألقى ضوءاً أكبر على الأمر. ذلك أن ولبي قضى مساء أمس معهن، وبقيت مرغريت في بهو المنزل ليس معها إلا هو ومريان، وبذلك أتيحت لها الفرصة لأن تلحظ بعض الأمور التي أفضت بها لأختها الكبرى بلهجة الفخر حينما اختلت بها بعد ذلك.

قالت «إيهاً! إلينور. عندي سرّ خطير عن مريان أحب أن أفضي به إليك. أؤكد لك أنها ستتزوج ولبي قريباً جداً».

فأجابت إلينور «لقد ظللتِ تقولين ذلك كل يوم تقريباً منذ أن التقيا في هاي تشرش داون، ولم يمضِ على تعارفهما أسبوع حتى اعتقدت أن مريان تحمل صورته حول جيدها، ثم تبيَّن أنها ليست سوى صورة صغيرة لعمّنا الكبير».

«ولكن الواقع أن هذا شيء مختلف تماماً. إنني واثقة أنهما سيتزوجان قريباً جداً لأنه أخذ خصلة من شعرها».

«حذار يا مرغريت! قد لا تكون سوى خصلة من شعر أحد أعمامه الكبار».

«ولكني أؤكد لك أنها من شعر مريان. أكاد أجزم بذلك لأني رأيته يقصّها بنفسه. حينما خرجتِ أنت وماما من الحجرة في الليلة الماضية بعد تناول الشاي رأيتهما يتهامسان ويتحدثان معاً بأسرع ما يمكن، وبدا لي أنه طلب منها شيئاً، وما هو إلا أن تناول المقص، وقصّ خصلة طويلة من شعرها لأنه كان يتهدل على ظهرها ثم قبّل الخصلة، ولفها في ورقة بيضاء وطواها في محفظته».

ولم يسع إلينور بإزاء هذه التفصيلات التي روتها مرغريت إلّا أن تصدِّقها، وكانت لا تميل إلى تكذيبها لأنّ الواقعة التي روتها تتفق تماماً مع ما سمعته ورأته بنفسها.

وكانت مرغريت لا تكشف دائماً عن فطنتها بطريقة ترضي أختها، فقد حدث ذات مساء في الحديقة أن طلبت إليها السيدة جننجز أن تخبرها باسم الفتى الذي تحبّه إلينور، وكانت تتوق إلى معرفته منذ زمن بعيد، فنظرت مرغريت إلى أختها وقالت: «ليس في وسعي أن أخبرك به. هل تسمحين لي يا إلينور؟».

فضحك الجميع بالطبع، كما ضحكت إلينور أيضاً، ولكنها تألّمت لما حدث لأنه وقر في يقينها أن مرغريت تعرف شخصاً معيّناً لم تطق أن تذكر اسمه حتى لا يكون مادة دائمة لتندر السيدة جننجز.

وتألّمت مريان لأختها أشد الألم، ولكنها أساءت إلى القضية أكثر ممّا أحسنت إذ احمر وجهها، وقالت لمرغريت في لهجة الغضب:

«مهما تكن ظنونك فليس من حقك أن ترددّيها على الأسماع».

فأجابت مرغريت: «لم أكن أظن في الأمر شيئاً. لقد كنت أنتِ التي حدثتني بذلك».

فأغرق الحاضرون في الضحك، وألحوا على مرغريت أن تزيد الأمر إيضاحاً.

وقالت السيدة جننجز: «وي! أرجوك يا آنسة مرغريت أن تحكي لنا القصة بحذافيرها. ما اسم الرجل؟».

«ليس من حقي أن أذكره يا سيدتي. ولكني أعرفه جيداً، وأعرف أيضاً أين هو الآن»:

«نعم نعم، في وسعنا أن نحدس أين هو. في منزله بنورلاند، ما في ذلك شك. أكاد أجزم أنه كاهن الأبرشية».

«كلا! ليس به. لا مهنة له على الإطلاق».

فقالت مريان محتدّة: «أنت تعلمين أن ما تقولين حديث فيه افتراء من عندك، وأنه لا وجود لمثل هذا الشخص على الإطلاق».

«إذن لا بدَّ أنه مات أخيراً يا مريان لأني واثقة أن مثل هذا الشخص كان موجوداً واسمه يبدأ بحرف، ف».

وما أجزل الشكر الذي شعرت به إلينور لليدي ميدلتون إذ قاطعتهم في تلك اللحظة قائلة «لقد هطل مطر غزير» وإن كانت إلينور تعتقد أنها لم تقاطعهم رعاية لشعورها، وإنما قاطعتهم لأنها ملّت النكات السخيفة التي تسر زوجها وأمها. ثم قَفَّى كولونيل براندون على أثرها فتابع الحديث في الموضوع الذي أثارته، وكان براندون يراعي مشاعر غيره في كل مناسبة، فأفاض هو والسيدة في حديث المطر وفتح ولبي البيانو، وطلب إلى مريان أن تعزف عليه، وهكذا تاه موضوع إلينور في لجّة المحاولات التي بذلها الحاضرون

لترك الحديث، ولكن إلينور لم تفق من غمرة الفزع الذي اعتراها بسببه.

واتفقت جماعة منهم في تلك الليلة على القيام برحلة لمشاهدة مكان جميل على مسيرة زهاء اثني عشر ميلاً من بارتون يملكه زوج أخت كولونيل براندون. وكان من المتعذّر مشاهدة هذا المكان بدون وساطة براندون لأنّ صاحبه سافر إلى الخارج إذ ذاك. وترك أوامر مشدّدة في هذا الشأن. وكانت حدائقه رائعة، وكان سير جون الذي أثنى عليها ثناء مستطاباً يعرفها جيداً لأنه نظم رحلات لزيارتها بمعدل رحلتين على الأقل في صيف كلّ عام خلال السنوات العشر الماضية وكانت تشتمل على بحيرة جميلة يمكن للإنسان أن يتنزه فيها على مركب شراعي في الصباح. وتقرّر أن يأخذوا معهم طعاماً ناضجاً، وعربات مكشوفة، وتمّ إعداد كلّ شيء على الوجه الذي تستلزمه رحلة بقصد التنزه.

وكان بعضهم يرى في هذه الرحلة مشروعاً جريئاً في مثل هذا الوقت من السنة بسبب هطول المطر طيلة الأسبوعين الماضيين. وأقنعت إلينور أمها بالبقاء.

الفصل الثالث عشر

لم تتم الرحلة التي أزمعوا القيام بها إلى ويتويل على نحو ما توقّعته إلينور. كانت تتوقع البلل والتعب والخوف ولكن ما جرى كان أسوأ ممّا توقعته، لأنّ الرحلة لم تتمّ على الإطلاق.

وما إن حانت الساعة العاشرة حتى انتظم شمل الجميع في الحديقة ليتناولوا طعام الفطور حسبما كان مقرراً. وكان الطقس في الصباح مناسباً للرحلة إلى حدّ ما، وإن ظل المطر ينهمر طول الليل، إذ تقشعت السحب عبر السماء، وظهرت الشمس في أغلب الأوقات، وعلا البِشْر وجوههم جميعاً، وملأ السرور قلوبهم، وعقدوا العزم على تجشّم كافة المتاعب والعقبات مهما كانت.

وبينما كانوا يتناولون طعام الفطور إذ وافت بعض الخطابات ومنها خطاب لكولونيل براندون، فتسلّمه وألقى نظرة على عنوانه، فاربدّ وجهه، وغادر الحجرة من فوره.

فسأل سير جون: «ما بال براندون؟».

فلم يحِر أحد جواباً.

وقالت ليدي ميدلتون: «أرجو ألا يكون قد تلقى أخباراً سيئة، ولا يمكن أن يغادر كولونيل براندون مائدة الفطور فجأة على هذا النحو، إلّا لأمر غير عادي».

ثم عاد بعد زهاء خمس دقائق.

وما إن دخل الحجرة حتى قالت السيدة جننجز: «أرجو ألّا تكون هناك أخبار سيئة يا كولونيل».

«لا شيء على الإطلاق يا سيدتي. شكراً لك».

«هل الخطاب من أفنيون؟ أرجو ألا يتضمن أن أختك ساءت حالها».

«كلا يا سيدتي. لقد جاء من لندن، وهو لا يتّصل إلا بالعمل».

«ولكن إذا كان لا يتصل إلا بالعمل، فكيف يزعجك إلى هذا الحد؟ لا تخفِ عنا السر يا كولونيل. إن هذا الكلام لا يخدعنا. حدِّثنا عن حقيقة الأمر».

فقالت الليدي ميدلتون: «سيدتي العزيزة! تذكّري ما تقولين».

فقالت السيدة جننجز، غير آبهة بتعنيف ابنتها: «لعله أنبأك بزواج فاني ابنة عمك».

«كلا! لا شيء من ذلك».

«حسناً! إني أعرف مَن أرسله يا كولونيل. وأرجو أن تكون هي بصحة طيبة».

فقال وقد امتقع لونه قليلاً: «مَن تعنين يا سيدتي؟».

«عجباً لك! أنت تعرف مَن أعني».

فقال مخاطباً ليدي ميدلتون: إني لآسف أشدّ الأسف يا سيدتي أن أتلقى هذا الخطاب اليوم، لأنه يتصل بعمل يتطلب وجودي في لندن على الفور.

فصاحت السيدة جننجز: «في لندن! ماذا تصنع في لندن في هذا الوقت من السنة؟».

فأردف قائلاً: «إنّ خسارتي كبيرة بسبب اضطراري إلى مغادرة

هذا الحفل الجميل، ولكن أسفي أشد لأنني أخشى ألّا يتسنى لكم الدخول في ويتويل إلا إذا كنت موجوداً».

وما كان أشد وقع هذا الكلام عليهم جميعاً!

فقالت مريان بحدة: «ولكن إذا كتبت رسالة وجيزة إلى مديرة المنزل ألا يكفي ذلك!».

فهز رأسه.

وقال سير جون: «لا بدَّ من القيام بالرحلة، ولا يجوز إرجاؤها بعد أن أصبحنا على مقربة من المكان. إنك لن تستطيع يا براندون أن تذهب إلى لندن إلا غداً وبذلك يمكن تسوية الأمر».

«بودّي لو أمكن تسوية الأمر بمثل هذه السهولة. ولكن ليس في وسعي أن أرجئ السفر يوماً واحداً!».

فقالت السيدة جننجز: «لو أنك أخبرتنا عن مهمتك لأمكن أن ننظر أيُمكن إرجاؤها أم لا».

وقال ولبي «لو أنك أرجأت سفرك حتى نعود من رحلتنا لما تأخّرت ست ساعات».

«ليس في وسعي أن أرجئ سفري ساعة واحدة!».

ثم سمعت إلينور ولبي وهو يهمس في أذن مريان: «من الناس مَن لا يطيق صحبة أهل الأنس والسرور، ومن هؤلاء براندون. أكاد أجزم أنه يخشى الإصابة بالبرد، ولذلك اخترع هذه الحيلة ليتخلص من الرحلة. أراهن بخمسين جنيهاً أنّ هذا الخطاب بخط يده».

فأجابت مريان: «ليس عندي في ذلك أيّ شك».

وقال سير جون: «أعرف عنك يا براندون من قديم أنك متى عقدت العزم على أمر فلا سبيل لحملك على تغيير رأيك ولكن أرجو أن تُنعم النظر في الأمر. تأمل أنّ كريمتَي السيد كاري جاءتا إلى هنا

من نيوتن، وكريمات داشوود الثلاثة جئن من منزلهن الريفي، والسيد ولبي استيقظ قبل موعده المعتاد بساعتين، وذلك بغية الذهاب إلى ويتويل».

وعاد كولونيل براندون فكرّر أسفه لأنه السبب فيما أصابهم من خيبة الأمل وصرح في الوقت نفسه أن الأمر لا مفرّ منه».

«ومتى تعود إذن؟».

واستطردت الليدي قائلة: «أرجو أن نراك في بارتون بمجرد أن تغادر لندن في الوقت المناسب، وأرى لزاماً علينا أن نرجئ الرحلة إلى ويتويل إلى حين عودتك».

«إنك تطوّقين جيدي بحُسن صنيعك، ولكن لا أدري متى أستطيع العودة، ولذلك لا أجرؤ أن أرتبط بميعاد على الإطلاق».

فصاح سير جون: «أواه! يجب أن يعود، وسيعود. وإذا لم يعُد في نهاية الأسبوع فسأسافر وراءَه».

فصاحت السيدة جننجز: «نعم! سافر وراءه. ولعلنا حينئذٍ نعرف المهمة التي سافر من أجلها».

«لا أريد أن أتدخل في شؤون غيري. وأظنّ أنه أمر يَخجل هو من ذكره».

ثم وصلت جياد كولونيل براندون.

وأضاف سير جون: «هل تذهب إلى لندن على صهوة جوادك؟».

«كلا! إلى هونيتون فقط. ثم أواصل السير بأقصى سرعة ممكنة».

«حسناً! وما دمت مصمماً على السفر فأرجو لك سفراً سعيداً. ولكن يحسن بك أن تعدل عن رأيك».

«أؤكد لك أنّ هذا ليس في استطاعتي».

ثم ودّع الحاضرين جميعاً.

«أليست هناك فرصة لرؤيتك ورؤية أخواتك في لندن هذا الشتاء يا آنسة داشوود؟».

«أخشى أن أقول: إنه لا فرصة على الإطلاق».

«إذاً أودعك وداعاً أطول ممّا كنت أودّ».

واكتفى بالانحناء لمريان دون أن يقول شيئاً.

وقالت السيدة جننجز: «هيا يا كولونيل! أرجو أن تحدّثنا قبل سفرك عن مهمتك».

فقال لها: «أنعمي صباحاً» وغادر الحجرة يشيّعه سير جون.

وحينئذٍ انطلقت الأنّات والآهات التي كظمها الجميع في صدورهم ومنعهم الأدب من التنفيس عنها وأجمعوا على ترديد القول بأنّ خيبة أملهم على هذا النحو أمر يستفزّ النفوس».

وقالت السيدة جننجز، وهي تتهلل فرحاً: «أستطيع – مع ذلك – أن أحدس ما هي مهمته».

فسألها كلهم تقريباً: «أفي مقدورك هذا؟».

«إن الأمر يتعلق بالآنسة وليامز – فيما أعتقد».

فسألت مريان: «ومَن هي الآنسة وليامز؟».

«عجباً! ألا تعلمين من هي الآنسة وليامز؟ إنني واثقة أنك سمعت عنها من قبل. فهي يا عزيزتي إحدى قريبات كولونيل براندون. ولن أحدّد صفة هذه القرابة خشية أن تصاب الآنسات الصغيرات بصدمة ثم خفضت صوتها قليلاً وقالت لإلينور: إنها ابنته الشرعية».

«أحق ما تقولين؟».

«عجباً! نعم، وهي تشبهه كلّ الشبه. وأعتقد أن الكولونيل سيوصي لها بكلّ ماله».

ثم عاد سير جون وشاركهم الأسف على هذا الحادث المحزن، ولكن ختم حديثه قائلاً: إنهم يجب أن ينتهزوا فرصة اجتماعهم هنا، ويعملوا شيئاً يُدخل السرور إلى قلوبهم، واتفقوا بعد التشاور في الأمر أنهم يمكن أن يروِّحوا عن نفوسهم بجولة في الريف وهم يركبون العربات، مع اقتناعهم بأنّ الرحلة إلى ويتويل هي المتعة الوحيدة. فطلبوا العربات، وجاءت عربة ولبي أولاً، ولم تشعر مريان قط بمثل ما شعرت به من السعادة حين ركبتها، وسارت العربة خلال بارتون بارك بسرعة كبيرة حتى اختفيا عن الأنظار، ولم يرهما أحد حتى عادا بعد أن عاد جميع الباقين. وكان يبدو عليها السرور بهذه النزهة، ولكنهما قالا بعبارات عامة إنهما التزما السير في الدروب التي تتخلل الحقول بينما سار الآخرون في المروج.

وتقررت إقامة حفلة رقص في المساء حتى ينعم كلّ منهم بألوان المرح والسرور إلى أبعد مدى، وجاء آخرون من أسرة كاري لتناول الغداء، وجلس ما يقرب من عشرين شخصاً إلى المائدة وقلوبهم ملأى بالسرور، الأمر الذي ملأ قلب سير جون بالغبطة والرضا. وجلس ولبي كعادته بين كريمتَي داشوود الكبيرتين وجلست السيدة جننجز على يمين إلينور، ولم يطل بهم الجلوس حتى انحنت السيدة جننجز خلفها وخلف ولبي وقالت لمريان بصوت عالٍ يستطيع كلاهما أن يسمعه: «لقد اكتشفتُ أمرك على الرغم من جميع حيلك، فعرفت أين قضيتِ الصباح».

فتغيّر لون مريان، وأجابت من فورها: «أين؟ أرجوك!».

فقال ولبي: «أنم تعلمي أننا خرجنا للنزهة في عربتي؟».

«بلى بلى! أيها الوقح! إنني أعرف ذلك جيداً، وقد صممتُ أن أكتشف أين ذهبتما - أرجو أن يكون بيتكِ أعجبكِ يا آنسة مريان. أنا أعرف أنه بيت رحب واسع، وأرجو أن أراه جديد الأثاث حين أزورك فيه، لأني رأيته في أشدّ الحاجة إلى الأثاث عندما زرته منذ ست سنوات.

وأشاحت مريان بوجهها في اضطراب شديد. وأغرقت السيدة جننجز في الضحك، وعرفت إلينور أن السيدة جننجز حين صمَّمت على معرفة المكان الذي ذهبا إليه، طلبت إلى خادمتها أن تستقصي الخبر من سائس السيد ولبي، فأخبرها أنهما ذهبا إلى ألنهام حيث قضيا وقتاً طويلاً يتنزهان في الحديقة ويتفقدان البيت كله.

ولم تستطع إلينور أن تصدق هذا الخبر لأنها استبعدت أن يقترح ولبي أو ترضى مريان أن يدخلا البيت في أثناء وجود السيدة سميث التي لا تعرفها مريان أدنى معرفة.

وما إن غادرن غرفة الطعام حتى سألت إلينور أختها عن الخبر، ولشدّ ما دهشت عندما عرفت أن القصة التي روتها السيدة جننجز صحيحة بحذافيرها. وغضبت مريان من أختها أشد الغضب، لارتيابها في صحة هذه القصة.

«لماذا تتصورين يا إلينور أننا لم نذهب إلى هناك أو أننا لم نشاهد البيت؟ أليس هذا هو ما كنت تتمنين كثيراً أن تفعليه أنت نفسك؟».

«بلى يا مريان، ولكن ما كنت لأذهب إليه، والسيدة سميث فيه، ولا أذهب إليه في صحبة السيد ولبي بالذات».

«ولكن السيد ولبي هو الشخص الوحيد الذي يملك الحق في أن يطلعني على البيت، وكان من المتعذَّر أن أذهب مع غيره، لأن

له عربة مكشوفة. أنا لم أقضِ في حياتي كلها وقتاً أبهج من صباح ذلك اليوم».

فأجابت إلينور: «أخشى أن أقول: إن البهجة التي يشعر بها المرء في عمل ما لا تدلّ دائماً على أنه عمل لائق».

«على العكس يا إلينور، إنني أرى أنّ الشعور بالبهجة أقوى دليل على ذلك، إذ لو كان هذا العمل غير لائق في الحقيقة، لشعرت بذلك في حينه، فالمرء يشعر دائماً بالخطأ وقت ارتكابه. ولو كنت أعتقد أن هذا العمل غير لائق لما شعرت بشيء من البهجة على الإطلاق».

«ولكن يا عزيزتي مريان لقد عرّضك هذا العمل لبعض التقوّلات الوقحة. أفلا يخالجك الشك الآن في حكمة هذا التصرف؟».

«إذا عُدَّت تقوِلات السيدة جننجز دليلاً على أن هذا التصرف غير لائق كانت تصرفاتنا جميعاً معيبة في كل لحظة من لحظات حياتنا. وأنا لا أقيم وزناً لقدح السيدة جننجز أو مدحها، لأني أشعر أنني لم أرتكب إثماً حين تجوّلت في حديقة السيدة سميث أو شاهدت بيتها. إنها ستكون حديقة السيد ولبي يوماً ما وحديقة...».

«إذا كانت هذه الحديقة ستصبح ملكاً لك يا مريان في يوم ما، فلا يُعدّ ذلك مبرراً لما فعلت».

فاحمرّ وجه مريان خجلاً من هذه الإشارة، ومع ذلك بدا عليها السرور لسماعها. ولكنها عادت إلى أختها بعد أن فكرت في الأمر عشر دقائق وقالت ووجهها يتألق بشراً: «ربما كان ذهابي يا إلينور إلى ألنهام عملاً مجانباً للحكمة، ولكن السيد ولبي كان شديد الرغبة

في إطلاعي على البيت، وأؤكد لكِ أنه بيت يأخذ بالألباب، ففيه حجرة جلوس جميلة في الطبقة العليا، وهي رحبة تمكِّن الإنسان من استخدامها بصفة دائمة، وإذا زوِّدت بالأثاث الحديث أصبحت رائعة، وهي تقع في أحد أركان البيت، ولها نوافذ على جانبين، أحدهما يطل على الملعب المخصّص للكرة الخشبية خلف المنزل وعلى غابة معلقة وراء الملعب، والجانب الآخر يطل على الكنيسة والقرية، وفيما وراءهما تشاهد التلال الجميلة الشديدة الانحدار التي أثارت إعجابنا كثيراً، ولكن منظر هذه الحجرة لم يعجبني كثيراً لأني لم أرَ ما هو أبخس من أثاثها. بيد أنها إذا أثثت بأثاث جديد - يقول ولبي: إنّ مائتي جنيه تجعل منها حجرة صيفية من أروع الحجرات في إنجلترا».

ولو أن إلينور أصغت إليها دون أن يقطع أحد عليهما الحديث لوصفت لها مريان كل حجرة بمثل هذه البهجة.

الفصل الرابع عشر

كان انتهاء زيارة كولونيل براندون في بارتون بارك فجأة، وإصراره على كتمان السبب، ممّا شغل بال السيدة جننجز وأثار دهشتها يومين أو ثلاثة. وكانت السيدة جننجز امرأة طُلَعة، شأن مَن يهتم كثيراً بغدوات أصدقائه وروحاته. فتاقت كثيراً إلى معرفة السبب الذي دعا براندون إلى إنهاء زيارته، وكانت تعتقد أنه تلقى أخباراً سيئة، وقلبت في ذهنها كلّ ضائقة يمكن أن تلمّ به وهي تجزم أنّ الأمر لا يخلو من أحدها.

قالت: «لا شك أن حادثاً محزناً جداً ألمَّ به. لقد رأيت أثر ذلك في وجهه. لهفي عليه! أخشى أن تكون ظروفه سيئة، فضيعته في ديلافورد لم تغلّ قط أكثر من ألفي جنيه في العام، وأخوه ترك الضيعة غارقة في الديون. وأظن أنه استدعِي لأمور مالية، وإلا فماذا عسى أن يكون السبب؟ ليت شعري هل السبب كذلك؟ بودّي لو وقفت على حقيقة الأمر. لعلّه يتعلق بالآنسة وليامز. وعلى ذكر الآنسة وليامز أكاد أجزم أنه كذلك، لأنه ظهر عليه الاهتمام حينما ذكرت اسمها. ربما تكون مريضة في لندن، وهذا هو أكثر الأمور احتمالاً لأني أعرف أنها تشكو العلّة دائماً، وأنا أراهن أن الأمر

يتصل بها. وليس من المحتمل كثيراً أن تحلّ به أزمة مالية الآن لأنه رجل حسن التدبير، ولا بدَّ أنه صفى الديون التي تراكمت على الضيعة وإلّا فما هو السبب يا ترى؟ ربما ساءت حال أخته في أفنيون فاستدعته، وإسراعه بالرحيل يدلّ على ذلك. وعلى كلّ حال أتمنى من صميم فؤادي أن تنتهي كلّ متاعبه، وأتمنى له زوجة صالحة أيضاً.

هكذا كانت ظنون السيدة جننجز، وهكذا كان حديثها. كان رأيها يتغيّر مع كلّ ظن جديد، وكانت هذه الظنون تبدو كلها محتملة على حدّ سواء عندما تخطر ببالها. وكانت إلينور على اهتمامها بأمر كولونيل براندون لا تدهش كلّ الدهشة لسفره المفاجئ كما أرادت السيدة جننجز منها ذلك، لأنها رأت أنّ الأمر لا يستدعي هذه الدهشة الدائمة ولا هذه الظنون المختلفة، بل كانت تدهش لأمر آخر ألا وهو الصمت الغريب الذي لاذت به أختها هي وولبي بإزاء هذا الموضوع ممّا يدل على أنهما يعرفان لا محالة أنّ الأمر يهمّهما بصفة خاصة. ولمّا استمر هذا الصمت اتضح لها كلّ يوم أنه صمت أغرب وأعجب من أن يتّفق مع طباعهما ولم تستطع إلينور أن تتصوّر لماذا لا يكاشفانها هي وأمها بحقيقة ما حدث، ممّا يدل عليه مسلك كل منهما تجاه الآخر.

وكانت إلينور تدرك بسهولة أنه ليس في وسعها إتمام الزواج في الحال، لأنه لم يكن ثمة من الأسباب ما يحمل على الاعتقاد بأن ولبي رجل ثري وإنْ كان يعيش في سعة. وكان سير جون يقدِّر إيراد ضيعته بما يقرب من ستمائة أو سبعمائة جنيه في العام، ولكن نفقاته كانت تتجاوز دخله. وكان هو نفسه يشكو الفقر كثيراً، ولكنها كانت تحار في تفسير ذلك الكتمان الغريب الذي أحاطا به خطبتهما، وهو

كتمان لم يخفِ في الحقيقة شيئاً على الإطلاق كما كان يتنافى مع آرائهما وتصرفاتهما إلى حدّ جعلها تشكّ أحياناً في أنهما مخطوبان بالفعل. وبلغ هذا الشك حداً جعلها تمتنع عن سؤال مريان في الأمر.

لم يكن ثمة ما هو أدلّ على حب ولبي لهن جميعاً من مسلكه. كان يُظهر كل الحنان الذي يغمر قلب المحب، ويُبدي لبقية أفراد الأسرة من الحب والاهتمام ما يُبديه الابن والأخ، ويعدّ منزلهن الريفي ويحبه كمنزله، ويقضي فيه من الساعات أكثر ممّا يقضي في أَلِنْهَام. وإذا لم يرتبطن بموعد عام في بارتون بارك ختم رياضته التي تستدعي الخروج في الصباح بزيارتهن حيث يقضي بقية اليوم مع مريان، يرافقه كلب صيده المحبوب.

وظهر لهن في مساء يوم من الأيام، بعد سفر كولونيل براندون بنحو أسبوع أنه يضمر في قلبه كلّ حب لما يراه في المنزل، فقد أعربت السيدة داشوود عن اعتزامها إصلاح المنزل في الربيع، فما كان منه إلّا أن عارض بشدّة في إجراء أي تغيير في البيت الذي زيّن له الحب أنه مثال الكمال.

صاح قائلاً: «ماذا! إصلاح المنزل المحبوب! كلا! هذا أمر لا أوافق عليه أبداً، لن يُضاف حجر إلى جدرانه، ولا قيد أنملة إلى حجمه، إذا كنتن تحرصن على مراعاة شعوري».

فقالت الآنسة داشوود «لا تُرَعْ! لن يحدث شيء من ذلك لأنّ والدتي ليس لديها من المال ما يكفي لذلك».

فقال: «يسرني كثيراً أن أسمع ذلك، وأرجو أن تظلّ فقيرة إذا لم تستطع أن تنفق أموالها في خير من ذلك».

«شكراً لك يا ولبي. ثق أنني لن أضحي بحبك لهذا المكان أو بحب أي شخص أحبه في سبيل أي نوع من الإصلاح. ثِق أنه مهما توافر لي مبلغ من المال عندما أصفي حسابي في الربيع فسأدّخره دون أن أنتفع به ولا أنفقه في أمر يؤلمك، ولكن حدثني: أتحب هذا المكان حباً لا ترى معه فيه عيباً؟».

فأجاب «نعم، لا أرى فيه عيباً، بل أكثر من ذلك أني أراه المكان الوحيد الذي ينعم فيه المرء بالسعادة. ولو كان لدي قدر كافٍ من المال لهدمتُ كومب من فوري، وأعدت بناءه على نمط هذا البيت الريفي».

فقالت إلينور: «أظنك ستبنيه بهذا الدرج الضيق المظلم، والمطبخ الذي ينبعث منه الدخان!».

فصاح باللهجة الحماسية نفسها «بكل شيء فيه - كما هو بعيوبه ومحاسنه دون أدنى تغيير، وحينئذٍ وحينئذٍ فقط، وتحت مثل هذا السقف، أنعم بالسعادة في كومب كما نعمتُ بها في بارتون».

فقالت إلينور: «أعتقد أنك ستجد بيتك في المستقبل مثال الكمال كما ترى بيتنا الآن، حتى مع عيوبه التي تتمثل في غرفه الواسعة ودرجه العريض».

فقال ولبي: «لا ريب أن هناك ظروفاً قد تحبّب إلى بيتي. ولكني سأظل أدين لهذا البيت بحبٍّ لا يشاركه فيه غيره».

فنظرت السيدة داشوود بعين ملؤها السرور إلى مريان التي رمقت ولبي بنظرات تعبّر بوضوح عن فهمها لقصده.

واستطرد يقول: «كم وددتُ حينما كنت في ألِنْهام في مثل هذا الوقت من العام الماضي أن أرى بارتون كوتيج مسكوناً! وما مررت

به قط على مرأى منه إلا وأعجبتُ بموقعه، وحزنت لخلوه من الساكن. وقلّما خطر ببالي أن أول نبأ سأتلقاه من السيدة سميث حينما أعود إلى الريف أن بارتون كوتيج قد تمّ تأجيره، فشعرت في الحال بالارتياح لهذا الحادث والاهتمام به. ولا تعليل لذلك إلا إحساسي السابق بالسعادة التي سوف ألقاها في هذا المكان».
وهمس في أذن مريان قائلاً: «أما كان يجب أن يكون الأمر كذلك يا مريان؟» ثم استطرد يقول بلهجته السابقة: «ومع ذلك فأنتِ تريدين إفساد هذا البيت يا سيدة داشوود، وتصرّين على تجريده من بساطته بالإصلاحات الخيالية! وتصرين على تحويل هذه الردهة العزيزة إلى مدخل عادي، وهي الردهة التي تعارفنا فيها لأول مرة، وقضينا فيها ساعات كثيرة منذ ذلك الحين، وكلنا نتوق إلى أن نمرّ خلال الغرفة التي توافر فيها حتى الآن من وسائل الراحة والاستعداد لاستقبال الزائرين ما لا يتوافر في أيّ غرفة في العالم بالغة من السعة ما بلغت».

فأكّدت له السيدة داشوود من جديد، أنها لن تُقدِم على إدخال أيّ تغيير في البيت.

فأجاب بحرارة: «أنت امرأة طيبة. وهذا الوعد من شأنه أن يُريح بالي. وإذا توسّعت في هذا الوعد قليلاً كنت سعيداً. لا أريد أن تَعدِيني فحسب أن يظلّ البيت كما هو بلا تغيير، بل أريد أن تَعِديني أيضاً أن تظلّي أنت وبناتك على عهدي بكنّ، وأن تشمليني دائماً بالعطف الذي حبَّب إليّ كل شيء يمتّ لك بِصِلة».

فوعدته بذلك من فورها، وكان مسلك ولبي طوال هذا المساء ينبئ عمّا يكنّه بين جوانبه من الحب والسرور.

وبينما كان يودّعهن قالت له السيدة داشوود: «هل لك أن تتناول معنا الغداء غداً. لا أكلّفك الحضور في الصباح، لأننا مرتبطات بالذهاب إلى بارتون بارك لزيارة ليدي ميدلتون؟».

فوعد بزيارتهن في الساعة الرابعة.

الفصل الخامس عشر

زارت السيدة داشوود ليدي ميدلتون في الغد ترافقها اثنتان من بناتها، واعتذرت مريان عن مرافقتهن بحجّة واهية هي مشاغلها في البيت، وارتاحت أمها تمام الارتياح لبقائها في المنزل لعلمها أن ولبي وعد أمس بزيارتهن في أثناء غيابهن.

وعند عودتهن رأين عربة ولبي وخادمه لدى الباب، فاعتقدت السيدة داشوود أنها أصابت في ظنها. وكان كلّ شيء يجري حتى الآن على نحو ما تتوقع، ولكنها عندما دخلت المنزل شاهدت ما لم تكن تتوقعه قط، فما إن وطئت أقدامهن الطرقة حتى أسرعت مريان بالخروج من الردهة تبدو عليها أمارات الحزن الشديد وتمسح دموع عينيها بمنديلها، ثم هرولت على الدرج دون أن تعيرهن التفاتاً، فاستحوذ عليهن الفزع والدهشة، ودخلن من فورهن الحجرة التي خرجت منها، فوجدن فيها ولبي جالساً وحده، مستنداً إلى جوار المدفأة وظهره إليهن، فاستدار عند دخولهن وعلى وجهه أمارات الانفعال الشديد الذي بدا على وجه مريان.

فصاحت السيدة داشوود عندما دخلت: «ما بال مريان؟ هل هي مريضة؟».

فأجاب وهو يتصنّع البشاشة: «أرجو ألّا تكون كذلك» ثم

تكلف الابتسام وأردف: «إنني أنا الذي أتوقع أن أصاب بالمرض لأني أعاني الآن خيبة أمل مرة».

«خيبة أمل!».

«نعم لأني لا أستطيع الوفاء بما ارتبطت به معكن. فالسيدة سميث أوصت في هذا الصباح بما لها لبنت عم فقيرة، وكلّفتني السفر إلى لندن للقيام ببعض الأعمال، وتسلّمت الآن الأوراق الرسمية الخاصة بذلك، وغادرت ألنهام. وجئت الآن لأسرِّي عنكن وأقول لكن وداعاً».

«إلى لندن! وستسافر هذا الصباح؟!».

«بل أكاد أسافر في هذه اللحظة».

«إنه لأمر مؤسف. ولكن السيدة سميث لا بدَّ أن تكون مضطرة... وأرجو ألا تحجبك أعمالها عنا وقتاً طويلاً».

فأجاب وقد اربدّ لونه: «هذا كرم بالغ منك، ولكن لا أمل إطلاقاً في العودة إلى ديفونشاير في القريب العاجل، فأنا لا أكثر الزيارة للسيدة سميث في غضون العام».

«ولعل السيدة سميث هي صديقتك الوحيدة؟ وهل ألنهام هو البيت الوحيد في هذه الجهة الذي يستقبلك على الرحب والسعة؟ يا للعار يا ولبي! هل تنتظر دعوة منا؟».

فازداد لونه تغيراً ونكس رأسه إلى الأرض، وما كان جوابه إلّا أن قال: «هذا فضل كبير منك».

ونظرت السيدة داشوود إلى إلينور في دهشة، وكانت إلينور لا تقلّ عنها شعوراً بالدهشة. وخيّم الصمت على الجميع بضع دقائق، وكانت السيدة داشوود أول مَن تكلم:

«كل ما أريد أن أضيفه يا عزيزي ولبي أننا سنستقبلك دائماً في منزلنا على الرحب والسعة، ولا أريد أن ألحّ عليك في أن تعود قريباً، لأنك أنت الذي تستطيع أن تحكم إلى أيّ حد يرضي ذلك السيدة سميث. وفي هذه القضية لا أرتاب في حكمك أكثر ممّا أرتاب في رغبتك».

فأجاب ولبي وهو يختلج اضطراباً: «إن مواعيدي في الوقت الحاضر من شأنها - أن - لا أعتقد». وأمسك عن الكلام، وعقدت الدهشة لسان السيدة داشوود عن الكلام، ثم ساد الصمت لحظة، وقطعه ولبي، فتكلم وقد افترّ ثغره عن ابتسامة خفيفة: «من الحماقة أن أبقى على هذا النحو. لا أريد أن أعذّب نفسي بالبقاء أكثر من ذلك بين قوم يتعذّر عليّ بعد الآن أن أنعم بصحبتهن».

فودعهن جميعاً على عجل، وبارح الحجرة، ورأينه يركب عربته، ولم يلبث أن اختفى عن الأنظار.

وعقد الأسى لسان السيدة داشوود عن الكلام، فغادرت الردهة في الحال، ليستبدّ بها في الخلوة، ما أثاره هذا السفر المفاجئ من قلق وفزع.

وكان ما شعرت به إلينور عن قلق لا يقلّ عمّا خالج أمها، وأخذت تفكّر فيما حدث منذ قليل في شيء من القلق وسوء الظن، وانزعجت كثيراً لمسلك ولبي في توديعهن وارتباكه وتصنّعه البشاشة. وممّا زادها انزعاجاً عدم رغبته في قبول دعوة أمها ممّا لا يتّفق مع طباع المحب ولا مع طباعه هو. وكانت تارة تخشى ألّا يكون ولبي قد خالجته قط رغبة جدّية في الزواج من أختها، وتارة تخشى أن يكون قد نشب خلاف مؤسف بينه وبين أختها، ورأت أن أقرب الأشياء إلى العقل هو أن الحزن الذي بدا على مريان عند مغادرتها

الحجرة يرجع إلى نشوب هذا الخلاف الخطير، ولكنها رأت استحالة حدوث هذا الخلاف لما تعرفه من حبّ مريان له.

ولكن مهما تكن أسباب هذا الفراق فقد حزنت إلينور حزناً شديداً لا شك فيه، وخالجها أرق مشاعر العطف والحنان لما شعرت به مريان من بالغ الأسى. وأكبر الظنّ أنّ مريان استسلمت لهذا الأسى لا ليخفّف من مصابها فحسب، بل لأنها كانت ترى من الواجب أن تسترسل فيه.

وعادت أمها بعد نصف ساعة ولم تكن عابسة الوجه ولكن عينيها قد احمرّتا من البكاء.

وقالت حين جلست: «إن عزيزنا ولبي الآن على بضعة أميال من بارتون يا إلينور، يحمل بين جنبيه قلباً مفعماً بالأسى».

«إنّ الأمر كله يدعو إلى العجب. سفره المفاجئ على هذا النحو! يبدو لي أنه ابن ساعته. لقد كان معنا في الليلة الماضية مفعم القلب بالغبطة والبهجة والمحبة! والآن وبعد إخطار لا يتجاوز عشر دقائق - يسافر حتى بدون أن ينوي العودة! - لا بدَّ أن شيئاً أكثر ممّا اعترف به لنا قد حدث. إنّ حديثه وتصرفه معنا لا يتفقان مع ما نعرفه عنه. لا بدَّ أنك لاحظت الفرق كما لاحظته. ماذا جرى يا ترى؟ هل تشاجرا؟ وإلا فما الداعي لإظهاره عدم الرغبة في قبول دعوتك؟».

إن الرغبة لا تنقصه يا إلينور. لقد بدت لي منه بوضوح، ولكنه لا يملك القدرة على قبولها. أؤكد لك أنني قلبت الأمر في ذهني، وفي وسعي أن أعلِّل تماماً لكل شيء بدا لك غريباً لأول وهلة كما بدا لي».

«أحقاً تستطيعين ذلك؟».

«نعم لقد فسرت الأمر في نفسي على نحو مقنع للغاية - ولكنك أنت يا إلينور، يا من تميلين إلى الشك حيث أمكنك - لن يشفي غليلك تفسيري فيما أعلم. ولكنك لن تستطيعي أن تزعزعي إيماني بصحته. أنا أعتقد أن السيدة سميث يخالجها الظن بأنه يحب مريان وهي تستنكر هذا الحب (ربما لأنها تريد له زوجة أخرى) ولهذا السبب تحرص على إبعاده عنها - والمهمة التي أرسلته من أجلها إلى لندن هي تعلّة تذرّعت بها لإبعاده. هذا ما أعتقد أنه حدث. وهو يعلم - إلى ذلك - أنها لا توافق على هذا الزواج، ولا يجرؤ في الوقت الراهن أن يعترف لها بخطبته لمريان، ويشعر أنه مضطر - بسبب اعتماده عليها - إلى مسايرتها في أغراضها، والتغيُّب عن ديفونشاير بعض الوقت. أنا أعلم أنك ستقولين قد يكون الأمر كذلك وقد لا يكون، ولكن لن أصغي لأية مغالطة أو مكابرة ما لم تفسري لي الموقف بطريقة مقنعة كطريقتي. والآن يا إلينور هات ما عندك!».

«لا شيء عندي لأنك قد سبقتني إلى الجواب».

«إذن كنت تريدين أن تقولي قد يكون الأمر كذلك وقد لا يكون. عجباً لك يا إلينور! أنا لا أستطيع أن أفهم شعورك. أنت تميلين لإساءة الظن بالناس بدلاً من حسن الظن بهم، وتتلمسين أسباب الشقاء لمريان، التجني على ولبي، بدلاً من أن تلتمسي له الأعذار، وتصممين على القول بأنه ملوم لأنه أظهر في وداعنا من الحب أقل ممّا تعودناه منه. أما يجدر بنا أن نعتذر له بالسهو أو الحزن لما أصابه أخيراً من خيبة الأمل! أيصحّ ألا نسلم بأيّ احتمال من الاحتمالات لا لسبب إلا لأنها أمور غير يقينية! أما يجب علينا

أن نرعى حقّ الرجل الذي يوجد لدينا جميعاً كثير من الأسباب التي تحملنا على حبه، وليس ثمة ما يدعونا إلى إساءة الظن به! ألا يحتمل أن تكون لديه أسباب وجيهة في حدّ ذاتها، وإن لم يجد مفراً من كتمانها فترة من الزمن! وأخيراً أسألك: ماذا يريبك منه؟».

«لا أستطيع أن أجيبك أنا نفسي - ولكن الظنّ بأنّ في الأمر شيئاً لا يبعث على الرضا هو نتيجة حتمية لمثل هذا التغيير الذي شاهدناه فيه. على أنّ ثمة كثيراً من الحق فيما ذكرتِ من الأعذار التي ينبغي التماسها له. وأنا أحب أن أكون صريحة في حكمي على كل إنسان. لا ريب أنّ ولبي قد يكون لديه ما يكفي من الأسباب لتبرير سلوكه، ولكن كان الأجدر به أن يعترف بهذه الأسباب في الحال. وقد يكون الكتمان مستحسناً، ولكن لا يسعني إلّا أن أعجب حين يلجأ هو إلى الكتمان».

«ومع ذلك فلا تلوميه على إتيانه أمراً يتنافى مع أخلاقه حيث توجب عليه الضرورة ذلك. ولكني أراك تعترفين في الواقع بصحة الأعذار التي التمستها دفاعاً عنه؟ إنني سعيدة بهذا الاعتراف، لقد ظهرت براءته».

«لم أعترف بصحتها كلها! قد يكون من المناسب إخفاء خطبتهما (إذا صحّ أنهما مخطوبان) عن السيدة سميث - وإذا كان الأمر كذلك كان من مصلحة السيد ولبي أن يحتجب عن ديفونشاير في الوقت الحاضر. ولكن ذلك لا يُقيم عذراً لإخفائهما هذه الخطبة عنا».

«إخفائها عنا! أتتهمين يا ابنتي العزيزة ولبي ومريان بالإخفاء؟ هذا غريب حقاً، وأنت ترمقينهما كلّ يوم بعين التأنيب لما يبديان من عدم الحذر».

فأجابت إلينور: «لا أريد دليلاً على حبهما، ولكن على خطبتهما أريد دليلاً».

«إنني مقتنعة تماماً بوجود الأمرين كليهما».

«ولكن أحداً لم يقُل لك كلمة في هذا المعنى».

«لست بحاجة إلى الكلام ما دامت الأفعال تنطق بأفصح مقال. ألم يدلّ سلوكه نحو مريان ونحونا جميعاً خلال الأسبوعين الماضيين على الأقل، على أنه يحبها ويعدّها زوجته المستقبلة، وأنه يحبنا محبة ذوي الأرحام؟ ألم يفهم بعضنا بعضاً حق الفهم؟ ألم يطلب موافقتي كلّ يوم بنظراته وأحواله واحترامه الذي ينطوي على الحب والاهتمام؟ عزيزتي إلينور! أيجوز أن نشكّ في خطبتهما؟ كيف يتبادر إلى ذهنك هذا الظن؟ كيف تظنين أنّ ولبي - على الرغم من تأكّده من حب أختك له - يهجرها وربما يهجرها عدة شهور، دون أن يُفضي لها بحبه - وأن يفترقا دون أن يفضي أحدهما للآخر بسره؟».

فأجابت إلينور: «إنني أعترف أن جميع القرائن تؤيد خطبتهما ما عدا قرينة واحدة، وهذه الواحدة هي صمتهما المطبق بشأن هذا الأمر، وعندي أنّ هذه القرينة ترجّح جميع القرائن الأخرى».

«يا له من أمر غريب! إنك تسيئين الظن كثيراً بولبي إذا كنت تشكّين - بعد كل الذي جرى بينهما صراحة - في كُنه العلاقة التي تربطهما أكان ولبي يمثل دوراً في سلوكه بإزاء أختك طول هذه المدة؟ أتظنين أنه لا يعبأ بها حقاً؟».

«كلا! لا أظن ذلك. من المؤكد أنه يحبها، وأنه يحبها فعلاً. لا شك عندي في ذلك».

«ولكنه حبٌّ من نوع غريب، إذا صحّ أنه يهجرها غير آبه بها، ولا مكترث بمستقبلها كما تقولين عنه».

«يجب أن تتذكري - يا والدتي العزيزة - أنني لم أجزم بذلك قط. إنني أعترف أن الشكوك ساورتني، ولكنها تضاءلت أكثر ممّا كانت عليه. وربما زال أثرها من نفسي عمّا قريب. وإذا اتضح أنهما يتراسلان زالت كلّ المخاوف من نفسي».

«تساهل عظيم حقاً! إذا أتيح لك أن تريهما عند المذبح، صدّقت أنهما سيتزوجان. يا لك من بنت غليظة القلب! أما أنا فلا أحتاج إلى مثل هذا الدليل لأني لم أرَ شيئاً ممّا حدث يبرر الشك، فلم يحاول أحدهما أن يلوذ بالكتمان. كلّ شيء جرى بصراحة وبلا تحفّظ على حدّ سواء. وليس في وسعك أن تشكّي في رغبة أختك. فلم يبقَ إلا ولبي الذي تشكّين في أمره. ولكن لماذا؟ أليس رجلاً ذا شرف وإحساس؟ هل بدا منه من تقلب الأهواء ما يثير الفزع؟ أيمكن أن يكون رجلاً خداعاً؟».

فصاحت إلينور: «أرجو ألّا يكون، وأعتقد أنه ليس كذلك. أنا أحب ولبي وأحبه بإخلاص. والشك في نزاهة مقصده لا يمكن أن يؤلمك أكثر ممّا يؤلمني. لقد خالجني هذا الشك على كرهٍ مني، ولن أسمح لنفسي بالتمادي فيه. وأعترف أنني ذعرت عندما لمست تغيُّر أحواله هذا الصباح، فلم يتكلم كعادته ولم يقابل عطفك وبرك بأيّ مظهر من مظاهر الودّ. ولكن ذلك كله يمكن تعليله بما ذكرت من دقّة موقفه. لقد فارق أختي ورآها تعاني لوعة الأسى لفراقه وإذا كان قد شعر بأنه مضطر - خوفاً من إغضاب السيدة سميث - إلى كبح جماح رغبته في العودة إلى هذا المكان قريباً، ثم شعر أنه برفضه لدعوتك وبقوله: إنه سيتغيب إلى حين، أنه يرتكب في حق

أسرتنا عملاً مريباً غير كريم، كان من حقه أن يشعر بالحرج والاضطراب. وفي مثل هذه الحالة كان اعترافه الصريح بما يواجه من مشاكل ومتاعب أجدر بشرفه - كما يكون أشبه بما نعهده من أخلاقه - ولكنني لا أريد أن أعترض على مسلك أي إنسان على أساس غير كريم ألا وهو اختلافه معي في الرأي، وانحرافه - فيما أعتقد - عن جادة الحق والثبات على المبدأ».

«إنك تقولين قولاً سديداً. ومن المؤكد أنه لا يجدر بنا أن نرتاب في أمر ولبي، فهو ليس غريباً في هذا الجزء من العالم، وإن لم نعرفه من عهد بعيد، ومَن ذا الذي عاب في حقه؟ ولو أنه كان في موقف يملك فيه حرية التصرف وإتمام الزواج في الحال لكانَ من الغريب أن يرحل عنا دون أن يصارحنا من فوره بكلّ شيء، ولكن الأمر بخلاف ذلك. فخطبتهما بدأت بداية غير موفقة من بعض الوجوه لأنّ الزواج لا بدَّ أن يتم في موعد بعيد غير مؤكد. ويبدو لي أنّ مراعاة الكتمان ما أمكن قد تكون الآن أمراً مستحسناً جداً».

ودخلت مرغريت فقطعت عليهما الحديث، وبذلك أتيحت الفرصة لإلينور لتتأمل بحرية في اعتراضات أمها، وتعترف باحتمال صحة الكثير منها، وترجو أن تكون كلها عادلة.

ولم تظهر مريان إلى أن حان وقت الغداء، فدخلت الغرفة وجلست إلى المائدة دون أن تنبس ببنت شفة، وعيناها حمراوان متورمتان، وكانت تحبس الدموع في مآقيها بصعوبة، وتتجنب النظر إليهن جميعاً، ولم تأكل أو تتكلم. وبعد برهة ضغطت أمها يدها في صمت، بشيء من الحنان والعطف، فانهار ذلك القدر الضئيل من التجلّد الذي أبدته، وأجهشت بالبكاء وغادرت الغرفة.

وظلت تشعر بلوعة الأسى طول المساء، وخارت قواها لأنها فقدت كلّ رغبة في ضبط نفسها، وكانت لا تطيق أدنى إشارة إلى أي شيء يتصل بولبي، واستحال على أهلها - مع حرصهن البالغ على راحتها - أن يتحاشين - إذا تكلمن على الإطلاق أي موضوع يتصل به.

مكتبة 707
سُر مَن قرأ

الفصل السادس عشر

لو أن مريان استطاعت أن تنام ولو قليلاً في أول ليلة بعد فراق ولبي لعدَّت ذلك ذنباً لا يغتفر، ولو أنها حين نهضت من فراشها كانت أحوج إلى الراحة منها حين أوت إليه لخجلت أن تواجه أهلها في صباح اليوم التالي. ولكن العاطفة التي جعلتها تعدّ مثل هذا الهدوء ضرباً من العار جعلتها ألّا تخشى التعرض له، فقد سهرت الليل كله، وبكت فيه إلا أقله، واستيقظت وهي تشعر بالصداع، والعجز عن المشي، والرغبة عن الطعام، وتبعث الألم في نفس أمها وأخواتها في كل لحظة، ولم تقبل منهن أي عزاء أو سلوى. لقد كانت عاطفتها قوية جداً.

ولما انتهى طعام الفطور، خرجت وحدها للنزهة، وتجولت في قرية ألنهام وهي تستغرق في ذكريات الأيام الماضية الممتعة، وتبكي على محنتها الحاضرة معظم ساعات الصباح.

وقضت مساء ذلك اليوم وهي تستعيد هذه الذكريات، وعزفت كل أغنية محبوبة كانت تعزفها لولبي، وردّدت كلّ لحن اشتركا معاً في غنائه، وجلست إلى الآلة الموسيقية وهي تتأمل في كلّ سطر من سطور الأغاني التي كتبها لها إلى أن اعتراها من الحزن ما لا مزيد عليه. وظلَّت تتجرع غصص الأحزان كل يوم، وتقضي الساعات

الطوال أمام البيانو بين الغناء والبكاء حتى تخنقها العبرات. وكانت تشعر بلوعة الأسى عند القراءة، كما تشعر بها عند الغناء، وذلك إذا قارنت بين حالها في الماضي وحالها في الحاضر، ولم تقرأ شيئاً إلا ما كانت تقرؤه معه.

والواقع أنها لم تستطع أن تتجرع غصص الآلام إلى الأبد، فقد استحالت هذه الآلام في خلال أيام إلى ضرب من الكآبة التي تقترن بالهدوء. ولكن الأعمال التي كانت تمارسها كل يوم، وضروب النزهة التي تقوم بها منفردة، والتأملات الصامتة التي تستغرق فيها - كل ذلك كان يذكّي لهيب الأسى في فؤادها.

ولم يَرِد خطاب من ولبي، ولم تتوقع مريان - فيما يبدو - أن تتلقى منه خطاباً، ودهشت لذلك أمها، وعادت إلينور فساورها القلق. ولكن السيدة داشوود كانت تتلمّس المعاذير، كلما أرادت، وتجد فيها ما يشفي غليلها على الأقل.

قالت «تذكري يا إلينور كم مرة يأتينا سير جون بالخطابات من البريد ويحملها إليه. لقد اتفقنا على أن الكتمان قد يكون ضرورياً، ويجب علينا أن نعترف أنه لا يمكن استمرار هذا الكتمان إذا وقعت خطاباتهما في يدي سير جون».

ولم يسَع إلينور أن تنكر هذه الحقيقة، ورأت في ذلك باعثاً قوياً على التزام الصمت. ولكنها كانت ترى وسيلة مباشرة وبسيطة - وفي رأيها أنها خير وسيلة - للوقوف على حقيقة الأمر، وإزالة ما يكتنفه من الغموض على الفور، ولم يسعها إلّا أن تقترح هذه الوسيلة على أمها.

قالت: «لِمَ لا تسألين مريان حالاً أمخطوبة هي لولبي أم غير

مخطوبة؟ والسؤال منك أنت الأم الحنون الرؤوم لا يمكن أن يثير غضبها، بل تراه نتيجة طبيعية لمحبتك لها. ومريان لا تعرف التحفظ والتكتم وبخاصة معك».

«لا يمكن أن أسألها هذا السؤال بأيّ حال من الأحوال، افرضي أنهما غير مخطوبين ألا يسبب لها هذا السؤال أشد الألم؟ وعلى كلّ حال فإنه يكون خالياً من الشهامة ولا أكون جديرة بثقتها مرة أخرى إذا انتزعت منها اعترافاً بأمر يُراد أن يبقى في طي الكتمان في الوقت الراهن. إنني أعرف شعور مريان: أعرف أنها تحبني حباً جماً، وأنني لن أكون آخر من يعلم بالأمر حينما تجعل الظروف إظهاره أمراً مستحسناً. ولا أودّ أن أنتزع سرّ أي إنسان فضلاً عن ابنتي لأن الشعور بالواجب قد يمنعها من إنكار ما تريد هي إنكاره».

وكانت إلينور ترى هذه الشهامة أمراً متكلفاً، بالنظر إلى حداثة أختها، وألحّت على أمها في الأمر مرة أخرى ولكن عبثاً، وتلاشى العقل والحذر والحكمة أمام العواطف الرقيقة الخيالية التي تتّصف بها أمها.

ومرّت عدة أيام دون أن يرد اسم ولبي أمام مريان على لسان أحد من أهلها، أما سير جون والسيدة جننجز فلم يبديا مثل هذا التحفظ، فزادتها نكاتهما ألماً على ألم وفي مساء يوم من الأيام تناولت السيدة داشوود عَرَضاً أحد كتب شكسبير وصاحت:

«إننا لم نتمّ قط قراءة هاملت يا مريان. لقد سافر عزيزي ولبي قبل أن نفرغ منها. سندعها جانباً حتى إذا عاد. ولكن قد تمضي شهور قبل تلك العودة».

فصاحت مريان في دهشة شديدة «شهور! كلا - ولا أسابيع كثيرة».

وتأسفت السيدة داشوود على ما قالت، ولكن إلينور سُرّت بما قالت لأنه انتزع من مريان جواباً يعبّر عن ثقتها بولبي ومعرفتها بنواياه.

وفي صباح يوم وبعد حوالي أسبوع من مغادرته الريف قبلت مريان أن تشارك أخواتها في نزهتهن المعتادة بدلاً من أن تتجول وحدها. وكانت تأبى حتى ذلك الوقت أن تصحب أحداً في جولاتها، فإذا أرادت أخواتها أن يتنزهن في المروج تسللت منهن، ومضت لا تلوى على شيء نحو الدروب التي تتخلل الحقول. وإذا تحدثن عن النزهة في الوادي أسرعت بالتسلق إلى التلال، ولم يعثرن لها على أثر. ولكن إلينور في جولاتها عثرت عليها أخيراً وكانت تمقت هذه العزلة المستمرة. فَسِرنَ في الطريق الذي يتخلل الوادي والصمت يغلب عليهن، لأنه لم يكن في وسع مريان أن تضبط نفسها. واكتفت إلينور بهذه الخطوة ولم تطلب إلى أختها شيئاً آخر. وكان يمتد أمامهن طريق طويل هو الذي سِرْنَ فيه عند قدومهن إلى بارتون أول مرة، وذلك وراء مدخل الوادي الذي كانت فيه الأرض على خصوبتها قليلة الزروع، عارية من الغابات والأشجار. وعندما وصلن إلى هذا المكان توقفن عن السير لينظرن حولهن ويتأملن في منظر يمتد على طول المسافة التي يقع عليها بصرهن من منزلهن، وذلك من نقطة لم يحدث أن وصلن إليها في أية جولة من جولاتهن السابقة.

وسرعان ما شاهدن - فيما شاهدنه من الأشياء - شبحاً ينبض بالحياة، وكان هذا الشبح يمتطي صهوة جواد ويتجه نحوهن، وبعد دقائق معدودات استطعن أن يتبينّ أنه رجل، وما هي إلا أن صاحت مريان وقد استطيرت فرحاً.

إنه هو حقاً - أنا أعرف أنه هو! - وسارعت إلى لقائه، وإذا بإلينور تصيح بها:

«أظن يا مريان أنك مخطئة في واقع الأمر. ليس بولبي، فهذا الشخص ليس فارع القوام مثله، وليست له هيئته».

فصاحت مريان «له هيئته، له هيئته. أنا واثقة من ذلك. هيئته وسترته وجواده. كنت أعلم أنه سيأتي قريباً».

وهرولت مسرعة وهي تتكلم؛ وأرادت إلينور أن تمنعها من استقصاء أمره لأنها كانت توقن أنه ليس بولبي، فأسرعت خطاها ولحقت بها، وأصبحتا على بعد ثلاثين ياردة من الرجل، وأعادت مريان النظر فَسُقِطَ في يدها.

استدارت من فورها وعادت مسرعة، وإذ صاحت بها أختاها أن تتوقف عن المسير، صاح بها شخص ثالث يكاد يكون معروفاً لها كولبي، متوسلاً إليها أن تتوقف، فالتفتت مشدوهة وإذا بها ترى إدوارد فيرارز وترحّب به.

وكان هو الشخص الوحيد في العالم الذي تستطيع أن تعفو عنه لأنه ليس ولبي، الشخص الوحيد الذي كان يمكن أن يظفر منها بابتسامة. ولكنها مسحت دموعها لتبتسم له، ونسيت - إلى حين - في فرحة أختها، ما شعرت به هي من خيبة الأمل.

وترجّل عن جواده، وسلمه إلى خادمه، وسار معهن عائداً إلى منزلهن الذي قدم إليه لزيارتهن فاستقبلنه جميعاً استقبالاً ينمّ عن صادق الود، وبخاصة مريان التي احتفت بمقدمه أكثر من إلينور نفسها، لاحظت مريان أن لقاء إدوارد وأختها لم يكن إلا استمراراً للفتور الذي لا تدري له سبباً والذي لاحظته في نورلاند كثيراً في مسلك كلّ منهما تجاه الآخر، ولم يكن في حديث إدوارد - بالذات

- ونظراته شيء مما ينبغي أن يُظهره المُحب في هذه المناسبة. كان مرتبكاً لا تبدو عليه مظاهر السرور بلقائهن، فلا هو غلبت عليه نشوة الفرح، ولا هو بدت عليه خفة المرح، ولا تكلم إلّا بما انتزعنه منه بأسئلتهن، ولم يختص إلينور بشيء من مظاهر الحب. ونظرت مريان وأصغت إليه وهي في دهشة زائدة حتى لقد كادت تشعر نحوه بشيء من الكراهية، وانتهى بها الأمر كما ينتهي كل شعور يخالجها، بالتفكير في ولبي الذي تختلف أخلاقه اختلافاً بيناً عن هذا الذي يُراد أن يكون زوجاً لأختها.

وبعد فترة صمت وجيزة أعقبت دهشة اللقاء وأسئلته، سألت مريان إدوارد هل قدم من لندن مباشرة. فأجاب بالنفي وقال: إنه مضى عليه أسبوعان في ديفونشاير.

فردّدت «أسبوعان!» وقد اعترتها الدهشة لبقائه هذه المدة الطويلة في البلد نفسه الذي تقيم فيه إلينور دون أن يراها.

وظهر عليه بعض الألم حينما أضاف أنه كان ينزل عند بعض الأصدقاء بالقرب من بليموث.

قالت إلينور: «هل ذهبت إلى سسكس أخيراً؟».

«كنت في نورلاند منذ حوالي شهر».

فصاحت مريان: «وكيف حال نورلاند العزيزة؟».

قالت إلينور: «لعلّ حال نورلاند العزيزة المحبوبة كحالها دائماً في مثل هذا الوقت من السنة - الغابات والمراعي تكسوها الأوراق الذابلة».

فصاحت مريان: «لشدّ ما كان يستخفني الطرب حينما أرى هذه الأوراق وهي تتساقط! كم كان سروري عندما تذروها الرياح حولي في أثناء نزهتي، وكأنها وابل من المطر، وما أرق المشاعر التي

يثيرها في النفس عبير الهواء والطقس. لا أحد الآن ينعم برؤيتها، بل هي قذى يميطه الإنسان عن الطريق، ويقذفه بعيداً عن الأنظار».

قالت إلينور «ما كان إنسان يشعر بما تشعرين به من عاطفة نحو الأوراق الذابلة».

«كلا! كثير من الناس لا يشاركونني عواطفي ولا يفهمونها. ولكن بعضهم يشاركني إياها ويفهمها» وعندما قالت ذلك سبحت في طوفان من أحلام اليقظة برهة من الزمن، ثم أفاقت وقالت لإدوارد وهي تلفت نظره إلى منظر الوادي: «تأمل هنا وادي بارتون يا إدوارد. انظر إليه وأنعم براحة البال ما استطعت. انظر إلى هذه التلال! هل رأيت لها مثيلاً؟ إلى يسارك قصر بارتون بارك بين الغابات والمزارع، تستطيع أن ترى طرفاً منه. وهناك منزلنا الريفي أسفل ذلك التل البعيد الذي يشمخ بأنفه».

فأجاب «إنه إقليم جميل، ولكن من المؤكد أن تتلوث هذه الأغوار في الشتاء بالأقذار».

«كيف تفكر في الأقذار مع هذه المناظر الجميلة التي تبدو أمامك؟».

فأجاب مبتسماً: «لأني أرى بين بقية الأشياء التي تبدو أمامي درباً قذراً جداً».

فقالت مريان في نفسها، وهي تواصل السير: «يا له من أمر غريب!».

«هل جيرانكم قوم صالحون! وهل آل ميدلتون قوم طيبون؟!».

فأجابت مريان: «كلا! ليسوا كذلك إطلاقاً. وليس ثمة مكان أسوأ ممّا نحن فيه».

فصاحت أختها قائلة: «كيف تظلمين القوم إلى هذا الحد؟ إن

آل ميدلتون قوم جديرون بالاحترام يا سيد فيرارز، قد عاملونا معاملة تنطوي على أصدق الودّ. هل نسيت يا مريان كم قضينا معهم من أيامٍ عِذاب؟!».

فقالت مريان في صوت خافت: «كلا! ولم أنسَ كم قضينا معهم من لحظاتِ عَذاب».

ولم تعِر إلينور هذا القول التفاتاً، ووجهت نظرها إلى الزائر، وحاولت أن تستدرجه إلى الحديث، فحدّثته عن مسكنها الحالي ومزاياه... إلخ، وبذلك انتزعت منه بعض الأسئلة العارضة، والملاحظات العابرة. وتألمت كثيراً لبروده وتحفظه إلى درجة أوغرت صدرها، وأثارت حفيظتها، ولكنها آثرت أن تعامله بما ينبغي أن يعامل به أولو القربى والأرحام.

الفصل السابع عشر

لم تدم دهشة السيدة داشوود لرؤيته إلا لحظة واحدة، لأنها كانت ترى أنّ قدومه إلى بارتون أمر طبيعي للغاية، وتلاشت دهشتها في نشوة الفرح وعبارات الحب الذي غمر قلبها، ورحّبت بمقدمه أجمل ترحيب، فتلاشى حياؤه وفتوره وتحفّظه أمام هذه الحفاوة. وكانت هذه الخصال قد بدأت تزايله قبل أن يدخل المنزل، ولكنها تلاشت تماماً شمائل السيدة داشوود التي تأخذ بالألباب. والواقع أن الإنسان لا يستطيع أن يحب إحدى ابنتيها دون أن يشملها بهذا الحب أيضاً، وسُرّت إلينور حين رأته يعود إلى حالته الطبيعية، وبدا أنّ حبه لهن جميعاً قد زاد قوة كما أن اهتمامه بأمرهن عاد فأصبح واضحاً. ولكنه كان كاسف البال فقد امتدح البيت وأعجب بمنظره، وأظهر اهتمامه بأمرهن وعطفه عليهن، ولكنه ظلّ كاسف البال كذلك، وفطن جميع أفراد الأسرة إلى ذلك، ورأت السيدة داشوود أنه يرجع إلى تقتير أمه عليه، وجلست إلى المائدة وهي تنقم على جميع الآباء الذين يتّصفون بالأنانية.

ولما انتهى الطعام والتفقن حول المدفأة سألته: «ماذا تريد لك السيدة فيرارز في الوقت الحاضر يا إدوارد؟ ألا تزال تريد أن تكون خطيباً رغم أنفك!».

«كلا! أرجو أن تكون أمي قد اقتنعت الآن أنه ليس لدي من المواهب إلّا الميل للحياة العامة».

«ولكن كيف تتهيأ لك الشهرة؟ لأنك لكي ترضي أهلك لا بدَّ أن تكون رجلاً مشهوراً. ومع عدم الرغبة في الإنفاق، وعدم الحب للغرباء، وبدون مهنة ولا ثقة بالنفس قد يكون ذلك عليك عسيراً».

«لن أسعى إلى ذلك، لأني لا أحب أن أكون رجلاً مشهوراً، ولدي كلّ الأمل في أني لن أكونه. الحمد للّه! لا سبيل لإرغامي على أن أكون عبقرياً وخطيباً بليغاً».

«أنا أعرف جيداً أنك رجلٌ لا تعرف الطموح، وكل أمانيك تتّسم بطابع الاعتدال».

«أعتقد أنها تتسم بطابع الاعتدال الذي تتسم به أماني الناس جميعاً. إنني أحب أن أنعم بالسيادة الكاملة كما يحب الناس جميعاً. ولكن يجب أن تكون هذه السعادة على النحو الذي أريده أنا، شأني في ذلك، شأن كلّ إنسان آخر. والعظمة لن تجعلني كذلك».

فصاحت مريان: «وإذا جعلتك كذلك كان أمراً غريباً! أي صلة للغنى أو العظمة بالسعادة!».

فقالت إلينور: «العظمة تمتّ للسعادة بصلة ضعيفة، أما الغنى فيمتّ لها بصلة قوية».

فردت مريان: «إلينور! يا للعار! إن المال لا يجلب السعادة إلا حيث لا يجلبها غيره. وأي قدر من المال جاوز حدّ الكفاف، لا يجلب شيئاً من السعادة للإنسان في حدّ ذاته»[1].

---

(1) في هذا المعنى إشارة إلى قول الشاعر العربي:

«غنى النفس ما يكفيك من سد حاجة فإن زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقراً»

(المترجم)

فقالت إلينور وهي تبتسم: «لا يمكن أن نتفق في الرأي. فالكفاف الذي تقصدينه، والغنى الذي أقصده، يكادان يتشابهان فيما أعتقد. وبدونهما - كما هو الشاهد الآن - يتعذر على الإنسان أن ينعم بأيّ ضرب من ضروب الرفاهية الخارجية. وكل ما في الأمر أن أفكارك أسمى من أفكاري. والآن حدثيني ما هو الكفاف في عرفك؟».

«حوالي ألف وثمانمائة أو ألفي جنيه في العام، لا أكثر من ذلك».

«فضحكت إلينور ألفان في العام! إن ألفاً واحداً هو الغنى في نظري. لقد حدست ما تريدين أن تقولي».

فقالت مريان: «ومع ذلك، أرى أن ألفي جنيه في العام هو دخل معتدل جداً. وأي أسرة لا يمكن أن تعيش بدخل أقل. وأنا أعتقد أنني لا أسرف في طلباتي. فالأسرة التي تشتمل على عدد من الخدم ولها عربة أو عربتان، وصيادون لا يمكن أن تعيش بدخل أقل من ذلك».

فضحكت إلينور مرة أخرى عندما سمعت أختها تصف بدقة نفقاتها المستقبلية في كومب ماجنا.

وردد إدوارد: «صيادون! ولكن لماذا يكون عندك صيادون؟ فكل إنسان لا يصطاد».

فتغير لون مريان وقالت: «ولكن معظم الناس يصطادون».

وخطرت لمرغريت فكرة جديدة فقالت: «أتمنى أن تُرزَق كل منا برجل يعطيها ثروة طائلة!».

فقالت مريان: «ليت لنا ذلك!» وبرقت عيناها بالسرور، وتوردت وجنتاها حين استخفّها الطرف لهذه السعادة الخيالية».

وقالت إلينور: «أظن أنكن جميعاً مُجمِعات على هذه الأمنية على الرغم من عدم كفاية الثروة».

وصاحت مريان: «أجل عزيزتي! كم أكون سعيدة! إنني لا أدري ماذا أفعل بها!».

وكانت نظرات مريان تدلّ على أنها لا تشك في هذا الأمر.

وقالت السيدة داشوود: «إنني سأحار في إنفاق ثروتي الطائلة إذا رزقت بناتي بالغنى دون مساعدتي».

فردت إلينور قائلة: «يجب عليك أن تشرعي في إصلاح البيت، وحينئذٍ لن تجدي أية صعوبة في إنفاقها».

وقال إدوارد: «وما أعظم الطلبات التي ستنهال من هذه الأسرة على لندن في هذه الحالة. يا له من يوم سعيد لبائعي الكتب والمعازف والآلات الموسيقية وأصحاب المطابع! فأنت يا آنسة داشوود ستمنحين عمولة عامة لكل مَن يوافيك بثمرات المطابع. وأما مريان - وأنا أعرف علو همّتها - فإن جميع الآلات الموسيقية في لندن لن تكفي لإشباع نهمها. والكتب! - طمسون، وكوبر، وسكوت - ستشتريها هي جميعاً بدل المرة مرات؛ ستشتري كل نسخة منها - فيما أعتقد - حتى لا تقع في يد من لا يستحقها. وستشتري كل كتاب يحدثها عن الأشجار العتيقة الملتوية. أليس كذلك يا مريان؟ استميحك عفواً إذا أنا تطاولت عليك! ولكني أردت أن أبيِّن لك أنني لم أنسَ خلافاتنا القديمة».

«إنني أحب يا إدوارد مَن يذكرني بالماضي سواء أكان يثير الحزن أم الفرح. أحب أن أذكره - ولن أغضب منك إذا أنت حدثتني عن الأيام الخالية. لقد أصبتَ فيما ذكرت عن الوجوه التي أنفق فيها مالي - أو بعضه على الأقل - لا شك أنني

سأنفق مصروفاتي النثرية في زيادة ما أقتنيه من الكتب والآلات الموسيقية».

«وأما جملة ثروتك فستجعلين منها معاشات سنوية للمؤلفين أو ورثتهم».

«كلا يا إدوارد، سأنفقها في شيء آخر».

«إذن ربما جعلتِ منها جائزة تُمنح لمن يكتب أحسن مقال في الدفاع عن حكمتك المحبوبة، وهي أن الإنسان لا يمكن أن يحب أكثر من مرة واحدة في حياته - لأني أظن أن رأيك في هذا الموضوع لم يطرأ عليه تغيير».

«بلا شك. وأنا لم أغير آرائي طول حياتي. ولا يحتمل أن أرى أو أسمع الآن شيئاً يحملني على تغيير آرائي».

وقالت إلينور: «أنت ترى أن مريان ثابتة على رأيها كما كانت، لم يطرأ عليها أي تغيير».

«لكني أرى أنها أصبحت أميل إلى الرزانة قليلاً».

فقالت مريان: «نعم يا إدوارد! لا حاجة بك لأن تؤنبني، فأنت نفسك لست كثير المرح».

فأجاب وهو يتنهد: «لماذا ترين ذلك؟ إن المرح لم يكن قط من شأني».

وقالت إلينور: «ولا هو من شأن مريان فيما أظن. إنني لا أسميها فتاة مرحة فهي تميل إلى الجد والحماسة فيما تصنع، تتحدث كثيراً في بعض الأحيان، ولكنها لا تميل إلى المرح في أغلب الأحيان».

فأجاب: «أعتقد أنك على حق. ومع ذلك فقد كنت أعدّها دائماً فتاة مرحة».

وقالت إلينور «لقد تبيّن لي كثيراً أنني وقعت في مثل هذا الخطأ، فأسأت فهم أخلاق غيري على نحو ما، فتصورت أن بعض الناس أكثر مرحاً أو رزانة أو أنهم أكثر ذكاء أو غباء منهم في واقع الأمر. ولا أدري سبباً أو مصدراً لهذا الخطأ. أحياناً يتأثر الإنسان بما يقول الناس عن أنفسهم، وغالباً بما يقوله الغير عنهم، دون أن يتريث في الحكم».

فقالت مريان: «ولكني كنت أظن أنه من الصواب أن يستأنس الإنسان بآراء غيره في كل شيء، وأن آراء الإنسان يجب أن تخضع دائماً لآراء جيرانه، وقد كان هذا مبدأك دائماً فيما أعتقد».

«كلا يا مريان! لم يكن هذا مبدئي قط. لم يهدف مبدئي قط إلى خضوع العقل. وكل ما حاولت التأثير فيه هو السلوك. يجب ألّا يلتبس عليكِ فهم مرادي، إنني أعترف بأني رغبت إليك أكثر من مرة في أن تراعي شعور معارفك بوجه عام أكثر ممّا تفعلين، ولكن متى نصحتك أن تتأثري بعواطفهم، أو تنزلي على حكمهم في خطير الأمور؟».

وقال إدوارد لإلينور: «كأنك لم تستطيعي أن تحملي أختك على اتّباع خطتك في مجاملة الناس. ألم تنجحي في هذا السبيل؟».

فأجابت قائلة «على عكس ذلك تماماً» وهي تنظر إلى مريان نظرة معبِّرة.

فردّ قائلاً «إنّ رأيي أشبه برأيك، ولكن معاملتي للناس أشبه بمعاملة أختك. وأنا لا أميل أبداً لجرح شعور الناس. ولكن شدة خجلي المقرون بالغباء تجعلني أبدو قليل الاكتراث بهم، في حين أنّ الحرج الذي أشعر به عادة في حضورهم هو الذي يمنعني من الترحيب بهم عند لقائهم. وطالما خطر لي أني فُطِرتُ على الميل

لصحبة أهل الشأن الوضيع لأني أشعر بالحرج مع الغرباء أهل الشأن الرفيع».

فقالت إلينور: «ليس لمريان من الخجل والحياء ما ينهض عذراً لعدم اهتمامها بالناس».

فأجاب إدوارد: «إنها تغالي بنفسها بحيث لا حاجة بها لتصنع الخجل. والخجل ليس إلا نتيجة الشعور بالنقص في ناحية من النواحي. ولو أني اعتقدت أني بلغت الكمال في لطف الشمائل ودماثة الأخلاق لما شعرت بالخجل».

فقالت مريان: «ولكنك ستظل مع ذلك متحفّظاً، وهذا أسوأ من الخجل».

فحدق فيها النظر وقال: «متحفظ؟ أمتحفظ أنا يا مريان؟».

«نعم، جداً».

فتغير لونه وأجاب: «لست أفقه ما تقولين. متحفظ! كيف؟ وعلى أي وجه؟ ماذا أقول لك؟ وماذا تظنين؟».

فارتسمت علائم الدهشة على وجه إلينور لانفعاله، ولكنها حاولت أن تصرف الموضوع بالضحك، فقالت له: «ألا تعرف أختي جيداً حتى تفهم قصدها؟ ألا تعلم أنها تتهم بالتحفّظ كلّ مَن لا يحاكيها في سرعة حديثها، ولا يبدي إعجابه الشديد بما تعجب هي به؟».

فلم يَحِرْ إدوارد جواباً، وارتسمت على وجهه علائم الجد والتفكير بأجلى مظاهرها - وجلس بعض الوقت وهو صامت كئيب.

الفصل الثامن عشر

نظرت إلينور بعين القلق الشديد إلى ما بدا على صديقها من الكآبة والانقباض، ولم تبعث زيارته في نفسها إلا قليلاً من السرور وبدا أنه هو أيضاً لم يُسرّ كثيراً بهذه الزيارة، فقد كان لا يخفي شعوره بعدم السعادة، وكانت تودّ لو أنه لم يخفِ أيضاً شعوره بالحب الذي لم تشكّ أنه خامره فيما مضى. ولكن الشك ساورها في استمرار هذا الحب حتى ذلك الوقت. وكان ما يُبديه إزاءها من التحفّظ تارة، يناقض ما يبديه من الانبساط تارة أخرى.

وانضم إليها هي ومريان في غرفة الفطور في صباح الغد قبل أن تنزل الأخريان وكانت مريان تحرص دائماً على تهيئة أسباب السعادة لهما بقدر المستطاع، فخرجت من الغرفة ليجلسا على انفراد. ولكن ما إن صعدت إلى منتصف الدرج حتى سمعت باب الردهة وهو يفتح، فاستدارت، ودهشت حين رأت إدوارد يخرج منها.

قال: «إني ذاهب إلى القرية لأتفقّد جيادي لأنك لم تستعدي بعد لتناول الفطور، وسأعود بعد قليل».

وعاد إدوارد إليهن، ويبدي مزيداً من الإعجاب بالبيئة التي تحيط بهن، إذ استطاع في أثناء ذهابه إلى القرية أن يشاهد كثيراً من أنحاء الوادي بوضوح وكان موقع القرية ذاتها أكثر ارتفاعاً من موقع

المنزل، فأمكن له أن يلقي نظرة عامة على جميع أنحاء الوادي وما يشتمل عليه، فازداد إعجاباً بما رآه. وأثار هذا الموضوع اهتمام مريان، فأخذت تبدي له إعجابها بهذه المناظر، وتوجه إليه أسئلة دقيقة عن المناظر التي استرعت نظره بصفة خاصة، فقاطعها إدوارد بقوله: «لا تسأليني كثيراً يا مريان - تذكري أنه لا خبرة لي بوصف المناظر الرائعة، وأخشى أن يسوؤك جهلي، وافتقاري إلى الذوق السليم إذا دخلنا في التفاصيل، فقد أصف التلال بأنها منحدرة حيث ينبغي أن توصف بأنها قائمة، وأصف السطوح بأنها غريبة خشنة حيث ينبغي أن توصف بأنها وعرة غير منتظمة. وأصف الأشياء البعيدة بأنها محتجبة عن الأنظار حيث ينبغي القول بأنها غير واضحة لوجود غلالة رقيقة من الضباب تشوب الجو. وعليك أن تقنعي بالوصف الذي أستطيع أن أذكره بصدق وأمانة. إنني أقول: إنه إقليم رائع الجمال - التلال شديدة الانحدار والأدغال مليئة بالأشجار ذات الخشب الجميل، والوادي يبدو رحب الجناب، أنيق المنظر، بمراعيه الوافرة، ومنازل الفلاحين المنبثة هنا وهناك. وهذا الإقليم يتفق مع رأيي عن البلاد الجميلة لأنه يجمع بين الجمال والفائدة - وفي وسعي أن أقول: إنه إقليم رائع المنظر أيضاً لأنك معجبة به. وأعتقد أنه مليء بالصخور والرؤوس والطحالب الشهباء والحسك، ولكن هذه الأشياء لا تسترعي نظري لأنه لا خبرة لي بالمناظر الرائعة.

قالت مريان: «أخشى أن أقول إنك تبالغ في وصفك. ولكن حدثني لماذا تعجب بهذا الإقليم؟».

قالت إلينور: «أظن إدوارد أراد أن يتحاشى نوعاً من التكلف والتصنع، فوقع في نوع آخر، فهو يعتقد أنّ كثيراً من الناس يدّعون من الإعجاب بمفاتن الطبيعة أكثر ممّا يشعرون به فعلاً، وهو يمقت

مثل هذا الادّعاء ولذلك يتصنّع عدم المبالاة بهذه المفاتن ويدّعي عدم التمييز بينها أكثر ممّا يشعر به فعلاً. إنه أراد أن يتحرّج من التكلّف فوقع فيه».

فقالت مريان: «لا شك أنّ الإعجاب بالمناظر الطبيعية الخلوية قد أصبح ضرباً من اللغو، فكلّ إنسان يدّعي أنه يعجب بهذه المناظر، ويحاول أن يصفها بالذوق السليم والأسلوب البليغ الذي وصفها به من عرف الجمال الرائع أول مرة. إنني أكره اللغو من أيّ نوع كان. ولذلك تراني أحياناً أكتم مشاعري في نفسي لأني لا أجد من الألفاظ ما أستطيع وصفها به، إلّا ما كان بالياً مبتذلاً خالياً من أي معنى على الإطلاق».

وقال إدوارد: «أعترف أنك تشعرين فعلاً بكلّ ما تقولين إنك تشعرين به من متعة عند مشاهدة أي منظر جميل، ولكن أرجو في نظير هذا الاعتراف أن تسلم لي أختك بأني لا أشعر بأكثر ممّا أقول. إنني أحب المنظر الجميل لا لأنه منظر رائع يستحق التصوير، فأنا لا أحب الأشجار المعوجة الملتوية الذابلة، ولكن أُعجب بها أكثر إذا كانت باسقة مستقيمة زاهرة. ولا أحبّ نبات القريض أو الحسك والعوسج أو أزهار الخلنج ولكني أجد من المتعة في مشاهدة بيت أنيق من بيوت الفلاحين أكثر ممّا أجد في مشاهدة برج من أبراج المراقبة، وأُسَرّ برؤية طائفة من أهل الريف الذين تبدو عليهم مظاهر السعادة والنظافة أكثر ممّا أُسَرّ برؤية أجمل قطاع الطرق في العالم».

ونظرت مريان إلى إدوارد بعين الدهشة، وإلى أختها بعين العطف والإشفاق أما إلينور فلم يسعها إلّا أن تضحك.

وأقفل باب الحديث في هذا الموضوع، واستغرقت مريان في

الصمت والتفكير، وإذا بموضوع جديد يثير اهتمامها، وذلك أنها كانت تجلس بجانب إدوارد فمدّ يده أمامها مباشرة لتناول الشاي من السيدة داشوود، فرأت في إحدى أصابعه خاتماً في وسطه جديلة من شعر.

فصاحت: «لم أرَ يا إدوارد خاتماً في إصبعك من قبل. هل هذا شعر فاني؟ إنني أذكر أنها وعدت أن تعطيك بعض شعرها، ولكني كنت أظنّ أن شعرها داكنٌ أكثر من ذلك».

وكانت مريان تعبِّر عمّا تشعر به دون روية أو تدبّر، ولكنها حين أحسّت أن كلامها آلم إدوارد خالجها من الكدر لما أبدته من الطيش مثل ما خالجه، وتورَّد وجهه بحُمرة الخجل، ونظر نظرة خاطفة إلى إلينور ثم أجاب: «نعم! إنه شعر أختي، وأنت تعرفين أنّ ترصيع الخاتم يُضفي عليه دائماً لوناً مختلفاً».

والتقت عين إلينور بعينه، وبدا عليها الاهتمام أيضاً إذ تبيّنت على الفور أنّ الشعر هو شعرها هي كما تبيَّنت مريان، ولكن الفرق الوحيد بينهما في الاعتقاد هو أنّ ما حسبته مريان هدية خالصة من أخته رأت إلينور أنه شعرها حصل عليه بطريق السرقة أو بأية حيلة أخرى لا تعرفها، على أنها لم تشأ أن تنظر إلى الأمر على أنه إهانة لها، فتظاهرت بعدم الاكتراث وخاضت في حديث آخر، وصمَّمت في قرارة نفسها أن تنتهز بعد ذلك كلّ فرصة لمعاينة الشعر والتأكد بما لا يدع مجالاً للشك من أن لونه هو لون شعرها تماماً.

وارتبك إدوارد بعض الوقت، وانتهى هذا الارتباك بشرود ذهنه فترة أطول، وبدا ساهم الوجه طول الصباح ولامت مريان نفسها على ما قالته لوماً شديداً، ولو أنها علمت أنّ أختها لم تشعر بالاستياء لما قالته لاغتفرت لنفسها هذه الزلة.

وقَدِمَ سير جون والسيدة جننجز قبل الظهيرة لزيارتهن، وكان قد سمعا عن مقدم رجل إلى المنزل الريفي، فأرادا أن يلقيا نظرة على هذا الضيف. وما لبث سير جون أن تبيّن بمساعدة حماته أن اسم فيرارز يبدأ بحرف «ف» وكان هذا يهيئ مادة غزيرة للتندر على إلينور المحبوبة، ولولا أنهما كانا حديثَي عهد بمعرفة إدوارد لبدأ هذا التندر في الحال.

ولم يكن سير جون يأتي إلى آل داشوود قط إلا ليدعوهن للغداء في الحديقة في الغد أو ليرتشف الشاي معهن في المساء. ولكنه أراد أن يواعدهن على الأمرين معاً في هذه المناسبة رغبة في مؤانسة ضيفهن، إنه رأى أنّ الواجب يحتّم عليه المشاركة في إدخال السرور إلى نفسه.

قال: «يجب أن تشربن الشاي معنا هذه الليلة لأننا سنكون وحدنا - وغداً تتناولن معنا الغداء حتماً لأنّ المأدبة سيحضرها عدد كبير».

وألحّت السيدة جننجز في وجوب قبول الدعوة وقالت: «ومن يدري لعلّ وجودكن يشجع على الرقص. وهذا يلذّ لك يا آنسة مريان».

فصاحت مريان: «رقص! مستحيل! ومَن ذا الذي سيرقص؟».

«من؟ أنتن أنفسكن وآل كاري وهُوِ سْكَر فيما أعتقد - عجباً! أتظنين أنه لن يرقص أحد لأن شخصاً لا أسميه قد ذهب!».

فصاح سير جون: «ليت ولبي كان معنا!».

وأثار هذا الكلام، وحمرة الخجل التي علت وجه مريان، الظنون في نفس إدوارد.

فسأل في صوت خافت السيدة داشوود وكان جالساً بجوارها «ومَن هو ولبي؟».

فأجابت بإيجاز، وكانت نظرات مريان تنمّ عن رغبتها في المزيد من الإفضاء ولكن إدوارد سمع ما يكفي لا لفهم كلام غيره فحسب، بل وفهم عبارات مريان التي التبس عليه فهمها من قبل. ولما انصرف الزائران، انثنى إليها من فوره، وهمس في أذنها قائلاً: «لقد حزرت الأمر؟ فهل أخبرك بما حزرت؟

«ماذا تعني؟».

«هل أخبرك؟».

«نعم!».

«حزرت أنّ السيد ولبي صياد».

فدهشت مريان وارتبكت، ولكنها لم تتمالك أن ابتسمت لمداعبته، ثم أطرقت هنيهة وقالت: «عجباً! إدوارد! كيف تستطيع؟ - ولكن أرجو أن يحين الوقت. . . أعتقد أنك ستحبُّه».

فأجاب: «لا شك في ذلك» وقد اعترته بعض الدهشة لما أبدته من اهتمام وحماس، ولو لم يتصور أنّ ما قاله هو نكتة لصالح صديقها بوجه عام ترتكز على وجود صلة كبيرة أو صغيرة بين ولبي وبينها، لما اجترأ على ذكرها.

الفصل التاسع عشر

لبث إدوارد في المنزل الريفي أسبوعاً، وألحت عليه السيدة داشوود بشدة أن يطيل إقامته، ولكنه فيما يبدو أزمع الرحيل وهو أشدّ ما يكون سروراً بين صديقاته، وكأنه موكَل بتعذيب نفسه. وقد صفا مزاجه في اليومين الأخيرين أو الأيام الثلاثة الأخيرة وإن ظلّ شديد التقلب، فازداد حبه للمنزل وما يحيط به، ولم يذكر الرحيل قط إلا تنهد، ثم قال: إنه غير مرتبط بموعد على الإطلاق - بل لم يدرِ أين يذهب إذا هو فارقهن. ومع ذلك كله أصرّ على الرحيل. ولم يحدث قط أن مرّ عليه أسبوع بمثل السرعة التي مرَّ بها هذا الأسبوع، بل لم يصدق أنه انقضى ومضى. وردد ذلك كثيراً، ثم صرَّح بأقوال أخرى عديدة تنبئ عن حقيقة شعوره، وتكذِّب أفعاله، إذ قال: إنه لم يطب نفساً بالإقامة في نورلاند، وإنه ملّ الإقامة في لندن، ومع ذلك أصر على السفر إلى نورلاند. وأعرب لهن عن أعظم تقديره لكرمهن وعطفهن، وشعوره بالسعادة الكبرى بين ظهرانيه، ومع ذلك أصرّ على فراقهن في نهاية الأسبوع على كرهٍ منه، وبدون أن يكون مرتبطاً بأي موعد من المواعيد.

وقد عزت إلينور كلّ ما رأته من تصرفاته الغريبة إلى أمه، وكأنه يسعدها أن تكون له أم لا تعرف هي أخلاقها معرفة تامة حتى يتسنى

أن تعزو إليها كلّ ما تراه في ابنها من غريب الأطوار. ولكنها برغم ما كانت تشعر به من خيبة الأمل وشدّة الكدر، وما تشعر به أحياناً من الاستياء لمسلكه المتقلب إزاءها، كانت تميل كثيراً إلى أن تنتحل له الأعذار الصريحة والمبررات الكريمة التي انتزعتها منها أمها لصالح ولبي بطريقة أليمة. فكانت تعزو في الغالب كآبته وتحفّظه وتقلبه إلى فقدانه حرية التصرُّف، ومعرفته بطباع أمه ومقاصدها، كما تعزو قِصَر زيارته وإصراره على الرحيل إلى تقييد إرادته وضرورة مسايرة أمه في رغباتها وأهوائها، وترى أنّ السبب في ذلك كله هو الشكوى القديمة التي لم يغيّرها الزمن وهي تعارض الواجب مع الإرادة، ووقوف الآباء في وجه الأبناء. وكانت تودّ أن تعرف متى تنتهي هذه العقبات، وتزول هذه المعارضة - متى يصلح حال السيدة فيرارز، ويتمتّع ابنها بالحرية كي ينعم بالسعادة. ولكنها اضطرت أن تطرح هذه الأماني الباطلة جانباً لتلتمس العزاء في تجدّد ثقتها بمحبة إدوارد لها، وفي تذكّر كل ما بدا لها من مظاهر الحب، في نظراته أو كلماته التي بدرت منه في أثناء إقامته في بارتون، وفوق ذلك كله هذا البرهان السار على تلك المحبة الذي يتمثل في الخاتم الذي يلبسه دائماً حول إصبعه. وقالت له السيدة داشوود وهو يتناول الفطور في صباح آخر يوم «إخال يا إدوارد أنك ستكون أسعد حالاً إذا مارستَ مهنة تشغل وقتك وتساعدك على تحقيق أغراضك. وقد ينجم عنها بعض المتاعب لأصدقائك لأنها ستحول دون أن تعطيهم الكثير من وقتك ولكنها (بابتسامة) ستعود عليك بفائدة مادية على الأقل، وهي أنك ستعرف أين تذهب حينما تتركهم».

فأجاب: «أؤكد لكِ أنني فكرت في هذه الأمر ملياً كما تفكرين

أنت الآن. لقد أحزنني وسيحزنني دائماً ألّا أجد عملاً يشغل وقتي، ولا مهنة تهيئ لي أسباب العمل، وتتيح لي ما يشبه الاستقلال. ولكن حماقتي وحماقة أصدقائي لسوء الحظ جعلتني عاطلاً عاجزاً كما ترين الآن. إننا لم نستطع أن نتفق على اختيار مهنة معيّنة. ولقد كنت - وما زلت - أفضِّل أن أكون قسيساً. ولكن هذه المهنة لا تقترن بمظاهر الأبهة والأناقة التي تصبو إليها أسرتي - فهم يحبون أن أكون ضابطاً في الجيش، ولكن ذلك فيه من مظاهر الأناقة أكثر ممّا يلائمني. وكان من المسلّم به أن طلبة الحقوق يمتازون بحُسن البزة، وكثير من الشبان في بيت طلبة الحقوق يبدو مظهرهم جميلاً في الدوائر الأولى، ويسيرون في لندن في عربات أنيقة. ولكن لم يكن لي ميل للدراسات القانونية حتى الدراسات القانونية السهلة التي وافقت عليها أسرتي. أما العمل في البحرية فكان أيضاً يمتاز بأناقة المظهر ولكن سني كانت أكبر من أن تؤهلني للعمل فيها حينما بدأ التفكير في ذلك، وأخيراً رؤي أن البطالة على وجه العموم هي أصلح الأشياء وأشرفها إذ لا ضرورة لممارسة أية مهنة على الإطلاق ما دام في وسعي أن أكون شاباً جريئاً مبذراً سواء لبست سترة حمراء أو سوداء على كتفي أم لم ألبس، وليس من دأب الفتى الذي بلغ الثامنة عشرة أن يحرص على العمل حرصاً يدعوه إلى مخالفة أصدقائه الذين يغرونه بالبطالة. ولذلك قيّدت اسمي في أكسفورد وبقيت عاطلاً منذ ذلك الحين.

فقالت السيدة داشوود: «أظن أن نتيجة ذلك أنك ستُنشئ أبناءك على ممارسة جميع الأعمال والوظائف والمهن والحِرَف شأنهم في ذلك شأن محور السمع في الطيور والهوام، ما دام الفراغ هو سبب شقائك».

فقال في لهجة الجد: «سأنشئهم على نهج يخالف نهجي بقدر الإمكان: في المشاعر والأعمال والأحوال، بل في كل شيء».

«دع عنك ذا يا إدوارد؛ هذا كلام صادر عن لوعة الأسى. إنك حزين الفؤاد، وتتخيل أن كل إنسان يخالف نهجك لا بدَّ أن يكون سعيداً. ولكن تذكر أنّ كل إنسان يشعر أحياناً بلوعة الألم لفراق أصدقائه مهما كان تعليمهم أو حالهم. أعرف أين هي سعادتك. أنت لا تحتاج إلا إلى الصبر أو إنْ أردت اسماً خلاباً - الأمل. إن أمك ستتيح لك في الوقت المناسب حرية التصرف التي تصبو إليها. هذا واجبها ولن يمضي وقت طويل حتى يسعدها أن تصون شبابك الغض من أن يبلي في الضجر والسخط. ما أكثر الأمور التي يمكن أن تتم في بضعة شهور!».

فأجاب إدوارد: «في وسعي أن أتحدى أي إنسان يرجو لي أيّ خير بعد كثير من الشهور».

وقد ضاعف هذا اليأس - وإن لم تشعر به السيدة داشوود - من آلامهن جميعاً عند الفراق الذي تمّ بعد قليل وترك أثراً سيئاً في نفس إلينور بصفة خاصة تطلَّبت إزالته بعض العناء والوقت. ولكنها حين اعتزمت أن تزيل هذا الأثر من نفسها دون أن تبدي من الألم لفراقه أكثر ممّا أبداه أهلها لم تسلك السبيل الذي سلكته مريان بحكمة في موقف مناسب ألا وهو زيادة الحزن باللجوء إلى الصمت والعزلة والكسل. لقد كانت وسائلهما تختلف كما تختلف أهدافهما، وتتلاءم مع مستوى ثقافتهما.

وما إن غادر المنزل حتى جلست إلينور إلى لوحة الرسم، وأكبَّت على العمل طول اليوم، ولم تحاول أن تذكر اسمه أو تتحاشى ذكره، وأظهرت ما كانت تظهره دائماً من الاهتمام بالشؤون

العامة الخاصة بالأسرة. وإذا كان هذا المسلك لم يقلل من حزنها فقد حالَ على الأقل دون زيادته بلا ضرورة، وأعفي أمها وأخوتها من الجزع والقلق على حالها.

وكانت مريان ترى أن مثل هذا المسلك الذي يناقض مسلكها تماماً غير جدير بالثناء بقدر ما كان مسلكها هي معيباً، وكان رأيها ببساطة في موضوع ضبط النفس أنّ الإنسان إذا كان قوي العاطفة تعذر عليه أن يضبط نفسه، وإذا كان هادئ الطبع لم يكن له فضل في ضبط النفس. ولم تجرؤ مريان أن تنكر أن عاطفة أختها من النوع الهادئ، وإن خجلت من هذا الاعتراف. أمّا عاطفتها هي فأوضح دليل على قوّتها هو حبها واحترامها لأختها، على الرغم من أنه يؤلمها أن تقول ذلك.

وكانت إلينور - في جميع حالاتها النفسية التي تتغير بتغير المواقف - تجد في كلّ يوم من الفراغ ما يكفي للتفكير في إدوارد وفي مسلك إدوارد، تفكيراً يتّسم بالحنان والإشفاق والاستحسان واللؤم والشكّ، دون أن تحبس نفسها عن أهلها أو تخرج من البيت لتكون بمعزل عنهن، أو تسهر الليل كله لتستغرق في التأمّل والتفكير، فكانت تسنح لها لحظات كثيرة - إن لم يكن بسبب غياب أمها وأخواتها فبطبيعة أعمالهن على الأقل - تعفيها من الحديث معهن، وتهيئ لها العزلة بكلّ معانيها. ولا محالة حينئذٍ أن يصبح ذهنها طليقاً، ويستأثر الماضي والحاضر - في أمر يهمها كثيراً - باهتمامها ويشغل ذاكرتها وتفكيرها وخيالها.

وبينما كانت مستغرقة في طوفان كهذا من أحلام اليقظة على أثر رحيل إدوارد وهي تجلس إلى لوحة الرسم إذ أفاقت على أثر قدوم بعض الزائرين. واتّفق أن كانت وحدها، وكان الباب الصغير عند

مدخل الفناء المعشوشب الواقع أمام البيت مغلقاً، فاتجه نظرها إلى النافذة، فرأت جماعة كبيرة متجهة إلى الباب من بينهم سير جون وليدي ميدلتون والسيدة جننجز، ولكن معهما رجل وسيدة لا تعرفهما. وكانت تجلس بالقرب من النافذة فما إنْ رآها سير جون حتى ترك بقية الرفقة وتقدم ليطرق الباب وسار على الأرض المكسوّة بالعشب فاضطرت أن تفتح النافذة لتتحدث معه على الرغم من قصر المسافة بين الباب والنافذة بحيث لم يكن من المستطاع أن يتكلم الإنسان من أحدهما دون أن يسمع صوته من الآخر.

قال: «لقد جئنا ببعض الغرباء فما رأيك فيهما؟».

«صه! إنهما يسمعان!».

«لا ضير من سماعهما. إنهما السيد بالمر وزوجته. لا أعدو الحقيقة إذا قلت: إن شارلوت جميلة. وفي وسعك أن تشاهديها إذا نظرت من هذه الجهة».

فاستماحته عذراً لأنها تعرف أنها ستراها بعد برهة دون ما حاجة إلى هذا الفضول.

«أين مريان؟ هل هربت لأننا حضرنا؟ إنني أرى البيانو مكشوفاً».

«أعتقد أنها تتنزه».

ثم لحقت بهما السيدة جننجز التي لم تطق الانتظار حتى يفتح الباب وتحكي قصتها فجاءت إلى النافذة تقول مرحّبة: «كيف حالك يا عزيزتي؟ وكيف حال السيدة داشوود؟ وأين أخواتك؟ ماذا! أأنت وحدك؟ لقد جئنا بجماعة صغيرة يسرك الجلوس معها. جئت بابني وابنتي لتشاهديهما. تصوّري كيف فوجئت بزيارتهما! طرق سمعي صوت عربة في الليلة الماضية ونحن نشرب الشاي، ولم يخطر ببالي

قط أنها تقلّهما، وما خطر لي إلّا أنّ كولونيل براندون عاد من سفره، فقلت لسير جون: «أؤكد أنني أسمع صوت عربة. لعلّ الكولونيل عاد من السفر».

واضطرت إلينور أن تتحول عنها - وهي تروي قصتها - لتستقبل بقية الرفقة. وقدمت ليدي ميدلتون الزائرين الغريبين، ونزلت السيدة داشوود ومرغريت في الوقت نفسه، وجلسن جميعاً لينظر أحدهما إلى الآخر في حين واصلت السيدة جننجز قصتها وهي تسير في الطرقة الموصلة إلى ردهة المنزل يرافقها سير جون.

كانت السيدة بالمر تصغر ليدي ميدلتون بعدة سنوات، وليس بينهما أيّ وجه من الشبه. كانت قصيرة القامة بدينة الجسم ذات وجه جميل تلُوح عليه أمارات البشاشة. ولم تكن حلوة الشمائل كأختها ولكنها كانت أكثر منها جاذبية. وابتسمت عندما دخلت، وظلّت تبتسم طول الزيارة إلّا متى ضحكت، ثم ابتسمت عندما انصرفت. وكان زوجها رجلاً رزيناً وقوراً يبلغ من العمر خمساً أو ستاً وعشرين سنة ويبدو أوفر أدباً وأرجح عقلاً من زوجته ولكنه أقل منها رغبة في مشاركة الناس في سرورهم. ودخل الغرفة وتبدو عليه مخايل الغرور، فانحنى قليلاً للسيدات دون أن ينبس ببنت شفة، وبعد أن ألقى نظرة قصيرة عليهن وعلى غرفتهن أخذ صحيفة من النضد، واستمر في القراءة طول مدة الزيارة.

وكانت السيدة بالمر على نقيض ذلك. لم تكد تجلس حتى أبدت إعجابها بالردهة وكل ما فيها، كما أنها مهذبة ومرحة معاً.

حسناً ما أجمل هذه الغرفة! لم أرَ في حياتي ما هو أروع منها. تأملي يا أماه كيف زادت حُسناً عمّا رأيتها في زيارتي الأخيرة! لقد كنت أعتقد دائماً أنها حجرة جميلة يا سيدتي (وهي تلتفت إلى

السيدة داشوود) ولكنك زِدْتها روعة وجمالاً! ألا ترين يا أختي أنّ كل ما فيها جميل! كم وددت أن لي بيتاً كهذا! ألا تتمنى مثل ذلك يا سيد بالمر؟

فلم يحر السيد بالمر جواباً، بل لم يرفع عينيه عن الصحيفة.

فقالت وهي تضحك: «السيد بالمر لا يسمعني! إنه لا يسمعني أحياناً. إن هذا الشيء مضحك جداً».

وكانت هذه فكرة جديدة تماماً على السيدة داشوود فلم تألف قط أن يتندَّر أحد على أحد لعدم إصغائه، ولم يسعها إلا أن تدهش للرجل وزوجته.

على أن السيدة جننجز ظلّت تتحدث بأعلى صوتها، وتحكي عن دهشتهن في الليلة الماضية عندما رأين السيد بالمر وزوجته ولم تكف عن الكلام حتى فرغت من قصتها، وأغرقت السيدة بالمر في الضحك عندما تذكرت دهشتهن، وأجمع كلّ الحاضرين مرتين أو ثلاث مرّات على أنها كانت مفاجأة سارة.

وانحنت السيدة جننجز إلى الأمام نحو إلينور، وكلَّمتها بصوت خافت كأنها تريد ألا يسمع كلامها أحد سواها، مع أنهما كانتا تجلسان في جانبين مختلفين من الحجرة، قالت: «في وسعك أن تصدقي مبلغ سرورنا بلقائهما. ومع ذلك وددت لو أنهما لم يسافرا بمثل هذه السرعة، ولا قاما بهذه الرحلة الطويلة، فقد قدما من طريق لندن لإنجاز بعض الأعمال، لأنك تعلمين (وهي تهز رأسها بطريقة ذات مغزى وتشير إلى ابنتها) أن السفر مضرّ بها. وكنت أريد أن تظل في البيت، وتستريح هذا الصباح، ولكنها أصرت على الحضور معنا لأنها تتوق كثيراً إلى رؤيتكن جميعاً!».

وضحكت السيدة بالمر وقالت: إن حضورها لن يضرها على الإطلاق.

واستطردت السيدة جننجز قائلة: «ينتظر أن تكون في حالة وضع في فبراير».

ولم تطق ليدي ميدلتون سماع هذا الحديث أكثر من ذلك، فالتفتت إلى السيد بالمر وسألته أفي الصحيفة أخبار جديدة؟ فأجاب: «كلا! لا شيء إطلاقاً» واستمر في القراءة.

وصاح سير جون: «ها قد جاءت مريان! وسترى الآن يا بالمر فتاة رائعة الجمال».

ودلف إلى الطرقة من فوره، وفتح الباب الأمامي وسمح لها بالدخول وسألتها السيدة جننجز عند حضورها: هل ذهبت إلى ألنهام؟ وقهقهت السيدة بالمر ضاحكة لهذا السؤال ممّا يدل على أنها تفهم المُراد منه. وتطلَّع إليها السيد بالمر عند دخولها وحملق فيها بضع دقائق، ثم عاد إلى صحيفته. ثم وقع بصر السيدة بالمر على الصور المعلقة حول الحجرة ونهضت لتُلقي عليها نظرة فاحصة «عجباً ما أجمل هذه الصور! نعم! ما أروعها! تأملي يا ماما، ما أحلاها! إنني أصرّح أنها فاتنة، لا أملّ النظر إليها أبداً» ثم عادت فجلست وسرعان ما نسيت وجود شيء من هذا القبيل في الحجرة.

ولما وقفت ليدي ميدلتون استعداداً للخروج وقف السيد بالمر أيضاً، وضع الصحيفة وتمطى وأجال النظر فيهن جميعاً.

فقالت له زوجته ضاحكة: «هل كنت نائماً يا حبيبي؟».

فلم يَحر جواباً. وكلّ ما قاله بعد أن تفحّص الحجرة: إنها مرصوفة بالحجارة وإن سقفها متعرج ثم انحنى محيياً وخرج مع بقية الأسرة.

وألحّ سير جون عليهن جميعاً أن يقضين اليوم التالي في الحديقة. وكانت السيدة داشوود لا تريد أن تتغدى عندهم أكثر ممّا يتغدون عندها، فرفضت الدعوة رفضاً باتاً عن نفسها، وتركت لبناتها الخيار. ولكنهن لم يَتُقن إلى معرفة كيف يتناول السيد والسيدة بالمر غداءهما، وفيما عدا ذلك لم يتوقعن أية متعة، فالتمسن الأعذار أيضاً لرفض الدعوة، متعللات بأنّ الطقس متقلّب، وأنه يحتمل ألّا يكون لطيفاً. ولكن سير جون لم يقتنع بذلك، فقال: إنه سيرسل عربته إليهن، ولا بدَّ من حضورهن، وألحت ليدي ميدلتون عليهن أيضاً، وإن لم تلح على أمهن وانضمت السيدة جننجز والسيدة بالمر إليهما في الإلحاح عليهن، وبدا القلق على الجميع لإصرارهن على عدم حضور المأدبة العائلية، وأمام هذا الإلحاح لم يسَع الآنسات إلا قبول الدعوة.

وقالت مريان بعد انصرافهم: «لماذا يدعوننا؟ إن إيجار منزلنا الريفي قليل كما يقولون، ولكنه يكلفنا غالياً إذا وجب علينا أن نتغدى في بارتون بارك كلما نزل بهم أو نزل بنا أحد».

فقالت إلينور: «إنهم يريدون بهذه الدعوات المتكررة أن يُظهروا لنا الآن من البرّ والعطف ما أظهروه لنا منذ أسابيع قلائل. ولكن مآدبهم إذا أصبحت مملة مضجرة فقدت ما ننشده من تغيير المناظر، وحينئذٍ يجب أن ننشد هذا التغيير في مكان آخر».

الفصل العشرون

عندما دخلت الآنستان داشوود حجرة الاستقبال في الحديقة، من أحد بابَي الحجرة، خَفَّت السيدة بالمر للقائهما من الباب الآخر، وأسارير وجهها تتألق بالبِشْر والسرور كشأنها من قبل، فصافحتهما معاً بكل حب وإخلاص، وأعربت عن سرورها بلقائهما مرة أخرى.

وقالت بعد أن جلست بين إلينور ومريان: «إنني مسرورة برؤيتكما، وكنت أخشى أن تحُول رداءة الطقس دون حضوركما، وهو أمر كان يزعجني كثيراً، لأننا سنسافر غداً مرة أخرى، وهو أمر لا بدَّ منه لأن آل وستون سيزورونا في الأسبوع القادم كما تعلمان. والواقع أن قدومنا كان أمراً مفاجئاً تماماً، ولم أعلم به إلا عندما وقفت العربة بالباب وحينئذٍ سألني السيد بالمر هل أسافر معه إلى بارتون. إنه رجل غريب الأطوار! فهو لا يحدِّثني عن أي شيء. وأنا آسفة لأننا لن نستطيع أن نمكث هنا أكثر من ذلك. على أنّ أملي أن أراكما قريباً في لندن مرة أُخرى».

فاضطرتا أن تضعا حداً لهذا الأمل.

فصاحت السيدة بالمر وهي تضحك: «لن تذهبا إلى لندن! إنه ليحزنني ألا تذهبا إليها. في وسعي أن أدبِّر لكما أجمل بيت في

العالم يكون مجاوراً لبيتنا في ميدان هانوفر. يجب أن تحضرا إلينا. وسأكون سعيدة بمرافقتكما في أي وقت حتى يحين وقت الوضع إذا لم ترغب السيدة داشوود في الخروج».

فشكرتاها ولكنهما اضطرتا إلى الاعتذار عن إجابة رجائها.

فصاحت السيدة بالمر بزوجها الذي دخل الحجرة في تلك اللحظة: «هيا يا حبيبي ضم صوتك إلى صوتي لإقناع الآنستين داشوود بالسفر إلى لندن هذا الشتاء».

ولكن حبيبها لم يحِر جواباً، وأخذ يشكو من الطقس بعد أن انحنى للآنستين انحناءة خفيفة.

قال: «تباً لهذا الطقس! إنه يجعل الإنسان يضيق برؤية كل شيء وكل شخص. والمطر يورث الضجر داخل البيت وخارجه، ويبغض إلى الإنسان رؤية معارفه وأصحابه. أي شيطان هذا الذي وسوس إلى سير جون ألا يخصِّص حجرة للبلياردو في بيته؟ ألا ما أقل الذين يعرفون معنى الترفيه؟ إن سير جون والطقس، سواء في الغباء».

وسرعان ما دخل بقية الرفاق.

وقال سير جون: «أخشى يا آنسة مريان أن تكوني قد قمتِ بنزهتك المعتادة إلى ألنهام اليوم».

فارتسم الوجوم على وجهها ولم تقل شيئاً.

وقالت السيدة بالمر: «لا تتظاهري بالمكر أمامنا لأننا نعرف كل شيء. وأنا معجبة كثيراً بذوقك لأني أعتقد أنه ذو جمال فائق. وأنت تعلمين أننا لا نبعد عنه كثيراً في الريف، ولعل المسافة لا تتجاوز عشرة أميال».

فقال زوجها: «زهاء ثلاثين».

«وَيْ! ليس الفرق كبيراً. وأنا لم أذهب إلى بيته قط، ولكنهم يقولون: إنه بيت جميل أنيق».

فقال السيد بالمر: «لم أرَ في حياتي أقبح منه».

ولاذت مريان بالصمت المطبق، وإن عبَّرت أسارير وجهها عن اهتمامها بما قالا.

واستطرت السيدة بالمر: «أقبيح هو؟ إذن لا بدَّ أن يكون البيت الجميل الذي أعرفه بيتاً غيره فيما أظن».

ولمّا جلسوا في حجرة الطعام أعرب سير جون عن أسفه لأنّ عدد ضيوفه لا يتجاوز الثمانية.

وقال لزوجته: «من دواعي الأسف يا عزيزتي أن يكون عددنا قليلاً. لماذا لم تدعي آل جلبرت لزيارتنا اليوم؟».

«ألم أقل لك يا سير جون عندما كلمتني في ذلك من قبل: إنه متعذّر لأنهم تناولوا طعام الغداء عندنا أخيراً».

فقال السيدة جننجز: «ينبغي لي ولك يا سير جون ألّا نتمسك بهذه الشكليات».

فصاح السيد بالمر: «إذاً تكوني امرأة غير مهذبة».

فقالت له زوجته، وهي تضحك كعادتها: «يا حبيب أنت تناقض كل إنسان. ألا تعلم أنك رجل فظ؟».

«أنا لا أعرف أني ناقضت إنساناً حين قلت: إنّ أمك غير مهذبة».

فقالت السيدة العجوز الطيبة القلب: «أجل! لك أن تشتمني كما تشاء. لقد أخذت شارلوت مني، ولن تستطيع أن تردها إليّ مرة أخرى. ولذلك فالسوط فوق رأسك!».

وقهقهت شارلوت ضاحكة لاعتقادها أن زوجها لا يستطيع

التخلص منها واستخفها الفرح، وقالت: إنها لا تهتم إذا عبس زوجها في وجهها لأنه لا بدَّ لهما من العيش معاً. والواقع أنه لم يكن ثمة من يفوق شارلوت في طيبة قلبها، وتصميمها على إظهار المرح والحبور، ولم تتألم قط لما أبداه زوجها من تعمّد الاستخفاف بها، وما أظهره من السخط والوقاحة، بل كانت تضحك إذا أنَّبها أو شتمها.

وهمست في أذن إلينور قائلة: «السيد بالمر رجل غريب الأطوار، ودائماً هو معكر المزاج».

ولم تجنح إلينور للاعتقاد - بعد أن أنعمت النظر قليلاً - بأنه رجل مجبول فعلاً على ما كان يريد أن يتظاهر به من خبث الطوية وسوء الأدب. وربما ساءت طباعه قليلاً حينما تبيّن أن الانسياق الأعمى وراء الجمال أوقعه في شِباك امرأة سخيفة العقل، شأنه في ذلك شأن الكثير من أبناء جنسه، ولكن إلينور كانت تعلم أنّ الوقوع في مثل هذا الخطأ أمر شائع الحدوث لا يتأذى به العقلاء من الرجال على الدوام، وكانت تعتقد أن الباعث له على احتقار الناس واستخفافه بكل شيء يراه إنما هو حب الشهرة، وهذا الباعث أمر مألوف لا يدعو إلى العجب ولكن الوسيلة التي لجأ إليها لم يكن من المحتمل أن تجلب له من المودة إلّا مودة زوجته، وإن نجحت هذه الوسيلة في إثبات تفوقه على غيره في سوء الأدب.

ولم تلبث السيدة بالمر أن قالت: «عزيزتي آنسة داشوود! أريد منك ومن أختك أن تصنعا معي جميلاً. هل لكما في زيارتنا وقضاء بعض الوقت في كليفلاند في عيد الميلاد القادم؟ أرجو أن توافقا على هذه الدعوة وزيارتنا في أثناء إقامة آل وستون عندنا. ليس في وسعك أن تتصوري كم أكون سعيدة بهذه الزيارة! ستكون ممتعة

جداً! - ثم اتجهت إلى زوجها: «ألا تتوق لقدوم الآنستين داشوود إلى كليفلاند؟».

فأجاب ضاحكاً: «يقيناً! لقد جئت إلى ديفونشاير لهذا الغرض وحده».

فقالت زوجته: «ها أنتما تانِ تريان أن السيد بالمر يأمل في حضوركما. فأرجو ألّا ترفضا الدعوة».

فرفضت كلتاهما الدعوة بقوة وإصرار.

«لا! لا بدَّ من حضوركما وستحضران: وأنا أعتقد أنكما ستستمتعان بها إلى أقصى حد. وسيكون آل وستون معنا، وسيكون في ذلك متعة، أي متعة! وليس في وسعكما أن تتصورا جمال كليفلاند. ونحن الآن ننعم بالبهجة والسرور لأن السيد بالمر يطوف دائماً في البلاد ليقوم بالدعاية الانتخابية، ولذلك يأتي إلينا كثير من الناس لم أرهم قط، ليتناولوا معنا طعام الغداء، وهو أمر رائع حقاً، ولكن وارحمتاه له! إنه يلقي كثيراً من التعب والنصب لأن الواجب يدعوه أن يخطب ودّ كل إنسان».

ولم تستطع إلينور أن تتمالك من الضحك عندما أقرّتها على ما ينطوي عليه هذا الواجب من عناء ومشقّة.

قالت شارلوت: «ما أجمل أن أراه عضواً في البرلمان! أليس كذلك؟ إنني لن أكفّ عن الضحك! لأنه من المضحك حقاً أن أرى الناس يرسلون إليه خطاباتهم بعنوان «ع. ب» - ولكن ألا تعلمين أنه يقول لي: إنه لن يرسل لي خطاباً؟ لقد صرَّح لي بذلك. أليس كذلك يا سيد بالمر؟».

فلم يعرها السيد بالمر التفاتاً.

واستطردت قائلة: «إنه لا يطيق الكتابة لأنه يزعم أنها شيء فظيع حقاً».

قال: «كلا! لم أقل مثل هذا الهراء. لا تنسبي إليّ ألفاظ السباب التي عرفتِها في اللغة».

«ها أنتِ ذي ترين كيف أنه رجل غريب الأطوار. هذا دأبه ودَيْدنه. يسكت دهراً ثم ينطق كفراً فيحدّثني عمّا يعرفه عن كل شيء في العالم».

وقد دهشت إلينور كثيراً عندما سألتها السيدة بالمر، ألا تحبين السيد بالمر كثيراً؟

فأجابت إلينور: «بلى! إنه رجل لطيف».

«حسناً! يسرني أنك تحبينه. وكنت أعتقد ذلك لأنه فعلاً رجل ظريف. وفي وسعي أن أقول: إنه معجب بك وبأخواتك كثيراً، وليس في وسعك أن تتصوري مبلغ استيائه إذا لم تحضري إلى كليفلاند - إنني لا أدري لماذا تعارضين في ذلك».

واضطرت إلينور أن تكرّر رفضها للدعوة، وأرادت أن تضع حداً لتوسّلاتها، فغيّرت مجرى الحديث، إذ رأت أنه من المحتمل أن تكون السيدة بالمر - لأنها تقيم مع ولبي في بلد واحد - أقدر على وصف أخلاقه من آل ميدلتون الذين يعرفونه معرفة جزئية. وكانت إلينور تحرص على تعرُّف أخلاقه من أيّ إنسان حتى لا يكون هناك احتمال للخوف على مريان، فسألتها. هل رأيت ولبي كثيراً في كليفلاند وهل تعرفينه حق المعرفة؟

فأجابت السيدة بالمر: «نعم يا عزيزتي، أعرفه كلّ المعرفة، ولكن لم أكلِّمه في الواقع، بيد أني رأيته في لندن دائماً. ولم يتفق لي قط - لسبب لا أعرفه - أن كنت في بارتون في أثناء إقامته في ألنهام.

أمّا ماما فقد رأته هنا ذات مرة، ولكني كنت في ويموث مع عمي. على أني أؤكد أنه كان من المحتمل أن أراه كثيراً في سومرستشاير، لولا أنّ سوء الحظ شاء ألا نلتقي في الريف قط. وهو قلما يقيم في كومب فيما أعتقد، وحتى لو أقام فيه كثيراً لما زاره السيد بالمر فيما أظن لأنه ينتمي إلى الحزب المعارض كما تعلمين، ثم إنه بعيد جداً. وأنا أعرف لماذا تسألين عنه. إن أختك ستتزوجه. وأنا في غاية السرور بذلك لأنها حينئذٍ ستكون جارة لي كما تعلمين».

فأجابت إلينور: «صدقيني أنك تعرفين عن هذا الأمر أكثر ممّا أعرف إذا كان لديك من الأسباب ما يحملك على توقّع هذا الزواج».

«لا تدَّعي إنكاره، فهو حديث كل إنسان كما تعلمين. وأؤكد لك أنني سمعته في طريقي إلى لندن».

«عزيزتي السيدة بالمر!»:

«أقسم لك بشرفي أنني سمعته - قابلت كولونيل براندون صباح يوم الجمعة في بوند ستريت قبيل مغادرتنا لندن وحدثني عنه فاه إلى فِيَّ».

«هذا أمر يُدهشني كثيراً. كولونيل براندون يحدّثك عنه! حقاً إنك مخطئة. فليس من دَيْدن كولونيل براندون أن يفضي بمثل هذا النبأ لإنسان لا يهمّه سماعه، حتى ولو كان صحيحاً».

لكني أؤكد لك أنّ هذا ما حدث على الرغم ممّا تقولين. وسأخبرك كيف حدث. حينما التقينا عاد وسار معنا، فأخذنا نتحدث عن أخي وأختي وكيت وقلت له: «سمعت يا كولونيل أنّ أسرة جديدة قدمت إلى منزل بارتون الريفي، وأبلغتني ماما أنّ بناتها تَمتَزْن بالجمال، وأن إحداهن ستتزوج السيد ولبي صاحب كومب

ماجنا. أصحيح هذا؟ إنك بالطبع أدرى بحقيقة الأمر إذ كنت في ديفونشاير أخيراً».

«وماذا قال الكولونيل؟».

«عجباً! - لم يقل كثيراً ولكن بدا عليه أنه يعرف أنّ الخبر صحيح. ومن تلك اللحظة وقر في صدري أنه أمر محقّق. وأنا أصرح أنه سيكون زواجاً رائعاً! ومتى سيتم؟».

«لعلّ السيد براندون كان يتمتع بصحة طيبة».

«نعم، على خير ما يرام، وقد أثنى عليك كثيراً. ولم يقل عنك إلّا كلّ جميل».

«يسرّني ثناؤه عليّ. ويبدو لي أنه رجل مفضال. وأعتقد أنه لطيف جداً».

«وكذلك رأيي فيه - فهو رجل حلو الشمائل إلى حدّ يجعلني أشعر بالأسف عندما أراه ساهم الوجه كاسف البال. وتقول ماما: إنه أحب أختك أيضاً. وأؤكد لك أن هذا لأمر لو صحّ لكان دليلاً على إعجابه العظيم بها، لأنه قلما يحبّ أي إنسان بسهولة».

قالت إلينور: «هل السيد ولبي معروف كثيراً في المنطقة التي تقيمون بها في سومرستشاير؟».

«نعم معروف جداً بمعنى أن جلّ الناس لا يعرفونه فيما أعتقد لأنّ كومب ماجنا بعيدة جداً، ولكني أؤكد أنّ كلهم يعتقدون أنه رجل محبوب. ليس ثمة مَن هو أحب إلى الناس منه أينما ذهب. وفي وسعك أن تقولي لأختك ذلك. وأقسم بشرفي أنها سعيدة الحظ بالزواج منه، إلا أنه هو أسعد حظاً بالزواج منها، لأنها على حظ وافر من الجمال والأخلاق المُرضية، بحيث لا يوجد مَن يصلح لها. على أني لا أعتقد أنها أوتيت من الجمال حظاً أوفر من حظك، لأني

أرى أنكما تمتازان بفرط الجمال، وكذلك يرى السيد بالمر كما أعتقد، وإن لم نستطع حمله على الاعتراف بذلك في الليلة البارحة».

لم تكن المعلومات التي ذكرتها السيدة بالمر عن ولبي ذات قيمة كبيرة، ولكن كلّ شهادة لصالحه كانت تبعث في نفسها السرور، مهما كانت ضئيلة.

واستطردت شارلوت قائلة: «يسرني كثيراً أننا تعارفنا في الليلة الماضية. وأرجو أن تتوثّق بيننا دائماً أواصر الصداقة الوطيدة بعد اليوم. وليس في وسعك أن تتصوري كم كنت أتوق لرؤيتك. وإنه لمن بواعث السرور أن تقيمي في المنزل الريفي! إنه بيت لا مثيل له فيما أعتقد ويسرني أن أختك ستتزوج زوجاً طيباً! وأرجو أن تزوري كومب ماجنا كثيراً فهو بيت جميل باعتراف الجميع».

«ألم تتعرفي بكولونيل براندون منذ زمن طويل؟».

«بلى، منذ مدة، منذ أن تزوجت أختي - كان من خاصة أصدقاء سير جون». وأردفت بصوت خافت: «كان يسره أن يتزوجني لو استطاع، وكان سير جون وليدي ميدلتون يتمنيان ذلك كثيراً. ولكن ماما لم ترَ أنه يصلح لي زوجاً، وإلا لتحدَّث سير جون إلى الكولونيل في ذلك، وتزوجنا في الحال».

«ألم يعلم كولونيل براندون باقتراح سير جون على أمك قبل عرضه عليها؟ ألم يصارحك قط بحبه لك؟».

«كلا! ولكني أعتقد أنه لولا معارضة أمي هذا الزواج لكان هو يؤثره على غيره. ولم يكن حينذاك قد رآني أكثر من مرتين لأنه رآني قبل أن أترك المدرسة. على أني سعيدة بزوجي الحالي لأني أحب بالذات ذلك الطراز من الرجال».

الفصل الحادي والعشرون

عاد آل بالمر إلى كاليفلاند من اليوم التالي، وبقيت أسرتا بارتون ليتبادلا الزيارة والمسامرة. ولكن ذلك لم يدم طويلاً، فما إن نسيت إلينور الزوار الذين زاروها أخيراً وقضت العجب من شعور شارلوت بالسعادة بدون ما سبب ومن تصرف السيد بالمر بمثل هذه السذاجة مع مواهبه الطيبة، ومن عدم التوافق الغريب بين الرجل وزوجته، حتى جاءها سير جون والسيدة جننجز ببعض المعارف الجدد لتَراهن وتتعرف إليهن، جرياً على عادتهما في الحرص على التعارف بين الناس.

وذلك أن سير جون والسيدة جننجز قاما برحلة إلى إكستر في الصباح، فقابلا فتاتين، فسُرّت السيدة جننجز حين عرفت أنهما تمتّان لها بصلة القربى، وكان هذا كافياً لأن يدعوهما سير جون في الحال لزيارة بارتون بارك. بمجرد أن تنتهي مواعيدهما في إكستر، فلم يسعهما بإزاء هذه الدعوة إلا إلغاء مواعيدهما في أكسفورد على الفور وذعرت ليدي ميدلتون عندما عاد سير جون وأبلغها أنّ فتاتين لم ترهما من قبل سيزورانها بعد قليل. ولم تؤمن بأناقتهما ولا حتى بدماثتهما لأن تأكيدات زوجها وأمها في هذا الشأن لم تكن تساوي شيئاً. وممّا زاد الطين بلة أنهما كانتا تمتّان لها بصلة القربى، ولم

تجد محاولات السيدة جننجز في التهوين عليها، إذ نصحت لها أمها ألّا تكترث كثيراً لأناقتهما لأنهما من الأقارب، وعلى الأقارب أن يتسامح بعضهم مع بعض.

وإذ لم يكن بدّ من زياتهما، فقد وطنت ليدي ميدلتون نفسها على قبول الأمر الواقع بكل ما تتصف به المرأة المهذبة من صبر واحتمال، واكتفت بتوجيه عتاب رقيق إلى زوجها في ذلك خمس مرّات أو ست مرّات كل يوم.

وقدِمَت الفتاتان، ولم يكن مظهرهما يجافي الأناقة أو الدماثة. كانت ملابسهما أنيقة، وأخلاقهما مهذبة، وأبدتا إعجاباً بالمنزل وأثاثه، كما أظهرتا من الحب للأطفال ما جعل ليدي ميدلتون تحسن الظنّ بهما بعد مرور ساعة على وجودهما بالمنزل، فصرحت بأنهما فتاتان لطيفتان حقاً، وكان هذا الثناء منها بمثابة إعجاب حماسي. وازداد سير جون ثقة برأيه فيهما على أثر سماعه هذا الثناء المستطاب، فتوجّه من فوره إلى المنزل الريفي ليخبر الآنسات داشوود بقدوم الآنستين ستيل، ويؤكد لهن أنهما أحلى الفتيات في العالم. على أن هذا الثناء لم يتضمن كثيراً من التعريف بهما إذ كانت إلينور تعرف جيداً أن المرء يستطيع أن يرى في إنجلترا أحلى فتاة في العالم شكلاً ووجهاً وطبعاً وعقلاً على اختلاف صورها جميعاً. وطلب سير جون أن يتوجه أفراد الأسرة جميعاً من فورهن إلى الحديقة ليشاهدن ضيفتيه. يا له من رجل محبّ للخير وللإنسانية! لقد كان يعزّ عليه أن يحتفظ لنفسه بقريب ثالث! قال: «أرجوكن، تعالين الآن - أرجوكن تعالين - يجب أن تحضرن - إنني أقول لكن: تعالين - ليس في وسعكن أن تتصورن كم ستعجبن بهما. لوسي رائعة الجمال، وبشوش الوجه، ودمثة الخلق! الأطفال

كلهم يتعلقن بها كأنهم يعرفونها من قديم. كلتاهما تتوق إلى رؤيتكما لأنهما سمعتا في إكستر أنكن أجمل نساء العالم، وقلت لهما: إن هذا صحيح، بل أكثر من ذلك. وأنا واثق أنكن ستعجبن بهما. لقد ملأتا كلّ العربة بلعب الأطفال. كيف تعارضن في الحضور، وأنتن تعلمن أنهما تمتان لكنَّ بصلة القربى من بعض الوجوه، فأنتن من أقاربي، وهما من أقارب امرأتي، ومن ثم فهما وأنتن من ذوي الأرحام بلا ريب».

ولكن سير جون لم يوفَّق في حملهن على الحضور، وكل ما استطاع أن يفعله هو الحصول على وعد بزيارة بارتون بارك في غضون يوم أو يومين، وانصرف مذهولاً لعدم اهتمامهن بالزيارة، وتوجه إلى منزله ليردّد فخره بمحاسنهن على أسماع الآنستين ستيل، كما سبق أن ردّد على أسماعهن فخره بهما.

ولمّا قمن بزيارتهن الموعودة إلى الحديقة، وتعرفن إلى الآنستين لم يجدن في منظر كبراهما ما يثير الإعجاب، فقد كانت تناهز الثلاثين، وكان وجهها خالياً من سمات الجمال لا يدل على رقة الشعور. ولكن اعترفن بأنّ الأخرى التي لا يزيد عمرها على اثنتين أو ثلاث وعشرين سنة، قد أوتيت قسطاً وافراً من الجمال، إذ كانت قسمات وجهها جميلة، ونظراتها حادة وسريعة، وهيئتها أنيقة ممّا كان يميّزها عن أختها، وإن كانت لا توصف في الواقع بأنها رشيقة أو رقيقة وكان سلوكها يتّسم بالمجاملة الشديدة. ورأت إلينور أنهما على جانب من العقل حين رأتهما يكسبان ودّ ليدي ميدلتون بما يبديان دائماً من ضروب الرعاية والاهتمام الدالة على الفطنة، فكانتا تُظهران السرور بملاعبة الأطفال، وتمتدحان جمالهم، وتتوددان إليهم وتسايران أهواءهم، وإذا بقي لديهما شيء من الوقت

بعد قضاء هذه الواجبات الملحّة التي تقتضيها المجاملة، صرفتاه في إبداء الإعجاب بكلّ ما تعمله ليدي ميدلتون، إذا صادف أن عملت شيئاً، أو صرفتاه في إعداد نموذج لثوب جديد أنيق رأتاه على هذه السيدة بالأمس فأثار إعجابهما، ومن حسن حظ الذين يتودّدون إلى الناس من طريق مَواطن الضعف هذه، أن الأم المغرمة بحب أطفالها هي - إلى كونها أسرع الناس إلى تصيد الثناء على أطفالها - أسرعهم أيضاً إلى تصديق ما يُقال عنهم، فهي شرهة في طلب الثناء عليهم وتَتَبُّع كل ما يُقال عنهم. ولذلك نظرت ليدي ميدلتون إلى ما أبدته الآنستان ستيل نحو أطفالها من فرط الحب والاحتمال دون أن تخالجها أدنى دهشة أو ريبة كما نظرت بعين الرضا المعروف عن الأم إلى الاعتداءات الوقحة والحيل الخبيثة التي يتعرّض لها أقاربها، فشاهدت أطفالها وهم يفكّون أحزمتهما، ويشدون شعرهما حول آذانهما، ويفتشون في حقائبهما، ويسرقون مداهما ومقصّهما، دون أن يخالجها أي شك في أنّ هذا العبث يبعث السرور في نفسيهما، ودون أن يعتريها شيء من الدهشة اللهم إلا الدهشة لجلوس إلينور ومريان في سكينة وهدوء دون أن تشتركا في هذا العبث.

وقالت عندما أخذ جون منديل جَيب الآنسة ستيل، وقذفه من النافذة «جون في غاية الفرح والمرح اليوم! إنه يأتي من الحيل الكثيرة ما يشبه حيل القرود».

ولم يلبث الولد الثاني أن قرض بعنف أظافر السيدة نفسها، فقالت أمه بحنان وحب: «ليم! يا له من ولد لعوب!».

واستطردت تقول، وهي تلاطف برقة وحنان طفلة صغيرة عمرها ثلاث سنوات لم تُحدث ضجة في الدقيقتين الأخيرتين: «ها

هي ذي آنّا مارية، بنتي الحلوة الصغيرة! دائماً لطيفة ووديعة - لم أرَ في حياتي ما هو أهدأ من هذه الطفلة الصغيرة الوديعة!». ولكن حدث لسوء الحظ - وهي تتحف أولادها بهذه الأحضان والقبلات - أن خدش دبوس في لباس رأسها رقبة هذه الطفلة خدشاً بسيطاً، فصاحت هذه الطفلة التي وصفتها بأنها أنموذج الرقة والدعة صياحاً عنيفاً لا يصدر من أيّ مخلوق مشهور بين الناس بإثارة الجلبة والضجة، فكانت دهشة الأم بالغة، ولكن فزع الآنستين كان أبلغ، وقام الثلاثة في هذه الأزمة الدقيقة بكلّ ما تُمليه المحبة ممّا عساه أن يخفف من آلام الطفلة الصغيرة، فأجلستها أمها في حجرها، وغمرتها بقبلاتها، وجثت إحدى الآنستين على ركبتيها لتضمّد جراحها، فغسلتها بماء اللاوندا، أما الآنسة الأخرى فحشت فمها بالسكاكر. وكانت الطفلة أعقل من أن تكفّ عن البكاء والصياح أمام هذا العطف الذي استدرّته دموعها، فأخذت تصيح وتجهش بالبكاء، وترفس أخويها لأنهما تقدما إليها ليمسكا بها، وأخفقت كل الوسائل التي اتخذنها جميعاً لتهدئة الطفلة إلى أن تذكرت ليدي ميدلتون لحسن الحظ أنها استعملت مربى التفاح بنجاح في أزمة مماثلة في الأسبوع الماضي حين أصيب صدغ الطفلة برضوض، فاقترحت هذا العلاج نفسه لمداواة هذا الخدش الأليم، وما إن سمعت الطفلة اسم المربى حتى هدأ صياحها، فكان ذلك باعثاً على الأمل في أنها لن ترفض المربى، فحملتها أمها بين ذراعيها إلى خارج الحجرة بحثاً عن هذا الدواء، وآثر الولدان أن يتبعا أمهما مع إلحاحها عليهما بالبقاء، وبقيت الآنسات الأربع في هدوء لم تعرفه الحجرة عدة ساعات.

وقالت الآنسة ستيل بمجرد أن خرجوا: «مسكينة هذه الطفلة

الصغيرة! لقد كان يُخشى أن يكون الحادث محزناً جداً». فصاحت مريان: «لا أدري كيف يكون ذلك، اللهم إلا إذا كانت الظروف تختلف عن ذلك تمام الاختلاف. ولكن هذا هو الأسلوب المعتاد للتهويل من الفزع حيث لا داعي للفزع في الحقيقة».

وقالت لوسي ستيل: «ما ألطف ليدي ميدلتون!».

فلزمت مريان الصمت لأنه كان من المستحيل أن تقول ما لا تعتقد مهما بلغت تفاهته. وهكذا وقع عبء الكذب كله على عاتق إلينور كلما اقتضته المجاملة. فبذلت جهدها حينما دعتها الضرورة لذلك، فلهجت بالثناء على ليدي ميدلتون أكثر ممّا تعتقد، وإن كان ثناؤها دون ما ذكرته الآنسة لوسي بكثير».

وصاحت الأخت الكبرى: «وسير جون أيضاً، يا له من رجل ظريف!».

وهنا أيضاً كان ثناءُ الآنسة داشوود ثناءً بسيطاً وعادلاً، صادراً بدون أية ضجة فاكتفت بأن قالت: إنه رجل بشوش ودود.

«وما أظرف أطفالهما الصغار! إنني لم أرَ أظرف من هؤلاء الأطفال في حياتي - إنني أصرح أنني أحبهم حباً جماً. والحق أني أهيم دائماً بحب الأطفال».

فقالت إلينور بابتسامة: «لقد حزرت ذلك ممّا شاهدت في هذا الصباح».

فقالت لوسي: «يخيّل إلي أنك تظنين أن ليدي ميدلتون تسرف في تدليل أطفالها. وربما كان هذا التدليل يجاوز الحدّ ولكنه أمر طبيعي في ليدي ميدلتون وأنا شخصياً أحب الأطفال الذين تنبض نفوسهم بالحياة والمرح، ولا أطيق منظر الأطفال الذين يخلدون إلى الهدوء والدعة».

فأجابت إلينور: «أعترف أنني لا أنظر أبداً - وأنا في بارتون بارك - بعين المقت إلى الأطفال الذين يخلدون إلى الهدوء والدعة».

وساد الصمت برهة بعد هذا الحديث، كانت الآنسة ستيل أول مَن قطعه إذ كان يبدو عليها الميل لمجاذبة أطراف الحديث فقالت فجأة: «وما رأيك في ديفونشاير يا آنسة داشوود؟ أظن أنك شعرت بالأسف الشديد لمفارقة سسكس».

فأجابت إلينور أنها شعرت بذلك، واعترتها بعض الدهشة لما انطوى عليه هذا السؤال من الجرأة أو على الأقل للهجة التي قِيل بها.

وأردفت السيدة ستيل: «نورلاند مكان جميل. أليس كذلك؟».

وقالت لوسي، وكأنها تلتمس بعض العذر لجرأة أختها: «لقد سمعنا سير جون يثني على نورلاند ثناءً مستطاباً».

فأجابت إلينور: «أعتقد أنّ كل مَن أتيح له أن يشاهد هذا المكان لا يسعه إلّا الإعجاب به، ولكن لا ينبغي أن يتبادر إلى الذهن أن إنساناً يستطيع أن يقدّر محاسنه كما نقدرها نحن».

«وهل كان فيه كثير من الفتيان الحسان الظرفاء؟ أظن أنك لا تجدين كثيراً منهم في هذه البقعة من العالم. أما أنا فأعتقد أنه يوجد منهم كثيرون دائماً».

وقالت لوسي، وقد بدا عليها الخجل من حديث أختها: «ولماذا تظنين أنه لا يوجد في ديفونشاير كثير من الشبان الظرفاء كما يوجد في سسكس؟».

«كلا يا عزيزتي! أنا لا أدعي أنه لا يوجد منهم أحد، فأنا واثقة أنه يوجد كثير من الفتيان الحسان المتأنقين في إكستر، ولكن أنى لي

أن أعرف ما عسى أن يوجد من الفتيان الحسان المتأنقين في نورلاند؟! كل ما كنت أخشاه أن تشعر الآنسات داشوود بالملل في بارتون، إذا لم يجدن فيها من الفتيان الحسان ما ألفنه من قبل. ولكنكن معشر الفتيات لا تعبأن بالفتيان الحسان، وسواء عندكن وجودهم وعدمهم. أما أنا فأعتقد أنّ وجودهم يبعث على الرضا والسرور بشرط أن يكون ملبسهم أنيقاً وسلوكهم مهذباً ولكني لا أطيق أن أرى منظرهم قذراً، وأخلاقهم سيئة. أمامنا الآن في إكستر السيد روز، وهو شاب أنيق جداً، وجميل جداً، يعمل كاتباً للسيد سمبسون كما تعلمين، ومع ذلك إذا قابلته في الصباح لا تطيقين النظر إليه - وأظن أنّ أخاك يا آنسة داشوود كان شاباً متأنقاً جداً قبل أن يتزوج لأنه كان غنياً جداً».

فأجابت إلينور: «صدقيني أنني لا أستطيع أن أجيبك لأني لا أفهم معنى هذه الكلمة تماماً. ولكني أستطيع أن أقول لك هذا، وهو أنه إذا كان متأنقاً قط قبل زواجه، فإنه لا يزال كذلك لأنه لم يطرأ عليه أدنى تغيير».

«عجباً يا عزيزتي! إن الناس لا يرون أبداً أن المتزوجين متأنقون لأن لديهم ما يشغلهم عن التأنق».

فصاحت أختها: «يا إلهي! لا حديث لك يا آن إلا عن المتأنقين - ستجعلين الآنسة داشوود تعتقد أنك لا تفكرين في شيء آخر» ثم أرادت أن تحوّل مجرى الحديث فأخذت تثني على البيت والأثاث.

وكان في هذا القدر من حديث الآنستين ما فيه الكفاية. فما أظهرته الكبرى من التبذل والجرأة والحماقة لم يدع مجالاً للثناء عليها، وما اتصفت به الصغرى من جمال وذكاء لم يُعْمِ إلينور عن

خبثها ودهائها، ولذلك غادرت المنزل دون أية رغبة في زيادة التعرف إليهما.

أما الآنستين ستيل فقد أبدتا عكس هذه الرغبة - لقد جاءتا من إكستر وهما تلهجان بالثناء على حسن معاملة سير جون وأهله وجميع أقاربه، ووجهتا نصيباً غير قليل من هذا الثناء إلى قريباته الحسناوات، فصرحتا بأنهما لم تريا من الفتيات من يفقهن جمالاً وظرفاً وأدباً ولطفاً، وأنهما تحرصان على زيادة التعرُّف إليهن. ولم تلبث إلينور أن رأت أنه لا مفر من زيادة هذا التعارف لأنّ سير جون أيد الآنستين ستيل تأييداً كاملاً، وبذلك عزز جانبهما إلى حدّ لا تجدي معه المعارضة. ولم يكن بدٌّ من الإذعان للجلوس معهما ساعة أو ساعتين في حجرة واحدة كل يوم تقريباً، ولم يستطع سير جون أن يفعل أكثر من ذلك. ولكنه لم يدر أنّ الأمر يتطلب شيئاً أكثر، وكان من رأى سير جون أنّ الاجتماع معناه زيادة الإلفة، وأنه متى نجحت خطته في استمرار الاجتماع بينهن، لم يصبح هناك شكّ في توثيق عري الصداقة بينهن.

ومن الإنصاف أن نقول: إنه بذل كل ما في وسعه لإزالة التحفّظ بينهن إذ أطلع الآنستين ستيل على كلّ ما يعرفه ظناً أو يقيناً من أحوال أقربائه صغيرها وكبيرها. ولم تكد إلينور تقابلهما أكثر من مرتين حتى هنأتها كبراهما بتوفيق أختها في الظفر بشاب جميل أنيق منذ قَدِمَت إلى بارتون.

قالت: «من دواعي السرور حقاً أن تتزوج مثل هذا الشاب. وقد سمعت أنه شاب أنيق جداً ووسيم جداً وأرجو أن يسعدك الحظ بمثله قريباً - ولكن لعلّ لك بالفعل صديقاً في السر».

ولم تكن إلينور تظنّ أنّ سير جون سيبدي من الكياسة في إعلان

ما يخالجه من ظنون بصدد حبها لإدوارد أكثر ممّا أبداه بشأن مريان، إذ الواقع أنه كان يرى في أمرها مادة للمزاح والمفاكهة أحبّ إليه من أمر مريان، باعتباره أمراً جديداً قابلاً للحدس والتخمين. ولم تتناول معه الغذاء منذ زيارة إدوارد دون أن يشرب نخبها متمنياً لها التوفيق في الحب، بطريقة ذات مغزى، مكثراً من إنغاض الرأس والغمز بالعين إلى حدٍّ يُثير اهتمام الجميع. وكذلك كان يردّد دائماً ذكر الحرف «ف» ويجد فيه مادة خصبة لنكات لا حد لها حتى استقر في يقين إلينور أنه أفكه حرف من الحروف الهجائية.

وكانت الآنستان ستيل تجدان - كما توقعت إلينور - أكبر متعة في هذه النكات التي أثارت في كبراهما حبّ الاستطلاع لمعرفة اسم الرجل المشار إليه وعبَّرت عن هذا الحب بوقاحة تتفق مع الفضول الذي دفعها إلى البحث في شؤون الأسرة. ولكن سير جون لم يلبث أن أشبع غريزة حبّ الاستطلاع التي طاب له أن يثيرها، لأنه كان يحلو له على الأقل ذكر الاسم كما يحلو للآنسة ستيل سماعه.

فقال في همس تسمعه الأذن: «اسمه فيرارز ولكن أرجوك ألّا تذكريه لأنه سرّ كبير» فرددت الآنسة ستيل «فيرارز! هل السيد فيرارز هو الرجل السعيد! وَيْ! أخو «سلفتك» يا آنسة داشوود، إنه رجل لطيف حقاً. إنني أعرفه جيداً»؟

فصاحت لوسي، وكانت تصحّح عادة أقوال أختها: «كيف تقولين ذلك يا آن؟ صحيح أننا رأيناه مرة أو مرتين في منزل خالي، ولكن ذلك لا يبرِّر الادّعاء بأننا نعرفه جيداً». وسمعت إلينور كل ذلك باهتمام ودهشة. «ومن عسى أن يكون هذا الخال؟ وأين يقيم؟ وكيف تأتي لهما التعرف به؟». وكانت تودّ كثيراً أن تواصلا الحديث في هذا الموضوع وإن لم تشأ أن تشترك فيه، ولكنهما كَفّتا عن

الخوض فيه. واعتقدت لأول مرة في حياتها أنّ السيدة جننجز تعوزها القدرة على استطلاع دقائق الأمور، أو تعوزها الرغبة في الإفضاء بها. وكانت اللهجة التي تحدثت بها الآنسة ستيل عن إدوارد ممّا زاد من فضولها، لأنها أحسّت أنها صدرت بسوء نيّة، وظنّت أنّ هذه الفتاة تعرف أو تتخيل أنها تعرف أشياء في غير صالحه. ولكن هذا الفضول لم يأتِ بنتيجة لأن الآنسة ستيل لم تُعر الأمر التفاتاً حينما أشار سير جون إلى اسمه، أو حتى حينما ذكره صراحة.

الفصل الثاني والعشرون

لم تكن مريان التي تمقت كلّ لون من ألوان الوقاحة والتبذل، وانحطاط الأخلاق، بل كل مَن يختلف عنها في ذوقه ومشربه، تميل في ذلك الوقت خاصة الذي ساءت فيه حالتها النفسية، إلى الترحيب بالآنستين ستيل أو تشجيعهما على خطب ودّها. وإلى هذا الفتور الذي اتسم به مسلك مريان والذي صدَّ كلّ محاولة من جانبهما لتوثيق عرى المودة، عزت إلينور حبهما لها هي، الذي تجلى في مسلك كلّ منهما، ولا سيما لوسي التي لم تدَع فرصة تمرّ دون أن تتجاذب معها أطراف الحديث، أو تعمل على توثيق أواصر الصداقة معها بالإعراب الصريح عن عواطفها.

وكانت لوسي ذكية الفؤاد بفطرتها، كما كانت ملاحظاتها سديدة ومسلية. وكانت إلينور لا تملّ حديثها إذا لم يَزِد على نصف ساعة. ولكن التعليم لم يصقل ملكاتها العقلية، فكانت جاهلة وأمية. ولم يخف على إلينور ما تفتقر إليه من الثقافة والمعلومات العامة بزعم سعيها الدائب للظهور بمظهر المرأة المثقفة. وكانت إلينور ترثي لها لإهمالها مواهبها التي كان يرجى أن يؤدي التعليم إلى صقلها وتهذيبها، ولكنها لم ترث كثيراً لما يعوزها من رقة الشعور، واستقامة السلوك، ونزاهة القصد ممّا كشف عنه ما أظهرته

في الحديقة من ضروب الاهتمام والكدّ والملق. ولذلك لم يَسَع إلينور أن تشعر بالارتياح الدائم لصحبة امرأة تجمع بين النفاق والجهل، ولا تؤهّلها ثقافتها للتحدّث مع إلينور على قدم المساواة، امرأة كان سلوكها نحو غيرها يجعل ما تبديه نحو إلينور من مظاهر الاهتمام والاحترام أمراً لا قيمة له.

وقالت لها لوسي ذات يوم، وهما يسيران معاً من الحديقة إلى المنزل الريفي: «أخشى أن تعدّي سؤالي غريباً: هل تعرفين السيدة فيرارز أم «سلفتك»، معرفة شخصية؟».

وفعلاً عدَّت إلينور هذا السؤال غريباً، وبدا ذلك على وجهها حين أجابتها أنها لم ترَ السيدة فيرارز قط.

فقالت لوسي: «صحيح! إني لأعجب لذلك لأني ظننت أنك لا بدَّ قد رأيتها في نورلاند أحياناً. وإذن فليس في وسعك أن تخبريني عن أخلاقها».

فأجابت إلينور: «بلى، لا أعرف عنها شيئاً». وهي تحاذر أن تخبرها برأيها الحقيقي في أم إدوارد، ولا ترغب كثيراً في إرضاء فضولها.

وقالت لوسي، وهي تتفرس في وجه إلينور: «أعتقد أنك تظنين أني امرأة غريبة الأطوار جداً لسؤالي عنها بهذه الطريقة. ولكن لعل هناك أسباباً - بودي لو استطعت إبداءها - ولكن أرجو ألّا تعتقدي أني أريد أن أكون فضولية».

فردَّت عليها إلينور رداً مهذباً، وسارتا بضع دقائق في صمت، ثم قطعته لوسي التي جددت الحديث في الموضوع فقالت في شيء من التردّد:

«أنا لا أطيق أن تظني أني فضولية. أؤكد لك أنني أؤْثِر أي

شيء في العالم على أن تظن بي ذلك امرأة يهمني أن أظفر بحسن ظنها، كما أؤكد أنه لا يساورني أدنى خوف من الثقة بك. والواقع أنه يسرني أن أسمع نصيحتك فيما يجب أن أفعله في الموقف الحرج الذي أواجهه. ولكن لا داعي لإزعاجك. إنني آسفة لأنك لا تعرفين السيدة فيرارز».

فقالت إلينور بلهجة تنمّ عن مزيد الدهشة: «إنني آسفة لعدم معرفتي بها إذا كانت لك فائدة في معرفة رأيي فيها. ولكن الواقع أنني لم أفهم قط أنك تمتّين بأية صلة لهذه الأسرة، ولذلك أعترف بأنني أدهش بعض الدهشة لاهتمامك بالسؤال عن أخلاقها».

«أعتقد أنك تدهشين، وأنا لا أعجب لذلك إطلاقاً. ولكن إذا أمكنني أن أحدّثك عن كل شيء فلن تدهشي كثيراً. صحيح أنه لا صلة لي الآن بالسيدة فيرارز - ولكن قد يحين الوقت - وموعده يتوقف عليها - الذي يتسنى فيه أن نرتبط ارتباطاً وثيقاً».

وطأطأت رأسها في استحياء لطيف وهي تقول ذلك، ونظرت من طرف خفي إلى صاحبتها لترى أثر الحديث عليها.

فصاحت إلينور: «يالله! ماذا تعنين؟ أتعرفين السيد روبرت فيرارز؟ هل أنت مخطوبة له؟».

ولم تشعر بكثير من الارتياح لأن تكون هذه الفتاة سِلفَةً لها.

فأجابت لوسي: «كلا! ليس للسيد روبرت فيرارز - فأنا لم أره قط في حياتي، ولكن - وسلَّطت نظرها على إلينور - لأخيه الأكبر».

ماذا شعرت به إلينور في تلك اللحظة؟ الدهشة التي كان يحتمل أن تكون مؤلمة بقدر ما كانت شديدة لولا أنها اقترنت بما يكذِّب هذا الزعم، واتجهت نحو لوسي في ذهول وصمت لأنها لم تستطع

أن تحزر سبب هذا القول أو الغرض منه، ولكنها أبت - برغم تغيّر لونها - أن تصدقه، ولم تخشَ أن تتعرّض لنوبة عصبية أو تخرّ مغشياً عليها.

واستطردت لوسي: «من حقك أن تدهشي لأنه لم يكن في وسعك أن تعرفي شيئاً عن هذا الأمر من قبل، فإدوارد - على ما أظن - لم يشر إليه أدنى إشارة لا لكِ ولا لأحد من أهلك، لأننا تعاهدنا على كتمانه وأعتقد أنني حافظت على هذا الكتمان بإخلاص حتى هذه الساعة، فلا يعرف هذا الأمر أحد من أسرتي إلّا آن، ولولا ثقتي التامة بأنك ستكتمين هذا السر لما أخبرتك به قط. والواقع أني رأيت أنّ توجيه هذه الأسئلة الكثيرة عن السيدة فيرارز لا بدَّ أن يبدو لك غريباً، فأردتُ أن أوضح لك السبب في ذلك، ولا أظنّ أن السيد فيرارز سيستاء حين يعلم أنني أفضيتُ إليك بهذا السرّ لأني أعرف أنه يحسن الظن بأسرتكن كثيراً، ويعدك أنت وجميع أخواتك بمثابة أخواته هو - ثم سكتت».

ولزمت إلينور الصمت بضع دقائق. وكانت دهشتها لما سمعته تجلُّ عن الوصف في بداية الأمر ولكنها اضطرت في النهاية أن تتكلم، وتتكلم بحذر، فقالت بهدوء يخفي دهشتها وقلقها: «أتسمحين لي أن أسألك: هل مضى على خطبتكما وقت طويل؟».

«لقد تمّت خطبتنا منذ أربع سنوات».

«أربع سنوات!».

«نعم».

على أنّ إلينور أبَت أن تصدق ذلك، وإن اعترتها دهشة كبيرة.

قالت: «أنا أعلم أنكما تعارفتما منذ أيام قلائل».

«لكننا تعارفنا منذ عدة سنوات - لقد ظلَّ في كفالة خالي كما تعلمين مدة طويلة».

«خالك؟».

«نعم، سيد برات. ألم تسمعيه قط يتحدث عن السيد برات؟».

فأجابت إلينور: «أظن أنّي سمعت» وذلك بلهجة قوية ازدادت بازدياد انفعالها.

«لقد عاش أربع سنوات مع خالي الذي يقيم في لونجستيبل بالقرب من بليموث، وهنا بدأ تعارُفنا لأني كنت وأختي نقيم مع خالي، وهناك تمّت خطبتنا وإن لم يكن ذلك إلّا بعد سنة من تركه المدرسة، ولكنه كان يقيم معنا في غالب الأحيان بعد ذلك. ولم أكن راغبة في عقد الخطبة - وفي وسعك أن تتصوري ذلك - بدون علم أمه وموافقتها. ولكني كنت صغيرة، أحبه كثيراً إلى حدٍّ لم أستطع معه أن أتمسّك بأهداب الحكمة كما ينبغي - ومع أنك يا آنسة داشوود لا تعرفينه كما أعرفه فلا بدَّ أنك اختلطت به كثيراً بحيث شعرتِ أنه يستطيع أن يحمل أية امرأة على أن تحبه بإخلاص».

فأجابت إلينور: «يقيناً» دون أن تدري ما تقول، ولكنها أردفت بعد أن أطرقت هنيهة، بلهجة تنمُّ عن تجدّد ثقتها بشرف إدوارد ومحبته، وكذب صاحبتها: «مخطوبة للسيد إدوارد فيرارز!» إني أعترف بأني أدهش كثيراً لما تقولين، وأخشى - ومعذرة في ذلك - أن تكوني أخطأت في الشخص أو اسمه. كلانا لا يمكن أن يعني شخصاً واحداً اسمه السيد فيرارز...».

فصاحت لوسي وهي تبتسم: «كلانا لا يعني شخصاً آخر. إن إدوارد فيرارز، أكبر أبناء السيدة فيرارز التي تقيم في بارك ستريت،

وشقيق «سلفتك» السيدة جون داشوود هو الشخص الذي أعنيه. يجب أن تسلِّمي بأنه ليس من المحتمل أن أخطئ في اسم الشخص الذي تتوقف عليه سعادتي كلها».

فأجابت إلينور بلهجة تنمّ عن أشد الارتباك: «من الغريب أني لم أسمعه قط يذكر حتى اسمك».

«كلا، لم يكن هذا مستغرباً بالنظر إلى موقفنا. لقد كان همّنا الأكبر هو كتمان الأمر - لم تكوني تعرفين شيئاً عني أو عن أسرتي، فلم يكن ثمة داعٍ لأن يذكر لك اسمي، وكان يخشى دائماً أن تعرف أخته عن الأمر شيئاً، وهذا مبرِّر كافٍ لعدم ذكره لكِ».

فلاذت بالصمت - وفقدت إلينور الثقة بنفسها، ولكنها ظلّت محتفظة بضبط النفس.

وقالت بصوت حازم: «مضى على خطبتكما أربع سنوات!».

«نعم، واللّه يعلم كم سننتظر. مسكين إدوارد! إن هذا سيثبط من همته». ثم أخذت صورة مصغرة من جيبها وأردفت: «تكرَّمي وتأملي هذا الوجه حتى لا تظنّي أن هناك خطأ. من المؤكد أنها صورة لا تمثله تماماً، ولكني أعتقد أنك لن تُخطئ في معرفة الشخص الذي أخذت هذه الصورة له. لقد حصلت عليها منذ أكثر من ثلاث سنوات مضت».

وألقت الصورة، وهي تتكلم، في يد إلينور، فلم تشكّ حين رأتها أنها تمثِّل وجه إدوارد، على الرغم من الشكوك الأخرى التي قد يولّدها في ذهنها خوفاً من التسرّع في الحكم أو رغبتها في كشف الكذب. ثم أعادتها إليها على الفور معترفة بأنها صورته.

واستطردت لوسي: «لم أستطِع قط أن أبادله صورتي، وهو أمرٌ

يؤلمني كثيراً لأنه ظلّ يحرص دائماً على الحصول عليها. ولكني مصمِّمة على تصوير نفسي عند سنوح أول فرصة».

فأجابت إلينور بهدوء: «أصبتِ» ثم سارتا بضع خطوات في صمت. وتكلمت لوسي أولاً.

قالت: «ليس عندي أي شك إطلاقاً في أنك ستكتمين هذا السر بإخلاص، لأنك تعلمين بلا شك أنه يهمنا كثيراً ألّا يصل إلى أمه لأنها فيما أظنّ لن توافق على زواجنا مطلقاً، وأنا أعتقد أنها امرأة متغطرسة».

قالت إلينور: «لم أسعَ قط إلى الحصول على سرّك. وأنتِ لا تخطئين إذا اعتمدتِ عليّ، فسرك مصون عندي. ولكن معذرة إذا أعربتُ لك عن بعض دهشتي لهذا القول لأنّ معناه أنك شعرت أنّ إطْلاعي على هذا السر قد يؤدّي إلى إفشائه».

وعندما قالت ذلك حدَّقت في لوسي لعلها تكتشف في أسارير وجهها ما يدلّ على كذب الشطر الأكبر من حديثها، ولكنها لم ترَ في وجهها أي تغيير.

قالت: «لقد خشيتُ أن تظنّي أني تجرَّأت عليك حين أخبرتكِ بكلّ ذلك. إنني لم أعرفك منذ زمن طويل - معرفة شخصية على الأقل، ولكني عرفتك وعرفت أسرتك بالوصف منذ زمن. وما إن رأيتك حتى شعرتُ كأني أعرفك من قديم. وفضلاً عن ذلك رأيت من حقك عليّ في قضيتي الحاضرة أن أقدم لك بعض الإيضاح، وذلك بعد أن سألتك عن أم إدوارد ولم يسعدني الحظ بأن يهيئ لي مخلوقاً أستطيع أن أستشيره. وآنْ هي الشخص الوحيد الذي يعرف هذا الأمر، ولكنها لا تُبدي رأياً على الإطلاق. والواقع أنّ ضررها أكبر من نفعها لأني أخشى دائماً أن تفشي سري، فهي لا تعرف

كيف تمسك لسانها كما تبيّن لك. وقد ارتعدت فرائصي أخيراً حينما ذكر سير جون اسم إدوارد، خشية أن تفضي بالأمر كله. وأنت لا تستطيعين أن تتصوري كم أعاني من الآلام النفسية من جراء هذا الأمر. وإني لأعجب كيف تسنى لي أن أعيش بعد كلّ ما قاسيت من أجل إدوارد خلال السنوات الأربع الماضية. كنت نهباً للبلابل والهواجس. ولم أكن أراه إلّا قليلاً - إذ كنا لا نلتقي أكثر من مرتين في العام. وإني لأعجب كيف لم يتحطم قلبي».

وهنا أخرجت منديلها، ولكن قلب إلينور لم يرقّ لها كثيراً.

واستطردت لوسي بعد أن مسحت دموعها: «أحياناً أقول: أليس من الخير لنا أن نفسخ الخطبة؟» وعندما قالت ذلك صوَّبت نظرها إلى صاحبتها: «ولكن من جهة أخرى يخونني العزم أحياناً - لأني لا أطيق أن أُحزِن إدوارد، وأنا أعلم أنّ مجرد ذكر هذا الأمر سيُحزنه. وأنا أيضاً لا أطيق هذه الصدمة لأني أحبه حباً جماً. ماذا تشيرين به عليّ في هذه الحال يا آنسة داشوود؟ ماذا تفعلين لو كنتِ مكاني؟».

فأجابت إلينور وقد أفزعها هذا السؤال: «معذرة! ليس في وسعي أن أسدي إليك أية نصيحة في مثل هذه الظروف، وعليك أن تسترشدي برأيك».

واستطردت لوسي تقول، بعد أن التزم الجانبان الصمت بضع دقائق: «لا بدَّ لأمه أن تكفل له وسائل العيش إن عاجلاً وإن آجلاً. ولكن إدوارد منكسر الخاطر بسبب ذلك. ألا ترين أنه كاسف البال في بارتون؟ لقد كان يشعر بالألم حينما تركنا في لونجستيبل ليذهب إليكن حتى لقد خشيتُ أن تظني أنه مريض».

«هل قَدِمَ من عند خالك إذن عندما زارنا؟».

«أوه! نعم، أقام عندنا أسبوعين. هل ظننتِ أنه قَدِمَ من لندن مباشرة؟».

فأجابت إلينور وهي تتنبَّه لكلّ قرينة جديدة تؤيد صدق لوسي «كلا! أذكر أنه أخبرنا أنه أقام مدة أسبوعين عند بعض الأصدقاء في بليموث». وتذكّرت إلينور دهشتها أيضاً في ذلك الوقت حين أبى أن يذكر شيئاً عن هؤلاء الأصدقاء وصمتَ حتى عن ذكر أسمائهم».

فردَّدت لوسي «ألم تعتقدي أنه كاسف البال؟».

«بلى، لا سيما عندما قَدِمَ لأول وهلة».

«لقد رجوته أن يتجلّد خشية أن تظني أنه ألمَّت به نازلة. ولكنه تألم كثيراً لأنه لم يستطع أن يقيم عندنا أكثر من أسبوعين، ولأنه رآني متأثرة لفراقه - واهاً لَه! إني لا أخشى أن يكون الآن كاسف البال أيضاً، فقد كتب لي بلهجة تقطر أسى، وقد تلقيت منه خطاباً قبيل مبارحتي لإكستر. أخرجَت خطاباً من جيبها، وأطلعت إلينور على عنوانه بدون مبالاة، «أنت تعرفين خطه. لا شك أنه جميل جداً، ولكن خطه في هذا الخطاب أقل جمالاً من خطه المعتاد - كان متعباً لا شك لأنه ملأ الورقة كلها بالكتابة».

ورأت إلينور أن الخطاب مكتوب بخطه، ولم يعُد يساورها أيّ شك في الأمر. وكانت ترى أن الصورة ربما تمَّ الحصول عليها بطريق الصدفة، وربما لم تكن هدية من إدوارد. أما المراسلة بينهما بطريق الخطابات فلا يمكن أن تتمّ إلّا إذا كانا مخطوبين بالفعل، ولا يمكن التصريح بها إلّا في ظلّ الخطبة. وكاد يستولي عليها الأسى بعض دقائق، واستبدّ بها اليأس والقنوط، ولم تستطِع الوقوف على قدميها، ولكن لم يكن بدّ من التجلد، فحاولت جهدها

أن تخفي شعورها بالأسى ووفِّقت في ذلك سريعاً، وكان توفيقها تاماً إلى حين.

وأعادت لوسي الخطاب إلى جيبها وقالت: «المراسَلَة هي السلوى الوحيدة في هذا الفراق الطويل. نعم إنّ لي سلوة أخرى في صورته، ولكن إدوارد المسكين تعوزه حتى هذه السلوة، فلو كان يحتفظ بصورتي، لَنَعِمَ براحة البال كما قال. لقد أعطيته خصلة من شعري وضعها في خاتم حينما كان في ونجستيبل آخر مرة، وقال: إن في ذلك بعض العزاء، ولكنه لا يعادل الصورة. ولعلّك لاحظت الخاتم حينما قابلتِه».

قالت إلينور: «لقد لاحظته» وذلك بصوت هادئ يخفي تحته شعوراً بالأسى يقصر دونه الوصف. واستولى عليها الكمد والفزع، والهلع.

ولحُسن حظها أنهما وصلتا حينئذٍ إلى المنزل الريفي، فلم يتسنَّ لهما مواصلة الحديث، وجلست الآنستان ستيل مع الأسرة بضع دقائق ثم عادتا إلى بارتون بارك، وحينئذٍ خلا الجو لإلينور لتفكر كما تشاء وتحزن كما تشاء.

الفصل الثالث والعشرون

مكتبة|707
سُر مَن قرأ

مهما بلغ من شك إلينور في صدق لوسي فقد كان من المستحيل عليها عندما تُنعم النظر أن تشكّ في قصتها الحاضرة حيث لا داعي يحدوها إلى اختلاق قصة كاذبة من هذا القبيل. ولذلك لم تستطِع إلينور أن تشكّ ولم تعد تجرؤ على الشك في القصة التي أكَّدت لوسي صحتها، وأيّدتها القرائن والبراهين من كل جانب، ولم يناقضها إلا أمانيها هي. ولقد كانت الفرصة التي سنحت للتعارف بين لوسي وإدوارد بمنزل السيد برات هي الأساس الذي انبنى عليه كل ما حدث بعد ذلك، وهو أمرٌ لا نزاع فيه، كما أنه يثير الفزع. وكانت الزيارة التي قام بها إدوارد بالقرب من بليموث، والكآبة التي خيمت عليه، وعدم ارتياحه إلى المستقبل، وتقلُّب مسلكه بإزاءها، ومعرفة الآنستين ستيل بنورلاند وبأقاربهم معرفةً وثيقةً أثارت دهشتها كثيراً، والخطاب والخاتم - كل ذلك كان حشداً من الأدلة لا يدع لديها مجالاً للخوف من إدانته بغير حق، كما ثبت سوء معاملته لها على نحوٍ لا يستطيع أي محبّ له أن يتغاضى عنه. كان استياؤها لسلوكه، وسخطها لكونها هي ضحية هذا السلوك ممّا جعلها ترثي لحالها برهة من الزمن، ولكن سرعان ما طافت بذهنها أفكار واعتبارات أخرى: هل كان إدوارد يتعمّد خداعها؟ هل كان يتظاهر

بحبّ لا يخالجه؟ هل سبب خطبته هو الحب؟ كلا! مهما يكن مصدرها في الماضي فلا يمكن في اعتقادها أن يكون كذلك في الحاضر. لقد كان يصفيها الحب كله. لم يكن يخالجها أيّ شك في ذلك. لقد كانت أمها وأخواتها وفاني كلهن يشعرن بحبه لها في نورلاند. ولم يكن ذلك ضرباً من الوهم زيّنه لها الغرور. كان يحبها يقيناً. وما كان أشدّ تأثير هذا الاعتقاد في تهدئة روعها! وما أشدّ ما كان يحملها على عدم العفو عنه! لقد كان ملوماً وملوماً جداً حين بقي في نورلاند بعد أن شعر أولاً أنّ سلطان حبها عليه أقوى ممّا ينبغي. لم يكن له عذر في هذا البقاء. ولكن لئن كان قد أساء إليها، لقد أساء إلى نفسه أكثر، ولئن كانت حالها تدعو إلى الرثاء، لقد كانت حاله تدعو إلى اليأس. لقد أثار تهوّره في نفسها لواعج الحزن والألم فترة من الزمن، ولكنه هو لم يكن أقل حظاً منها في ذلك. إنها قد تنعم بالطمأنينة وراحة البال على مرّ الزمن. أما هو فماذا يأمل في المستقبل؟ هل يمكن أن ينعم بالسعادة مع لوسي ستيل؟ هل في وسعه - بفرض أنه لم يعد يحب إلينور - أن يرضى مع أمانته ورقّته وثقافته عن زوجة مثل لوسي تتصف بالجهل والمكر والأنانية؟

لا ريب أنّ الافتتان الذي يعتري الشاب في سن التاسعة عشرة يعميه عن كلّ شيء إلّا جمالها ودماثة أخلاقها، ولكن من المؤكّد أن السنوات الأربع التالية - وهي سنوات إذا أحسن الإنسان الانتفاع بها ثقفت عقله - فتحت عينيه على ما تتصف به من نقص الثقافة بينما قضت هي هذه المدة نفسها في صحبة السفلة من الناس وإتيان الأعمال الطائشة فسلبتها تلك البساطة التي كان يحتمل أن تزيد من جمالها.

وإذا كان قد لقي عقبات كبيرة من جانب أمه عندما سعى إلى

الزواج بإلينور فما أشدّ ما سيلقاه من العقبات إذا كانت الفتاة التي خطبها أدنى منها نسباً بيقين، وربما كانت أقل منها ثروة. وقد يتّسع صبره لاحتمال هذه العقبات بالإضافة إلى كراهية أمه للوسي. ولكن العجب أن تشعر بالأسى مَن في وسعها أن ترى في معارضة أمه المنتظرة وقسوتها ضرباً من العزاء!

لقد بكت عليه أكثر ممّا بكت على نفسها حينما طافت بذهنها هذه الاعتبارات المؤلمة. وكان يعزيها في مصابها اعتقادها أنها لم تفعل ما تستحق عليه هذا الشقاء، وأنّ إدوارد لم يأتِ ما يُفقده تقديرها، ولذلك رأت أنها تستطيع حتى مع هذه الضربة الأليمة التي أصيبت بها أن تتذرع بضبط النفس حتى يتسنى لها أن تحُول دون أن تلمح أمها أو أختها أية شبهة من الحقيقة. وقد استطاعت أن تحقق ما أرادته لدرجة أنها حين اشتركت معهن في طعام الغذاء بعد ساعتين فقط من انهيار أعزّ آمالها، لم يكن في وسع أحدٍ أن يعرف من منظر الأختين أن إلينور تشعر في قرارة نفسها بالألم لقيام العقبات التي من شأنها أن تفرق بينها وبين حبيبها إلى الأبد، وأن مريان تتأمل في باطنها محاسن رجل تشعر أنها احتلت سويداء قلبه، وتتوقع أن تراه في كل عربة تمرّ بالقرب من المنزل.

وكان وجوب كتمان ما استودعته من سرّ على الرغم ممّا كان يكلّفها من جهد مستمر لا يزيد من آلامها، بل على العكس كان يخفّف منها لأنه أعفاها من مئونة الإفضاء إليهن بما يؤلمهن، كما أعفاها من سماع ما يحتمل أن تسيل به أفواههن من توجيه اللوم المقذع لإدوارد بدافع من حبهن لها، وهو أمر أفظع من أن تطيق سماعه.

ثم عرفت أنها لن تستطيع أن تجد أي عزاء في مشورتهن أو

حديثهن، وأن حنانهن وأسفهن سوف يزيد من آلامها كما أنهن لن يشجعنها على التذرع بضبط النفس سواء بالأسوة الحسنة أو بالثناء الجميل. وكانت تشعر وهي وحدها أنها أشدّ قوة، وتجد في عقلها وحسن إدراكها ما يعينها على احتمال آلامها إلى حدٍّ أحسَّت معه بأنّ عزمها لا يتزعزع وأن مظهرها المرح لا يتغير، وذلك بالقدر الذي يمكن أن يحسّ به أي إنسان يكابد مثل هذه الآلام المبرحة الطارئة.

ولم تلبث أن شعرت برغبة شديدة في تجديد الحديث مع لوسي على الرغم من أنها تألمت كثيراً من حديثها الأول في الموضوع، وهذا لأكثر من سبب، فقد أرادت أن تسمع من لوسي ثانية كثيراً من تفصيلات خطبتهما، وأرادت أن تفهم بصورة أوضح حقيقة شعور لوسي نحو إدوارد، وهل هي صادقة فيما قالته من أنها تحبه حباً جماً، ثم أرادت بوجه خاص أن تقنع لوسي - باستعدادها للتحدّث في الموضوع مرة أخرى، وهدوئها في مناقشته - أنها لا تهتم بالأمر إلّا بوصفها صديقة، وذلك أنها خشيت أن يكون الاضطراب الاضطراري الذي اعتراها حين استمعت إلى حديثها في الصباح قد ترك على الأقل في نفسها بعض الشك في ذلك.

وكانت إلينور تظنّ أن لوسي تشعر بالغيرة منها، فقد اتّضح لها أن إدوارد كان يلهج دائماً بالثناء عليها لا من أقوال لوسي فحسب، ولكن من إقدامها - بعد أن تعرفت إليها بفترة وجيزة - على الإفضاء بسرٍّ لا تخفي أهميته. وكذلك كان للخبر الذي أورده سير جون مورد الدعابة بعض الأثر في هذه الغيرة. ولكن الواقع أن إلينور كانت تعتقد في قرارة نفسها أن إدوارد يحبّها حقاً، ولذلك لم تكن بحاجة إلى قرينة أخرى تثبت أن غيرة لوسي أمر طبيعي، والدليل على ذلك هو إفضاؤها لها بسرها. وأي سبب للإفضاء به يمكن أن يتصوره

العقل إلّا أنّ لوسي تريد أن تُفهمها أنها أحق منها بإدوارد، وتحذِّرها من الاتصال به في المستقبل، وهكذا لم تجد عناء كبيراً في فهم الكثير من مقاصد غريمتها. ولكن إلينور حين عقدت العزم على معاملتها بما تقضي به مبادئ الشرف والأمانة، وأن تكبح جماح حبها لإدوارد وتقلِّل من مقابلته بقدر الإمكان، أرادت أن تريح بالها بإقناع لوسي أنّ قلبها لم يجرح. وإذ كانت لا تتوقع أن تسمع ما يؤلمها أكثر ممّا سمعته من قبل، لم تشك في قدرتها على سماع قصة لوسي مرة أخرى، بكل هدوء وسكينة.

ولكن الفرصة لم تسنح في الحال، وإن كانت لوسي تميل مثلها إلى انتهاز كل فرصة تسنح لها لتُعيد حديثها، فقد كان الطقس في أغلب الأوقات لا يسمح بخروجهما معاً للتنزّه، حيث يتيسر لهما أن تفترقا عمّن سواهما بكلّ سهولة. وعلى الرغم من التقائهما في المساء يوماً بعد آخر على الأقل، إمّا في بارتون بارك وإمّا في المنزل الريفي - وبخاصة في الأول - فإنّ الغرض من هذا اللقاء لم يكن هو تجاذب أطراف الحديث، فقد كان ذلك أبعد الأشياء عن تفكير سير جون والسيدة جننجز. ولذلك لم يكن ثمة إلّا فرصة ضئيلة للحديث العام، ولا فرصة على الإطلاق للحديث الخاص. وكان الغرض من الاجتماع هو الاشتراك في الطعام والشراب والضحك ولعب الورق ولعبة القصة أو أي نوع آخر من اللعب الصاخب.

وتمّ اجتماع أو اجتماعان من هذا القبيل دون أن تتاح الفرصة لإلينور للتحدث مع لوسي على انفراد، ثم جاء سير جون ذات صباح إلى المنزل الريفي ليرجو باسم المحبة أن يتفضلن جميعاً بتناول طعام الغذاء مع ليدي ميدلتون في ذلك اليوم، وذلك بسبب اضطراره

للحضور في النادي في إكستر، وبذلك ستكون ليدي ميدلتون وحدها هي وأمها والآنستان ستيل. وقبلت إلينور الدعوة في الحال لأنها كانت ترى أن المجال أفسح لإثارة الموضوع الذي تريده، بين هذه الجماعة التي يحتمل أن تتمتع بينها بالحرية توجيه ليدي ميدلتون الهادئ المهذب أكثر ممّا تتمتع به حين يجمعها سير جون على غرض واحد صاخب. وكذلك وافقت مرغريت بعد أن أذنت لها أمها بذلك. وكانت مريان تكره دائماً أن تشترك في هذه الاجتماعات، ولكن أمها أقنعتها بالذهاب كذلك لأنها لا تطيق أن تحرمها من أية فرصة من فرص اللهو والتسلية.

وذهبت الفتيات، وسعدت ليدي ميدلتون بهن، لأنهن أزلن الوحشة المخيفة التي هدّدتها. وكان الاجتماع تافهاً كما كانت إلينور تتوقع. ولم يظهر فيه أي رأي أو قول جديد، ولم يكن ثمة ما هو أتفه من حديثهن سواء في غرفة الطعام أو حجرة الاستقبال، وقد رافقهن الأطفال في الحجرة الأخيرة، ورأت إلينور وهن جالسات فيها أنه يتعذر أن تسترعي انتباه لوسي. ولم يغادرن الحجرة إلّا بعد أن رفعت منها معدات الشاي، ونصبت مائدة الورق، وعجبت إلينور لأنها عللت نفسها بالأمل في وجود الفرصة المناسبة للحديث في الحديقة. ثم نهضن جميعاً للاشتراك في لعبة الورق الدائرية.

قالت ليدي ميدلتون للوسي: «يسرني ألّا تنجزي سلة آنّا مارية الصغيرة هذا المساء، لأني أعتقد أن الاشتغال بالزركشة التخريمية على ضوء الشموع يضرّ بعينيك. وأنا سأطيب خاطرها بما يعوّضها عن ذلك غداً، وحينئذٍ لن تهتم بالأمر كثيراً».

وكانت هذه الإشارة كافية لأن تذكر لوسي فأجابت: «الواقع أنك مخطئة جد الخطأ يا ليدي ميدلتون. لقد كنت أنتظر فقط لأرى

هل تستطيعين تكوين فريق اللعب بدوني، ولولا ذلك لبدأتُ التخريم من قبل. أنا لا أريد أن أكسر خاطر الفتاة الصغيرة بأيّ حال من الأحوال وإذا أردت أن أشترك في اللعب، أنجزت السلة بعد العشاء».

«إنك طيبة القلب جداً، وأرجو ألا تضرّي عينيك - هل لك في أن تدقي الجرس لإحضار بعض الشموع؟ إنني أعرف أن الفتاة الصغيرة ستحزن كثيراً إذا لم تتمّ السلة غداً. وهي واثقة من الحصول عليها غداً، مع أني أخبرتها أنها لن تحصل عليها».

وأدنَت لوسي مائدة الشغل منها، وجلست أمامها بخفة ومرح يدلان على أنها لا تجد متعة أكبر من العمل في تخريم سلة لطفلة مدللة.

واقترحت ليدي ميدلتون على الباقيات أن تلعبن لعبة الورق المعروفة باسم كازينو، ولم يعارض في ذلك إلّا مريان التي صاحت دون مبالاة - كعادتها - بما تقضي به أصول المجاملة: «أرجوك أن تعفيني من اللعب، فأنت تعلمين أنني أمقت لعب الورق. سأذهب إلى البيانو فإني لم أعزف عليه منذ إصلاحه».

ونظرت إليها ليدي ميدلتون وكأنها تحمد اللّه لأنها لم تتكلم قط بمثل هذه اللهجة الجافية.

وقالت إلينور محاولة التخفيف من وقع الإساءة: «مريان لا تطيق البُعد عن البيانو زمناً طويلاً يا سيدتي. وأنا لا أعجب لذلك كثيراً لأن هذا البيانو أشجى ما سمعتُ من الآلات نغماً».

وأخذت الخمس الباقيات تلعبن الورق.

واستطردت إلينور: «إذا أتيح لي أن أقطع الأوراق فلعلّي أستطيع أن أساعد الآنسة ستيل في طي الورق وأظنّ أن السلة لا

تزال بحاجة إلى عمل كثير بحيث يتعذّر عليها أن تعمل منفردة وأن تفرغ منها هذه الليلة. إنني أرحب بالعمل إذا سمحت لي المشاركة فيه».

فصاحت لوسي: «لا شك، إنني أشكرك على معاونتك، فقد ظهر لي أنّ السلة تحتاج إلى عمل أكثر ممّا قدَّرت، وأنا لا أريد أن أكسر خاطر آنّا مارية العزيزة على كل حال، فهذا أمر فظيع».

وقالت الآنسة ستيل: «أوه! حقاً سيكون أمراً فظيعاً. كم أحبك يا روحي العزيزة!».

وقالت ليدي ميدلتون لإلينور: «ما أرقّ شعورك! وإذ كنت تحبين المشاركة في العمل فأظن أنه يحسُن ألّا تشتركي في اللعب حتى يبدأ دور آخر أم تريدين أن تدخلي فيه الآن؟».

وأخذت إلينور بالاقتراح الأول وهي تشعر بالسرور. وهكذا بقليل من الكلام المعسول الذي أبت مريان أن تقوله استطاعت إلينور أن تحقق غايتها، وتدخل السرور إلى نفس ليدي ميدلتون في الوقت نفسه. وبادرت لوسي بإفساح المكان لها، وهكذا جلست الغانيتان المتنافستان جنباً لجنب إلى مائدة واحدة، واشتركتا في عمل واحد وهما في غاية الانسجام والوفاق. ومن حسن الحظ أن البيانو الذي جلست إليه مريان مستغرقة في غنائها وأفكارها، حتى نسيت أن أحداً معها في الحجرة، كان قريباً منهما بحيث رأت الآنسة داشوود أنّ في وسعها أن تبدأ حديثها الهام، وهي آمنة، في ضجيج العزف على البيانو، دون أن تخشى أن تسمعه إحدى الجالسات حول مائدة الورق.

الفصل الرابع والعشرون

وبدأت إلينور الحديث بلهجة حازمة، وإن كانت تتسم بالحذر فقالت:

«لا أعدّ نفسي جديرة بالثقة التي أوليتني إياها إذا لم أشعر بالرغبة في استمرارها أو في المزيد من المعلومات عن الموضوع، ولذلك لا أجدني بحاجة إلى الاعتذار عن إثارته من جديد».

فصاحت لوسي بحرارة: «شكراً لك لمفاتحتي في الحديث. لقد أرحتِ بالي بذلك لأني كنت أخشى أن أكون أسأتُ إليك بما أخبرتك به يوم الاثنين».

«أسأت إليّ! كيف يتبادر هذا الظن إلى ذهنك؟ صدقيني (قالت إلينور ذلك بكل إخلاص) إنني أبعد ما يكون عن التفكير في ذلك. وهل يُعقل أن يكون السبب الذي حدا بك إلى الثقة بي سبباً غير شريف أو لا يدل على التقدير لي؟!».

فأجابت لوسي وعيناها الحادتان مليئتان بالمعاني: «ومع ذلك أؤكد لك أنني لاحظت عليك من أمارات الفتور والنفور ما أقلَقَ بالي، وجعلني أعتقد أنك غضبتِ مني وظللتُ أعاتب نفسي من ذلك الوقت لاجترائي عليك بحيث أزعجتك بالحديث في شؤوني، ولكني أشعر الآن بسرور كبير لأني عرفت أنّ ذلك من هواجس خيالي،

وأنك غير عاتبة علي. وإذا عرفت كم شعرت بالسلوى والعزاء حين أرحت بالي بالتحدث إليك عمّا يشغل فكري في كلّ لحظة من لحظات حياتي لدفعتك الرأفة إلى التجاوز عن كلّ هفواتي».

«الواقع أنني أستطيع أن أدرك بسهولة إن إفضاءك لي بحالك كان فيه راحة كبيرة لبالك، وثِقِي أنك لن تندمي عليه أبداً. وحالتك تبعث على الأسف الشديد، ويبدو لي أن ثمة صعاباً تعترض سبيلك، ولكن محبتكما المتبادلة ستكون عوناً لكما على تذليل هذه الصعاب. وأعتقد أن السيد فيرارز يعتمد على أمه اعتماداً كلياً».

«إنه لا يملك سوى ألفي جنيه. ومن الجنون أن يُقدِم الإنسان على الزواج بمثل هذا المبلغ، وإن كنت أنا شخصياً لا أطمع في أكثر منه. وقد اعتدتُ دائماً أن أعيش بدخل ضئيل جداً. وفي وسعي أن أكافح أي لون من ألوان الفقر في سبيله، ولكني أحبه حباً يمنعني من أن أكون أنانية، أسلبه كلّ ما عسى أن تعطيه أمه إذا تزوج الزوجة التي تريدها. وأرى لزاماً علينا أن ننتظر، وقد يدوم هذا الانتظار عدة سنين. وهذا الانتظار يُنذِر بشرٍّ مستطير في حق كثير من الرجال، أما إدوارد فأنا أعلم أنه لن يستطيع أحد أن يحرمني من محبته ووفائه».

«يجب أن يكون في هذا الاعتقاد أكبر عزاء لك، وهو بلا شك يثق فيك كما تثقين فيه. ولو وهنت قوة حبّكما المتبادل - كما يحدث بالطبع بين كثير من الناس وفي كثير من الأحوال، خلال الخطبة التي تدوم أربع سنوات - لكانت حالك تدعو إلى الرثاء حقاً».

فرفعت لوسي عينيها، ولكن إلينور حرصت ألّا يبدو على وجهها أي مظهر يضفي على كلامها معنى يثير الشبهات في نفس لوسي.

وقالت لوسي: «لقد وضعت محبة إدوارد لي موضع الاختبار خلال غيابنا الطويل منذ أن تمَّت خطبتنا، فثبتت على محكّ الاختبار بحيث يعدّ ارتيابي فيها ذنباً لا يغتفر. وفي وسعي أن أقول وأنا مطمئنة: إني لم أرَ منه منذ البداية ما يثير الخوف في نفسي لحظة واحدة».

ولم تَدْرِ إلينور أتضحك أم تتنهّد لهذا القول.

ثم استطردت لوسي قائلة: «وأنا أيضاً أميل إلى الغيرة بطبعي. وكان اختلاف مركزنا في الحياة، وخبرته بأحوال الدنيا أكثر مني، وفراقنا المستمر، من الأمور التي جعلتني أميل إلى الارتياب بحيث أعرف حقيقة الأمر في الحال إذا لاحظت أدنى تغيير في سلوكه نحوي عند لقائنا، أو أيّ اكتئاب لا أدري له سبباً، أو إذا أكثر الحديث عن امرأة دون أخرى، أو أظهر من السرور في لونجستيبل أقل ممّا اعتاد أن يظهره على أيّ وجه من الوجوه، لا أريد أن أقول: إنني دقيقة الملاحظة أو ثاقبة النظر بوجه عام، ولكن أريد أن أقول: إنه لا يمكن أن يخدعني في مثل هذه الحالة».

وقالت إلينور في نفسها: «كلّ ذلك جميل جداً ولكنه لا ينطلي علينا نحن الاثنين».

وقالت بعد أن أطرقت هنيهة: «ولكن ما هو رأيك؟ هل ترين ضرورة الانتظار حتى تموت السيدة فيرارز وهو أمر يثير الأسى والفزع؟ هل ابنها مصمِّم على قبول ذلك، واحتمال ضجر الانتظار عدة سنوات - وهو الضجر الذي قد يعتريك أيضاً - بدلاً من أن يتعرض لسخطها برهة من الزمن إذا اعترف بالحقيقة؟».

«إذا تأكدنا أنّ هذا السخط سيدوم برهة من الزمن! ولكن السيدة فيرارز امرأة عنيدة متكبرة، وإذا بلغها الخبر فلن تتردّد في

فورة الغضب أن توصي بثروتها كلها لروبرت. وكلما فكّرت في هذا الأمر، رأيت أن مصلحة إدوارد تدعوني إلى التريث».

«وكذلك مصلحتك أيضاً، وإلا فأنت تظهرين من نزاهة القصد ما يجاوز حدّ المعقول».

ونظرت لوسي إلى إلينور مرة أخرى، ولاذت بالصمت.

وسألتها إلينور: «هل تعرفين السيد روبرت فيرارز؟».

«لا أعرفه إطلاقاً - لم أرَه قط. ولكني أظنّ أنه يخالف أخاه كثيراً، فهو سخيف ومتحذلق كبير».

فردَّدت الآنسة ستيل «متحذلق كبير!» وطرقت أذنها الكلمتان في أثناء توقف مريان عن العزف.

«عجباً أظن أنهما يتحدثان عمّن يحبان من الفتيان الحسان».

فصاحت لوسي: «كلا يا أختي! أنتِ مخطئة في ظنك. إنّ أحبابنا من الفتيان الحسان ليسوا متحذلقين».

وقالت السيدة جننجز وهي تقهقه: «أستطيع أن أؤكد أن حبيب الآنسة داشوود ليس متحذلقاً، فهو من أكثر الناس تواضعاً، وأكثر مَن عرفت من الشبان أدباً. أما لوسي فهي فتاة صغيرة ماكرة، ولا سبيل لمعرفة من تحبّه».

فاستدارت الآنسة ستيل ونظرت إليها نظرة ذات مغزى قائلة: «أؤكد أنّ حبيب لوسي متواضع ومؤدب كحبيب الآنسة داشوود».

وظهرت على إلينور حمرة الخجل على كره منها، وعضّت لوسي شفتيها، ونظرت إلى أختها نظرة تنمّ عن الغضب، ولاذت كلتاهما بالصمت برهة. وقطعت لوسي الصمت، فقالت في صوت خافت، وإن كانت مريان تعزف لهن في ذلك الوقت لحناً موسيقياً قوياً رائعاً يحمي الأسماع من سماع صوتها:

«سأحدثك بإخلاص عن مشروع خطر ببالي أخيراً لأوضح لك الأمور والواقع أراني مضطرة لأن أطلعك على السر لأنك من الأطراف التي يهمّها الأمر وأظن أنك قابلت إدوارد كثيراً بحيث عرفتِ أنه يُؤثِر العمل في الكنيسة على أيّ مهنة أخرى. ومشروعي هو أن يبادر إدوارد إلى الدخول في رتبة الكهنوت ما استطاع، ثم تتوسطين له لدى أخيك ليعطيه أبرشية نورلاند، وأنا واثقة أنك ستستخدمين نفوذك لدى أخيك بدافع من صداقتك لإدوارد، وأرجو أن يكون بدافع من حبك لي أيضاً. وقد علمت أنّ هذه الأبرشية ذات إيراد طيب، وأن القسيس الحالي لا يحتمل أن يعمر طويلاً. وهذا يكفينا للزواج، ثم نترك الباقي للزمن والظروف».

فأجابت إلينور: «يسرني دائماً أن أبدي أيّ مظهر من مظاهر التقدير والصداقة لإدوارد، ولكن ألا ترين أنّ وساطتي في هذا الأمر قد لا تكون لها ضرورة على الإطلاق؟ فهو شقيق السيدة جون داشوود، وهذه الصلة تزكية كافية له عند زوجها».

«ولكن السيدة جون داشوود قد لا توافق على دخول إدوارد في رتبة الكهنوت».

«إذن لن يكون لوساطتي تأثير كبير».

ولاذتا بالصمت مرة أخرى عدة دقائق، وأخيراً تنهدت لوسي تنهداً عميقاً وقالت:

«أعتقد أنّ أصوب وسيلة هي إنهاء هذا الأمر فوراً وفسخ الخطبة. فالمصاعب تحيط بنا من كلّ جانب فيما يبدو، وإذا كنا سنأسف على ذلك بعض الوقت، فقد نشعر بالسرور في نهاية الأمر، ولكن ألا تقدّمين لي مشورتك يا آنسة داشوود؟».

فأجابت إلينور بابتسامة تخفي ما تشعر به من اضطراب شديد:

«كلا! لن أسدي إليك مشورتي في الأمر. فأنت تعرفين جيداً أنه لن يكون لرأيي وزن عندك، ما لم يكن متفقاً مع رغباتك».

فأجابت لوسي بلهجة الجدّ: «الواقع أنك تظلمينني، فأنا لا أقدِّر رأي إنسان كما أقدر رأيك. وأعتقد أنك إذا قلت لي: «إنني أنصح لك بكلّ وسيلة أن تضعي حداً لخطبتك مع إدوارد فيرارز لأنّ هذا سيكون أدعى إلى سعادتك وسعادته» صممتُ على فسخها من فوري».

واصطبغت وجنتا إلينور بالخجل لنفاق زوجة إدوارد المستقبلة وأجابت: «هذا الثناء من شأنه أن يجعلني أتردّد في إبداء رأيي في الأمر، لو كان لي فيه رأي، كما أنه يجعل لي من التأثير أكثر ممّا لي. وليس في مقدور شخص مُحايد أن يفرِّق بين شخصين يجمع بينهما الحب الشديد».

فقالت لوسي: «ولأنك شخص محايد أقيم أنا وزناً خاصاً لرأيك» بشيء من الانفعال، ومؤكّدة هذه الكلمات «وما كنتُ لأفكر في استشارتك لو خامرني الظنّ بأنك تتأثرين بعواطفك بوجهٍ من الوجوه».

ورأت إلينور من الحكمة ألّا تجيب عن ذلك حتى لا تسترسل في الحديث، إلى حدّ ترتفع فيه الكلفة، ويزول التحفّظ. وذهب بها الأمر إلى حدّ أنها أضمرت في نفسها ألّا تذكر الموضوع مرة أخرى. ثم ساد الصمت عقب هذا الحديث عدّة دقائق وكانت لوسي أيضاً هي أول مَن قطعه.

قالت بلهجتها الرقيقة المعتادة: «هل ستذهبين إلى لندن هذا الشتاء يا آنسة داشوود؟».

«كلا!».

فأجابت الأخرى وقد برقت عيناها بالسرور عند سماعها هذا الخبر: «يؤسفني ذلك وكان يسرني أن ألقاك هناك! ولكن أظنّ أنك ستذهبين إليها على الرغم ممّا تقولين، لأنه من المؤكد أن أخاك وزوجته سيدعوانك إلى زيارتهما».

«لن يكون في وسعي أن أجيب هذه الدعوة إذا فعلا ذلك».

«يا له من أمر يدعو إلى الأسف! لقد كنتُ أعوِّل على لقائك هناك. وسأذهب أنا وآن في أواخر يناير لزيارة بعض الأقارب الذين ألحوا علينا في زيارتهم منذ سنين عديدة! ولكن لن أذهب إلّا لأرى إدوارد لأنه سيكون هناك في فبراير، وإلا فلا أرب لي في لندن، ولا رغبة لي في زيارتها».

ثم دعيت إلينور للاشتراك في لعب الورق بعد انتهاء الشوط الأول، وبذلك انتهى الحديث الخاص بين الفتاتين عن تراضٍ منها، لأنه لم يصدر عن إحداهما من القول ما يجعل إحداهما تكره الأخرى أقل من ذي قبل. وجلست إلينور إلى مائدة اللعب وهي تعتقد آسفة أنّ إدوارد لا يحب المرأة التي ستكون زوجته المستقبلة فحسب، بل إن أسباب السعادة الزوجية غير مهيأة له، وهي السعادة التي كان في وسعها أن توفِّرها له بفضل محبتها الصادقة، ذلك أنّ المصلحة الشخصية وحدها هي التي يمكن أن تدفع المرأة إلى حمل الرجل على التمسّك بخطبة تشعر هي بأنّ الرجل قد ملّها.

ومن ذلك الوقت لم تثِر إلينور الموضوع قط، وكانت لوسي لا تدَع فرصة تمرّ دون أن تثيره، كما كانت تحرص على الإفضاء لأمينة سرها بسرورها كلّما تلقت خطاباً من إدوارد، ولكن إلينور كانت تسايرها في الحديث بهدوء وحذر، ثم لا تلبث أن تقفل بابه متى سمحت أصول المجاملة بذلك، لأنها كانت تشعر أنّ مثل هذه

الأحاديث مِنَّةٌ لا تستحقها لوسي، كما كانت خطراً عليها هي نفسها.

وطالت زيارة الآنستين ستيل في بارتون بارك أكثر مما تضمَّنته الدعوة الأولى، وزادت خدماتهما فلم يَتَسَنَّ الاستغناء عنهما، وعارض سير جون في سفرهما بشدة، وأقنعهما بالبقاء قرابة شهرين في البارك للمساعدة في الاحتفال اللائق بذلك المهرجان الذي يتطلب قدراً غير عادي من حفلات الرقص والمآدب الكبيرة إظهاراً لأهميته، وذلك على الرغم من ارتباطهما في إكستر بمواعيد عديدة منذ زمن بعيد، وعلى الرغم من ضرورة عودتهما للوفاء بها في الحال، وكان الوفاء بها يتمّ في نهاية كل أسبوع.

الفصل الخامس والعشرون

كان للسيدة جننجز بيتها الخاص على الرغم من قضائها شطراً كبيراً من العام في بيوت أولادها وأصدقائها، وكانت تُقيم كل شتاء في بيت يقع في أحد الشوارع القريبة من ميدان بورتمان، وذلك منذ وفاة زوجها الذي كان يشتغل بالتجارة في أحد أحياء لندن المتواضعة. وعندما اقترب شهر يناير أخذت تفكِّر في الذهاب إلى هذا البيت، فدعت ذات يوم فجأة وعلى غير انتظار الآنستين داشوود الكبيرتين لمرافقتها في السفر، ولكن إلينور رفضت الدعوة من فورها وهي شاكرة معتقدة أنها تُعبّر في هذا الرفض عن رغبتها هي وأختها، دون أن تلاحظ التغيُّر الذي بدا على وجه مريان، والنظرة القوية التي تعبّر عن سرورها بهذه الدعوة. وكانت حجة إلينور هي عدم رغبتهما في مفارقة أمهما في ذلك الوقت من السنة. وقابلت السيدة جننجز هذا الرفض بشيء من الدهشة، وكررت الدعوة من فورها.

«عجباً! إنني واثقة أنه في وسع أمكما أن تستغني عنكما، وأرجو ألّا تضنّا عليّ بصحبتكما لأني عقدت العزم على ذلك، ولا تتوهما أنكما ستسببان لي شيئاً من المتاعب لأني لن أتجشّم أية مشقة في السفر. كل ما هنالك أنني سأتجشم إرسال «بتي» في عربة البريد، وأرجو أن يتيسر لي ذلك. أما نحن الثلاثة فسنسافر في

عربتي، وإذا لم ترغبا عندما نكون في لندن أن تذهبا معي حيثما ذهبت إليكما ذلك، ولا عليكما أن تخرجا دائماً مع إحدى بناتي. وأنا واثقة أن أمكما لن تعارض في هذه الزيارة، لأن جميع بناتي لحسن الحظ لن يكنَّ معي، ولذلك فإن أمكما سترى أنني خير من يرعاكما. وإذا لم أوفَّق في تزويج إحداكما قبل انتهاء هذه الزيارة فلن يكون ذلك ذنبي، وكونا على ثقة أنني سأثني عليكما خيراً أمام جميع الشبان».

وقال سير جون: «أعتقد أن الآنسة مريان لن تعارض في هذه الزيارة إذا وافقت أختها الكبرى عليها، وإنه ليعزّ عليَّ أن تُحْرم من هذه المتعة البسيطة لأن الآنسة داشوود لا ترغب في ذلك. ولذلك أنصح لكما أنتما الاثنين أن تسافرا إلى لندن عندما تسأمان الإقامة في بارتون، دون أن تخبرا الآنسة داشوود بذلك».

فصاحت السيدة جننجز: «نعم إنّ صحبة الآنسة مريان ستسعدني كثيراً سواء ذهبت الآنسة داشوود أو لم تذهب. كلّ ما في الأمر أنه كلما زاد العدد زاد السرور وأن وجودهما معاً يزيد من أنسهما، لأنه إذا ملّت إحداهما حديثي أنِسَت بحديث أختها، وسخّرت من أطواري الغريبة وراء ظهري، ولكن إحداهما لا بدَّ أن تصحبني. رحماك اللهم! أنّى لي أن أعيش وحدي وأضيّع وقتي سدى، وأنا التي تعودت دائماً أن أصحب شارلوت في هذا الشتاء! هيا يا آنسة مريان نتعاهد على القيام بهذه الزيارة، وإذا غيّرت الآنسة داشوود رأيها فيما بعد نكون مسرورين».

فأجابت مريان بحرارة: «شكراً يا ماما، شكراً جزيلاً! سأشكر لك هذه الدعوة ما حييت، ويسعدني كثيراً، بل كل السعادة أن أوفّق لقبولها ولكن أمي، أمي العزيزة الرقيقة - إنني أشعر بصواب ما قالته

إلينور. وإذا كان غيابنا سيسبب لها شيئاً من الألم أو التعب فما من شيء فيما أعتقد يمكن أن يغريني بمفارقة أمي. ويجب ألّا نفعل ذلك إذا هي عارضت فيه».

فأعادت السيدة جننجز تأكيدها بأن السيدة داشوود يمكن أن تستغني عنهما تماماً، وفهمت إلينور رغبة أختها في هذه الرحلة، ورأت أنّ رغبتها في لقاء السيد ولبي مرة أخرى جعلتها تضرب عرض الحائط بأيّ اعتبار آخر. لذلك أمسكت إلينور عن إبداء أية معارضة، واكتفت بأن فوّضت لأمها البتّ في الأمر. على أنها لم تتوقع أن تؤيدها أمها في سعيها لمنع هذه الرحلة التي لم توافق عليها حرصاً على مصلحة مريان، ولأنه كان لديها هي من الأسباب الخاصة ما يدعوها لتجنّبها. وكانت تعلم أن أمها تسارع إلى تلبية رغبات مريان، ولذلك لم تتوقع أن تحمل أمها على سلوك سبيل الحذر في أمر لم تستطع قط أن تحملها على الارتياب فيه، كما أنها لم تجرؤ أن تبيِّن لأمها السبب في عدم ميلها هي إلى السفر. وكان تجاهل مريان - وهي التي لا يعجبها العجب، والتي تعرف أخلاق السيدة جننجز كل المعرفة، وتُبدي اشمئزازها الدائم من هذه الأخلاق - لكل هذه المتاعب، وتغاضيها عن كلّ ما لا بدَّ أن يؤذي شعورها أشد الإيذاء جرياً وراء شخص واحد - كل ذلك كان دليلاً صارخاً على منزلة ذلك الشخص في نفسها بحيث لم تستطع إلينور - على الرغم من كل ما حدث - أن تطيق مشاهدة هذا المنظر.

ولما علمت السيدة داشوود بهذه الدعوة رأت أن هذه الرحلة ستهيئ لكريمتيها كثيراً من أسباب الترفيه والتسلية كما آنَسَت رغبة مريان فيها، فلم توافق على رفضهما للرحلة من أجلها، وأصرّت على ضرورة قبولهما لهذه الدعوة في الحال ثم أخذت تتنبأ - وهي

تشعر بالبهجة والسرور كعادتها - بالفوائد التي ستعود عليهن جميعاً من هذا الفراق.

قالت: «إنني مسرورة بهذه الرحلة، وهي ما كنت أتمناه تماماً. وسأفيد أنا ومرغريت منها كما تفيدان أنتما. وحين تسافران أنتما وآل ميدلتون سنقضي الوقت بين الكتب والموسيقى في سعادة وهدوء! وستجدان عند عودتكما أنّ مرغريت قد زادت ثقافتها. وأنا أنوي إجراء بعض التغيير في غرفة نومكما كذلك، وهو أمر يتسنى لي عمله الآن دون أن أزعج أحداً، ومن الصواب أن تذهبا إلى لندن، وبودّي لو أنّ كل فتاة في مثل مركزكما ذهبت إليها، لتتعرف أحوالها وملاهيها. وستكونان في رعاية امرأة تحمل بين ضلوعها عاطفة الأم ولا أشك في أنها ستحوطكما ببرّها وعطفها وأكبر الظنّ أنكما ستلقيان أخاكما، ومهما يكن من عيوبه وعيوب امرأته، فإنني حينما أفكّر في أبيه لا أحب أن تنفصم عرى المودّة بينكما وبينه».

وقالت إلينور: «على الرغم من أنك ذلَّلتِ - بحرصك المعتاد على سعادتنا - كل عقبة يمكن أن تخطر ببالك في سبيل هذه الزيارة فهناك اعتراض لا يمكن في رأيي تذليله بسهولة».

واكفهرّ وجه مريان.

قالت السيدة داشوود: «وماذا تريد ابنتي العزيزة الحكيمة أن تقوله؟ ما هي العقبة الهائلة التي تريد أن تتحدث عنها؟ أرجو ألا أسمع منك كلمة عن نفقات الرحلة».

«اعتراضي هو هذا: لا أعتقد أنّ صحبة السيدة جننجز - برغم ما تكنّه من الحب والعطف - من شأنها أن تبعث فينا السرور، ولا أنّ رعايتها لنا من شأنها أن ترفع من قدرنا».

فأجابت أمها: «هذا صحيح. ولكنكما لن تكونا في صحبتها -

بعيداً عن صحبة غيرها - إلا قليلاً، وستظهران دائماً أمام الجمهور في صحبة ليدي ميدلتون».

وقالت مريان: «إذا كانت إلينور تخشى صحبة السيدة جننجز فهذا على الأقل لا يمنعني من قبول دعوتها، فأنا لا أخشى تلك الصحبة. وفي وسعي أن أحتمل كلّ مضض من هذا القبيل دون عناء كبير».

ولم تتمالك إلينور أن تبتسم لما أعربت عنه مريان من عدم اكتراثها بأخلاق امرأة، كانت إلينور تتجشم كثيراً من العناء في حمل مريان على معاملتها بشيء من الأدب، وصحَّت نيّتها على الذهاب إلى لندن إذا أصرّت أختها على هذه الرحلة لأنها لم ترَ من المناسب أن تترك مريان وشأنها أو تترك السيدة جننجز - في أثناء وقت راحتها في المنزل - تحت رحمة مريان. وممّا دعاها إلى قبول ذلك أنها تذكرت أن إدوارد فيرارز - على قول لوسي - لن يكون في لندن قبل شهر فبراير وأن زيارتهما - إذا طالت - ستنتهي قبل هذا التاريخ.

قالت السيدة داشوود: «إنني أصرّ على ذهابكما معاً وهذه الاعتراضات ضرب من اللغو، وستجدان متعة كبيرة في زيارة لندن، ولا سيما في وجودكما معاً، وإذا كانت إلينور تلتمس أية متعة، ففي وسعها أن تلتمسها من مصادر مختلفة، وربما وجدت بعض ذلك في توثيق أواصر المودة بينها وبين أسرة زوجة أخيها».

وكثيراً ما كانت إلينور تتمنى أن تسنح لها الفرصة لتضعف من إيمان أمها بوجود علاقة حب بينها وبين إدوارد، حتى تكون الصدمة عليها خفيفة حينما تتكشف لها الحقيقة. فلما أشارت أمها إلى هذا الموضوع أقدمت إلينور على انتهاز هذه الفرصة لتنفيذ خطتها - إن

لم تأمل في نجاحها كثيراً - فقالت بكل هدوء: إنني أحب إدوارد فيرارز كثيراً، ويسرني دائماً أن أراه، أما مَن عداه من سائر أفراد الأسرة فسواء عليَّ أَعَرفتهم أم لم أعرفهم».

فابتسمت الآنسة داشوود ولم تقل شيئاً. ورفعت مريان عينيها في دهشة ورأت إلينور أنه يحسن بها أيضاً أن تمسك لسانها. وبعد حديث وجيز استقر الرأي نهائياً على قبول الدعوة قبولاً تامّاً، فلا تسل عمّا شعرت به السيدة جيننجز من السرور عندما بلغها هذا النبأ ولا عن العبارات التي أكدت فيها عطفها ورعايتها. ولم يقتصر هذا السرور عليها، بل شمل سير جون أيضاً لأن أكبر ما يخشاه هو الوحدة، ولا ريب أنّ إضافة شخص أو شخصين إلى أسرته في لندن يُعدّ كَسْباً، بل إن ليدي ميدلتون اهتمّت بإظهار سرورها. أما الآنستان ستيل ولا سيما لوسي فلم يسعدهما قط شيء في حياتهما كما أسعدهما هذا النبأ.

ووافقت إلينور على هذه الرحلة التي تتعارض مع رغبتها، وهي تشعر بامتعاض أقل ممّا توقعت أن تشعر به. ولم يعُد يهمها - فيما يتعلق بنفسها - أن تذهب أو لا تذهب إلى لندن. ولما رأت أمها مسرورة بهذه الرحلة، ورأت علائم السرور بادية في نظرات أختها وصوتها وأحوالها، وأنها عادت إلى نشاطها المعتاد، وشعرت بأكثر من مرحها المعتاد لم يسعها إلا الرضا بهذه الرحلة، ولم تشك فيما عسى أن ينجم عنها.

وكانت فرحة مريان تكاد تزيد على السعادة بدرجة، واستبدّ بها القلق، والشوق للرحلة، وكان امتعاضها لفراق أمها هو العامل الوحيد الذي لَطّف من شدة شوقها إلى السفر، وعندما حانت ساعة الوداع اشتدّت بها لوعة الأسى، ولم تكن لوعة أمها تقلّ عن

لوعتها. وكانت إلينور هي الوحيدة من بين الثلاثة التي رأت أن الفراق لن يدوم طويلاً.

وتمّ السفر في الأسبوع الأول من شهر يناير على أن يسافر آل ميدلتون بعدهما بأسبوع، وبقيت الآنستان ستيل في بارتون بارك حتى تسافرا مع بقية أفراد الأسرة.

الفصل السادس والعشرون

لم تكد إلينور ترى نفسها في «العربة» مع السيدة جننجز، وتبدأ الرحلة إلى لندن تحت رعايتها وفي ضيافتها حتى أخذت تقضي العجب من حالها وتتساءل: ما أقصر الفترة التي عرفتُ فيها هذه السيدة، وما أشدّ التباين بيني وبينها في الطباع والسن، وما أكثر الاعتراضات التي وجَّهتها إلى هذه الرحلة منذ أيام قلائل، ولكن مريان وأمها تغلَّبتا على جميع هذه الاعتراضات أو تجاهلتاها في حماسة الشباب التي اشتركت فيها كلّ منهما على السواء. ولم تستطع إلينور على الرغم ممّا كان يساورها أحياناً من شك في وفاء ولبي - أن تشاهد نشوة الآمال الحلوة التي غمرت قلب مريان، وتألّقت في بريق عينيها - دون أن تدرك أنها لا تشعر بأمل في المستقبل، بل تشعر بالكآبة بالقياس إلى مريان، ودون أن تدرك أنه يسرّها أن تشارك مريان في اهتمامها بالرحلة، حتى تظلّ تتطلع إلى ما تصوب إليه، وتحتفظ بالأمل نفسه الذي ترجوه. على أنّ نوايا ولبي لا بدَّ أن تتضح بصفة قاطعة بعد وقت قصير جداً. وأكبر الظن أنه موجود في لندن بالفعل. وقد دلّ تلهف مريان على الرحلة على ثقتها بوجوده فيها. وصمَّمت إلينور لا على أن تستشف حقيقة أخلاقه في ضوء ملاحظتها هي أو أخبار غيرها فحسب، بل صممت

كذلك على مراقبة سلوكه تجاه أختها من كثب حتى تستوثق من أخلاقه ونواياه قبل أن تتكرَّر بينهما الاجتماعات. فإذا كانت نتيجة هذه الملاحظات غير مشجِّعة فقد صممت على أن تفتح عين أختها في كلّ حال من الأحوال، أمّا إن كانت مشجّعة فقد وجب عليها أن تسلك طريقاً آخر وهو أن تتحاشى كلّ مقارنة تنطوي على الأنانية بينها وبين أختها، وأن تتجنب كل مظهر من مظاهر الأسى من شأنه أن يقلِّل من شعورها بالرضا نحو سعادة مريان.

وقضين ثلاثة أيام في رحلتهن كان سلوك مريان في أثنائها نموذجاً طيباً لما عسى أن تبديه في المستقبل نحو السيدة جننجز من لين الجانب، ورقَّة المعاشرة. جَلَسَتْ صامتة طول الطريق تقريباً مستغرقة في تأملاتها، وقلَّما طابت نفسها بالكلام اللهم إذا انتزع منها أحد المناظر الرائعة صيحة إعجاب توجِّهها لأختها فقط. ولذلك كفَّرت إلينور عن هذا السلوك، فأخذت على عاتقها مهمة المجاملة التي ارتضتها لنفسها، فأَوْلَت السيدة جننجز أكرم رعاية فحادثتها، وضحكت معها، وأصغت إليها ما استطاعت. وكانت السيدة جننجز تعاملهما من جانبها بكلّ ما وسعها من ضروب العطف والبر، وتوفر لهما أسباب الراحة والمتعة، ولا شيء يضايقها إلّا أنها عجزت عن حملهما على اختيار ألوان الغداء في النُّزُل وانتزاع اعتراف منهما بإيثار السلمون على القَدّ، أو لحم الدجاج المسلوق على شرائح لحم العجول. ووصلن لندن في الساعة الثالثة من اليوم الثالث. وسررن حين انطلقن من سجن «العربة» بعد تلك الرحلة، وتأهَّبن للتمتع بالدفء على ضوء نار طيبة.

كان البيت جميلاً مجهزاً بأثاث جميل، وسرعان ما احتلت الفتاتان شقة مزوّدة بوسائل الراحة، وكانت هي الشقة التي أقامت

فيها شارلوت من قبل، ولا يزال الإنسان يرى فوق سجاف المصطلى منظراً طبيعياً مرسوماً على نسيج من الحرير الملون من صنع يديها، ممّا يدل على أنها أفادت من السنوات السبع التي قضتها في إحدى المدارس الكبرى بلندن.

وإذ لم يكن من الميسور أن يتمّ إعداد طعام الغداء قبل ساعتين من وصولهما، فقد اعتزمت إلينور أن تقضي هذه الفترة في الكتابة لأمها، فجلست لهذا الغرض. ولم تمضِ بضع دقائق حتى فعلت مريان الشيء نفسه وقالت لها إلينور: «إنني أكتب خطاباً للأسرة يا مريان. أما يحسن أن ترجئي خطابك يوماً أو يومين؟».

فأجابت مريان بسرعة وكأنها تريد أن تتفادى أي سؤال آخر: «لن أكتب لأمي». فلم تقل إلينور شيئاً، وخطر ببالها فوراً، أنها تكتب لولبي حتماً، واستنبطت من ذلك أنهما مخطوبان، وإن حاولا إخفاء الخطبة، وسرَّها هذا الاعتقاد، وإن لم تتوافر الدلائل على صحته، واستمرت في كتابة الخطاب بخفة ونشاط. ولم يستغرق خطاب مريان أكثر من بضع دقائق، إذ لم يزد على أن يكون تذكرة. وبعد أن انتهت من كتابته طوته، وأغلقته، وعنونته بسرعة وخفة. واستطاعت إلينور أن تميِّز حرف «و» في العنوان». ولم تكد مريان تفرغ منه حتى دقت الجرس، وطلبت إلى الساعي الذي لبى النداء أن يحمل هذا الخطاب إلى صندوق البريد الخاص بالخطابات التي تكلِّف بنسَيْن، وكان هذا هو الذي حسم مادة الشك في الحال.

وظلّت تشعر بالفرح والمرح، ولكن مع شيء من الاضطراب لم يسرّ أختها كثيراً، وزاد هذا الاضطراب عندما اقترب المساء. ولم تكد تذوق شيئاً من طعام الغداء، وحينما عادتا بعد ذلك إلى حجرة الاستقبال، كانت تصغي لصوت كلّ عربة في لهفة واشتياق.

وكان من دواعي ارتياح إلينور أن السيدة جننجز كانت مشغولة كثيراً في حجرتها الخاصة، فلم تستطع أن تلاحظ كثيراً ممّا حدث. وجيء بمعدات الشاي، وكانت مريان قد شعرت بخيبة الأمل أكثر من مرة عندما تسمع دقاً على الباب المجاور، وإذا بطارق يقرع الباب قرعاً عالياً، فهرولت نحو الباب، وخيم الصمت على الجميع، ولم يكن من الممكن احتمال هذا الصمت أكثر من بضع ثوانٍ، ففتحت مريان الباب، وسارت بضع خطوات نحو السلم، وأنصَتَت برهة، ثم عادت إلى الحجرة في اضطراب ينبئ عن اعتقادها أن الطارق هو ولبي، ولم تتمالك من فرط السرور أن صاحت «ويْ! إلينور! إنه ولبي! حقاً هو ولبي»! وهمَّت بإلقاء نفسها بين ذراعيه، لولا أنها رأت كولونيل براندون.

وكانت صدمة أجَلّ من أن تحتمل في هدوء وسكينة، فغادرت الحجرة من فورها، وشعرت إلينور بخيبة الأمل كذلك، ولكن تقديرها لكولونيل براندون حملها على الترحيب بمَقْدمه، وساءها كثيراً أن يلحظ رجل يحبّ أختها كثيراً أنها لا تشعر عند رؤيته إلا بالحزن وخيبة الأمل. ولكنها سرعان ما رأت أنه لم يلحظ ذلك، بل لحظ مريان، وهي تغادر الحجرة، بكثير من الدهشة والقلق بحيث لم يرَ في سلوكها ما يتنافى مع واجب المجاملة.

قال: «هل أختك مريضة؟».

فأجابت إلينور بلهجة يشوبها بعد الألم: إنها كذلك، ثم تحدّثت عن الصداع والكآبة والإرهاق وعن كلّ شيء يسمح لها الأدب أن تعزو إليه سلوك أختها.

واستمع إلى كلامها بكلّ جوارحه، ولكن بدا عليه أنه يستجمع قواه فكفّ عن الحديث في الموضوع، وأخذ من فوره يعرب عن

سروره برؤيتهما في لندن، ويوجِّه الأسئلة المعتادة عن رحلتهن، وعمّن خلفنه وراءهن من الأصدقاء.

وبهذا الأسلوب الهادئ وبدون كثير من الاهتمام من الجانبين استمرا يتجاذبان أطراف الحديث، وكلاهما يشعر بالانقباض والكآبة، وكلاهما شارد الفكر في وادٍ آخر. وكانت إلينور تتوق كثيراً أن تسأله هل ولبي في لندن حينئذٍ، ولكنها خشيت أن تؤلمه بسؤاله عن غريمه. وأخيراً سألته من باب مجاذبة الحديث: هل ظلّ مقيماً في لندن منذ أن رأته آخر مرة. فأجاب في شيء من الارتباك: «نعم، لم أكد أفارقها من ذلك الحين، غير أني زرت ديلافورد مرة أو مرتين لبضعة أيام، ولكن لم يتيسر لي قط أن أعود إلى بارتون».

وكان هذا الجواب واللهجة التي قِيل بها ممّا أعاد في الحال إلى ذهنها جميع الملابسات التي احتاطت بمغادرته هذا المكان، وما أثارته من قلق وشبهات في نفس السيدة جننجز، وخشيت أن يكون سؤالها قد تضمّن من حبّ الاستطلاع أكثر ممّا شعرت به.

وسرعان ما دخلت السيدة جننجز، فقالت بمرحها الصاخب المعتاد: «إيهاً يا كولونيل، إنني مسرورة برؤيتك أعظم السرور، وآسفة لأني لم أبادر بالحضور. معذرة لأني اضطررت أن ألقي نظرة على ما حولي، وأرتب أموري، إذ مضت فترة طويلة لم أحضر فيها إلى البيت، وأنت تعلم الأشياء الصغيرة الغريبة التي يجب على الإنسان أن يعملها بعد أن يغيب عن منزله، ثم عليّ بعد ذلك أن أسوّي حسابي مع صانع «العربات». رباه! لقد كنت في عمل دائب كالنحلة منذ الغداء ولكن كيف عرفت يا كولونيل أنني سأصل إلى لندن اليوم؟».

«سمعت النبأ في بيت بالمر حيث تناولت طعام الغداء».

«عجباً! تغديت هناك؛ حسناً! وكيف حالهم جميعاً؟ وكيف حال شارلوت؟ أنا أؤكد أنها أصبحت رائعة».

«السيدة بالمر في صحة طيبة. وقد كلفوني أن أبلغك أنها ستزورك غداً».

«حقاً، لقد تبادر ذلك إلى ذهني. والآن يا كولونيل أحب أن أقول لك: إنني جئت معي بفتاتين. أمامك الآن منهما واحدة، والأخرى في مكان آخر صديقتك الآنسة مريان، أيضاً - وهو خبر لا يسوؤك سماعه. وأنا لا أدري ماذا أنت فاعل والسيد ولبي بها. نعم ما أجمل أن يجمع الإنسان بين الشباب والجمال نعم! كنت أتمتع بالشباب في ماضي الأيام، ولكني لم أحظَ بالجمال الرائع قط - واسوأتاه! ولكني ظفرت بزوج طيب جداً، ولا أدري كيف تحصل أجمل امرأة على زوج خير منه آه! وا أسفاً عليه! لقد توفي منذ أكثر من ثماني سنين ولكن حدثني يا كولونيل أين كنت منذ افترقنا؟ كيف حال شؤونك المالية؟ خبرني عن الحقيقة فليس بين الأصدقاء سر!».

فأجاب بهدوئه المعتاد عن كلّ الأسئلة، ولكن دون أن يشفي غليلها في واحدٍ منها ثم أخذت إلينور تعدّ الشاي، واضطرت مريان إلى الحضور ثانية.

وبعد دخولها استغرق كولونيل براندون في الصمت والتفكير أكثر من ذي قبل ولم تستطع السيدة جيننجز أن تحمله على البقاء طويلاً. ولم يأتِ زائر آخر في مساء اليوم، واتفقن جميعاً على الذهاب إلى الفراش مبكرات.

واستيقظت مريان في صباح الغد، وقد عادت إلى حالتها الطبيعية، وبدت عليها أمارات السرور. ويبدو أنها نسيت - في نشوة

الأمل الذي ترجوه اليوم خيبة الأمل التي ألمّت بها مساء أمس. ولم يمضِ وقت طويل على تناولهن طعام الفطور حتى وقفت «عربة» السيدة بالمر بالباب، وما هي إلّا بضع دقائق حتى دخلت الحجرة وهي تضحك. وفرحت بلقائهن جميعاً فرحاً لا يدري المرء معه أهي أشدّ فرحاً بلقاء أمها أم بلقاء الآنستين داشوود. وأبدت مزيد دهشتها لحضورهما إلى لندن وإن توقعت ذلك دائماً، كما أبدت شدة غضبها لقبولهما دعوة أمها بعد أن رفضتا دعوتها، وإن لم تكن في الوقت نفسه لتغفر لهما لو أنهما تخلفتا عن الحضور!

وقالت: «السيد بالمر يسعده أن يراكما. ماذا تظنان أنه قال عندما سمع بقدومكما مع ماما؟ لقد نسيت الآن ما قال، ولكنه قال كلاماً غريباً مضحكاً».

وبعد ساعة أو ساعتين قضيتا فيما أسمته أمها حديثاً شائقاً، أو بعبارة أخرى في توجيه مختلف الأسئلة عن معارفهما جميعاً من جانب السيدة بالمر، اقترحت هذه أن يصحبنها إلى بعض المحلات التجارية لشراء بعض ما يلزمها فوافقت السيدة جيننجز وإلينور في الحال، لأنهما أرادتا كذلك شراء بعض الأشياء، ورفضت مريان الذهاب معهما بادئ الأمر، ولكنهما حملتاهما على ذلك.

وحيثما ذهبن، لم تكف مريان بصرها عن مراقبة الناس، وفي بوند ستريت خاصة الذي كان يشتمل على معظم ما يلزمهما لم تكف عن تفحص الوجوه، وكذلك كان ذهنها في كلّ محل ذهبن إليه يشرد عن كلّ ما يقع تحت أبصارهن، وعن كل شيء يسترعي نظرهن ويثير اهتمامهن، وبدا عليها القلق وعدم الرضا في كل مكان، ولم تستطع أختها استشارتها في أي شيء تريد شراءه، وإن كان يهمهما على السواء، وعزفت نفسها عن كل شيء، وتلهفت للعودة إلى البيت،

ولم تستطع أن تخفي ضجرها من مسلك السيدة بالمر التي يسترعي نظرها كل جميل أو غالٍ أو جديد في الأشياء، وتتوق إلى شراء كل شيء ولكنها تتردّد في شرائه، وتضيع الوقت بين الإعجاب والتردّد.

وعُدن إلى المنزل في ساعة متأخرة. وما إن وصلن إلى المنزل حتى طارت مريان إلى السلم وأعقبتها إلينور، فوجدتها تشيح بوجهها الحزين عن المائدة، ممّا دلّ على أن ولبي لم يكن موجوداً.

وقالت للساعي حينما دخل يحمل بعض «الطرود»: «ألم يرِد لي خطاب منذ أن خرجت؟ فأجاب بالنفي، ثم قالت: «هل أنت متأكد من أن خادماً أو بواباً لم يترك لي خطاباً أو تذكرة؟».

فأجاب الرجل بأن أحداً لم يأتِ بشيء.

فقالت في صوت خافت يائس، وهي تلتفت إلى النافذة: «ما أغرب ذلك!».

ورددت إلينور في نفسها، وهي تنظر إلى أختها في قلق: «حقاً ما أغرب ذلك! لو لم تعلم أنه في لندن لما كتبت إليه كما فعلت، بل كانت كتبت إليه في كومب ماجنا. وإذا كان هو في لندن فما أغرب ألّا يحضر أو يكتب إليها! آه يا أمي العزيزة! لا بدَّ أنك أخطأتِ في السماح بعقد خطبة بين فتاة صغيرة السن كهذه ورجل لا نعرف عنه إلا القليل، في مثل هذه الظروف الغامضة المريبة! إنني أتوق إلى استقصاء الخبر. ولكن كيف يطاق تدخلي؟».

وقررت بعد شيء من الروية والتفكير إذا ظلّت مريان كاسفة الباب عدّة أيام، كما يبدو عليها الآن، أن توضح لأمها بأقوى عبارة ضرورة استقصاء الأمر.

وتغدى معهما السيدة بالمر وسيدتان كبيرتان من صديقات السيدة جننجز المخلصات قابلتهما في الصباح فوجّهت الدعوة

إليهما. ثم انصرفت السيدة الأولى عقب الشاي مباشرة للوفاء بمواعيدها المسائية. واضطرت إلينور أن تشارك في إعداد مائدة لعبة الوِست لغيرها من السيدات، ولم تبدِ مريان نشاطاً في الأمرين لأنها لا تعرف هذه اللعبة، ولكنها على الرغم من أنها كانت حرة التصرُّف في وقتها لم تقضِ المساء في عمل شيء يجلب لها من السرور أكثر مما وجدته إلينور، بل قضته في تجرع غصة الانتظار ولوعة الخيبة. وكانت تحاول أحياناً أن تسلي نفسها بالقراءة دقائق معدودات ولكنها لا تلبث أن تطرح الكتاب جانباً، ثم تعود فتسلي نفسها بما هو أمتع من ذلك، فتذرع الحجرة جيئة وذهاباً ثم تتوقف هنيهة عند وصولها إلى النافذة على أمل أن تسمع الدقة التي طال انتظارها.

الفصل السابع والعشرون

قالت السيدة جننجز عندما جلسن إلى مائدة الفطور في صباح الغد: «إذا استمر هذا الطقس الجميل طويلاً فلن يرغب سير جون في مغادرة بارتون في الأسبوع القادم. إنه ليعزّ على المشتغلين بالصيد أن يحرموا أنفسهم متعة يوم واحد. وارحمتاه لهم! إنني أرثي لهم دائماً إذا حرموا هذه المتعة - إنه ليحزنني إذا حرموا منها».

فصاحت مريان بلهجة المرح، وهي تتجه إلى النافذة في أثناء الكلام لتفحّص حال الطقس: «هذا صحيح. لم يخطر ذلك ببالي. هذا الطقس سيحمل الكثير من هواة الصيد على البقاء في الريف».

وكانت هذه ذكرى سعيدة أعادت إليها الشعور بالبهجة والمرح. وأردفت وهي تجلس إلى مائدة الفطور بوجه طلق: «إنه طقس رائع لهم حقاً. ما أجدرهم بأن يتمتعوا به كثيراً! ولكن (بشيء من القلق الذي عاد إليها) لا ينتظر أن يستمر هذا الطقس طويلاً. ومن المؤكد أننا لن نرى المزيد منه في مثل هذا الوقت من السنة، وبعد هذا المطر المتواصل. وسيبدأ الصقيع عمّا قريب، وبكلّ شدة فيما أظن، وربما كان ذلك بعد يوم أو يومين. وهذا الاعتدال الزائد لا يمكن أن يستمر طويلاً - نعم، ربما بدأ الصقيع الليلة!».

وقالت إلينور، وهي تريد أن تحُول دون أن تفهم السيدة جننجز مقصد أختها فهماً واضحاً كما تفهمه هي: «أؤكد أننا نرى سير جون وليدي ميدلتون في لندن في نهاية الأسبوع القادم».

«نعم يا عزيزتي! أعتقد أننا سنراهما. ومارية دائماً تركب هواها».

حدست إلينور في صمت: «والآن سترسل له خطاباً على كومب، في بريد اليوم».

ولكنها إذا فعلت، فإنها تكتب الخطاب وتُرسلة خفية حتى لا يقع عليه بصر أختها. ومهما تكن حقيقة الأمر، ومهما يكن من عدم شعور إلينور بالرضا عن ذلك، فإنه لم يسعها أن تشعر بالكدر، وهي ترى أختها تشعر بالبهجة والسرور، فقد كانت مريان مسرورة، وسعيدة باعتدال الطقس، ولكنها كانت أسعد بتوقع الصقيع.

قضين معظم ساعات الصباح في ترك البطاقات في منازل صديقات السيدة جننجز لإخبارهن بقدومها إلى لندن، وظلّت مريان مشغولة طول الوقت بملاحظة اتجاه الريح، ومراقبة تقلبات السماء، وتخيّل حدوث تغيير في الهواء.

«ألا ترين يا إلينور أنّ الجو أبرد الآن ممّا كان في الصباح. يبدو لي أنّ ثمة فرقاً واضحاً جداً. إنني لا أكاد أشعر بالدفء في يدي حتى وهما في الموفة[1] ولم يكن الجو كذلك بالأمس فيما أظن. ويبدو أنّ السحب تقشعت أيضاً، وأن السماء ستشرق بعد هنيهة، وسنتمتع بجو صحو في الأصل».

وكانت إلينور ينتابها الألم والسرور، أما مريان فقد ظلّت على

---

(1) Muff: أسطوانة من فرو توضع فيها اليدان من طرفيها للتدفئة – (المترجم).

حال واحدة، فكانت ترى في ضوء النار كلّ ليلة، وفي مظهر الجو كل صباح أعراض الصقيع المقبل التي لا شك فيها.

لم يكن ثمة من الأسباب ما يحمل الآنستين داشوود على الاستياء من أسلوب معيشة السيدة جننجز وصديقاتها ولا من مسلكها الذي اتسم بإزاءهن بالبر والعطف وكانت تسوس أمورها المنزلية على نحو لا يحدّ من حريتهما على الإطلاق، ولم تقُم بزيارة أي إنسان تعلم أن التعرّف به يؤذي شعورهما بوجه من الوجوه، فيما عدا بعض صديقاتها في لندن اللاتي لم تقطع صلتها بهن، وهو ما دعا ليدي ميدلتون إلى الأسف. ولما كانت إلينور تشعر براحة البال من هذه الناحية أكثر ممّا توقعت فقد تغاضت عمّا كان يعوزها من المتعة الحقة في اجتماعاتهم المسائية التي ينتظم شملها سواء في داخل المنزل أو خارجه لا لشيء إلا للعب الورق، الأمر الذي لم تجد فيه كثيراً من التسلية.

وكان كولونيل براندون مدعواً لزيارة المنزل في أي وقت، فكان يزورهما كلّ يوم تقريباً. وجاء ليشاهد مريان، ويتحدث إلى إلينور التي كانت تجد في حديثه من الارتياح أكثر ممّا تجد في أي شأن من شؤون الحياة اليومية، وإن شعرت في الوقت نفسه بقلق بالغ لاهتمامه الدائم بأختها. وكانت تخشى أن يزداد هذا الاهتمام قوة، وتحزن لما كان يبدو في نظراته إلى مريان من الجد والاهتمام، ولم يكن ثمة شك في أن حالته النفسية أسوأ ممّا كانت عليه في بارتون.

وثبت بعد قدومهما إلى لندن بنحو أسبوع أن ولبي قدم إليها أيضاً، فقد رأتا بطاقته على النضد، عندما عادتا من نزهتهما الصباحية في «العربة».

صاحت مريان: «عجباً! لقد زارنا في أثناء نزهتنا» وسُرّت

إلينور حينما تأكدت من وجوده في لندن، وقالت لأختها مؤكدة: «ثقي أنه سيعود إلى زيارتنا غداً» ولكن يبدو أنّ مريان لم تسمعها، وعندما دخلت عليهما السيدة جننجز هربت من الحجرة ومعها البطاقة الثمينة.

وسُرّت إلينور بهذا الحادث، ولكنه أعاد إلى أختها ما سبق، بل أكثر ممّا سبق أن شعرت به من الاضطراب، فلم يهدأ بالها منذ تلك اللحظة؛ وظلّت تتوقع حضوره في كل ساعة من ساعات النهار إلى حدّ جعلها تعزف عن كلّ عمل وأصرّت على البقاء وحدها بالمنزل في صباح اليوم التالي عندما خرج غيرها.

وكانت إلينور مشغولة البال بما عسى أن يجري في بركلي ستريت في أثناء غيابهما. فلما عادتا نظرت إلى وجه أختها هنيهة، وكانت هذه النظرة كافية للدلالة على أنّ ولبي لم يعد للزيارة، وحينئذٍ وردت تذكرة ووضعت على المنضدة.

فصاحت مريان وأقبلت مسرعة «لي!».

«لا يا سيدتي، بل هي لربة البيت».

ولكن مريان لم تقتنع بذلك، فتناولتها من فورها.

«حقاً إنها للسيدة جننجز. إنه لشيء يغيظ!».

ولم تستطع إلينور أن تظلّ صامتة فقالت «كأنك تتوقعين خطاباً؟!».

«نعم قليلاً لا كثيراً».

وأطرقت هنيهة ثم قالت «أنت لا تثقين بي يا مريان».

«نعم، إلينور، هذا تأنيب منك - منك يا مَن لا تثقين في أحد!».

فردَّت عليها إلينور في لهجة يشوبها بعض الاضطراب «مني أنا! حقاً يا مريان ليس لدي ما أقوله».

وقالت مريان بحدّة: «وكذلك أنا. كلانا سواء. ليس لدى إحدانا ما تقوله. ليس لديك لأنك تكتبين الرسائل، وليس لدي لأنّي لا أخفي شيئاً».

وتألمت إلينور لتهمة التكتم التي وجِّهت إليها، ولم يسعها أن تنفيها، ولم تدر كَيف تطالب أختها في هذه الظروف بالمزيد من الصراحة».

وسرعان ما حضرت السيدة جننجز وتسلمت التذكرة فقرأتها بصوتٍ عال، فتبين أنها مرسلة من ليدي ميدلتون تعلن فيها قدومها هي وزوجها إلى كوندوي ستريت ليلة أمس، وتدعو أمها وقريباتها إلى زيارتها في مساء الغد قائلة: إن المانع من قدومهما إلى بركلي ستريت هو مشاغل سير جون من جهة، وإصابتها هي بزكام شديد من جهة أخرى. وقُبِلت الدعوة، ولكن حينما أزفت ساعة الزيارة لقيت إلينور بعض العناء في إقناع أختها بمرافقتها في هذه الزيارة، لأنها لم ترَ ولبي حتى الآن، على الرغم من أن واجب المجاملة نحو السيدة جننجز كان يقضي بذهابها مع أختها. ولذلك كانت مريان تكره أن تخرج لتسرّي عن نفسها، بقدر ما كانت تكره أن يزورها مرة أخرى في أثناء غيابها.

ولما انقضت السهرة وجدت إلينور أنّ طبع الإنسان لا يتغيّر تغيُّراً مادياً بتغيُّر المكان. ذلك أن سير جون على الرغم من قلّة إقامته بلندن، استطاع أن يجمع حوله ما يقرب من عشرين شاباً، وأن يرفِّه عنهم بإقامة حفلة رقص لهم. ولكن ليدي ميدلتون استنكرت هذا العمل لأنها رأت أن إقامة حفلة رقص لم تتخذ لها

العدّة أمر جائز في الريف، أما في لندن حيث يهتم الناس بالرشاقة والأناقة، وحيث يتعذّر توافرهما فكانت ترى أنها تضحي بالشيء الكثير من أجل الترفيه عن بضع فتيات، حين يعلم الناس أنها أقامت حفلاً راقصاً صغيراً يشهده ستة أو ثمانية عشر شخصاً، وعازفان على الكمان، ولا يُقدَّم فيه سوى طعام يسير».

وكان السيد بالمر وزوجته من بين المدعوين للحفل، ولم يكن قد رأينه منذ وصولهن إلى لندن، وعندما دخلن، لم يبدِ ما يدلّ على أنه يعرفهن، لأنه كان يحرص على ألّا يظهر أي اهتمام بحماته، ولذلك لم يكن يقترب منها قط، ونظر إليهن بازدراء دون أن يبدو عليه أن يعرف مَن هن، واكتفى بأن أومأ برأسه إلى السيدة جننجز من الجانب الآخر من الحجرة، وألقت مريان نظرة واحدة على أرجاء الحجرة عند دخولها، وكانت هذه النظرة تكفي للدلالة على أنه ليس موجوداً فيها - وجلست وهي لا تريد أن تشعر بالسرور، ولا أن تبعث السرور في أحد. وبعد أن اجتمع الشمل بما يقرب من ساعة، وثب السيد بالمر نحو الآنستين داشوود ليُعرب لهما عن دهشته لقدومهما إلى لندن، على الرغم من أن كولونيل براندون علم أول ما علم بنبأ قدومهما في بيته، وأنه هو نفسه علّق بكلام غريب عندما بلغه أنهما سيأتيان.

قال: «كنت أظنّ أنكما في ديفونشاير».

فأجابت إلينور: «صحيح!».

«ومتى تعودان إليها؟».

«لا أدري». وهكذا انتهى الحديث.

ولم يكن الرقص أبغض إلى نفس مريان في أيّ يوم من أيام

حياتها منه في مساء ذلك اليوم، ولم تشعر بتعب منه كما شعرت في ذلك الوقت، وشكَت من ذلك عندما عادت إلى بركلي ستريت.

قالت السيدة جننجز: «نعم نعم! إنني أعرف السبب جيداً. لو أن شخصاً معيّناً لا أذكر اسمه كان حاضراً لما شعرتِ بشيء من التعب قط، والحقّ أنه لم يكن يجمل به ألّا يلبي دعوتك إلى لقائه».

فصاحت مريان: «دعوتي!».

«هذا ما أخبرتني به ابنتي ميدلتون، لأنه يبدو أن سير جون قابله في مكان ما في الشارع صباح اليوم».

فلم تقل مريان شيئاً، ولكن بدا عليها أشدّ الألم. وحفز هذا الحادث إلينور إلى ضرورة القيام بعمل يخفف من آلام أختها، فصمَّمت أن تكتب لأمها صباح اليوم التالي، وتثير في نفسها المخاوف على صحة مريان، فتحملها بذلك على استقصاء الخبر الذي كانت تتوق إلى معرفته من زمن طويل، وزادها تصميماً على ذلك الأمر أنها رأت مريان - عقب طعام الفطور في اليوم التالي - تعاود الكتابة إلى ولبي، لأنه لم يكن ثمة مجال للظن بأنها تكتب لأحد سواه».

وفي منتصف ذلك اليوم خرجت السيدة جننجز وحدها لبعض شأنها، فأخذت إلينور في كتابة الخطاب مباشرة، على حين استبدّ القلق بمريان بحيث لم تقوَ على العمل أو الحديث، بل أخذت تمشي من نافذة إلى أخرى، أو تجلس بجانب المدفأة مستغرقة في تأمّلاتها الحزينة. وقد اصطنعت إلينور لهجة الجد في مخاطبة أمها فقصّت عليها كل ما حدث، وأفضت لها بما يساورها من الشكّ في وفاء ولبي، وناشدتها باسم الواجب والمحبة أن تطلب إلى مريان الإفصاح عن حقيقة علاقتها بولبي.

ولم تكد تنتهي من كتابة خطابها حتى سمعت طارقاً يدق الباب، وإذا به كولونيل براندون، وكانت مريان قد رأته من النافذة، فغادرت الحجرة قبل دخوله لأنها كانت تكره أن ترى أحداً كائناً مَن كان. وكان يبدو ساهم الوجه على غير عادته، وجلس دون أن يتفوه بكلمة، وإن أعرب عن ارتياحه لأنه وجد الآنسة داشوود وحدها، وكأنه يريد أن يَسُرّ لها بأمر خاص. وأيقنت إلينور أن لديه خبراً يتصل بأختها يريد الإفضاء به، فأخذت تترقب في شوق ولهفة أن يبدأ به. ولم تكن هذه أول مرة شعرت فيها بمثل هذا اليقين لأنه حدث من قبل - أكثر من مرة - أن كان يبدأ حديثه قائلاً: «إن أختك اليوم ليست على ما يرام» أو «يبدو أن أختك مكتئبة» ويبدو أنه يوشك أن يفضي بنبأ أو يسأل عن أمر يتصل بها. وبعد صمت استمرّ عدة دقائق، قطع الصمت وسألها بصوت يخالجه بعض الاضطراب متى يهنئها بأخ لها وفوجئت إلينور بهذا السؤال، ولم تكن مستعدة للإجابة عنه، فاضطرت أن تسلك المسلك العادي البسيط في مثل هذا الموقف فسألته: ماذا يعني؟ فأجابها وهو يحاول الابتسام: «إن خطبة أختك للسيد ولبي أمر يعرفه الجميع».

فردّت إلينور: «لا يمكن أن يعرفه الجميع لأن أسرتها ذاتها لا تعرف هذا الخبر».

فبدت عليه الدهشة وقال: «معذرة! إني أخشى أن يكون سؤالي مجافياً للأدب، ولكن لم يتبادر إلى ذهني أن في الأمر سراً، لأنهما يتراسلان علانية وحديث زواجهما على طرف كل لسان».

«أنى يكون ذلك؟ ومن أنبأك هذا؟».

«كثيرون - بعضهم لا تعرفين عنه شيئاً، وبعضهم تعرفينه جيداً، السيدة جننجز والسيدة بالمر وآل ميدلتون. ومع ذلك لم يسعني أن

أصدقه، لأنه حيث لا يميل الإنسان إلى تصديق شيء فإنه يلتمس دائماً من الأسباب ما يؤكد شكوكه لولا أني رأيت بطريق الصدفة في يد الخادم، وهو يفتح لي الباب اليوم خطاباً بخطّ أختك معنوناً باسم السيد ولبي. لقد جئت لأعرف الخبر، ولكني اقتنعت قبل أن أسأل. هل تمّ الاتفاق نهائياً على كل شيء؟ هل من المستحيل أن. . .؟ ولكن ليس لي أيّ حق، ولم يكن من الممكن أن تتاح لي الفرصة للنجاح. معذرة يا آنسة داشوود! فإني أعتقد أني أخطأت لأني أسرفت في القول. ولكني لا أدري ماذا أصنع. وإني أعتمد كلّ الاعتماد على حكمتك وفطنتك. قولي لي: إن الأمر قد تمّ البت فيه نهائياً، وأنه لا فائدة ترجى من بذل أية محاولة، وأن الرأي قد استقر على كتمان الأمر، إن كان الكتمان ممكناً.

لقد تأثرت إلينور كثيراً بهذه الكلمات التي تضمّنت اعترافاً صريحاً بمحبته لأختها. ولم تستطع أن تجيبه على الفور. وحتى حينما استجمعت قواها أخذت تقلب في ذهنها بعض الوقت أنسب جواب يمكن الرد به على سؤاله. وكانت لا تعرف كثيراً عن حقيقة الوضع القائم بين ولبي وأختها بحيث إذا حاولت أن توضحه له كان إيضاحها عرضة لأن يزيد على الحقيقة أو ينقص منها ومع ذلك كانت تعتقد أن محبة مريان لولبي لا تدع مجالاً للأمل في نجاح كولونيل براندون مهما كانت نتيجة هذه المحبة، وفي الوقت نفسه أرادت أن تحمي سلوك أختها من اللوم، فرأت بعد إمكان النظر أن الحكمة والشفقة تقضيان أكثر ممّا تعرفه أو تعتقده، فلذلك اعترفت بأنها لا تشك في أنهما يتبادلان الحب ولا تدهش لأنهما يتراسلان، على الرغم من أنهما لم يخبراها بحقيقة العلاقة القائمة بينهما.

وأصغى إليها باهتمام مقرون بالصمت. وحينما انتهت من

كلامها نهض من مقعده في الحال وقال بصوت عاطفي: «أتمنى لأختك كل سعادة يمكن أن يتصورها العقل، وأتمنى لولبي أن يسعى جاهداً لأن يكون جديراً بها» ثم استأذن وانصرف.

ولم يبعث هذا الحديث في نفس إلينور شيئاً من الارتياح، ولم يخفِ ما يساورها من قلق بشأن الأمور الأخرى، بل - على العكس - جعلها تعتقد آسفة أن كولونيل براندون يشعر بلوعة الأسى، ولم يكن في وسعها أن تتمنى حتى إزالة هذه اللوعة، وذلك لاهتمامها بالأمر نفسه الذي من شأنه أن يزيد هذه اللوعة.

الفصل الثامن والعشرون

لم يحدث خلال الأيام الثلاثة أو الأربعة التالية ما يدعو إلينور إلى الأسف على ما أقدمت عليه من الكتابة لأمها. ذلك أنّ ولبي لم يحضر ولم يكتب. وكانت هي وأختها على موعد مع ليدي ميدلتون لمرافقتها في نهاية هذه المدة إلى إحدى الحفلات التي تخلفت عنها السيدة جننجز، لتوعّك صغرى بناتها. واستعدت مريان لهذه الحفلة دون أن يبدو عليها أي مظهر من مظاهر الأمل أو السرور، إذ كانت منقبضة الصدر، غير مهتمة بمظهرها، يستوي لديها الخروج أو البقاء في منزل، وظلّت جالسة بجانب المدفأة في حجرة الاستقبال، بعد تناول الشاي، إلى أن وصلت ليدي ميدلتون، دون أن تتحرك من مقعدها قط أو تغيّر من جلستها، وهي مستغرقة في أفكارها، غير شاعرة بوجود أختها، وحينما بلغهما أخيراً أن ليدي ميدلتون تنتظرهما لدى الباب تنبهت، وكأنما نسيت أنها على موعد معها.

ووصلن في الموعد المناسب إلى المكان المقصود. وما إن انصرفت «العربات» التي اصطفّت أمامهن حتى نزلن من «العربة»، وصعدن في الدرج، وسمعن أسماءهن تعلن من «بسطة» إلى أخرى بصوت مسموع، ودخلن حجرة تتلألأ فيها الأنوار، وتعجّ بالمدعوين

ويشتد فيها الحر بدرجة لا تطاق، وبعد أن انحنين مسلِّمات على ربة الدار أذن لهن بالجلوس مع الحاضرين، ومشاركتهم في حر المكان وضيقه وقد زاد حضورهن منهما بحكم الضرورة. وبعد أن قضين بعض الوقت في كلام قليل، وعمل أقل، جلست ليدي ميدلتون إلى إحدى موائد «الكازينو» ولم ترد مريان أن تتنقل في الحجرة، فجلست هي وإلينور بالقرب من المائدة بعد أن أسعدها الحظ بالجلوس على بعض الكراسي.

وإنهما لكذلك وإذا بإلينور تلمح ولبي واقفاً على مقربة منهما، ومنهمكاً في الحديث مع إحدى الفتيات الأنيقات، وسرعان ما التقت عينها بعينه، فانحنى لها من فوره، ولكن دون أن يحاول الكلام معها، أو يقترب من مريان، وإن لم يسعه إلّا أن يراها، ثم واصل حديثه مع السيدة المذكورة. ولم تتمالك إلينور أن تلتفت إلى أختها لترى هل لم تلاحظ حديثه مع السيدة، فبصرت به مريان في تلك اللحظة لأول مرة، فتألقت أسارير وجهها من الفرحة، وهمّت بالتوجه إليه في الحال لولا أن أختها أمسكت بها.

وصاحت: «واطرباً! إنه هنا - إنه هنا - واعجباً! ما له لا ينظر إلي؟ لماذا لا أكلمه؟».

فصاحت إلينور: «أرجوك، أرجوك أن تتذرعي بضبط النفس، ولا تظهري شعورك لكل واحد من الحاضرين، فربما لم يلاحظ هو وجودك حتى الآن».

ولكن ذلك كان أكثر ممّا تستطيع مريان أن تعتقد، ولم يكن ضبط النفس في تلك اللحظة أمراً فوق طاقتها فحسب، بل مخالفاً لرغبتها كذلك، فجلست على أحرّ من الجمر، وارتسم ذلك على كل قسمات وجهها.

وأخيراً التفت حوله مرة ثانية، ونظر إليهما، فنهضت واقفة تناديه باسمه بصوت ينمّ عن الحب، ومدّت يدها إليه، فاقترب منهما، وأقبل على إلينور أكثر ممّا أقبل على مريان، وكأنه يريد أن يتحاشى عينها، وألا ينظر إليها، واستفسر بلهجة خاطفة عن السيدة داشوود، وسأل كم لبثتا في لندن. فذهلت إلينور لهذه اللهجة، ولم تحر جواباً، أما أختها فقد بدا عليها الانفعال في الحال، وتضرّج وجهها، وصاحت بصوت ينمّ عن أشد الغضب: «عجباً لك يا ولبي! ما معنى هذا؟ ألم تتسلم خطاباتي؟ ألا تريد أن تصافحني؟».

ولم يستطع حينئذٍ أن يتجنب مصافحتها، ولكن بدا عليه الألم حين لمس يدها، وأمسك بها هنيهة. وَكان ظاهراً في أثناء ذلك أنه يحاول أن يستجمع قواه. وراقبت إلينور ملامح وجهه، فبدا عليها المزيد من الهدوء والطمأنينة.

وبعد أن أطرق هنيهة قال بهدوء:

تشرفت بزيارتكما في بركلي ستريت يوم الثلاثاء الماضي، وأسفت كثيراً لأنّ الحظ لم يسعدني بلقائكما ولقاء السيدة جننجز في المنزل. وأرجو ألا تكون بطاقتي قد فقدت».

وصاحت مريان بلهجة تعبّر عن أشد القلق «ولكن ألم تتسلم خطاباتي؟ أعتقد أنك ارتكبت بعض الخطأ - بل خطأ جسيماً. ما معنى ذلك؟ بربك يا ولبي حدِّثني ما الخبر؟».

فلم يحر جواباً، وأربد محياه، وعاد إليه كلّ ما بدا عليه من الارتباك. ولكن ما إن وقع بصره على الفتاة التي كان يحادثها، حتى بدا وكأنه أحسّ بضرورة التظاهر بضبط النفس، فاستردّ قواه، وبعد أن قال: «نعم، سررتُ حين بلغني نبأ قدومكما إلى لندن، وهو النبأ

الذي تكرمتِ فأبلغتني إياه» انحنى انحناءة خفيفة، وانصرف مسرعاً إلى صديقته.

وبدت مريان شاحبة الوجه، عاجزة عن الوقوف، فارتمت في كرسيها، وخشيت إلينور أن يغشى عليها في أية لحظة، فحالت بينها وبين رؤية غيرها، وأخذت تنعش قواها بماء الخزامى.

وصاحت بمجرد أن استطاعت الكلام: «اذهبي إليه يا إلينور، وقولي له: لا بدَّ أن أراه ثانية - وأن أتحدث إليه حالاً - إنني لن أستريح - لن يهدأ لي بال لحظة واحدة حتى يوضح لي ذلك - أخشى أن يكون ثمة سوء تفاهم شديد - هيا اذهبي إليه في الحال».

«أنى يكون ذلك؟ كلا يا عزيزتي مريان، انتظري. ليس هذا مكان الإيضاح. انتظري إلى نهار غد فقط».

على أن إلينور استطاعت بصعوبة أن تمنع أختها من التوجه إليه بنفسها، وتعذّر عليها إقناعها بأن تهدئ من ثورتها، وتنتظر متظاهرة بالتجلّد على الأقل، حتى تتحدّث معه على انفراد وبصورة مجدية، ذلك بأنّ مريان أخذت تبكي على حالها دون انقطاع، وتندب حظها بصوت خافت. ولم تلبث إلينور أن رأت ولبي وهو يغادر الحجرة متجهاً صوب الدرج، فأخبرت مريان أنه انصرف وأنه يستحيل عليها التحدث معه في ذلك المساء، وكان ذلك حجة جديدة تذرعت بها إلينور لتعيد إليها الهدوء والسكينة، فتوسلت مريان إلى أختها أن ترجو ليدي ميدلتون أن تعود معهما إلى المنزل، لأنها لا تستطيع الانتظار لحظة واحدة لما تشعر به من الألم.

ولمّا علمت ليدي ميدلتون أن مريان ليست على ما يرام، تلطّفت فوافقت في الحال على إجابة رغبتها على الرغم من أنها

وصلت إلى منتصف الشوط في لعبة الورق فسلمت الورق إلى صديقة لها، وانصرفت بمجرد أن جاءت «العربة». ولم تنبس إحداهما بكلمة في أثناء عودتهما إلى بركلي ستريت. وكانت مريان تعاني سكرة الألم في صمت ويغالبها الأسى إلى حدّ يعزّ معه البكاء. ولحسن الحظ لم تعُد معهما السيدة جننجز، فاستطاعتا أن تدخلا حجرتهما في الحال، واستنشقت مريان بعض النشادر، فانتعشت قليلاً، وسرعان ما خلعت ملابسها، ورقدت في فراشها. وبدت عليها الرغبة في البقاء بمفردها، فخرجت أختها من الحجرة وظلّت تنتظر عودة السيدة جننجز، وأتاح لها هذا الانتظار من الوقت ما استطاعت فيه أن تفكِّر في أحداث الماضي.

ولم تستطع أن تشك في قيام نوع من الخطبة بين ولبي ومريان، ولا أن تشكّ في أنّ ولبي قد ملَّ هذه الخطبة، لأنها لم تستطع - على الرغم من تشبّث مريان بأذيال الأمل - أن تعزو مثل هذا المسلك إلى حدوث خطأ أو سوء تفاهم أياً كان نوعه، وأنه لا تفسير لهذا المسلك إلا أن عاطفته نحو مريان قد تغيَّرت. وربما ازدادت إلينور سخطاً عليه لو لم تلاحظ عليه من الارتباك ما دلّ على شعوره بسوء تصرفه، كما منعها ذلك الارتباك أن تعتقد أنه بلغ من الحِطَّة والدناءة بحيث يتلاعب بعواطف أختها دون مقصد شريف، ورأت إلينور أنه يحتمل أن يكون غيابه عنها قد أضعف فيه عاطفة الحب، وأن تكون المصلحة المادية حملته على نسيانه. ولكنها لم تشكّ أنّ هذا الحب كان قائماً من قبل.

وعندما فكرت إلينور فيما سبَّبه هذا اللقاء لمريان من الآلام، وما يحتمل أن يترتب عليه من آلام أشدّ وأنكى، لم يسعها إلا أن تشعر بأشدّ القلق. وعندما قارنت نفسها بمريان رأت أنها أحسن

منها حالاً لأنها طالما قدّرت إدوارد كما قدرته من قبل ظلّت قريرة العين مهما افترقا في المستقبل. ولكن جميع الظروف التي من شأنها أن تزيد من مرارة هذا الفراق الأليم تحالفت - فيما يبدو - لتزيد من شقاء مريان بالانفصال النهائي عن ولبي - انفصالاً عاجلاً لا رجعة فيه.

الفصل التاسع والعشرون

كانت تنحني - وهي في نصف ثيابها - على إحدى قواعد النافذة لتستضيء بالنور الضئيل الذي ينفذ منها وتكتب بالسرعة التي يسمح بها الدمع الهتون المنهمر من مقلتيها، وذلك قبل أن توقد الخادمة النار في الغد، وتسطع الشمس فتبدّد بأشعتها البرد والظلام في صباح يوم من أيام شهر يناير. وهبت إلينور من نومها على صوت بكائها واضطرابها، فرأتها على تلك الحال وقالت بعد أن نظرت إليها بضع دقائق في قلق وصمت بلهجة تفيض رقة وحناناً:

«مريان! هل لي أن أسأل؟».

فأجابت «كلا! إلينور، لا تسألي شيئاً، وستعرفين كل شيء بعد هنيهة».

ولم يدم الهدوء اليائس الذي قالت به هذه الكلمات أكثر من الفترة التي تكلمت فيها ثم عادت في الحال إلى ما كانت عليه من البكاء والأسى. ومضت بعض الدقائق قبل أن يتسنى لها الاستمرار في كتابة الخطاب، وكانت العبرات التي تعبّر عمّا يخالجها من الأسى - فتضطرها أحياناً إلى الإمساك عن الكتابة - دليلاً كافياً يؤيد ما شعرت به إلينور من أنها تكتب في الغالب إلى ولبي للمرة الأخيرة.

وأحاطتها إلينور بما وسعها من ضروب الرعاية والاهتمام في هدوء وبدون تطفل، ولولا أن مريان توسلت إليها بحدة وهي في أشد حالات الغضب ألا تكلمها بأي حال من الأحوال، لبذلت المزيد من الجهد لتهدئة أعصابها والتخفيف من آلامها. وبإزاء ذلك كان من الخير لكل منهما أن تبتعد عن الأخرى. وكانت حالة القلق التي تشعر بها مريان لا تسمح فحسب ببقائها لحظة واحدة في الحجرة بعد أن لبست ثيابها، بل كانت تتطلب أيضاً العزلة والتنقل المستمر معاً. لذلك أخذت تتجول حول المنزل حتى حان موعد الفطور، متحاشية أن ترى أي إنسان.

ولما حان موعد الفطور لم تأكل ولم تحاول أن تأكل شيئاً، وأخذت إلينور توجّه كل همها لا لحملها على الطعام ولا الرثاء لحالها، ولا التظاهر بحبها، ولكن لصرف أنظار السيدة جننجز إليها هي.

وقد استمر الفطور بعض الوقت لأنه كان الوجبة المحببة إلى السيدة جننجز. وبعد أن فرغن منه، جلسن حول مائدة الشغل، وإذا بالخادم يأتي بخطاب لمريان فأخذته بقوة، ثم أربد وجهها، وجرت من الحجرة في الحال. وفهمت إلينور من ذلك بوضوح كما لو كانت قرأت العنوان، أنه من ولبي، فشعرت باشمئزاز شديد لم تستطع معه أن ترفع رأسها، وسرت في أوصالها رجفة خشيت أن تكون السيدة جننجز قد لاحظتها، ولكن هذه السيدة لم تلحظ إلا أن مريان تسلمت خطاباً من ولبي ورأت فيه مجرد نكتة طيبة، فلم تأخذ الأمر مأخذ الجد إذ أعربت عن أملها، وهي تضحك، أن ترى فيه مريان ما يسرها، أما إلينور فقد اعتراها هَم وكرب. السيدة جننجز كانت منهمكة في قياس خيوط الصوف اللازم لسجادتها بحيث لم تلاحظ

شيئاً على الإطلاق، بل واصلت حديثها في هدوء فقالت بعد خروج مريان:

«صدقيني أنني لم أرَ في حياتي فتاة تهيم حباً كما تفعل مريان! إن بناتي لم يكنَّ شيئاً بالنسبة لها، وكنَّ مع ذلك في غاية الغباء. أما الآنسة مريان فهي تختلف عن ذلك تماماً. إنني أرجو من صميم فؤادي ألّا يضطرها إلى الانتظار طويلاً لأنه من المحزن أن يراها الإنسان، وقد بدت عليها أمارات اليأس والمرض. ليت شعري متى يتزوجان؟».

واضطرت إلينور إلى الإجابة عن هذا السؤال على الرغم من أنها كانت أشدّ ما تكون عزوفاً عن الكلام في ذلك الوقت. ولذلك تكلفت الابتسام فقالت: «هل تعتقدين أن أختي مخطوبة لولبي؟ لقد كنت أعتقد أن الأمر مجرد نكتة، ولكن يبدو لي أن سؤالاً كهذا يدل على أنه أكثر من نكتة. ولذلك أرجو أن تكوني على بيّنة من الأمر بعد اليوم. إنني أؤكد لك أنه لا شيء يدهشني أكثر من أن أسمع أنهما سيتزوجان».

«واخجلتاه، واخجلتاه آنسة داشوود! كيف تقولين ذلك! ألسنا جميعاً نعلم أنهما لا بدَّ أن يتزوجا وأنهما غارقان في الحب إلى آذانهما منذ أول لحظة التقيا فيها؟ ألم أرهما في ديفونشاير كل يوم وطول اليوم؟ ألَم أعلم أن أختك جاءت إلى لندن بقصد شراء ملابس الزفاف؟ دعي عنك ذا، فإنه لا ينطلي عليّ. ألأنك تجيدين أساليب المكر والخداع تظنين أنّ الناس ليست لهم عقول يفقهون بها؟ ولكن في وسعي أن أقول لك: إنّ الأمر ليس كما تقولين لأنّ الخبر قد شاع وذاع في جميع أنحاء لندن منذ بعيد، وأنا أحدث به كلّ إنسان، وكذلك تفعل شارلوت».

فقالت إلينور بلهجة الجد: «الحق يا سيدتي أنك مخطئة. والواقع أنك تعملين عملاً غير كريم حين تنشرين هذه الشائعة، وستعرفين أنك كنتِ مخطئة، وإن كنت لا تصدقينني الآن».

فضحكت السيدة جننجز ثانية، ولكن إلينور لم ترغب في المزيد من الحديث، وكانت تتوق على كلّ حال لأن تعرف ما كتبه ولبي فأسرعت إلى حجرتها، وما إن فتحت الباب حتى وجدت مريان مستلقية على الفراش تكاد تخنقها العبرات، وبإحدى يديها خطاب وبجانبها خطابان أو ثلاثة. فاقتربت منها إلينور، ولكن دون أن تتفوه بكلمة، جلست على الفراش وأخذت يدها فقبلتها بحنان عدة مرّات ثم أجهشت بالبكاء، وكان بكاؤها لا يقلّ في البداية عن بكاء مريان، وشعرت هذه - وإن لم تقوَ على الكلام - بما ينطوي عليه هذا المسلك من حبّ وحنان ثم ألقت - بعد أن ظلّتا تبكيان فترة من الوقت - بجميع الخطابات في يد إلينور، وغطّت وجهها بالمنديل وأجهشت بالبكاء. ورأت إلينور أن تترك أختها تنفّس عن نفسها بالبكاء، وإن أقلقها هذا المنظر، وجلست بجانبها تواسيها حتى يزول ما بها من لوعة الألم، ثم أقبلت باهتمام على خطاب ولبي فقرأت فيه ما يلي:

بوند ستريت، يناير.

سيدتي العزيزة.

تشرفت الآن بتلقي خطابك، وأرجو أن تسمحي لي أن أزجي لك خالص شكري. وإني لأشعر بقلق بالغ إذا كان قد بدر مني في الليلة الماضية ما ساءك، وإني وإن كنت في حيرة لأني لا أدري ما ساءك لسوء الحظ لأرجو أن تسحبي ذيل العفو على ما بدر مني،

وأؤكد لك أنني فعلته على غير قصد مني. ولن أذكر ما نشأ بيني وبين أسرتك من مودة في ديفونشاير دون أن أشعر بأعظم آيات السرور والارتياح، وأملي ألّا تنفصم عرى هذه المودة، لخطأ وقع مني، أو سوء فهم لمسلكي. إنني أقدّر سائر أفراد أسرتك تقديراً صادقاً، ولكن إذا كان سوء الحظ قد شاء أن يؤدي هذا التقدير إلى اعتقادكن شيئاً أكبر ممّا أشعر به أو ممّا أردت التعبير عنه، فإني أنحى على نفسي باللائمة لعدم تحفظي في الإعراب عن ذلك التقدير، وأنت تعلمين أنه من المستحيل أن أقصد بهذا التقدير أكثر ممّا يحتمله، إذ عرفتِ أن لي هوى مع امرأة أخرى منذ زمن طويل، وأعتقد أنه لن تمضي عدة أسابيع قبل أن تتمّ الخطبة. وإني لآسف أشد الأسف حين ألبي طلبك برد الخطابات التي تفضّلت بإرسالها إليّ، وخصلة الشعر التي تكرمت بها عليّ.

وإني ما زلت، يا سيدتي العزيزة،

خادمكم المطيع الخاضع

جون ولبي.

في وسع القارئ أن يتصور مدى السخط الذي تشعر به السيدة داشوود عندما تقرأ مثل هذا الخطاب. ومع أنها كانت تشعر قبل قراءته أنه لا بدَّ أن يتضمن اعترافاً بعدم وفائه، ويؤكد فراقه لأختها إلى الأبد، فإنها لم تشعر أن يعلن هذا الفراق بمثل هذه اللغة! ولا كانت تظن أن ولبي يستطيع أن يتجرّد من كل مظهر من مظاهر الشرف ورقة الشعور، أن يتجرد من الأدب الذي يتحلى به الإنسان المهذب، فيرسل خطاباً بمثل هذه القسوة والوقاحة، خطاباً لا يعترف فيه بأنه نكث العهد، بل ينكر أنه كان يحبها أية محبة خاصة

بدلاً من أن يقرن فيه رغبته في الفراق بعبارات الأسف، خطاباً كل سطر فيه يعد ضرباً من الإهانة، وينطق بأن صاحبه تردّى في هوة النذالة.

وقلبت النظر فيه بعض الوقت بشيء من السخط والدهشة، ثم قرأته مراراً وتكراراً، وكلما قرأته ازدادت مقتاً لكاتبه، وبلغ من سخطها عليه أنها لم تستطع الكلام خشية أن تجرح شعور مريان جرحاً أشد عمقاً إذا فسرت لها فسخ الخطبة لا على أنها خسارة حلّت بها، ولكن على أنها منجاة من أسوأ الشرور التي لا علاج لها، وهو الاقتران مدى الحياة برجل لا أخلاق له، منجاة لا ريب فيها ونعمة لا تعادلها نعمة.

ونسيت إلينور آلام أختها الراهنة في غمرة تأملاتها في الخطاب، وفي النفسية المنحطة التي أملت كلماته، وربما في النفسية المختلفة جداً لشخص مختلف جداً لا صلة له بالأمر إطلاقاً سوى صلته بكل ما حدث، وهي الصلة التي أحسّ بها قلبها، كما نسيت أن هناك ثلاثة خطابات في حجرها لم تقرأها بعد، بل لقد نسيت تماماً كم لبثت في الحجرة حتى لقد أسرعت إلى النافذة - عندما سمعت صوت عربة تقف بالباب - لترى مَن ذا الذي قدم في هذه الساعة المبكرة، ولشدّ ما دهشت عندما رأت عربة السيدة جننجز، التي كانت تعلم أنها لم تطلبها إلا في الساعة الواحدة. وقررت إلينور ألا تترك أختها، وإن لم يكن ثمة أمل في أن يساعد وجودها على التخفيف عنها في الوقت الحاضر، فأسرعت لتعتذر بتوعّك صحتها عن مرافقة السيدة جننجز، فقبلت السيدة جننجز العذر دون تردّد حرصاً منها على راحة مريان، وودّعتها إلينور، ثم عادت إلى أختها فوجدتها تحاول النهوض من الفراش، ومدّت

إلينور يدها في الوقت المناسب لتحول بينها وبين السقوط على الأرض، وكانت في حالة إعياء ودوار بسبب الحرمان الطويل من الطعام والراحة، إذ مضى عليها عدة أيام لم تجد فيها شهوة الطعام، وعدّة ليالٍ لم تذق فيها طعم المنام. وكانت نتيجة ذلك كله بعد أن تكشّفت عنها حمى الانتظار أن شعرت بصداع في رأسها، وضعف في معدتها، وإعياء عام في أعصابها. أخيراً، شعرت بالراحة، واستطاعت أن تعبّر عن بعض إحساسها بما أبدته أختها نحوها من برّ وعطف فقالت:

«وارحمتاه لك يا إلينور! كم أتعبتك!».

فأجابت أختها: «كل ما أتمناه أن أوفّق للقيام بعمل يرفّه عنك».

وكان هذا، كأيّ شيء آخر أكثر ممّا تحتمله مريان، فلم يسعها إلّا أن تصيح، وهي تشعر بلوعة الأسى:

«آه إلينور! إنني شقية حقاً» وذلك قبل أن يختنق صوتها بالعبرات.

ولم تستطع إلينور أن تشاهد في صمت هذا السيل المنهمر من العبرات.

فقالت: «تجلدي يا عزيزتي مريان إذا أردتِ ألا تقتلي نفسك، وكل مَن يحبك. فكري في أمك؛ فكري فيما تشعر به من الألم حينما تراك تتألمين. يجب أن تتجلدي من أجلها».

فصاحت مريان: «لا أستطيع، لا أستطيع. دعيني، دعيني إذا ما كنت أضايقك، دعيني، دعيني، وانسيني! ولكن لا تعذبيني كذلك. آه! ما أيسر الحديث عن التجلد على مَن خلا قلبه من

الأسى. إلينور، السعيدة، السعيدة، أنت لا تستطعين أن تتصوري كم أعاني من الألم».

«أتسمينني سعيدة يا مريان! آه! لو عرفت الحقيقة! - وهل تعتقدين أني أكون سعيدة، وأنا أراك في هذه الحال الأليمة!».

فطوقت جيد أختها بذراعيها وقالت: «سامحيني! سامحيني! أنا أعرف أنك تتألمين لحالي. أنا أعرف أي قلب تحملينه بين الجوانح. ومع ذلك فأنت - لا بدَّ أن تكوني سعيدة؛ إدوارد يحبك - عجباً! أي شيء يمكن أن يحطم هذه السعادة!».

فقالت إلينور في لهجة الجدّ: «كثير، كثير من الظروف».

فصاحت مريان بعنف «كلا كلا كلا! إنه يحبك ولا يحب إلّا إياك! ليس في وسعك أن تشعري بالأسى».

«لا يمكن أن أشعر بالسرور طالما أراك على هذه الحال».

«ولن تريني على غير هذه الحال. إن ما أكابده من الشقاء، ليس له دواء».

لا تقولي ذلك يا مريان. أليس لديك كثير من أسباب العزاء؟ أليس لك أصدقاء؟ هل مصابك يعز على السلوان؟ مهما قاسيت الآن ففكري فيما كنتِ تقاسينه لو اكتشفت حقيقة أخلاقه فيما بعد - لو أن خطبتك طالت شهوراً وشهوراً قبل أن يريد إنهاءها، وهو أمر كان يحتمل أن يحدث. لا شك أنّ كل يوم يمر وأنت تثقين فيه هذه الثقة التعسة كان يمكن أن يجعل الضربة أشد إيلاماً».

فصاحت مريان «خطبة! لم تكن ثمة خطبة».

«لا خطبة!».

«كلا! ليس هو نذلاً كما تعتقدين، فهو لم يخنّي قط».

«ولكنه قال لك: إنه يحبك؟».

«نعم - لا - لم يصرِّح بذلك قط. كان يقول ذلك كل يوم ضمناً لا صراحة. وكنت أظن أحياناً أنه صرَّح لي بحبه - ولكن ذلك لم يحدث قط».

«ولكنك كتبت إليه؟».

«نعم - وهل يمكن أن يعدّ ذلك إثماً بعد كل الذي جرى؟ - ولكن لا أستطيع أن أتكلم».

وسكتت إلينور عن الكلام، ثم انتقلت إلى الخطابات الثلاثة التي أثارت فيها حب الاستطلاع بصورة أشد وتصفّحتها جميعاً. وكان أولها الخطاب الذي أرسلته إليه عند وصولهما إلى لندن ونصه كما يلي:

بركلي ستريت، يناير.

لشد ما تدهش يا ولبي عندما تتسلم هذا الخطاب. أعتقد أنك ستدهش كثيراً إذا عرفت أنني في لندن، فقد سنحت لي فرصة الحضور إلى لندن، وإن كان ذلك بصحبة السيدة جننجز، ولكن هذه الفرصة كان فيها من الإغراء ما لا يقاوم. أرجو أن يصلك خطابي هذا في الوقت المناسب حتى يتسنى لك الحضور هنا في المساء. ولكن لن أعول على ذلك. على كل حال سأنتظرك غداً، ووداعاً إلى حين.

م.د.

وكان خطابها الثاني الذي كتبته غداة الحفلة الراقصة التي أقيمت في آل ميدلتون كما يلي:

«لا أستطيع أن أعبّر لك عمّا أشعر به من خيبة الأمل لأنه فاتني لقاؤك أول أمس، ولا عن دهشتي لأني لم أتلقَّ رداً على الخطاب الذي أرسلته إليك منذ أكثر من أسبوع. لقد كنت أنتظر منك رداً، بل أن أراك أيضاً في كلّ ساعة من ساعات النهار. أرجو أن تزورني في أقرب وقت ممكن وتُفسِّر لي السبب في اضطراري إلى كلّ هذا الانتظار الطويل دون جدوى. يحسن بك أن تحضر مبكراً مرة أخرى لأننا نخرج عادة من المنزل في الساعة الواحدة. وقد قضينا الليلة البارحة عند آل ميدلتون حيث شهدنا حفلة رقص، وبلغني أنك دعيت للحفلة. ولكن أيمكن أن يكون الأمر كذلك؟ لا بدَّ أنك تغيّرت عن عهدك منذ افترقنا إذ دعيت للحفلة ولم تشهدها. ولكن لن أفترض أن هذا ممكن. أرجو أن أتلقى منك قريباً ما يؤكد لي أن الأمر على خلاف ذلك.

م.د.

وكان مضمون خطابها التالي كما يلي:

ماذا أقول يا ولبي في تصرفك في الليلة الماضية؟ مرة أخرى أطالبك بتفسير لهذا التصرُّف. لقد تقدّمت للقائك وأنا أشعر بالفرحة التي يشعر بها الإنسان عادة بعد الفراق، وبالبشاشة التي يقتضيها ما نشأ بيننا من مودة في بارتون: لقد رفضت لقائي حقاً! وقضيتُ ليلة تعسة أحاول فيها جاهدة أن ألتمس لك العذر في تصرف، لا يمكن أن أسميه بأقل من أنه إهانة. ومع أنني لم أوفق حتى الآن في التماس عذر معقول عن هذا التصرف فإنني على أتم استعداد لأن أسمع منك تبريراً له. ربما سعى الواشون بيني وبينك، أو أبلغوك

عني أمراً أنزلني من عينك أخبرني ما هو، وبيِّن لي الأسباب التي حملتك على هذا التصرُّف، وسأشعر بارتياح حينما أستطيع أن أقنعك: إنه ليحزنني حقاً أن أضطر إلى إساءة الظن بك، ولكن إذا لم يكن من ذلك بد، إذا لم يكن بدّ من أن أعرف أنك غير ما كنت أعهد فيك حتى الآن، وأن محبتك لي كانت ضرباً من النفاق، وأن مسلكك نحوي كان ضرباً من الخداع، فدعني أعرف ذلك بأسرع ما يمكن. إني لفي شك مريب. وإني أود أن أبرئك، ولكن قطع الشك باليقين سواء أكان الأمر هذا أم ذاك، هو السبيل الوحيدة لتخفيف ما أعانيه، وإذا كنت قد تغيّرت عن عهدك فأرجو أن تردّ لي خطاباتي، وخصلة الشعر التي أخذتها مني.

م. د.

لم تكن إلينور تميل إلى الاعتقاد أنه كان في وسع ولبي أن يرد على هذه الخطابات بمثل ما تتضمنه من المحبة والثقة. ولكن سخطها على ولبي لم يمنعها من لوم مريان على إرسال هذه الخطابات. وبينما كانت تشعر بالأسى - في صمت - للحماقة التي دفعت أختها لكتابة هذه الخطابات التي تعرب فيها عن حبها دون داعٍ، أو مبرر سابق، والتي برهنت الحوادث على أنها كانت أمراً منكَراً، إذا بمريان تقول لها: إنها لا تتضمن أكثر ممّا يقوله أي إنسان في مثل موقفها.

وأضافت: «لقد كنت أشعر أنني مرتبطة به كما لو كنا مرتبطين بأغلظ المواثيق الشرعية».

فقالت إلينور: «إنني أصدقك. ولكن لسوء الحظ لم يشعر هو بمثل شعورك».

«كان يشعر بمثل ذلك يا إلينور - كأن يشعر به أسابيع وأسابيع. أنا أعرف ذلك. ومهما تكن الأسباب التي حملته الآن على التغيّر (ولا شيء يمكن أن يفعل ذلك سوى الفن الأسود الذي استخدم ضدي) فقد كان يحبني فيما مضى كل ما يتمناه فؤادي من الحب. وهذه الخصلة من الشعر التي يتخلى عنها الآن بسهولة التمسها هو مني بكلّ إلحاح. لو أنك شاهدت منظره وحاله، لو أنكِ سمعت صوته في تلك اللحظة! هل نسيت آخر ليلة اجتمعنا فيها ببارتون؟ وصباح اليوم الذي افترقنا فيه أيضاً؟ وحينما قال لي: إنه قد تمضي عدة أسابيع قبل أن نلتقي مرة أخرى - حزنه - هل في وسعي أن أنسى قط ما اعتراه من الحزن!».

وسكتت عن الكلام لحظة أو لحظتين ثم أضافت بلهجة أكثر حزناً بعد أن هدأت هذه العاطفة:

«إلينور! لقد عوملتُ معاملة سيئة، ولكن ليس من ولبي».

«عزيزتي مريان! مَن أساء إليك غيره؟ ومَن حرضه على ذلك؟».

«كل الناس هم الذين حرضوه لا قلبه. إنني أميل إلى الاعتقاد أن جميع معارفي تواطَأنَ على الوشاية بي عنده، مُنِيَ إلى الاعتقاد بأنه طبع على هذه القسوة هذه المرأة التي أشار إليها في خطابه - أياً ما كانت - أو بالاختصار أي شخص ما عداك وما عدا ماما وإدوارد، يحتمل أن تبلغ بها أو به القسوة إلى حد الوشاية بي عنده. وفيما عدا ثلاثتكم هل من أحد في العالم لا أسيئ به الظن إلا ولبي الذي أعرف قلبه حق المعرفة؟».

ولم تخالفها إلينور، واكتفت بأن أجابت: «مهما يكن عدوك الممقوت، فإنه يجب عليك - يا أختي العزيزة - أن تفوّتي عليه

فرصة الشماتة، بأن تُظهري الثقة ببراءتك وحسن سيرتك، ولا شك أنّ التظاهر بشيء من الكبرياء المحمود ممّا يكبت الحقود».

فصاحت مريان: «كلا كلا! إن ما بي من الشقاء يمنعني من التظاهر بالكبرياء وأنا لا أبالي بمن يعرف تعاستي، وليشمَت بي مَن يشاء. إلينور إلينور! إن الذين يكابدون القليل من الهموم هم الذين يستطيعون أن يتظاهروا بالكبرياء والاعتداد بالنفس كما يشاءون - هم الذين يستطيعون أن يقاوموا الإهانة ويردوا المهانة - ولكن لا أستطيع. يجب أن أشعر بآلامي - يجب أن أكون تعسة - ولهم أن يفرحوا ما استطاعوا».

«ولكن مس أجل أمي وأجلي».

إنني أضحي من أجلكما بأكثر ممّا أضحي من أجل نفسي. ولكن أن أتظاهر بالسعادة وأنا شقية - آه! مَن الذي يستطيع أن يطالبني بذلك؟».

ثم لاذتا بالصمت مرة أخرى. وأخذت إلينور تمشي وهي مستغرقة في أفكارها من المدفأة إلى النافذة، ومن النافذة إلى المدفأة، دون أن تحسّ بالدفء من الأولى، أو تشاهد بعض المناظر من الأخرى. وجلست مريان أسفل الفراش متكئة برأسها على أحد أعمدته ثم تناولت خطاب ولبي مرة أخرى، وصارت تقول بعد أن تُبدي اشمئزازها لكل جملة:

«هذا كثير جداً! آه ولبي، ولبي. أيمكن أن يكون هذا خطابك! قاسٍ قاسٍ - ما إلى براءتك من سبيل. إلينور، ما إلى براءته من سبيل - وإذا كان أحد أبلغه نبأ عني، أما كان الأجدر به أن يتثبت منه قبل أن يصدّقه؟ أما كان الأجدر به أن يرجع إليّ، وأن يتيح لي

الفرصة لأبرئ نفسي؟ «وخصلة الشعر» (تكرّرها من الخطاب) «التي تكرّمت بها عليّ» - هذا ذنب لا يغتفر. ولبي! أين كان قلبك حين كتبت هذه الكلمات؟ آه! ما أقساها وما أوقحها! إلينور! أيمكن التماس العذر له؟».

«كلا! مريان، لا يمكن إطلاقاً».

ومع ذلك فهذه المرأة - ومن يدري ما صناعتها - كم لبثت تدبر هذه المكيدة وكيف دبرتها بإتقان! مَن هي - ومن عساها تكون؟ - التي سمعته يصفها بالشباب والجاذبية بين معارفه من النساء؟ آه لا أحد، لا أحد - لم يكن يحدّثني إلا عن نفسي».

وأعقب ذلك الصمت، ثم اعترى مريان اضطراب شديد، وأنهت حديثها قائلة:

«إلينور! لا بدَّ أن أعود إلى بيتي. لا بدَّ أن أذهب وأسرّي عن ماما. ألا يمكن أن نسافر غداً؟».

«غداً، يا مريان!».

«نعم، لماذا أبقى هنا؟ لقد جئت هنا من أجل ولبي وحده - والآن مَن يهتم بي؟ من يحبني؟».

«من المستحيل أن نسافر غداً. إننا ندين للسيدة جننجز بأكثر ممّا تقضي به المجاملة. وأدنى ضروب المجاملة ألّا نتعجل السفر على هذا النحو».

«إذن فليكن بعد يوم أو يومين، ولكن لا أستطيع أن أمكث هنا طويلاً، لا أستطيع أن أمكث هنا لأتلقى أسئلة هؤلاء الناس جميعاً وملاحظاتهم: آل ميدلتون وآل بالمر - كيف أطيق رثاءهم لحالي: رثاء امرأة مثل ليدي ميدلتون آه! ماذا يقول هو في ذلك!».

ونصحت لها إلينور أن ترقد مرة أخرى، فرقدت لحظة ولكنها

لم تشعر بالراحة على أية هيئة رقدت، فصارت تتقلب ممّا اعتراها من الآلام الجسمية والنفسية، وازدادت حالتها العصبية اضطراباً حتى لقيت إلينور عناءً كبيراً في حملها على الرقاد، وخشيت أن يضطرها الأمر إلى طلب المساعدة، ولكنها استطاعت أن تعطيها بعض قطرات من ماء اللاوندا فهدأت أعصابها، وظلّت ترقد في الفراش منذ ذلك الوقت هادئة ساكنة إلى أن عادت السيدة جننجز.

مكتبة 707
سُر مَن قرأ

الفصل الثلاثون

توجهت السيدة جننجز إلى حجرتها بمجرد عودتها وفتحت الباب دون أن تنتظر الإذن بالدخول، ودخلت وقد ارتسمت على وجهها أمارات القلق البالغ.

وقالت في صوت مليء بالرحمة والحنان لمريان التي أشاحت بوجهها دون أن تحاول الإجابة:

«كيف حالك يا عزيزتي؟».

«كيف حالها آنسة داشوود؟ وارحمتاه لها! إنها تبدو في حالة سيئة - ولا عجب، فالخبر صحيح، سيتزوج قريباً جداً - إنه رجل تافه لا يصلح لشيء. أنا لا أطيق أن أراه. لقد أخبرتني بذلك السيدة تيلور منذ نصف ساعة، وبلغها الخبر من إحدى صديقات الآنسة غراي نفسها، وإلا لما صدقته، وكدت أهوى إلى الأرض عندما سمعته، وقلت: قصارى ما أقوله إذا صح هذا الخبر أنه أساء إلى فتاة من معارفي إساءة ممقوتة، وأتمنى من كل جوارحي أن تعكّر عليه زوجته صفو حياته وثقي أنني سأقول ذلك دائماً. لم أرَ في حياتي رجالاً يتصرفون كذلك وإذا أتيح لي أن أقابله يوماً فسأوجّه إليه اللوم ما لم يسمعه منذ كثير من الأيام. ولكن لكِ في هذا عزاء يا عزيزتي مريان، وهو أنه ليس الشاب الوحيد في الحياة الجدير بك، وأنت

بما أوتيت من الجمال لن تعدمي كثيراً من المعجبين. وارحمتاه لها! لا أريد أن أزعجها أكثر من ذلك لأنه يحسن بها أن تسكب دموعها مرة واحدة، ثم تنتهي. ولحسن الحظ سيزورنا الليلة آل باري وآل ساندرسون كما تعلمين وسيكون في وجودهما ما يرفِّه عنها.

ثم انصرفت وخرجت من الحجرة على أطراف أصابعها، وكأنها تخشى أن يزيد وقع أقدامها من آلام صديقتها الصغيرة.

ولشدّ ما دهشت إلينور عندما قررت مريان أن تتناول معهما طعام الغداء، ونصحتها إلينور نفسها ألّا تكلف نفسها هذا العناء ولكنها أبت، وأصرَّت على النزول من حجرتها، وقالت: إنها تتجلد، فيقلّ اللغط حول ذلك الأمر. ولم تقل إلينور شيئاً لأنه سرّها أن تتجلد مؤقتاً لهذا السبب، وإن لم تعتقد أنه في وسعها أن تستمر في الغداء حتى النهاية. وساعدتها إلينور في ارتداء ملابسها وهي راقدة في فراشها ثم رافقتها في الذهاب إلى حجرة الطعام حينما دُعِيَتَا إليها.

ولما جلست إلى المائدة تناولت من الطعام وأظهرت من الهدوء أكثر ممّا توقعته أختها، وإن بدت على وجهها أماراتُ الأسى. ولو أنها حاولت أن تتكلم أو شعرت بنصف ما أبدته السيدة جننجز نحوها من ضروب الرعاية الصادرة بحسن نيّة وإن اقترنت بالحماقة، لما استطاعت أن تحتفظ بهذا الهدوء، ولكنها كانت شاردة الذهن، فما نبست ببنت شفة ولا أحسَّت بما يجري حولها.

وقدرت إلينور ما أبدته السيدة جننجز من عطف وبر نحو أختها، وإن كانت مظاهره تثير الألم في أغلب الأحيان، كما تثير الضحك في بعض الأحيان وكانت إلينور تقدم لها الشكر، وترد لها المجاملات التي لا تستطيع أختها أن تردها بنفسها، فقد رأت صديقتهما الطيبة أن مريان حزينة، وشعرت أنه يجب عمل كل ما من

شأنه أن يخفف من حزنها، فأبدت لها من مظاهر الحب والتدليل ما تبديه الأم نحو طفلتها المحبوبة في آخر يوم من إجازتها، فخصتها بأحبّ مكان جانب المدفأة، وأتحفتها بأطيب الأطعمة في المنزل، وحكت لها جميع أخبار اليوم لتُدخل عليها السرور. ولو أن إلينور لم تأنس في وجه أختها عزوفاً عن اللهو والتسلية، لما وسعها إلّا أن تضحك من المحاولات التي بذلتها السيدة جننجز لتُنْسِيَ أختَها مرارة الخيبة في الحب، وذلك بتقديم أنواع الحلوى والزيتون وتوفير التدفئة الطيبة. على أن مريان لم تطق البقاء طويلاً بعدما رأت من تكرار هذه المحاولات، فنهضت في الحال، وأسرعت بالخروج من الحجرة، وهي تتأفف وتشير إلى أختها ألّا تتبعها.

فصاحت السيدة جننجز بمجرد أن خرجت: «مسكينة! ما أشدّ ما أشعر به من الأسى عندما أراها! لو لم تخرج دون أن تشرب الكأس! والكرز المجفف أيضاً! رباه! يبدو أنها لا تحب شيئاً. لو أني أعرف شيئاً تحبه، لبحثت عنه في جميع أنحاء لندن. حقاً إن أغرب شيء رأيته أن يسيئ إنسان إلى هذه الفتاة الجميلة مثل هذه الإساءة! ولكن إذا وجدت فتاة تملك ثروة طائلة، وفتاة لا تكاد تملك شيئاً فإن الرجال - رحماك اللهم! - لا يبالون بمثل هذه الأعمال!».

«السيدة إذن - أظن أنك قلت إن اسمها السيدة غراي - ذات ثروة طائلة؟».

«خمسون ألفاً من الجنيهات يا عزيزتي. هل رأيتها قط؟ يقولون: إنها فتاة رشيقة أنيقة، ولكنها ليست وسيمة. أنا أذكر جيداً عمتها بِيدِي هِنْشُو، فقد تزوجت رجلاً ذا ثروة طائلة، ولكن أفراد الأسرة جميعاً من الأثرياء. خمسون ألفاً من الجنيهات! ويُجمع الكلّ على أنّ الدافع لهذا الزواج هو الحاجة لأنهم يقولون: إنه قد

أفلس. ولا عجب! فإنه يغدو ويروح بعربته وصياديه! على أنه لا معنى للحديث في ذلك. بيدَ أنه حينما يأتي فتىً، كائناً مَن كان، ويغازل فتاة جميلة ويُمنِّيها بالزواج فلبس من حقه أن يتنصَّل من وَعده، لا لسبب إلا أنه أضحى فقيراً، ووجد فتاةً أغنى منها تبدي استعدادها للزواج منه. لماذا لا يبيع في هذه الحالة جياده، ويؤجّر بيته، ويستغني عن خدمه، ويصلح من شأنه على الفور؟ أؤكد لك أن الآنسة مريان كانت تبدي استعدادها للانتظار حتى تصلح أحواله. ولكن ذلك لا يجدي في هذه الأيام لأنّ شباب العصر لا يمكن أن يتخلى عن أي شيء يجلب له السرور واللذة.

«أتعرفين شيئاً عن أخلاق الآنسة غراي؟ أهي فتاة لطيفة؟».

«لم أسمع عنها أي سوء. والواقع أنني لم أسمع أحداً يذكرها فيما عدا السيدة تيلور التي قالت هذا الصباح: إن الآنسة ووكر أشارت ذات يوم فقالت: إنها تعتقد أنّ السيد والسيدة إليسون لن يأسفا على زواجه من غراي، لأنها هي والسيدة إليسون لا يتفقان أبداً».

«ومَن هما السيد والسيدة إليسون؟».

«هما وليا أمرها يا عزيزتي. ولكنها بلغت الآن سن الرشد، ومن حقها أن تختار زوجها ونِعْم ما اختارته! - ثم سكتت هنيهة، وقالت: «أخشى أن تكون أختك قد ذهبت إلى حجرتها لتبكي على حالها. هل من سبيل إلى مواساتها؟ وارحمتاه لها! إنه لمن القسوة أن نتركها وحدها. ولكن بعض الأصدقاء سيزورننا بعد قليل، وسيكون في ذلك بعض التسلية لها. ماذا سنلعب؟ أنا أعرف أنها تكره لعبة الويست. ولكن هل هناك لعبة تحبّها من الألعاب التي يشترك فيها عدد كبير من اللاعبين؟».

«سيدتي العزيزة: لا داعي إطلاقاً لإظهار هذه الشفقة فإني أعتقد أنّ مريان لن تبرح حجرتها هذا المساء، وسأحملها إذا استطعت على التبكير بالنوم، لأني أعتقد أنها بحاجة إلى الراحة».

«نعم، أعتقد أن ذلك خير لها. فلتطلب ما تشاء من العشاء ثم تتوجّه إلى الفراش. رباه! لا عجب أن تظهر عليها أمارات الحزن والكآبة خلال هذا الأسبوع أو الأسبوعين الماضيين، فقد ظلّ هذا الموضوع يشغل بالها فيما أظن طول هذه المدة ثم جاء الخطاب الذي وصل اليوم فحسم الأمر! وارحمتاه لها! إنني أؤكد أنه لو كانت لدي فكرة عن هذا الموضوع لما اتخذت منه مادة للمزاح بأيّ حال من الأحوال. ولكن أنّى لي - كما تعلمين - أن أحزر هذا الأمر؟ لقد اعتقدت أنه ليس سوى خطاب غرامي عادي، وأنتِ تعرفين أن الشبان يحبون أن يتندّر الناس عليهم. رباه! ما أشدّ ما سيعتري سير جون وبناتي من الهم، عندما يعلمن بهذا الأمر! ولو كنت تفطَّنتُ للأمر لزرتهن في كندوي ستريت في طريقي إلى المنزل وأخبرتهن الخبر، ولكني سأراهن غداً».

رباه! نعم، أعرف ذلك حقاً. لا شك أن ذكر هذا الأمر أمامك يفزعك أما أختك فأؤكد لك أني لن أذكر لها أية كلمة عنه. وقد رأيت أني أمسكت عن الكلام طول وقت الغداء. ولن يتعرض سير جون ولا بناتي لهذا الحديث لأنهن يحرصن على مراعاة شعور أختك ولا سيما إذا نبهتهن إلى الأمر وسأفعل ذلك يقيناً، وأنا شخصياً أعتقد أنه كلما قلّ الكلام في مثل هذه الأمور كان خيراً وأدعى إلى زوال أثرها ونسيانها. وهل تعلمين أن الكلام في مثل ذلك يعود بالخير؟».

«في مثل هذا الأمر لا يمكن أن يعود الكلام إلا بالضرر، وربما

كان الضرر أشد منه في كثير من الأمور المماثلة، لأنه اكتنفته ملابسات تجعل من غير المناسب أن تلوكه الألسنة حرصاً على مصلحة كلّ مَن يعنيهم هذا الأمر. ويقتضيني الإنصاف أن أقول: إن السيد ولبي لم يفسخ خطبة قطعية مع أختي».

«القانون يا عزيزتي! لا تتظاهري بالدفاع عنه. لا خطبة قطعية في الواقع! بعد أن طاف بها في أرجاء قصر ألنهام هاوس وحدّدا الحجرات التي سيقيمان بها في المستقبل!».

ولم تشأ إلينور أن تتمادى في الحديث أكثر من ذلك حرصاً على كرامة أختها، وكانت ترجو ألّا تدعوها الحاجة إلى ذلك حرصاً على سمعة ولبي، لأنه على الرغم من أنّ مريان قد تخسر الشيء الكثير، فإن ولبي لن يكسب إلّا القليل من وراء الكشف عن حقائق الأمور.

وبعد أن لزم الجانبان الصمت قليلاً عادت السيدة جننجز فانطلقت تقول بخفتها المعهودة:

«حسناً يا عزيزتي! ما أصدق المثل القائل رُبّ ضارة نافعة، لأن هذا الحادث سيكون في صالح كولونيل براندون. إنه سيظفر بها في النهاية. نعم سيظفر بها. اسمعي لي. سيتزوجان في منتصف الصيف. سيكون حقاً خيراً لأختك من ولبي. ألفان من الجنيهات بدون ديون ولا ضرائب ما عدا الطفلة غير الشرعية؛ نعم لقد أُنسيتها، ولكن يمكن تمهينها خارج المنزل بمبلغ يسير، ولكن ماذا يهم هذا؟ أؤكد لك أن ديلافورد قصر جميل، قصر قديم جميل مزود بوسائل الراحة، تحيط به أسوار حديقة كبرى مغطاة بأجمل أشجار الفاكهة في البلاد، وما أجمل شجرة التوت الموجودة في أحد الأركان. رباه كم كنتُ أنا وشارلوت نأكل بشراهة أيام إقامتنا هناك!

ثم فيه برج حمام، وبرك رائعة لتربية الأسماك، وقناة جميلة المنظر. وجملة القول أنه يشتمل على كلّ ما يتمناه المرء. وهو إلى ذلك قريب من الكنيسة، ولا يبعد عن الطريق الممكَّس إلا بربع ميل، ولذلك فهو لا يبعث على السآمة والملل، لأنك إذا ذهبت وجلست في ظلّ شجرة السدر الجبلي العتيقة خلف المنزل أمكنك أن تشاهدي جميع العربات التي تمرّ في الطريق. يا له من قصر جميل! جزار بالقرب منه في القرية، وبيت الراعي على مرمى حجر منه. وعندي أنه أجمل ألف مرة من بارتون بارك الذي يضطر أهله إلى إرسال الخدم ثلاثة أميال لإحضار اللحم، وليس لهم جار أقرب إليهم من والدتك. نعم إنني سأشجع الكولونيل على إتمام هذا الزواج في أسرع وقت مستطاع. إن مسماراً كما تعلمين يدفع مسماراً إلى أسفل. لو استطعنا أن ننزع ولبي من رأسها!».

قالت إلينور: «وإذا لم نستطِع يا سيدتي أن نفعل إلّا ذلك كان خيراً لها سواء تزوجت كولونيل براندون أو لم تتزوّجه» ثم نهضت وتوجّهت إلى مريان فوجدتها - كما كانت تتوقع - جالسة في حجرتها مكبَّة في صمت وألم على بقايا قليلة من نار كانت هي الضوء الوحيد في الحجرة إلى أن دخلت إلينور.

وكانت الكلمة الوحيدة التي بدرت منها لأختها «يحسن بك أن تدعيني».

فقالت إلينور «سأدعك إذا أويت إلى الفراش». ولكنها أبت أولاً بسبب العناد الوقتي الناشئ عن الألم المقرون بالقلق، ولكن أختها ألحّت عليها فأقنعتها - ولكن في رفق - فأصاخت لنصحها، ورأتها إلينور وهي ترقد برأسها الموجعة على الوسادة، واطمأنت قبل أن تنصرف إلى أنها في سبيلها إلى أن تنعم ببعض الراحة».

ثم توجّهت إلى حجرة الاستقبال، وسرعان ما لحقت بها السيدة جننجز وبيدها كأس نبيذ مملوء بشراب ما.

وقالت وهي تدخل الحجرة: «عزيزتي! لقد تذكّرت أن لديّ بعض نبيذ كونستانتيا، وهو من أطيب الأنبذة المعتقة مذاقاً، فجئت منه بكأس لأختك. وارحمتاه لزوجي! ما كان أشدّ غرامه بهذا النبيذ! وكان يقول كلما عاوده مَسٌّ من عرق النسا المزمن: إنه ينفعه ما لا ينفعه أي دواء في العالم. أرجو أن تعطيه أختك».

فأجابت إلينور، وهي تضحك، لاختلاف علة أختها عن العلة التي وُصِف النبيذ لها: «ما أطيب قلبك يا سيدتي العزيزة! لقد تركت مريان الآن في الفراش، وتوشك أن تكون قد نامت. وأعتقد أنه لا ينفعها كالراحة، وسأشرب أنا النبيذ إذا سمحت لي بذلك».

ورضيت السيدة جننجز بهذا الحلّ الوسط، وإن أبدت أسفها لتأخرها عن إحضار الكأس خمس دقائق. وشربت إلينور معظمه، ولم يكن يهمها في ذلك الوقت أن تجرب آثاره الطيبة في شفاء عرق النسا، ولكنها رأت أنه لا بأس من أن تجرب هي تأثيره في شفاء القلب المجروح كما تجربه أختها».

وحضر كولونيل براندون وهما يَتَرشّفان الشاي، وأدركت إلينور من نظرته التي تفحّص بها الحجرة بحثاً عن مريان أنه لم يكن يتوقع أن يتمنى أن يراها هناك، وباختصار أنه كان يعرف سبب غيابها. أما السيدة جننجز فلم تخطر ببالها هذه الفكرة، لأنها عبرت الحجرة عقب دخوله إلى مائدة الشاي التي جلست إلينور على رأسها، وهمست «الكولونيل يبدو ساهم الوجه كعادته دائماً. إنه لا يعرف عن الأمر شيئاً. أرجو أن تخبريه يا عزيزتي بما حدث».

ولم يلبث أن سحب كرسياً، وجلس بجوارهما، وسألها عن أختها بنظرة تنبئ عن اطّلاعه على حقيقة الأمر.

فأجابت: «مريان ليست على ما يرام، فقد ظلّت متوعكة المزاج طوال اليوم وحملناها على التوجه إلى الفراش».

فقال بتردد: «لعل إذن ما سمعته هذا الصباح قد يحمل من الحقيقة أكثر ممّا اعتقدت بادئ الأمر».

«ماذا سمعت؟».

«أن رجلاً - لدي من الأسباب ما يحمل على الظن - بالاختصار - أن رجلاً أعرف أنا أنه خطب فتاة - ولكن كيف أخبركِ - إذا كنت تعرفين الأمر من قبل - ومن المؤكد أنك تعرفينه - فأرجو إعفائي من الحديث».

فتصنّعت إلينور الهدوء وأجابت: «تعني زواج السيد ولبي بالآنسة غراي. نعم، نحن نعرف ذلك كله. ويبدو أنّ الأمور كلها تكشَّفت في هذا اليوم. فقد برح الخفاء صباح هذا اليوم نفسه. والسيد ولبي رجل لا يُسبر غوره. أين سمعتَ الخبر؟».

«في محل أحد الورَّاقين في بول مول حيث ذهبتُ إليه لبعض شأني، فرأيت سيدتين تنتظران عربتهما، إحداهما تقصّ على الأخرى أنباء الزواج المرتقب بصوت غير خافت، بحيث لم يتعذر عليَّ سماع الحديث كله. وتردد على سمعي اسم ولبي - جون ولبي - أكثر من مرة. فأثار ذلك انتباهي أولاً ثم تأكد لي بصفة قاطعة، ممّا سمعته بعد ذلك، أنه قد تمّ الاتفاق بصفة نهائية على الإجراءات الخاصة بزواجه بالآنسة غراي - لم يعد الأمر سراً - بل إن الزواج سيتم في غضون بضعة أسابيع، مع ذكر الكثير عن تفاصيل

الاستعدادات التي اتخذت للزواج؛ وغيرها من الأمور. وأذكر أمراً واحداً بصفة خاصة لأنه أكد لي شخصية الرجل بصفة أكثر وضوحاً، وهو أنه متى تمت مراسم الزواج فسيتوجه الزوجان إلى كومب ماجنا - مقره في سومرستشاير. لشد ما دهشت! ولكن يستحيل عليّ أن أصف لك شعوري. وعلمت بعد البحث - لأني مكثت في المحل حتى انصرافهما - أن السيدة التي أفضت بهذا النبأ هي السيدة إليسون، وهي كما علمت ولية أمر الآنسة غراي».

«هذا صحيح. ولكن هل سمعت كذلك أن الآنسة غراي تملك خمسين ألف جنيه؟ ففي ذلك يمكن أن نجد - إن أمكن أن نجد - تفسيراً لهذا الحادث».

«ربما كان الأمر كذلك. ولكن ولبي يستطيع - أعتقد ذلك على الأقل - وسكت هنيهة ثم أضاف بصوت ينمّ عن الشك والارتياب «وأختك - كيف -».

«لقد تألمت أشد الألم، وأرجو ألّا يطول هذا الألم. لقد كانت محنة، إنها محنة قاسية إلى أقصى حدّ. وأعتقد أنها ظلّت حتى أمس لا تشك في حبه لها قط، وربما لا تشك في ذلك حتى الآن. ولكني أنا أكاد أعتقد أنه لم يخلص لها الحب قط. لقد كان رجلاً مخادعاً! ويبدو لي أن مسلكه في بعض النواحي ينمّ عن قسوة القلب».

فقال الكولونيل براندون: «آه! لقد أصبت كبد الصواب! ولكن أختك - وأظنك قلت ذلك - لا ترى رأيك تماماً».

«أنت تعرف طبعها. وفي وسعك أن تعتقد أنها لا تزال تبرر مسلكه بشدة ما استطاعت».

فلم يحِر جواباً، وسرعان ما أعرضا بالضرورة عن الحديث في

الموضوع بعد رفع مائدة الشاي، والاستعداد للعب الورق. وكانت السيدة جننجز تراقبهما بسرور وهما يتحدثان، وتتوقع أن يكون لما تفضي به الآنسة داشوود أثره السريع في إدخال السرور على كولونيل براندون على نحوٍ يليق برجل يشعر بعنفوان الشباب والأمل والسعادة، ولكنها دهشت عندما رأته ساهم الوجه شارد الفكر طول ذلك المساء أكثر من عادته.

الفصل الحادي والثلاثون

استيقظت مريان صباح غد بعد ليلة نَعِمَت فيها بالكرى أكثر ممّا كان متوقعاً، لتتجرع غصص الآلام التي أغمضت عليها عينيها في الليلة البارحة.

وشجعتها إلينور بقدر ما استطاعت على التحدّث عمّا تشعر به، فأخذتا تقلّبان النظر في الموضوع مرة بعد أخرى قبل تناول الفطور، وكانت إلينور تتحدث بما هو معهود عنها من ثبات الرأي والإخلاص في النصح، ومريان بما هو معروف عنها من الاندفاع والتهور وتقلّب الرأي؛ طوراً ترى أن ولبي سيئ الحظ بريء مثلها، وطوراً ترى أنه لا يمكن أن يكون بريئاً، فتفقد كل أسباب العزاء والسلوان. وتارة لا يهمها الاختلاط بالناس جميعاً، وتارة تجنح إلى اعتزالهم إلى الأبد، وتارة أخرى تقاوم هذه العزلة بكلّ قوة، على أنها كانت تثبت على أمرٍ واحد، عندما يتطرق الأمر إلى جوهر الموضوع، ألا وهو تحاشي حضور السيدة جننجز، والتزام الصمت المطبق عندما تضطر إلى احتمال حضورها، فكان قلبها ينفر من أيّ مظهر من مظاهر الشفقة تُبديه هذه السيدة لمواساتها في أحزانها.

صاحت مريان: «كلا، كلا! لا يمكن أن يكون ذلك. إنها

عديمة الشعور. إنّ شفقتها ليست مشاركة وجدان، ودماثتها ليست ضرباً من الحنان. كل ما تريده هو الثرثرة، وهي لا تحبني الآن إلا لأني أتيح لها فرصة الثرثرة».

لم تكن إلينور بحاجة إلى ذلك لتتأكد من الإجحاف الذي تنساق إليه أختها في رأيها عن الغير بسبب نزقها وانفعالاتها ومغالاتها في أهمية رقّة العواطف، ومزايا الخلق المهذب. ولم تكن مريان مع مواهبها الفائقة وأخلاقها الفاضلة تتصف بالاعتدال أو السراحة، شأنها في ذلك شأن نصف بقية العالم إذا كان أكثر من نصفه من الأذكياء والفضلاء. وكانت تتوقع من الناس أن يعتنقوا آراءها، ويشعروا بمشاعرها، وتحكم على البواعث التي تدفعهم إلى أعمالهم بما لأفعالهم من أثر مباشر في نفسها. ولذلك وقع حادث بينما كانت تجلس هي وأختها في حجرتهما بعد تناول الفطور زادها إيماناً بقسوة قلب السيدة جننجز، لأنه اتفق أن أصبح هذا الحادث - بسبب ضعفها هي - سبباً جديداً في مضاعفة آلامها، وأن الدافع إليه من جانب السيدة جننجز هو حسن النيّة إلى أقصى حد.

دخلت عليهما السيدة جننجز تمدّ يدها بخطاب تحمله، ووجهها يعلوه الابتسام معتقدة أن هذا الخطاب سيجلب لها أسباب العزاء والسلوان فقالت:

«اسمعي يا عزيزتي! لقد أتيت لك بشيء أعتقد أنه يسرّك.

فأرعتها مريان سمعها وصوّر لها الوهم لحظة أنّ الخطاب من ولبي، وأنه يفيض رقة وندماً، ويفسّر لها ما حدث بعبارات مُرضية مقنعة، وأن ولبي سيحضر في أعقاب هذا الخطاب من فوره، ويندفع إلى الحجرة جاثياً أمام قدميها، مؤكداً لها ببلاغة عينيه، ما يحمله الخطاب من تأكيدات. ولكن الصرح الذي بناه الوهم في لحظة هدم

في لحظة أخرى، إذ تبيّن أن الخطاب بخطّ أمها، ولم يثر هذا الخط قط من الامتعاض أكثر ممّا أثار في ذلك الوقت، وكان ما شعرت به من الألم حتى هذه اللحظة لا يعد شيئاً مذكوراً بجانب مرارة الخيبة التي أعقبت ما شعرت به من نشوة تفُوق لذة الأمل.

وما كان لأي لغة تسعف مريان في أسعد لحظات بلاغتها أن تعبّر عن قسوة السيدة جننجز، وكل ما استطاعت الآن أن تفعله هو أن توبخها بالدموع التي انهمرت من مقلتيها بغزارة، على أنّ هذا التوبيخ لم يؤثر في نفس السيدة جننجز إطلاقاً، فانسحبت بعد أن عبّرت عن إشفاقها بكلمات كثيرة، وهي لا تزال تشير إلى الخطاب على أنه سبب من أسباب العزاء والسلوان. ولكنه لم يجلب لها كثيراً من العزاء بعد أن هدأت ثورتها وقرأته. وكان ولبي يملأ كل صفحة من صفحاته، إذ كانت أمها لا تزال تعتقد أن خطبتهما قائمة، ولا تزال تعول كعهدها على وفائه. وكل ما في الأمر أنها استجابت لرجاء إلينور، فطلبت إلى مريان مزيداً من الصراحة معهما معاً، وكان الخطاب يفيض بعبارات الحنان لها والحب لولبي، والإيمان بسعادتهما الزوجية المستقبلة إلى حدّ جعل مريان تبكي من الألم خلال الخطاب كله.

وعادت الآن فتلهفت بكل قواها على العودة إلى المنزل، وصارت تحب أمها أكثر من أي وقت مضى، تحبها أكثر بسبب فرط ثقتها الخاطئة في ولبي، وتلحّ إلحاحاً شديداً في السفر. ولم تستطع إلينور نفسها أن تقرر: أمن الخير لمريان أن تكون في لندن، أم في بارتون؟ فنصحت لأختها بالصبر حتى تتبين رغبة أمها وأخيراً ظفرت بموافقة أختها على الانتظار حتى تتعرف ذلك.

وتركتهما السيدة جننجز، وخرجت مبكرة أكثر من المعتاد لأنه

لم يهدأ لها بال حتى يشاركها آل ميدلتون وبالمر في أحزانها. ورفضت ما عرضته إلينور من مرافقتها رفضاً باتاً، فخرجت وحدها بقية ساعات الصباح. وجلست إلينور إلى المائدة وهي حزينة الفؤاد، وهي تشعر بالألم الذي ستفضي به لأمها وترى كما هو ظاهر من خطاب مريان أنه لا أساس لهذا الألم، وأخذت تكتب لأمها خطاباً تقص فيه أنباء ما حدث، وتسألها عمّا ينبغي عمله في المستقبل في حين دخلت مريان حجرة الاستقبال بعد انصراف السيدة جننجز، وظلّت رابضة أمام النضد الذي تكتب عنده إلينور، تراقب حركات قلمها، وهي تشفق من صعوبة المهمة، ولكنها تشفق أكثر من وقع هذا الخطاب في نفس أمها.

وعلى هذا النحو بقيت الأختان حوالي ربع ساعة، وإذا بمريان التي لم تحتمل أعصابها إذ ذاك سماع أي صوت مفاجئ تنهض قائمة عندما سمعت صوت طارق بالباب.

فصاحت إلينور: «مَن هذا يا ترى؟ وقد أتى أيضاً مبكراً! لقد ظننتُ أننا أصبحنا في أمان».

فدلفت مريان إلى النافذة.

وقالت وهي تتبرم: «إنه كولونيل براندون. إننا لن نخلص منه أبداً».

«لن يدخل، لأن السيدة جننجز خارج المنزل».

وعادت القهقرى إلى حجرتها قائلة: «لن أرْكن إلى ذلك. إن رجلاً ليس لديه ما يشغل به وقته لن يتورع عن تضييع وقت غيره».

وقد أثبت الواقع صدق حدسها، وإن كان مبنياً على الظلم والخطأ، إذ دخل كولونيل براندون بالفعل. ولكن إلينور لم تغفر

لأختها استخفافها بقدره، اعتقاداً منها أن سبب حضوره هو اهتمامه بأمر مريان الذي تجلى في نظراته القلقة الحزينة، وفي سؤاله عنها، وإن كان هذا السؤال وجيزاً.

قال بعد أن حياهما أولاً: «قابلت السيدة جننجز في بوند ستريت، فشجعتني على الحضور، وزادني تشجيعاً أنني ظننتُ أنه يحتمل أن ألقاك منفردة، وهو ما كنت أرغب فيه. وغرضي من الحضور - قصدي - قصدي الوحيد من الحضور أرجو - أعتقد أنه - أن أشارك في المواساة - كلا، لا أقول المواساة - المواساة في الوقت الحاضر - ولكن أن أثلج فؤاد أُختك ببرد اليقين، اليقين الدائم بحبي لها ولك ولأمك - هل تسمحين أن أبرهن على هذا الحب، فأقصّ بعض الظروف والملابسات التي لا شيء سوى الحب المقرون بمحض الإخلاص لا شيء سوى الرغبة الصادقة في أن يكون الإنسان نافعاً لغيره - أعتقد أنني محق وإن قضيت عدة ساعات في إقناع نفسي بأنني على حق، أليس هناك من الأسباب ما يحمل على الخوف من أن أكون مخطئاً؟» ثم سكت عن الكلام.

قالت إلينور: «إنني أفهم ما تقول. تريد أن تفضي لي بأخبار تلقي المزيد من الضوء على أخلاق ولبي. إن إفضاءك لي بها سيكون أكبر دليل على صداقتك لمريان، ولك شكري معجلاً على كل نبأ تفضي به إليّ في هذا الصدد. أما شكر مريان فستظفر به على مرّ الزمن. أرجوك أرجوك أن تُسمعني ما لديك من أخبار.

«لك ذلك، وموجز القول أنني عندما غادرت بارتون في أكتوبر الماضي - ولكن ذلك لن يعطيك أية فكرة - يتعيّن على أن أرجع إلى الوراء قليلاً. ستجدين يا آنسة داشوود أنني محدِّث غير لبق، فأنا لا أدري من أين أبدأ. أعتقد أنه يجب أن أحدثك عن نفسي

حديثاً وجيزاً، ولا بدَّ أن يكون حديثاً وجيزاً، وتنهد بشدة ثم قال: «في مثل هذا الموضوع لا أجد ما يغري بالإسهاب».

وسكت هنيهة ليتذكر ما يقول ثم استطرد بعد أن تنهد مرة أخرى:

«لعلك نسيت حديثاً (فلا أظن أن هذا الحديث ترك في ذهنك أي أثر) حديثاً جرى بيننا مساء يوم في بارتون، مساء يوم قامت فيه حفلة رقص، وأشرت فيه إلى سيدة سبق لي التعرُّف إليها وهي تشبه أختك مريان من بعض الوجوه».

فأجابت إلينور: «الواقع أني لم أنسَ هذا الحديث» فأشرق وجهه بالسرور لهذا التذكر وأضاف:

«إذاً أنا لم أتأثر بنزوات الهوى في سرد ذكرياتي الحبيبة، قلت: إنّ وجه الشبه بينهما قوي جداً سواء من الناحية العقلية أو الجسمية: كلتاهما تمتاز بحرارة العاطفة، وقوة الخيال والروح، كانت هذه السيدة من أقاربي الأدنين، يتيمة منذ نعومة أظفارها، وفي ولاية أبي، وكنا متقاربين في السن، وتوثقت بيننا عرى الصداقة والزمالة في اللعب منذ الصغر. ولا أذكر وقتاً لم أحب فيه إليزا. وعندما كبرت أحببتها حباً ربما يخيل إليك أني لم أشعر به قط عندما تنظرين إلى ما أعانيه الآن من الكآبة والأسى. وأعتقد أنها كانت تحبني حباً جماً يضارع حب أختك لولبي. وكان هذا الحب مقروناً بسوء الحظ، وإن كان السبب مختلفاً في الحالين. ولما بلغت السابعة عشرة فقدتها إلى الأبد، إذ تزوجت بأخي على غير رغبتها، وكانت طائلة الثراء، أما ضيعة أسرتنا فكانت مثقلة بالديون. وأخشى أن يكون هذا هو كلّ ما يمكن أن يُقال عن سلوك رجل كان عمها وولي أمرها في الوقت نفسه. لم يكن أخي جديراً بها، بل لم يكن يحبها.

وكنت أرجو أن تظلّ على حبي في كل ملمة. وفعلاً ظلت على ذلك فترة من الزمن. ولكن سوء حالها - لأنها لقيت معاملة قاسية - تغلّب على قوة إرادتها. ومع أنها وعدتني أنه ما من شيء - كيف أتخبط من رواية قصتي! إنني لم أخبرك قط كيف حدث هذا. كنت على وشك الفرار بها إلى اسكتلندا، ولكن خادمة ابن عمي أفشت سرنا خيانة أو غباوة، فنُفيت إلى منزل ناءٍ لأحد أقاربي، وحُرمت هي من الحرية والاختلاط بالمجتمع والملاهي، إلى أن تدخّل أبي في الأمر. وكنت أعول كثيراً على ما تعتصم به من صبر وجلد، إذ كانت الضربة أليمة. ولكن لو أن زواجها بأخي كان موفقاً، لكان مرور بضعة أشهر - على الرغم من صغر سني في ذلك - كفيلاً بأن يحملني على قبول زواجها من أخي، أو على الأقل لا أبكي الآن على هذا الزواج. ولكن الأمر لم يكن كذلك، فلم يكن أخي يحبها، وكانت ملذاته وشهواته على غير ما ينبغي أن يكون، وأخذ يسومها سوء المعاملة منذ البداية، وكان أثر ذلك في نفس امرأة شابة مرحة غير مجرّبة مثل السيدة براندون أمراً طبيعياً. صبرت أول الأمر على سوء حالها، ولو أنها لم تعش حتى تُقاسي هذه الأحزان التي تثيرها ذكرياتي الآن لكان خيراً، ولكن أكان عجباً أن تزل قدمها بسبب هذا الزواج الذي يدفع سلوكه المرأة إلى الخيانة؟ وبدون أن يكون لها صديق ينصحها أو يردعها (إذ توفي أبي بعد زواجها ببضعة شهور وكنت أنا مع كتيبتي في جزر الهند الشرقية) ولو أنني بقيت في إنجلترا لربما - ولكني أردت أن أهيئ لهما أسباب السعادة بأن أرحل عنهما عدة سنوات، ولهذا الغرض بادلت زميلاً بمكاني، واستطرد يقول في صوت شديد الاضطراب: «كانت الصدمة التي سببها هذا الزواج لي هينة، بل لم تكن شيئاً بالقياس إلى ما شعرتُ به عندما علمت بعد

حوالي سنتين بطلاقها، فكان هذا هو الذي أورثني هذه الكآبة، بل جعلني أذكر حتى الآن ما خالجني من الألم».

ولم يستطع أن يقول أكثر من ذلك ثم نهض مسرعاً وأخذ يذرع الحجرة جيئة وذهاباً بضع دقائق، ولم تستطع إلينور أن تتكلم لأنها تألمت لقصته، وتألمت أكثر لألمه، وآنس هو ما اعتراها من الهم، فأقبل عليها وتناول يدها وشدّ عليها فقبّلها باحترام ينمّ عن الشكر، واستطاع بعد بضع دقائق من التجلّد المقرون بالصمت أن يواصل حديثه في هدوء.

لم أعد إلى إنجلترا إلا بعدما يقرب من انقضاء ثلاث سنوات على هذه الفترة الأليمة، وكان أول همي عند وصولي هو البحث عنها بالطبع، ولكن البحث كان ضرباً من العبث بقدر ما كان مثيراً للأسى فلم أستطع أن أقف لها على خبر أكثر من خبر الرجل الذي أغراها أول مرة، وكان هناك، من الأسباب ما يحمل على الخوف من أنها فارقته لتنزلق إلى الدرك الأسفل وكانت نفقتها الشرعية لا تتكافأ مع ثروتها، ولا تكفل لها حياة هنيئة، وعلمتُ من أخي أنها تنازلت عنها إلى شخص آخر، وقال: إنه يظن ويظن ظناً قوياً أن إسرافها وما ترتب عليه من وقوعها في الضيق والشدة حملها على التنازل عن النفقة للحصول على الغوث السريع. على أنني استطعت أن أعثر بعد أن عدتُ إلى إنجلترا بستة شهور، فقد كان لي خادم سابق نكبته الأيام فزُجّ به في السجن لدَين عليه، فحملني حبي له على زيارته في سجنه، فوجدت في هذا السجن نفسه أختي محبوسة لمثل هذا السبب. ورأيتها وقد تغيَّرت جداً وذبلت جداً - وشفَّها الألم من كل لون، ولم أكد أصدق أن الشبح الحزين السقيم الماثل أمام ناظري هو حطام الفتاة الفارهة اليافعة أغرمت بها في يوم من

الأيام. إن ما كابدتُه عندما شاهدتها على هذه الصورة - ولكن ليس من حقي أن أجرح شعورك بأن أصف لك ما رأيت، لقد آلمت شعورك إلى حد يفوق الوصف. وكان أكبر عزاء لي أن رأيتها تعاني آخر مراحل السل كما كان واضحاً - نعم لقد كان في هذه الحال أكبر عزاء، فلم يكن في الحياة أي خير لها أكثر من أن أتيح لها فرصة الاستعداد للموت على نحوٍ أفضل، وهذا ما قد حدث، إذ نقلتها إلى غرفة مريحة وهيأت لها وسائل الخدمة والرعاية الواجبة، وواظبت على زيارتها في كل يوم من أيام حياتها، وشهدت آخر لحظات أيامها.

ثم عاد فسكت ليسترد أنفاسه، وعبرت إلينور عن مشاعرها بصوت ينمّ عن الحزن والأسى لمصير صديقته المنكوبة.

وقال: «أرجو ألا تغضب أختك للشبه الذي تخيّلته بينها وبين قريبتي المسكينة المجلَّلة بالعار. إن مصيرهما لا يمكن أن يكون واحداً. ولو أن الشمائل الحلوة التي فطرت عليها إحداهما حُصِّنَتْ بقوة الإرادة أو الزواج السعيد لكان من المحتمل أن تكون هي على الحال الذي ستعيشين حتى ترين عليه الأخرى. ولكن ما الهدف من ذكر ذلك كله؟ يبدو لي أنني آلمتك دون داعٍ. آه آنسة داشوود! إن موضوعاً كهذا ظلّ مطوياً أربعة عشر عاماً، من الخطر أن يثيره الإنسان على الإطلاق ولكن سأستجمع شجاعتي وأوجز في القول: لقد تركتْ في كفالتي طفلَتها الوحيدة، فتاةً صغيرة هي ثمرة خطئها، وكان عمرها إذ ذاك حوالي ثلاث سنوات، وكانت تحب هذه البنت ولا تفارقها قط. وكانت هذه الطفلة أمانة ثمينة في يدي. وكان بودي أن أحافظ عليها بأدق معاني الكلمة بأن أشرف على تعليمها بنفسي، لو أن ظروفي سمحت لي بذلك. ولكن لم تكن لي أسرة

ولا منزل، ولذلك ألحقتُ ليزا الصغيرة بالمدرسة، وكنت أزورها ما استطعت، وبعد وفاة أخي (حدث ذلك منذ حوالي خمسة أعوام وترتب عليه أن آلتْ إلي أملاك الأسرة) ظلّت تتردد عليّ في ديلافورد. وكنت أقول: إنها قريبتي من بعيد. ولكني أعلم أن الناس يعتقدون بوجه عام أنها أَمَسُّ رَحِماً بي. وقد مضت الآن ثلاث سنوات: (وكانت قد بلغت الرابعة عشرة) منذ أن نقلتها من المدرسة لأعهد بها إلى امرأة فاضلة تقيم في دورستشاير وترعى أربع أو خمس بنات غيرها كلهن متقاربات السن. وكان لدي من الأسباب ما يحملني على الرضا بحالها مدة سنتين. ولكن حدث في فبراير الماضي أي منذ سنة تقريباً أن اختفت فجأة، فقد سمحت لها (جهلاً مني كما اتضح فيما بعد) أن تذهب إلى مدينة باث مع إحدى صديقاتها الصغيرات التي كانت تقوم على رعاية أبيها المريض، وكنت أعرف أنه رجل فاضل، وأحسن الظن بابنته أكثر ممّا تستحق لأنها تشبثت بأهداب الكتمان في طيش وعناد وأبت أن تقول لي شيئاً أو تدلني عليها مع علمها بكل شيء. وكان أبوها رجلاً حسن النيّة، ولكنه غير ذكي فلم يستطع فيما أعتقد أن يمدّني بأية معلومات لأنه كان حبيس البيت، بينما كانت الفتاتان ترتعان في المدينة وتمرحان كما تشاءان، وحاول أن يقنعني كما كان هو نفسه مقتنعاً بأن ابنته لا شأن لها بالأمر إطلاقاً. بالاختصار لم أستطع أن أقف على شيء إلا أنها اختفت. وفيما عدا ذلك بقي كل شيء متروكاً للحدس والتخمين ثمانية شهور طوال. وفي وسعك أن تتصوري ما خالجني من الظنون والمخاوف، بل وما عانيت من الآلام أيضاً».

فصاحت إلينور: «يا للّه! أيمكن أن يكون - أيمكن أن يكون ولبي!».

واستطرد يقول: «وأول نبأ عنها عرفته من خطاب أرسلته إليّ في أكتوبر الماضي في ديلافورد وتسلّمته صباح اليوم الذي تقرر فيه أن نسافر جميعاً إلى ويتويل. وكان هذا هو السبب في مغادرتي بارتون على هذا النحو المفاجئ، وهو الأمر الذي بدا - بلا شك - غريباً لكل إنسان، وأعتقد أنه أساء إلى البعض. وأظن أن السيد ولبي قلّما كان يتصور - حينما حدجني بنظرة تنمّ عن التأنيب لأني لم أراعِ المجاملة في مقاومة الجماعة - أنني دعيت لإنقاذ فتاة أسلَمَها هو إلى الفقر والشقاء. وماذا كان يُجدي لو علم بذلك؟ هل كان ذلك ينقص من بهجته وسروره بابتسامات أختك؟ كلا! لقد فعل ما لا يفعله أي إنسان في قلبه ذرة من العطف والحنان. لقد ترك الفتاة التي جنى على شبابها ومستقبلها في أشدّ حالات الكرب والضيق - دون مسكن لائق، ودون معونة، ودون أصدقاء، ودون أن تعرف عنوانه. تركها ووعدها بالعودة فما عاد إليها ولا كتب لها ولا أنقذها.

فصاحت إلينور: «لا شيء أفضح من ذلك».

«لقد بسطت لك أخلاقه. رجل مسرف مبذر، بل أسوأ من ذلك والآن وقد عرفتِ كل ما عرفته أنا منذ عدة أسابيع، تصوري ماذا يكون شعوري عندما أرى أختك تطارحه الغرام، وعندها أعلم أنها قرّرت أن تتزوجه. تصوري ماذا أشعر به نحوكن جميعاً. وعندما جئت إليك في الأسبوع الماضي ووجدتكِ وحدك جئت عاقداً العزم على معرفة الحقيقة، وإن لم أقرر ما أفعل حينما أعرفها. لا شك أن مسلكي بدا غريباً لك في ذلك الوقت ولكنك الآن تستطيعين أن تفهميه هل أسمح لأحد أن يخدعكن جميعاً - ولكن ماذا كان في وسعي أن أفعل؟ لم يكن لدي أمل في أن ينجح تدخلي، وأحياناً

كان يخالجني الظنّ بأن أختك ستُصلح من شأنه بتأثيرها ونفوذها. ولكن الآن وبعد هذه المعاملة من يدري ماذا كان يدبّره لها؟ ولكن مهما يكن ما دبره لها فعليها الآن وعليها في المستقبل أن تحمد اللّه على حالها إذا قارنتها بحالة إليزا المسكينة، وإذا نظرت إلى حالة البؤس والشقاء التي تعانيها هذه الفتاة المسكينة، وإذا تصورت أن إليزا كانت تحبه حباً يعادل في قوته حبها له، وأن الندم سيظل يؤرق ضميرها طول حياتها. لا شك أن هذه المقارنة ستعود عليها بالفائدة فستجد أن ما تعانيه من الآلام ليس شيئاً مذكوراً لأنّ هذه الآلام ليس مصدرها أنها اقترفت إثماً أو ارتكبت عاراً، بل على العكس، إنّ كل صديق لا بدَّ أن يزداد صداقة لها إذا عرف سبب آلامها وإن ما شعر به أصدقاؤها من الهم والقلق لما اعتراها من الآلام وما شعروا به من الاحترام لها لصبرها على تلك الآلام من شأنه أن يزيد من محبة أصدقائها.

استعملي حكمتك مع ذلك في الإفضاء إليها بما أخبرتك. إنك تعلمين حقّ العلم ما سيكون أثره في نفسها. ولو أني لم أعتقد من صميم قلبي اعتقاداً صادقاً أنّ ما قلته لك سيكون ذا فائدة لها، وأنه سيخفف من أحزانها، لما سمحت لنفسي أن أزعجك بأن أحكي لك قصة محنتي العائلية، قصة قد يبدو منها أني قصدت أن أرفع نفسي على حساب غيري».

فقدَّمت له إلينور أخلص الشكر على هذا الحديث، وأكدت أنه سيعود بفائدة مادية على مريان.

وقالت: «إن أكبر ما آلمني هو محاولتها تبرئة ولبي، وهذا يغيظها أكثر ممّا يغيظها أشد الإيمان بسوء أخلاقه، ولكني الآن أعتقد أنها وإن تألمت في البداية سرعان ما ستشعر براحة البال»

واستطردت بعد أن أطرقت هنيهة قائلة: «هل رأيت ولبي منذ أن فارقته في بارتون؟».

فأجاب متجهماً: «نعم، قابلته مرة واحدة. كان لقاء لا مفر منه».

فدهشت إلينور للهجته، وحملقت فيه قائلة باهتمام:

«عجباً! هل قابلته لكي. . . .».

لم يكن في وسعي أن أقابله لغير ذلك. لقد اعترفَت لي إليزا، ولو على مضض باسم حبيبها. وعندما عاد إلى لندن بعد عودتي إليها بأسبوعين تقابلنا بناءً على موعد سابق، لكي يدافع هو عن نفسه، ولكي أعاقبه أنا على سلوكه. وخرجنا من الاجتماع بدون جراح ولذلك لم يعلم أحد بنبأ هذا الاجتماع».

وتنهدت إلينور لما تخيلته من ضرورة هذا الاجتماع، ولكنها لم تشأ أن توجِّه إليه اللوم لعقد هذا الاجتماع باعتباره رجلاً وجندياً. وقال كولونيل براندون بعد أن أطرق هنيهة: «هذا هو الشبه المحزن بين مصير أم وابنتها! وهكذا قصَّرت في أداء الأمانة!».

«ألا تزال في لندن؟».

«كلا! ما إن انتهت من الولادة - لأني وجدتها على وشك الوضع - حتى نقلتها هي وطفلها إلى الريف، ولا تزال هناك إلى حد الآن».

وسرعان ما تذكر أن وجوده ربما يحُول دون اجتماع إلينور بأختها فأنهى زيارته، وتلقى منها خالص الشكر مرة أخرى، وتركها وقلبها يفيض إشفاقاً عليه وتقديراً له.

الفصل الثاني والثلاثون

لم تلبث الآنسة داشوود أن أعادت تفاصيل هذا الحديث على مسامع أختها ولكنه لم يترك في نفسها من الأثر ما كانت إلينور ترجوه تماماً، ولا يرجع ذلك إلى أنها كانت تشك في صدق أي جزء منه، فقد أصغت إليه بكلّ انتباه في ثبات وخضوع دون أن تبدي أية ملاحظة أو اعتراض، ودون أن تحاول الدفاع عن ولبي، إذ دلّت دموعها على شعورها باستحالة الدفاع عنه. ولكن إلينور لاحظت أن لوعة أختها لم تَخِفّ، على الرغم من أن مسلكها أكّد لها اقتناعها بجرمه، وعلى الرغم من أنها كانت تنظر بعين الارتياح إلى أثر هذا الاقتناع الذي تجلى في أنها لم تعد تتحاشى مقابلة كولونيل براندون عند زيارته، كما تجلى في إقبالها على محادثته بمحض رغبتها مع إبداء شيء من الاحترام المقرون بالعطف، وعلى الرغم من أنها لاحظت أن أختها لم تعد تثور بعنف كما كانت تفعل من قبل. صحيح أن حالتها النفسية قد هدأت، ولكنه هدوء تغشاه الكآبة. وكانت مريان أشد أسفاً على إفلاس ولبي من الأخلاق منها على قساوة قلبه، فكان تغريره بالآنسة وليامز وهجره لها، والشقاء الذي حلّ بهذه الفتاة المسكينة، والشك الذي ساورها هي بشأن ما كان يدبّره لها في يوم من الأيام، كل ذلك أرّق فؤادها لدرجة أنها لم

تطق أن تتحدث لأختها عمّا تشرع به وظلّت تكتم أحزانها في صمت، وبذلك سببت لأختها من الآلام أكثر ممّا لو كاشفتها بهذه الأحزان في كل لحظة وبكل صراحة.

وإذا أردنا أن نصف مشاعر السيدة داشوود أو أقوالها عندما تسلمت خطاب إلينور وردت عليه، لم يكن ذلك الوصف إلا تكراراً لمشاعر ابنتيها وأقوالهما السابقة؛ خيبة أمل لا تكاد تقلّ إيلاماً عن خيبة أمل مريان، وسخط أشدّ من سخط إلينور. وسرعان ما وردت منها خطابات مسهبة متوالية، تعبّر فيها عن آلامها وأفكارها وتعرب عن قلقها على مريان، وترجو أن تصبر على هذه المحنة، ولا بدَّ أن تكون محنة مريان عظيمة عندما تتحدث أمها عن الصبر! ولا بدَّ أن يكون مصدر هذه الأحزان التي تطلب أمها ألا تسترسل فيها مهيناً أليماً!

وقررت السيدة داشوود - مضحية براحتها الشخصية - أنه من الخير لمريان أن تظلّ في الوقت الحاضر في أي مكان آخر خلاف بارتون لأنّ كل ما تراه في بارتون يعيد إلى ذهنها ذكريات الماضي بأقوى صوره وأشدّها إيلاماً لها؛ فيجعل صورة ولبي ماثلة أمام ناظريها دائماً، كما كانت تراه في بارتون دائماً. لذلك أشارت على كريمتيها ألّا تختصرا مدة زيارتهما للسيدة جننجز بأية حال من الأحوال وكان الجميع يتوقعون أن تطول هذه الزيارة خمسة أسابيع أو ستة على الأقل، وإن كانت مدّتها لم تتحدد قط بالضبط. وقالت أمها: إن كثيراً من الأعمال، والمناظر، والأصدقاء ممّا لا يتسنى وجوده في بارتون لا بدَّ أن يكون موفوراً في لندن، آملة أن يصرف ذلك مريان عن التفكير في حالها أحياناً، بل قد يتيح لها بعض التسلية وإن كانت مريان أصبحت تمقت كِلا الأمرين.

ورأت أمها أن وجودها في لندن سيجعلها على الأقل بمأمن من رؤية ولبي كما تكون بمأمن من رؤيته في بارتون، لأنّ كلّ مَن يسمين أنفسهن صديقاتها سيتجنَّبن الآن صحبته لا محالة، فالقصد لا يمكن أن يجمع بينهما، والإهمال لا يمكن أن يعرِّضهما للقاء مفاجئ، والصدفة أبعد عن أن نجمع بينهما في زحمة لندن منها في عزلة بارتون حيث يحتمل أن تلتقي به حينما يقوم بزيارة ألنهام في مناسبة زواجه، ذلك الزواج الذي أصبحت السيدة داشوود ترى أنه أمر مؤكد بعد أن كانت ترى أنه أمرٌ محتمل.

على أنه كان لديها سبب آخر يحملها على الرغبة في بقاء ابنتيها في لندن، ذلك أنها تلقّت خطاباً من ابن زوجها يقول فيه: إنه سيكون هو وزوجته في لندن قبل منتصف فبراير، فرأت من المناسب أن تشاهدا أخاهما أحياناً.

وكانت مريان قد وعدت أن تعمل برأي أمها، ولذلك أذعنت له دون معارضة على الرغم من اختلافه تماماً عمّا كانت تريده وتتوقعه، وعلى الرغم من شعورها بخطئه، وقيامه على أسس غير صحيحة، وأن أمها حين طلبت إليها إطالة إقامتها في لندن حرمتها من الوسيلة الوحيدة التي تخفف من آلامها ألا وهي عطف أمها الشخصي، وقضت عليها برؤية مجتمع ومناظر يحُولان دون أن تذوق طعم الراحة لحظة واحدة.

ولكن ممّا جلب لها كثيراً من العزاء والسلوان علمها أنّ ما يعود عليها بالضرر، قد يعود على أختها بالنفع في حين أن إلينور كانت تعزي نفسها - ظناً منها أنه لن يكون في مقدورها أن تتحاشى رؤية إدوارد إطلاقاً - بأنه إذا كانت إطالة إقامتها قد تتعارض مع سعادتها هي، فقد تكون خيراً لمريان من العودة إلى ديفونشاير في الحال.

ولم يخلُ حرصها على حماية أختها من ذكر ولبي من الفائدة، وجنت مريان كل هذه الفائدة من حيث لا تشعر، لأنّ السيدة جننجز وسير جون والسيدة بالمر نفسها امتنعوا تماماً عن ذكر اسمه أمامها. وكانت إلينور تودّ لو امتنعوا أيضاً عن ذكره أمامها هي، ولكن ذلك لم يكن ممكناً، فاضطرت أن تستمع لهم وهم يصبّون جام غضبهم عليه يوماً بعد يوم.

ولم يكن سير جون يستطيع أن يتصور أن يكون هذا ممكناً، إذ كان لديه دائماً من الأسباب ما يحمله على حُسن الظنّ بولبي! وكان يعتقد أنه رجل طيب القلب! وأنه ليس في إنجلترا أشجع منه فارساً. لقد كان هذا عملاً لا يمكن تفسيره. وكان سير جون يدعو عليه من صميم فؤاده، ويقول: إنه لن يكلمه أبداً حيث وجده! كلا، ولو اجتمعا معاً في مكمن الصيد في بارتون، واضطر إلى الانتظار معه مدة ساعتين. يا له من وغد أثيم! وكلب مخادع! لقد كانت آخر مرة التقيا فيها هي المدة التي عرض عليه فيها جرواً من جراء فولي. وهذه نهاية العهد بينهما!

وعبَّرت السيدة بالمر عن غضبها كذلك بطريقتها الخاصة، فقالت: إنها سمعت ألا تسعى إلى التعرُّف إليه، وحمدت الله لأنها لم تتعرف إليه على الإطلاق، وتمنت من سويداء قلبها لو أن كومب ماجنا لم تكن من قُرى كليفلاند، ولكن هذا لا يهم لأنها أبعد من أن تُزار. وبلغ من بغضها له أنها صمّمت ألا تذكر اسمه مرة أخرى، وأن تحدِّث كل إنسان عمّا رأت وتقول: إنه رجل عاطل لا يصلح لشيء.

أما البقية الباقية من عطف السيدة جننجز فقد تجلّت في اعتزامها استقصاء كافة المعلومات التي يمكنها الحصول عليها فيما

يتعلق بزواجه المقبل، وإبلاغ ذلك إلى إلينور، ووعدت أن تخبرها قريباً باسم صانع العربات الذي يعمل له العربة الجديدة، والمصوّر الذي سيرسم صورته، والمحل الذي يمكن فيه مشاهدة ملابس آنسة غراي.

وكان ما أبدته ليدي ميدلتون - في هدوء وأدب - من عدم اهتمام بهذا الحادث، ممّا رَوَّح عن نفس إلينور - التي ضاقت بما أبداه غيرها من مظاهر العطف الصاخبة، وكان من أكبر أسباب العزاء لها أن ترى شخصاً واحداً من بين أصدقائهن لا يُبدي شيئاً من الاهتمام، أن ترى شخصاً واحداً لا يدفعه الفضول إلى السؤال عمّا حدث أو إبداء شيء من القلق على صحة أختها.

إنّ كل صفة من الصفات ترتفع أحياناً بسبب الملابسات الراهنة التي تحيط بها إلى أكثر من قيمتها الحقيقية، لذلك كانت إلينور تضيق بالعزاء المصطنع وترى أنّ حسن الذوق أدعى إلى المواساة من طيبة القلب.

وكانت ليدي ميدلتون تعبّر عن شعورها بإزاء هذا الحادث مرة أو مرتين في اليوم إذا خاض المتحدّثون فيه كثيراً، فتقول: «إنه فظيع حقاً!» وبهذا الحكم الدائم - وإن كان حكماً رفيقاً - استطاعت أن تلقى الآنستين داشوود منذ البداية دون أن يظهر عليها أدنى انفعال، ولكنها سرعان ما استطاعت أن تلقاهما دون أن تذكر أية كلمة عن الحادث. وبعد أن حافظت على كرامة جنسها وأعربت عن استنكارها لأخطاء الجنس الآخر، رأت أنها في سعة من القيام بواجبها نحو صديقاتها، فقرّرت (وإن خالف ذلك رأي سير جون) أن تترك بطاقتها للسيدة ولبي متى تزوجت لأنها امرأة تجمع بين الأناقة والثروة.

ولم تكن السيدة داشوود تضيق قط بأسئلة كولونيل براندون الدقيقة الخالية من التطفل، وكان براندون قد ظفر بميزة البحث الدقيق في مصاب أختها، بما أبداه من غيرة صادقة في العمل على تخفيفه، ولذلك كانت إلينور تتحدث معه دائماً دون كلفة. وكان جزاؤه الأكبر على المجهود الأليم الذي بذله في الإفضاء بما كابده من أحزان في ماضيه، وما يعانيه من المتاعب في حاضره، يتمثل في نظرات مريان الحانية التي ترمقه بها أحياناً، وفي رقة صوتها (وإن لم يحدث ذلك دائماً حينما تكون مكرهة أو تُكره نفسها على الكلام معه)؛ وهذان الأمران أكدا له أن مجهوده أسفر عن زيادة حُسن ظنها به، وشجّعا إلينور على الأمل في زيادة حسن ظنها في المستقبل. ولكن السيدة جننجز لم تعرف شيئاً من كلّ ذلك، ولم تعرف إلّا أنّ الكولونيل لا يزال ساهم الوجه كعادته، وأنها لم تستطع أن تحمله على طلب يدها أو تفويضها هي في الأمر بالنيابة عنه، ولذلك رأت بعد يومين أنهما لن يتزوجا إلّا في عيد الملاك ميخائيل بدلاً من عيد ميلاد يوحنا المعمدان، وأنه لن يتم الزواج قطعاً في نهاية الأسبوع، وقد دلّ حسن التفاهم بين الكولونيل والآنسة داشوود، على أنها هي التي سوف تظفر بشرف الحصول على شجرة التوت، والقناة، وشجرة السدر، وفعلاً أمسكت السيدة جننجز بعض الوقت عن التفكير في السيد فيرارز.

وفي أوائل فبراير وفي غضون أسبوعين من تسلم خطاب ولبي قامت إلينور بتلك المهمة الأليمة ألا وهي إخبار أختها بزواجه، وحرصت أن تبلغها الخبر بنفسها بمجرد علمها بانتهاء حفلة الزفاف، لأنها لم ترد أن تتلقى مريان الخبر من الصحف العامة التي رأتها تتفحصها باهتمام صباح كلّ يوم.

وتلقت مريان الخبر بهدوء شامل، ولم تعلّق عليه، ولم تذرف الدمع في بداية الأمر، ولكنها أخذت تجهش بالبكاء بعد قليل، وظلّت بقية اليوم في حالة تدعو إلى الرثاء كحالها عندما توقعت هذا الحادث.

وغادر ولبي وزوجته لندن بمجرد زواجهما، وأخذت إلينور ترجو الآن بعد أن أمنت أن ترى أحداً منهما، أن تحمل أختها - التي لم تخرج من المنزل منذ أن تلقت الصدمة أول مرة - على أن تخرج مرة أخرى بالتدريج كما كانت تصنع من قبل.

وفي ذلك الوقت وصلت الآنستان ستيل مؤخراً إلى بيت ابن عمهما في بارتلتز بلدنغ بهلبورن، وزارتا أقاربهما العظام في كندوي وبركلي ستريت فرحبوا بهما بكل حفاوة.

ولم يأسف أحد لرؤيتهما سوى إلينور التي كانت تضيق دائماً برؤيتهما، ولم تدرِ كيف ترد رداً كريماً على فرحة لوسي عندما وجدتها لا تزال في لندن.

قالت لوسي: «كنت أشعر بخيبة الأمل لو لم أجد أنك ما زلت في لندن» وظلّت تردِّد هذه العبارة مؤكدة كلمة «ما زلت» ولكني كنت أظن دائماً أني سأشعر بخيبة الأمل. وكنت واثقة تقريباً - مع ذلك - أنك لن تبارحي لندن بعد قليل وإن كنت أخبرتني في بارتون - كما تعلمين - أنك لن تقيمي فيها أكثر من شهر ولكني اعتقدت في ذلك الحين أنك ستغيرين رأيك في الغالب عندما يحين البحث في هذا الشأن. ولا شك أنه كان من دواعي الأسف الشديد أن تغادري لندن قبل أن يحضر أخوكِ وزوجته والآن أعتقد أنه لا حاجة بك إلى الإسراع في السفر. إنني في غاية السرور لأنك لم تتمسكي برأيك».

وكانت إلينور تفهم قصدها تماماً، فاضطرت أن تعتصم بضبط النفس وتتظاهر بأنها لم تفهم قصدها.

قالت السيدة جننجز: «وكيف سافرت يا عزيزتي؟».

فأجابت الآنسة ستيل بابتهاج شديد: «أؤكد لك أنني لم أسافر في العربة، بل جئنا بأقصى سرعة. وكان يرافقنا شاب أنيق، إذ كان الدكتور ديفيز يريد السفر إلى لندن، فرأينا أن نركب معه في مركبة بريد، وعاملنا بكل رقة ولطف ودفع عشرة شلنات أو اثني عشر شلناً أكثر ممّا دفعنا».

فصاحت الآنسة داشوود: «وافرحتاه! جميل حقاً! أؤكد لكما أنّ الدكتور رجل أعزب».

فقالت الآنسة ستيل وهي تتكلف الابتسام: «ها قد صحَّ ما توقعت! كل إنسان يضحك مني بسبب هذا الدكتور ولا أدري لماذا؟ فبنات عمي يقلن إنني قمت بغزوة موفقة، ولكني أصرح أنني لم أفكِّر فيه ساعة واحدة. قالت ابنة عمي منذ أيام قلائل، عندما رأته يعبر الشارع إلى المنزل: «رباه! ها قد جاء حبيبك يا نانسي!» فقلت: «حبيبي، حقاً!».

«إنني لا أدري من تعنين: إن الدكتور ليس حبيبي».

«نعم نعم، هذا كلام جميل، ولكن لا طائل وراءه - أنا أعرف أن الدكتور هو الرجل».

فأجابت ابنة عمها وهي تصطنع الجد: «كلا حقاً! وأنا أرجوك نفي هذا الخبر متى سمعت أحداً يتحدث به».

فأكدت لها السيدة جننجز على الفور أنها لن تتحدث عن ذلك، فارتاحت الآنسة ستيل لذلك كل الارتياح.

وعادت لوسي إلى الحديث بعد أن كفّت عن إبداء بعض الغمزات:

«أظن أنك يا سيدة داشوود ستذهبين وتقيمين مع أخيك وأختك عندما يأتيان إلى لندن».

«كلا، لا أظن أننا نفعل ذلك».

«أوه! بلى. أعتقد أنك ستفعلين ذلك».

ولم تشأ إلينور أن تجاريها في الحديث بإبداء المعارضة.

«ما أعجب أن تستغني السيدة داشوود عنكما مثل هذا الوقت الطويل!».

فاعترضت السيدة جننجز: «الوقت الطويل! كلا! إن زيارتهما لم تبدأ إلا منذ قليل!».

فلم تجِر لوسي جواباً.

وقالت الآنسة ستيل: «إنني آسفة لأني لم أرَ أختك يا آنسة داشوود. آسفة لأنها متوعكة المزاج...» وكانت مريان ما برحت الحجرة عند قدومهما.

«هذا شعور طيب جداً. إن أختي ستأسف أيضاً لأنها لم تسعد برؤيتك إذ أصيبت بصداع شديد يمنعها من مقابلة الزائرين أو التحدث معهم».

«يالله! يا للأسف الشديد! ولكن صديقاتها القديمات مثل لوسي ومثلي! أظن أنه لا ضير من أن ترانا، وأعتقد أننا لن نقول كلمة».

فرفضت إلينور هذا الاقتراح بأدب جمّ بحجة أن أختها ربما كانت راقدة في الفراش أو مرتدية لباس النوم، وبذلك لا تستطيع أن تحضر لمقابلتهما».

فصاحت الآنسة ستيل: «إذا كان هذا هو كلّ ما في الأمر، كان خليقاً بنا أن نذهب نحن ونراها».

وأحست إلينور أن لا قبل لها بهذه الوقاحة، ولكن لوسي كفّتها مؤونة الرد، فزجرت أختها زجراً شديداً كفكف من غلوائها كما حدث في مناسبات أخرى سابقة، وإن كان هذا الزجر لم يُضْفِ كثيراً من الجمال على أخلاق لوسي.

الفصل الثالث والثلاثون

أذعنت مريان لرجاء أختها بعد أن أبدت بعض المعارضة، فوافقت على الخروج معها ومع السيدة جننجز صباح ذات يوم لمدة نصف ساعة، واشترطت عليهما بصراحة عدم القيام بأية زيارة، وأبت أن تفعل أكثر من مرافقتهما إلى محل غراي في ساكفيل ستريت حيث أرادت إلينور أن تفاوض المحل في استبدال بعض الجواهر القديمة لأمها.

وعندما وقفن بالباب، تذكرت السيدة جننجز أن هناك سيدة في الطرف الآخر في الشارع ينبغي لها أن تزورها. ولما لم يكن لها أرب في محل غراي، فقد رأت أن تزور هذه السيدة ريثما تقوم صاحبتها بقضاء حاجتها ثم تعود إليهما.

وعندما صعدت الآنستان داشوود السلم وجدتا كثيراً من الناس أمامهما في قاعة المبيعات، حتى لم يكن هناك بائع يتفرغ لهما لقضاء طلبهما، فاضطرتا إلى الانتظار، وكل ما استطاعتا أن تفعلاه هو الجلوس في نهاية نضد الصراف، وكان يبدو لهما أن هذا المكان يتيح لهما أسرع فرصة لقضاء مأربهما إذ كان الواقف هناك رجلاً واحداً، وكانت إلينور تأمل أن يحدوه الأدب إلى إنجاز مهمته بسرعة، ولكن نظراته المهذبة، وذوقه الرقيق كانا يفوقان أدبه. وكان

هذا الرجل يريد شراء علبة من عيدان الأسنان لنفسه، وإلى أن انتهى خياله المبدع من تحديد حجم العلبة وشكلها وزركشتها ممّا استغرق مدة ربع ساعة، فحص خلالها كل علبة في المحل، لم يكن لديه من الوقت ما يكفي للاهتمام بالسيدتين اللهم إلا ثلاث نظرات عريضة أو أربع حدجهما بها، مما حمل إلينور على الاعتقاد بأنه رجل تافه بحق، وإن كان يزدان ببزة جميلة من أحدث طراز.

وكَفَت مريان نفسها ثقل الشعور بالاحتقار والاستياء لهذه النظرات الوقحة التي حدجهما بها، والغرور الذي بدا في طريقة إبداء رأيه في كلّ ما دق وجل من علب عيدان الأسنان التي قُدمت إليه لفحصها، إذ ظلّت لا تحسّ بما يدور حولها لأنها استطاعت أن تحصر تفكيرها في دائرة نفسها، وتجهل ما يدور حولها في محل غراي كما لو كانت في فراش نومها.

وأخيراً استقرّ رأيه على ما يشتريه، وتحدّد موعد تسليم العاج والذهب والدر. وبعد أن حدّد آخر يوم يستطيع فيه أن يواصل الحياة بدون علبة عيدان الأسنان لبس قفازيه بعناية وتؤدة ثم ألقى نظرة أخرى على الآنستين داشوود، ولكنها نظرة تدلّ فيما يبدو على أنه يطالبهما بالإعجاب به بدلاً من أن تعبّر عن إعجابه بهما، وخرج يُزْهَى بنفسه، ويصطنع عدم الاهتمام بهما.

وأسرعت إلينور بعرض طلبها، وإنها لتوشك أن تنتهي منه، وإذا بها ترى رجلاً آخر بجانبها، فأدارت عينها إليه واعترتها بعض الدهشة حين رأته أنه أخوها.

وكان ما تجلى من حبهما وسرورهما في هذا اللقاء منظراً جديراً بالفخر في محلّ غراي، والواقع أن جون داشوود كان أبعد

من أن يأسف لرؤية أختيه مرة أخرى، على العكس أبدى ارتياحه لهذا اللقاء، وكانت أسئلته عن أمهما تنمّ عن الاحترام والاهتمام.

وعلمت إلينور أنه وصل هو وفاني إلى لندن منذ يومين.

قال: «كان بودّي أن أزوركن بالأمس. ولكن ذلك كان مستحيلاً لأننا اضطررنا أن نأخذ هاري ليشاهد الحيوانات المتوحشة في إكستر إكستشينج، وقضينا بقية اليوم مع السيدة فيرارز، وسُرّ هاري سروراً عظيماً بما شاهده. ونويت صباح هذا اليوم أن أزوركن إذ أتيح لي من الوقت نصف ساعة، ولكن الإنسان يواجه دائماً كثيراً من الأشغال حالما يأتي إلى لندن. لقد جئت هنا لأعمل خاتماً لفاني، ولكني أعتقد أنه سيتسنى لي غداً أن أزور بركلي ستريت، وأتعرف إلى صديقتك السيدة جننجز، وقد علمت أنها امرأة طائلة الثراء. وكذلك أرجو أن تعرفيني بآل ميدلتون، ويسعدني أن أظهر لهم كل احترام باعتبارهم أقارب زوجة أبي. لقد علمت أنهم نِعْمَ الجيران لكُنَّ في الريف».

«حقاً إنهم نِعْم الجيران. إن اهتمامهم براحتنا، وتودّدهم إلينا أكثر ممّا أستطيع التعبير عنه».

«الحق أنني في غاية السرور لسماع ذلك. ولكن هذا ما ينبغي أن يكون، فهم قوم أثرياء، وهم يمتّون إليكن بصلة القربى، وليس بغريب أن يظهروا لكنّ من ضروب المجاملة والحفاوة ما يرفّه عنكن، ولذلك فأنتن تنعمن بالرفاهية والهناءة في منزلكن الريفي الصغير ولا تردن شيئاً! لقد نقل إلينا إدوارد وصفاً رائعاً للمنزل، فقال: إنه منزل نموذجي في نوعه، وأنكن تنعمن بالإقامة فيه إلى حدّ لا مزيد عليه. وقد شعرنا بارتياح عظيم لسماع هذا النبأ».

وشعرت إلينور بشيء من الخجل من أخيها، ولم تأسف لعدم

استطاعتها الرد عليه، إذ قدم خادم السيدة جننجز فقال: إن سيدته تنتظرهما لدى الباب.

ورافقهما السيد داشوود في النزول على الدرج، وتعرف إلى السيدة جننجز عند باب عربتها واستأذن في الانصراف، بعد أن ردَّد أمله في أن يتسنى له زيارتهما في الغد.

وقدم للزيارة في الوقت المناسب، وقال: إن زوجته تعتذر عن عدم الحضور لارتباطها مع أمها بمواعيد كثيرة بحيث لا تجد وقتاً لزيارة أي مكان. على أن السيدة جننجز أكدت له من فورها أن لا داعي للتمسك بالشكليات لأنهن كلهن أقارب أو ما يشبه ذلك، وأنها ستزور السيدة جون داشوود قريباً وستصطحب معها أخواتها ليشاهدنها. وكان أسلوب معاملته لهما ينمّ عن العطف، وإن اقترن بالهدوء، ومعاملته للسيدة جننجز غاية في الأدب. وعندما قدم كولونيل براندون بعده بقليل نظر إليه السيد داشوود نظرة استطلاع تنبئ بأنّ كل ما يريده هو أن يعرف عنه أنه رجل غني، حتى يعامله بأدب واحترام كذلك.

وبعد أن مكث معهن نصف ساعة طلب إلى إلينور أن تمشي معه إلى كوندوي ستريت لتعرِّفه بسير جون وليدي ميدلتون، وكان الطقس رائعاً، فوافقت بلا تردد. وما إن خرجا من المنزل حتى جاءت أسئلته تترى:

«مَن هو كولونيل براندون؟ هل هو رجل غني؟».

«نعم، له أملاك كثيرة في دورستشاير...».

«إني مسرور لسماع ذلك. يبدو أنه رجل مهذب، وأعتقد يا إلينور أن في وسعي أن أهنئك بأنك ستتبوئين منزلاً كريماً في المستقبل».

«أنا يا أخي! ماذا تعني؟».

«إنه يحبك. لقد راقبتُه من كَثَب. وأنا مقتنع بهذا. ما مقدار ثروته؟».

«أعتقد أنها حوالي ألفين في العام».

«ألفان في العام!» ثم حاول أن يصطنع لهجة الكرم والسخاء الفياض فأضاف: «إلينور! بودي لو كانت هذه الثروة ضعف ذلك حتى تنعمي بها».

فأجابت إلينور: «حقاً إنني أصدقك، ولكن كولونيل براندون ليست لديه أدنى رغبة في الزواج بي».

«أنت مخطئة يا إلينور! أنت مخطئة جداً! إن جهداً يسيراً من جهتك كفيل بأن يقع في شباكك. ربما كان متردداً في الوقت الحاضر، فضآلة ثروتك قد تحمله على الإحجام، وجميع أصدقائه قد يحذرونه من هذا الزواج ولكن بعض المجاملات والمُشَجعات اليسيرة التي تستطيع السيدات أن يقدمنها بسهولة كفيلة بتثبيت عزمه، رغم أنفه. ولا أدري سبباً يدعو إلى إحجامك عن محاولة اقتناصه. لا يتبادر إلى ذهنك أني أريد أن تكوني أنت البادئة بحبه وخطب وده - بالاختصار أنت تعرفين أنه لا محل لشيء من هذا القبيل - فالاعتراضات عليه كثيرة لا يمكن تذليلها، ولديك من الحصافة والذكاء ما يجعلك تفهمين ذلك. إنّ كولونيل براندون لا بدَّ أن يكون هو الرجل، ولن أتردَّد في القيام بأية محاولة من جانبي لأحمله على الإعجاب بك وبأسرتك. إنه زواج سينال رضا الجميع حتماً، وبالاختصار هو أمر «وخفض من صوته درجة الهمس» «سيلقى ترحيباً عظيماً من جميع الأطراف» ولكنه استجمع نفسه وأضاف. «أريد أن أقول - إن جميع صديقاتك يحرصن جدَّ الحرص على

زواجك، وبخاصة فاني التي أؤكد لك أنها تهتم بأمرك اهتماماً كبيراً جداً، ثم أمها أيضاً، السيدة فيرارز وهي امرأة طيبة القلب. أؤكد لك أن يسرها زواجك كثيراً. لقد قالت ذلك منذ أيام قلائل». فلم تردّ عليه إلينور.

واستطرد يقول: «قد يبدو عجيباً، بل غريباً أن يتزوج أخو فاني وأختي في وقت واحد، ولكنه أمر ليس بعيد الاحتمال».

فقالت إلينور بقوة: «هل إدوارد فيرارز سيتزوج؟».

«لم يتقرَّر ذلك بالفعل، ولكن يدور كلام في ذلك. له أم طيبة جداً، فالسيدة فيرارز ستقدم بكل سخاء على ترتيب ألف جنيه له في العام إذا تمّ الزواج. واسم الزوجة البديعة الآنسة مورتون، وحيدة اللورد مورتون الراحل، وهي تملك ثلاثين ألف جنيه، وهو زواج مرغوب فيه من الجانبين. ولا ريب عندي في أنه سيتمّ في الوقت المناسب. صحيح أنه كثير على الأم أن تهب ابنها ألف جنيه في العام، ولكن السيدة فيرارز امرأة نبيلة الأخلاق. إليك مثلاً آخر على سخائها: منذ أيام قلائل، بمجرد قدومنا لندن، أدركت أن نقودنا لا يمكن أن تكفينا فأعطت فاني أوراقاً مالية تبلغ قيمتها مائتي جنيه. وكان هذا منها صنيعاً جميلاً، لأن الإقامة في لندن تتطلب نفقات كثيرة».

وأطرق هنيهة منتظراً أن تبدي موافقتها على قوله وعطفها عليه، فاضطرت أن تقول:

«لا شك أنّ نفقاتك في لندن والأقاليم كبيرة، ولكن دخلك كبير!».

«أؤكد لك أنه ليس كبيراً كما يظنّ كثير من الناس. على أنني لا أقصد الشكوى. لا شك أنّ دخلي لا بأس به، وأرجو أن يزيد في

المستقبل. إن أرض نورلاند كومون التي يجري استصلاحها الآن تستنزف مواردي، ثم إني اشتريت بعض الأرض في غضون النصف الأخير من هذا العام وهي مزرعة «إيست كنغهام فارم» ولا بدَّ أنك تذكرين هذه المزرعة التي كان جبسون الكبير يقيم فيها. وكنت شديد الرغبة في تملّكها من كلّ الوجوه لأنها تلاصق أملاكي، ولذلك رأيت من الواجب شراءها، ولم تطوع لي نفسي أن تقع هذه الأرض في يد غيري. ويجب على المرء أن يضحي بالمال في سبيل مصلحته ولذلك كلفتني مقداراً كبيراً من المال».

«أكثر ممّا تستحق في ظنك؟».

«كلا، أرجو ألا يكون الأمر كذلك، إذ كان في وسعي أن أبيعها في اليوم التالي بأكثر ممّا اشتريتها به. أما فيما يتعلق بثمن الشراء فربما كنت سيئ الحظ في الواقع لأن السندات كان سعرها منخفضاً في ذلك الوقت بحيث لو لم يكن الثمن المطلوب مودعاً في البنك لمُنيت بخسارة كبيرة في بيع سنداتي».

ولم يسع إلينور إلّا أن تبتسم.

«وقد تكبدنا أيضاً نفقات كبيرة لم يكن منها بد عندما جئنا إلى نورلاند أول مرة، فوالدنا المحترم، كما تعلمين جيداً، أوصى لأمك بكل ما بقي في نولارند من أمتعة وأثاث ستاندهل (وكان هذا ذا قيمة كبيرة) وحاشاني أن أستشعر الندم على صنيعه هذا، فمن حقه الذي لا شك فيه أن يتصرف في أملاكه كما يشاء، ولكن ترتب على ذلك أن اضطررنا إلى شراء مقدار كبير من البياضات والخزف الصيني. . . إلخ لنعوض ما أخِذ منا. ويمكنك أن تقدري من هذا أننا بعد أن تكبّدنا كل هذه النفقات أبعد من أن نكون أغنياء، وأن تقدري كم كان لمكرمة السيدة فيرارز من وقع جميل في نفوسنا».

قالت إلينور: «بالتأكيد، وأرجو لك أن تعيش في رغد بفضل كرمها وسخائها».

فأجاب برصانة ووقار: «قد نعيش في ذلك بعد سنة أو سنتين. على أنّ الأمر لا يزال يتطلب الكثير من الجهد، فلم يوضع أي حجر في مكن فاني، ولم نعمل سوى تصميم الحديقة».

«وأين سيُبنى المكن؟».

«على الأكمة الواقعة خلف البيت وقد اجتثت أشجار الجوز العتيقة لتفسح المكان له. سيكون منظره جميلاً إذا شاهده الإنسان من كثير من أجزاء الحديقة. وستكون حديقة الأزهار منحدرة أمامه. وستكون حديقة رائعة. وقد استأصلنا جميع الأشواك القديمة التي نمَت في أجزاء متفرقة على جانب التل».

وكظمت إلينور غيظها، وعتبها عليه، وحمدت اللّه لأن مريان لم تكن موجودة فتشاركها في هذا الاستفزاز. وبعد أن قال ما فيه الكفاية لإثبات فقره والتخلص من ضرورة شراء قرط لكل من أختيه في زيارته التالية لمحل غراي، بدت عليه مظاهر البهجة والسرور، وأخذ يهنئ إلينور بصداقة السيدة جننجز.

«يبدو أنها امرأة ذات ثورة طائلة، فبيتها وأسلوب حياتها يدلّان على دخل كبير. ولن تقف الفائدة التي عادت عليك من معرفتها عند الحدّ الذي وصلت إليه حتى الآن، بل ستعود عليك هذه المعرفة بالفائدة المادية في النهاية. من المحقق أن دعوتها لكما إلى لندن ستعود عليك بفائدة كبرى، كما أنها تدل أصدق دلالة على حبها لك. وأكبر الظنّ أنها لن تنساك عند موتها فمن المؤكد أن لها ثروة كبيرة ستتركها بعد موتها».

«لا شيء على الإطلاق فيما أظن لأنها لا تملك سوى بائنة عقارية ستؤول إلى أولادها بعد مماتها».

«ولكن لا يمكن للإنسان أن يتصور أنها تنفق كلّ دخلها، فقليل من أهل الفطنة مَن يفعل ذلك، وكل ما تدّخره تستطيع هي التصرف فيه».

«ألا تظن أنّ ترك ذلك لبناتها أقرب إلى الاحتمال من تركه لنا؟».

«إن بنتيها كلتيهما كلّ منهما متزوجة بزوج من الأثرياء، وبذلك لا أستطيع أن أرى ضرورة تدعوها إلى زيادة ثروتهما في حين أني أرى أنها بما تُبديه من اهتمام بك، وبمعاملتها لك على هذا النحو، قد جعلت لك حقاً في رعايتها لك في المستقبل، وهو أمر لا تستطيع امرأة ذات ضمير حي أن تغفله. ليس ثمة ما هو أكرم من معاملتها لك، ولا يمكن أن تقدم على ذلك دون أن تدرك الآمال التي تثيرها هذه المعاملة في النفوس».

«ولكنها لا تثير شيئاً من الأمال في نفس الذين يعنيهم الأمر كثيراً. والواقع أنك يا أخي تُغالي في اهتمامك برفاهيتنا ورخائنا».

فقال، وهو يحاول أن يستجمع قواه: «إني لأعجب لأن الناس لا يملكون إلّا القليل - القليل جداً. ولكن يا عزيزتي إلينور، ماذا أصاب مريان؟ - إنها تبدو على غير ما يرام، فقد تغيّر لونها، ونحف جسمها. هل هي مريضة؟».

«صحّتها متوعكة، وهي تشكو من ضعف أعصابها منذ عدة أسابيع».

«يؤسفني ذلك! إنّ أيّ مرض يعتريها في هذه السن يذهب

بنضارتها إلى الأبد. لقد تمتعت بهذه النضارة كأجمل ما رأيت من الفتيات الجميلات، أمداً قصيراً! لقد كانت في سبتمبر الماضي تضارع في جمالها أية فتاة جميلة. وكان في جمالها معنى يأسر قلوب الرجال. إنني أذكر أنّ فاني كانت تردد أنها ستتزوج قبلك، وستتزوج زوجاً خيراً من زوجك. ليس معنى ذلك أنها لا تحبك أنت كثيراً. ولكن هكذا بدا لها. على أنها ستتبين أنها كانت مخطئة. وإني أشك أن تتزوج مريان الآن رجلاً تزيد ثروته على خمسمائة أو ستمائة جنيه في العام على الأكثر. ولا أعدو الصواب إذا قلت إن حظك في الزواج سيكون خيراً من حظها.

دورستشاير! لا أعرف إلا القليل عن دورستشاير. ولكن يا عزيزتي إلينور يسرني غاية السرور أن أعرف الكثير عنها. وفي وسعي أن أؤكد أنني سأكون أنا وفاني في مقدمة مَن يهمهم زيارتك».

وحاولت إلينور أن تقنعه أنه لا أمل في زواجها من كولونيل براندون، ولكن هذا الأمل كان يسرّه إلى حدّ لم يستطع معه أن يتخلى عنه، وصمّم على توثيق عرى المودة مع ذلك الرجل، وتشجيع هذا الزواج بكل وسيلة، وذلك أنه كان يشعر بوخز الضمير لأنه لم يسدِ جميلاً لأخواته، فكان حريصاً على أن يسدي لهن غيره الشيء الكثير. وكانت أسهل وسيلة للتكفير عن إهماله هي الزواج من كولونيل براندون.

وقد أسعدهم الحظ بوجود ليدي ميدلتون في المنزل، وحضور سير جون قبل انتهاء زيارتهم، وتبادل الجانبان الكثير من عبارات المجاملة، وكان سير جون على استعداد لأن يحب كل إنسان، فوصف السيد داشوود بأنه رجل دمث الأخلاق، وإن لم يعرف الكثير من صفات الخيل. ورأت ليدي ميدلتون أنّ مظهره يدلّ على

انتمائه إلى الطبقة الراقية في المجتمع، ولذلك فهو جدير بالتعرُّف إليه. وانصرف السيد داشوود وهو يُبدي إعجابه بهما.

وقال عندما عادَ مع أخته: سأحدث فاني حديثاً ممتعاً عمّا رأيت. ليدي ميدلتون امرأة غاية في الظُّرف! وأنا على ثقة من أنّ فاني يسرها أن تعرف مثل هذه السيدة. والسيدة جننجز امرأة مؤدّبة للغاية، وإن لم تكن ظريفة كبنتها، ولا داعي لأن تتحرّج أختك من زيارتها، والحق أنها ظلّت تتحرج من زيارتها وهو أمر طبيعي لأنّ كل ما كنا نعرفه هو أنّ السيدة جننجز أرملة رجل كسب ماله من طريق خسيس. ولذلك كانت فاني والسيدة فيرارز تريان أن السيدة جننجز وبناتها لَسن أهلاً لأن تختلط فاني بهن. ولكن في وسعي الآن أن أحدثها عنهما حديثاً مرضياً».

الفصل الرابع والثلاثون

كانت السيدة جون داشوود تثق كثيراً برأي زوجها، فزارت في اليوم التالي السيدة جننجز وابنتها، ورأت أنّ ثقتها في محلها، إذ وجدت أنّ الأولى وهي المرأة التي تقيم عندها أختا زوجها ليست غير جديرة بالزيارة إطلاقاً. أما ليدي ميدلتون فوجدتها من أطرف النساء في العالم!

وسُرّت ليدي ميدلتون من السيدة جون داشوود أيضاً، وكانت كلتاهما تتّصف بلون من الأنانية المقرونة بقساوة القلب، ممّا أدى إلى التجاذب بينهما. وكانت كلّ منهما تشارك الأخرى في قلّة المجاملة للناس وفي الافتقار إلى الذكاء والفهم.

على أنّ الأخلاق التي حببت السيدة جون داشوود إلى ليدي ميدلتون، لم تَرُق في نظر السيدة جننجز إذ رأت أنها ليست سوى امرأة متكبرة، لا تعرف المجاملة، فقد قابلت أُختَيْ زوجها مقابلة خالية من مظاهر الودّ، ولم تتحدث إليهن بكلمة تقريباً، وظلّت صامتة سبع دقائق ونصف دقيقة على الأقل في ربع الساعة الذي مكثته في بركلي ستريت.

وكانت إلينور تتوق إلى أن تعرف - وإن لم تشأ أن تسأل - هل إدوارد في لندن حينئذٍ. ولكن فاني ما كانت لتذكر اسمه أمامَها من

تلقاء نفسها إلا بعد أن يتسنى لها أن تخبرها بأن زواجه من الآنسة مورتون قد أصبح أمراً مقرراً، أو أن يتحقّق ظن زوجها في كولونيل براندون؛ لأنها كانت تعتقد أنهما لا يزالان يحب بعضهما بعضاً بحيث لا يختلفان في قول أو فعل في جميع الأوقات. على أنّ النبأ الذي أبت هي أن تفضي به جاء من جانب آخر إذ حضرت لوسي بعد قليل لتدّعي أن إلينور ستأسف لعدم استطاعتها رؤية إدوارد على الرغم من قدومه إلى لندن مع السيد والسيدة داشوود، وهو لا يجرؤ على الحضور إلى بارلتز بلدنغ خشية اكتشاف أمره، وهما لا يستطيعان أن يفعلا شيئاً في الوقت الحاضر سوى المراسلة، على الرغم من أنه لا يجوز التحدّث بشأن اشتياق كل منهما للقاء الآخر.

وقد تأكّدن بعد قليل من وجود إدوارد في لندن إذ زارهن في بركلي ستريت مرتين، ووجدن أنه ترك بطاقته مرتين على المائدة، عندما عدن من مواعيدهن الصباحية، وسُرّت إلينور بزيارته ولكنها سُرّت أكثر لأنه فاتها لقاؤه.

وسرّ آل داشوود سروراً كبيراً بلقاء آل ميدلتون إلى حدّ أنهما قررا دعوتهما إلى مأدبة غداء. وما إن تمّ التعارف بينهما حتى دعواهما إلى الغداء في هارلي ستريت حيث استأجرا بيتاً جميلاً لمدة ثلاثة شهور. ووجّها الدعوة أيضاً إلى أختيهما والسيدة جننجز. وحرص جون داشوود على دعوة كولونيل براندون فقَبِل هذه الدعوة الرقيقة المُلحّة بشيء من الدهشة ولكن مع كثير من السرور، إذ كان يسرّه أن يكون دائماً حيث تكون الآنستان داشوود. وكان لا بدَّ أن تقابلا السيدة فيرارز ولكن إلينور لم تستطع أن تعرف هل سيحضر ابناها إلى المأدبة، على أن توقع رؤيتها كان كافياً لأن يثير اهتمام إلينور بهذه المأدبة، لأنها كانت أشدّ ما تكون رغبة في لقاء أم

إدوارد، ومعرفة أحوالها، على الرغم من أنها تستطيع أن تلقاها الآن دون أن تشعر بذلك الاهتمام الشديد الذي كان يحتمل فيما مضى أن يكتنف هذا اللقاء، ومن أنها تستطيع الآن أن تراها دون أن تبالي إطلاقاً برأيها فيها.

وسرعان ما ازداد اهتمامها بهذه المأدبة على نحوٍ يغلب فيه عنصر القوة على عنصر السرور، عندما علمت بدعوة الآنستين ستيل إليها.

وكانت الآنستان ستيل قد تركتا أثراً حسناً في نفس ليدي ميدلتون بما أبدتاه من ضروب الاهتمام بها، فدعتهما هي وسير جون إلى قضاء أسبوع أو أسبوعين في كوندوي ستريت، على الرغم من أن لوسي لم تكن ظريفة، وأن أختها لم تكن رقيقة. وكان من حسن حظ الآنستين ستيل بصفة خاصة - بمجرد أن عرفت دعوة آل داشوود - أن تبدأ زيارتهما قبل المأدبة ببضعة أيام وربما كانت جدارتهما باهتمام السيدة جون داشوود، بوصفهما ابنتَي أخت الرجل الذي رَبّى أخاها، لا تحملها كثيراً على دعوتهما إلى المأدبة، ولكن الواجب كان يحتم عليها أن ترحب بهما بوصفهما ضيفتَي ليدي ميدلتون. وقلّما كانت لوسي أسعد منها عندما تلقت بطاقة السيدة جون داشوود، إذ كانت تتوق منذ زمن طويل إلى أن تعرف أفراد الأسرة شخصياً، وتتعرف من كثب على أخلاقهم والعقبات التي تقف في سبيلها، وأن تُتاح لها الفرصة لكسب رضاهم.

وكان أثر ذلك في إلينور مختلفاً، إذ جزمت على الفور أنّ إدوارد الذي يقيم مع أمه لا بدَّ أن أخته قد دعته مع أمه إلى المأدبة. وما أعجب أن تراه لأول مرة بعد كلّ ما حدث في صحبة لوسي! - لم تدرِ كيف تطيق ذلك.

وربما كانت هذه المخاوف لا تقوم على المنطق تماماً ولا على الحقيقة إطلاقاً ولكن الذي خفف منها، لم يكن هو رباطة الجأش التي اعتصمت بها، بل هو حسن نيّة لوسي التي اعتقدت أن إلينور ستشعر بخيبة أمل شديدة إذا أخبرتها أن إدوارد لن يحضر إلى هارلي ستريت يوم الثلاثاء، بل لقد أملت أنها ستزداد ألماً حين أوهمتها أن الدافع لإدوارد على عدم الحضور هو أنه يحبها حباً لا يستطيع إخفاءه حينما يجتمعان سوياً.

وجاء يوم الثلاثاء الخطير الذي تقرّر فيه تقديم الفتاتين إلى هذه الحماة الرهيبة.

وقالت لوسي لإلينور، وهما يصعدان الدرج سوياً، إذ وصل آل ميدلتون عقب السيدة جيننجز مباشرة بحيث تبعوا الخادم جميعاً في وقت واحد: «حنانيك عزيزتي آنسة داشوود! لا أحد هنا إلاكِ يستطيع أن يعطف عليّ! إنني أحس أن قدمي ترتجفان من تحتي. رحماك اللهم! إن هي إلّا لحظة ثم أشاهد المرأة التي تتوقف عليها سعادتي، التي ستكون حماتي».

وكان وسع إلينور أن تخفف عنها في الحال، فتقول: إن المرأة التي سيشاهدانها بعد قليل يحتملِ أن تكون حماة الآنسة مورتون لا حماتها هي! ولكنها أكدت لها - بدلاً من ذلك - وبكل إخلاص، أنها تشفق عليها، وهو الأمر الذي أدهش لوسي كل الدهشة، لأنها كانت تأمل على الأقل - مع ما بها من ضجر وقلق - أن تشعّ نار الغيرة في قلب إلينور.

كانت السيدة فيرارز امرأة قصيرة نحيفة، معتدلة القامة إلى درجة تشعر بالفظاظة، مهيبة المنظر إلى درجة العبوسة. وكان وجهها شاحباً، وقسماته صغيرة، خلواً من الجمال، وخلواً من التعبير.

ولكن جبينها كان متغضناً لحسن الحظ، فأنقذ وجهها من وصمة البلادة بأن أضفى عليه سمات الكبرياء وخبث الطوية. ولم تكن امرأة كثيرة الكلام، بل كانت ألفاظها على قدر معانيها، على نقيض ما يفعله الناس عامة. ولم تخصّ السيدة داشوود بكلمة من الكلمات القليلة التي أفلتت من فمها، بل حدجتها بنظرة تنمّ عن أنها مصمّمة بقوة على بغضها مهما كانت الأحوال.

ولكن إلينور لم تشعر الآن بالاستياء لهذه المعاملة التي كان يمكن أن تؤلمها كثيراً منذ بضعة شهور، ولم يكن في وسع السيدة فيرارز أن تسيء إليها بهذا السلوك الآن - ولم يسعها إلا أن تضحك لاختلاف معاملتها للآنستين ستيل، وهي المعاملة التي تعمّدت بها أن تذل كبرياءها، كما لم يسعها إلا أن تبتسم لما أبدته الأم وابنتها من رقة المعاملة نحو لوسي بالذات - لأنهما اختصتا لوسي بحسن المعاملة - وهي الفتاة التي لو عرفتا عنها ما تعرفه إلينور، لكانتا أحرص الناس على إذلالها، ولكنها حين ابتسمت لحسن المعاملة التي وضعت في غير موضعها، لم تفكر في الغباء الدال على الدناءة الذي دفع إلى هذه المعاملة، ولا في ملاحظة ضروب المودة التي أبدتها الآنستان ستيل لاستدامة هذه المعاملة، إلا وشعرت بالاحتقار التام للأربعة جميعاً.

وقد سرَّت لوسي غاية السرور لاختصاصها بشرف هذه المعاملة. وكان كلّ ما تريده الآنسة ستيل حتى تشعر بغاية السرور أن يتندّر عليها أحد بشأن الدكتور ديفيز.

كانت مأدبة الغداء مأدبة فخمة، وكان عدد الخدم كبيراً، وكل شيء يدلّ على حب ربة البيت للظهور، وعلى مقدرة رب البيت في مساعدتها على ذلك. وعلى الرغم من الإصلاحات والزيادات التي

أجراها في ضيعة نورلاند، وعلى الرغم من أنه كان مضطراً يوماً ما إلى بيعها بخسارة تبلغ بضعة آلاف من الجنيهات، لم يكن ثمة ما يدل على أيّ مظهر من مظاهر الفقر الذي حاول هو أن يستدلّ عليه من ذلك. لم يكن ثمة فقر من أيّ نوع كان اللهم إلّا الفقر في الحديث - ولكن الفقر في ذلك كان كبيراً. لم يكن كثير ممّا قاله جون داشوود عن نفسه جديراً بالاستماع إليه، وكان حظّ زوجته من ذلك أقلّ من حظه. ولكنهما لم ينفردا بهذه الوصمة، بل شاركهما فيها معظم الزائرين الذين أعوزهم حسن المحاضرة لاتّصافهم بعيبٍ من هذه العيوب: الافتقار إلى العقل سواء أكان كسبياً أم وهبياً - الافتقار إلى الظرف والكياسة - الافتقار إلى البشاشة والهشاشة - الافتقار إلى رقة الطباع.

ولما انتقلت السيدات بعد المأدبة إلى حجرة الاستقبال بدا هذا الفقر بشكلٍ واضح لأنّ الرجال تناولوا الحديث في موضوعات شتى متنوعة - فتحدّثوا في السياسة، وتسييج الأراضي، وترويض الجِياد، وهنا انتهى الأمر. ولكن موضوعاً واحداً شغل بال السيدات إلى أن حضرت القهوة - ألا وهو المقارنة بين طول هاري داشوود، ووليم الابن الثاني لليدي ميدلتون، وكان الولدان متقاربين في السن.

ولو أن الولدين كانا هناك لأمكَنَ البتّ في الأمر بقياس طولهما على الفور، ما ولم يحضر سوى هاري، فقد كانت المقارنة بين طولهما قائمة على الحدس والتخمين من كلا الجانبين، وكان من حقّ كلّ منهم أن تجزم برأيها وأن تردِّد هذا الرأي مراراً وتكراراً كلما حلا لها ذلك.

وكان موقفهن جميعاً على النحو الآتي:

سلّمت كلّ من أم الولدين برأي الأخرى من باب المجاملة،

وإن كانت كلّ منهما تؤمن في قرارة نفسها أنّ ابنها هو أطول الولدين.

أيّدت كلّ من الجدتين بشدّة رأي ابنتها على نحو لا يقلّ عنهما محاباة، ولكن يزيد عليهما إخلاصاً.

لم تكن لوسي على إرضاء أحدهما أقلَّ منها حرصاً على إرضاء الأخرى، فرأت أن الولدين أطول كثيراً بالنسبة إلى سنهما، ولم ترَ أدنى فرق بينهما إطلاقاً. وأبدت الآنسة ستيل رأيها بمهارة وبأسرع ما تستطيع في صالح كلّ من الولدين.

وكانت إلينور قد أبدت رأيها ذات مرة في صالح وليم، فأغضبت السيدة فيرارز، وأغضبت فاني أكثر، فلم ترَ ضرورة لتأكيد هذا الرأي مرة أخرى. ولما دعيت لإبداء رأيها أغضبتهن جميعاً بأن قالت: إنه لا رأي لها لأنها لم تفكر في الأمر قط.

وكانت إلينور قبل انتقالها من نورلاند قد رسمت لزوجة أخيها صورتين بالألوان، وثبتت الصورتين في إطارٍ وعلّقتهما في حجرة الاستقبال الحالية لتزيينها. وعندما دخل جون داشوود الحجرة وراء المدعوين، وقع بصره على هاتين الصورتين فناولهما بطريقة تنطوي على الفضول إلى كولونيل براندون ليستثير إعجابه بهما.

قال: «هاتان الصورتان من صنع أختي الكبرى! أعتقد أنك ستعجب بهما باعتبارك رجلاً سليم الذوق. ولا أدري هل سبق أن شاهدت إحدى صورها. ولكنها تُعدّ على العموم ممّن يجيدون فن الرسم».

ولم يدَّع كولونيل براندون أنه من أهل الخبرة، ولكنه أبدى من الإعجاب الشديد بالصورتين ما يُبديه بأية صورة من عمل الآنسة داشوود، وتحرّكت غريزة حبّ الاستطلاع في نفوس الآخرين

بالطبع، فأخذوا يتداولون الصورتين لفحصهما. ولم تكن السيدة فيرارز تدري أنّ الصورتين من عمل إلينور، فطلبت بإلحاح أن تطّلع عليهما، فقدّمتهما فاني لأمها بعد أن أعربت ليدي ميدلتون عن إعجابها بهما، وتلطفت فأخبرت أمها في الوقت نفسه أنهما من عمل الآنسة داشوود.

فهمهمت السيدة فيرارز وقالت: «جميلتان جداً» ثم أعادتهما إلى ابنتها بدون أن تنظر إليهما على الإطلاق.

ويظهر أن فاني رأت سلوك أمها قد اتّسم بالجفوة إذ قالت من فورها بعد أن تغيّر لونها قليلاً:

«إنهما جميلتان جداً يا سيدتي - أليس كذلك؟» ولكنها عادت خشية أن تكون قد جاوزت حدّ المجاملة وبالغت في عبارات التشجيع فأضافت في الحال:

«ألا ترين يا سيدتي أنّ طريقتها في التصوير تشبه إلى حدّ ما طريقة الآنسة مورتون؟ إنها ترسم أجمل الصور! ما أجمل المنظر الطبيعي الذي رسمته آخر مرة!».

«حقاً إنه جميل ولكنها تجيد كل شيء».

ولم تطق مريان ذلك - واشتد استياؤها من السيدة فيرارز. وسرعان ما استفزها هذا الثناء غير المناسب على امرأة أخرى بقصد الغضّ من إلينور، وإن لم يكن لديها أية فكرة عن القصد الرئيس منه فقالت بحدّة:

«هذا إعجاب كبير جداً! أين الآنسة مورتون منا؟ مَن ذا الذي يعرفها أو يهتم بها؟ إن إلينور هي التي نتكلم عنها ونفكّر فيها».

وبعد أن قالت ذلك أخذت الصورتين من يد زوجة أخيها لتُبدي إعجابها بهما كما ينبغي أن يكون الإعجاب. وبدا الغضب الشديد

على وجه السيدة فيرارز، ووقفت أشدّ ما تكون انتصاباً، وردّت بهذا الكلام البذيء:

«الآنسة مورتون هي ابنة اللورد مورتون!».

وبدا الغضب على وجه فاني أيضاً، وامتلأ زوجها رعباً من جرأة أخته. وتألّمت إلينور لما أبدته أختها من الحمية والحدّة أكثر ممّا تألمت للسبب الذي دفعها إلى ذلك. ولكن نظرات كولونيل براندون التي تركزت على مريان كانت تنطق بأنه لاحظ في مريان أحبّ الصفات فيها ألا وهو القلب الودود الذي لا يطيق أدنى إهانة لأختها.

ولم تقف عاطفة مريان عند هذا الحدّ، فقد خُيِّل إليها أنّ مسلك السيدة فيرارز الذي يتَّسم بالوقاحة والجفوة يخشى أن يسبِّب لأختها كثيراً من المتاعب والآلام التي أحسّ بها فؤادها الجريح إحساساً مقروناً بالفزع والهلع فاستفزّتها سورة قوية من عاطفة الحب، فانتقلت بعد هنيهة إلى كرسي أختها، ولفّت ذراعيها حول جيدها، وألصقت وجنتها إلى وجنتها، وقالت بصوت خافت ولكنه قوي:

«عزيزتي عزيزتي إلينور! لا تأبهي لهن! لا تسمحي لهن أن يُسئن إليك».

ولم تستطِع أن تقول أكثر من ذلك، إذ غلبها التأثر فأخفَت وجهها في كتف أختها وأجهشت بالبكاء - فاتّجهت إليها جميع الأنظار، واهتم الكلّ بالأمر فنهض كولونيل براندون، وذهب إليهما دون أن يدري ماذا فعل - وأعطتها السيدة جننجز أملاحها في الحال وهي تقول بعبارة تنطوي على الفهم: «آه! عزيزتي المسكينة!» وشعر سير جون بالغضب الشديد على من كان السبب في هذا الانهيار العصبي، لدرجة أنه غيّر مكانه في الحال وانتقل إلى مقعد مجاور

للوسي ستيل وقصّ عليها في همس حديثاً قصيراً عن هذا الحدث المزوع.

وما هي إلّا بضع دقائق حتى أفاقت مريان لتضع حداً لهذه الضجة وتجلس بين بقية الحاضرين، وإن ظلّ أثر هذا الحادث عالقاً بذهنها طول السهرة.

وقال أخوها لكولونيل براندون، بصوت خافت بمجرد أن تمكّن من استرعاء سمعه: «إنها لا تتمتع بصحة طيبة كأختها - فهي عصبية جداً وليست بنيتها قوية كبنية إلينور، ولا بدَّ للإنسان من التسليم بأن المرأة الجميلة التي فقدت محاسنها لا بدَّ أن تشعر بكثير من الألم. قد لا تتصور ذلك. ولكن مريان كانت رائعة الحسن منذ بضعة شهور، مثل إلينور تماماً، ولكنك ترى الآن أنّ كل ذلك قد ذهب».

مكتبة 707
سُر مَن قرأ

الفصل الخامس والثلاثون

شفَت إلينور غليلها برؤية السيدة فيرارز، ووجدت فيها كلّ ما من شأنه أن يجعل المزيد من الارتباط بين الأسرتين أمراً غير مرغوب فيه، ورأت من كبريائها ودناءتها وكراهيتها المتأصلة لها ما يكفي لأن تفهم كافة العقبات التي كانت تعرقل خطبتها لإدوارد، وتؤخِّر زواجها به، لو كان متحرراً من سلطان أمه، ورأت منها ما يدعو إلى تقديم الشكر لها لأنّ عقبة كبرى عصمتها من تجشّم كافة العقبات الأخرى من صنع السيدة فيرارز، عصمتها من أن تكون تحت رحمة أهوائها ونزواتها، أو تهتم باستجلاب رضاها: ورأت أنه ينبغي لها على الأقل - إذا لم يرقها زواج إدوارد بلوسي - أن تفرح بهذا الزواج فيما لو كانت لوسي أكثر رقّة ولطفاً.

وكانت تعجب من سرور لوسي بما تبديه لها السيدة فيرارز من ضروب المجاملة كما تعجب حين يُعميها الغرور والمصلحة الخاصة لدرجة تجعلها تتصور أن ما تظهره لها السيدة فيرارز من ضروب الرعاية والاهتمام لا لشيء إلا أنها ليست إلينور، إنما هو تحية لشخصها - أو تجعلها ترى بعض التشجيع في حب السيدة فيرارز الذي يرجع سببه الوحيد إلى جهلها بحقيقة أمرها ولم يتضح ذلك من نظرات لوسي في ذلك الوقت فحسب، بل لقد صرحت به مرة أخرى

صباح غد، حين أقلّتها ليدي ميدلتون - بناءً على رغبتها الخاصة - إلى بركلي ستريت أملاً في أن تتاح لها الفرصة لمقابلة إلينور على انفراد كي تُعرب لها عن سرورها.

وقد أسعدها الحظ بسنوح هذه الفرصة، إذ وردت رسالة من السيدة بالمر عقب وصولها بقليل، فاضطرت السيدة جننجز إلى الخروج.

قالت لوسي بمجرد أن خلا لها الجو: «صديقتي العزيزة! لقد جئت لكي أتحدث إليك عمّا أشعر به من السعادة. هل هناك ما هو أدعى للسرور من معاملة السيدة فيرارز لي بالأمس؟ كم كانت بشوشاً! أنت تعلمين كم كنت أخشى لقاءها. ولكن ما إن تعرّفتُ إليها حتى أبدت من البشاشة والهشاشة ما ينطق بأنها أحبتني. أليس كذلك؟ لقد رأيتِ كل شيء. ألم تدهشي له كل الدهشة؟».

«حقاً لقد كانت مؤدبة معك جداً».

«مؤدبة! ألم تلاحظي شيئاً إلا الأدب؟ لقد رأيت ما هو أكثر من ذلك، رأيت من العطف ما لم يظفر به أحد غيري! لا كبرياء، ولا غطرسة! ورأيت من زوجة أخيك مثل ذلك تماماً - كل رقة وبشاشة!».

وكانت إلينور تودّ أن تتحدث في أمر آخر، ولكن لوسي ألحّت عليها أن تعترف بأنها على حق في سرورها، فاضطرّت إلينور أن تسايرها.

قالت: «لا شك أنهما لو علمتا بأمر خطبتك لما كان أدعى إلى السرور من تلك المعاملة، أمّا والأمر بخلاف ذلك» فردت عليها لوسي في الحال: «لقد خامرني الظن بأنك ستقولين ذلك ولكن لا سبب إطلاقاً يدعو السيدة فيرارز إلى التظاهر بمحبتي إذا كانت لا

تحبني. وحبها لي هو كل شيء. لن تستطيعي أن تقنعيني بأنه لا داعي لسروري. إنني واثقة أن كل شيء سينتهي بخير، وأنه لن تنشأ عقبات على الإطلاق تحُول دون ما تعوّدت التفكير فيه. إن السيدة فيرارز امرأة جذابة، وكذلك زوجة أخيك. كلتاهما رائعتان حقاً! إني أعجب! إذ لم أسمعك تقولين قط: ما ألطف السيدة داشوود!».

فلم تجب إلينور ولم تحاول الإجابة.

«هل أنت مريضة، آنسة داشوود؟ يظهر أنك متوعكة - إنك لا تتكلمين، الظاهر أنك لست على ما يرام».

«لم أتمتع قطّ بصحة طيبة كما أتمتع الآن».

«إنني مسرورة من صميم فؤادي لسماع ذلك، ولكن الواقع أنّ مظهرك لا يدلّ على ذلك. إنه ليحزنني أن تكوني مريضة، أنتِ كنتِ لي أكبر سلوة في الدنيا! اللّه يعلم ماذا كنت أفعل لولا صداقتك».

وحاولت إلينور أن تردّ عليها رداً مهذباً، وإن خالجَها الشك في نجاح هذه المحاولة، ولكن يظهر أن ذلك أرضى لوسي لأنها أجابت على الفور:

«الواقع أنني مقتنعة تماماً بمحبتك لي. وهذه المحبة هي أكبر سلوة لي بعد محبة إدوارد. وارحمتاه لإدوارد! ولكن ثمة أمر يبعث على الرضا والسرور - سيكون في وسعنا أن نلتقي، ونلتقي أكثر من مرة، لأن ليدي ميدلتون معجبة بالسيدة داشوود، ولذلك أعتقد أننا سنلتقي كثيراً في هارلي ستريت وإدوارد يقضي نصف وقته مع أخته - وفضلاً عن ذلك فليدي ميدلتون والسيدة فيرارز ستزاوران الآن. وقد تفضلت السيدة فيرارز وزوجة أخيك فقالتا أكثر من مرة: إنه يسرهما أن ترياني. ما ألطفهما! وأنا واثقة أنه لن يكون في وسعك

أن تبالغي كثيراً إذا أتيحت لك الفرصة يوماً لتحدّثي زوجة أخيك عن رأيي فيها».

ولكن إلينور أبَت أن تشجّعها على الأمل في أنها ستخبر زوجة أخيها بذلك.

واستطردت لوسي تقول:

«إنني واثقة أنه لو كانت السيدة فيرارز تكرهني، لما فاتني أن ألاحظ ذلك في وقته، ولو أنها جاملتني مجاملة شكلية مثلاً دون أن تقول كلمة، ثم لم تلقَ لي بالاً بعد ذلك، أو تنظر إليّ نظرة لطيفة - وأنت تعرفين ما أقصده - لو أني عوملت هذه المعاملة البغيضة، لنفضتُ يدي يأساً من الأمر كله، ولما استطعتُ احتماله، لأني أعلم أنها إذا كرهت إنساناً أسرفت في كراهيته».

وفتح الخادم الباب، فحالَ بين إلينور والإجابة عن هذه الشماتة المهذبة، وأعلن قدوم السيد فيرارز، ودخل إدوارد في الحال.

وكانت لحظة حرجة جداً، كما بدا ذلك على وجوه الجميع. وأظهر الجميع من الغباء ما لا مزيد عليه، إذ وقف إدوارد متردداً بين الخروج من الحجرة، والدخول فيها خطوة أخرى، ووجدوا أنفسهم في المأزق الحرج الذي كان كلّ منهم يحرص على تحاشيه أشدّ الحرص، إذ لم يجتمعوا هم الثلاثة فحسب، بل اجتمعوا دون أن يكون معهم رابع يلطّف من حدة هذا الجرح. وأفاقت السيدتان أولاً من غشية الموقف. ولم يكن من شأن لوسي أن تبدأ بالكلام، بل كان يجب عليها أن تتظاهر بالكتمان، لذلك لم يسعها إلا أن تنظر نظرة تفيض بالرقة والحنان، وتحدثت إليه حديثاً قصيراً ثم أمسكت عن الكلام.

ولكن إلينور احتفت بمقدَمِه أكثر من ذلك. وكانت تحرص على

إظهار الحفاوة به، من أجله ومن أجل نفسها، فأقبلت بعد لحظة ملكت فيها جأشها على الترحيب به بنظرة ولهجة تكاد تخلو من التكلف وتتسم بالصراحة، ثم تشجّعت وتجلّدت، فبالغت في الترحيب به. ولم يمنعها وجود لوسي ولا امتعاضها لما ارتكبته من إساءة في حقها من التعبير عن سرورها برؤيته وأسفها لوجودها خارج المنزل حينما زارها في بركلي ستريت. ولم تمنعها نظرات لوسي - وإن لاحظت أنها تراقبهما من كثب - من إبداء ما يستحقه بوصفه صديقاً وقريباً من ضروب الرعاية والاهتمام.

وقد أدخل هذا الترحيب بعض الطمأنينة في نفس إدوارد، فتشجع على الجلوس، ولكن الحرج الذي شعر به كان يفوق ما شعرت به السيدتان، وكان في الموقف ما يبرّره، وإن كان هذا الحرج نادراً في أبناء جنسه، لأن قلبه لم يعرف الاستهتار الذي اتصفت به لوسي، وضميره لم يشعر بالراحة التي شعر بها ضمير إلينور.

وتظاهرت لوسي بالحشمة والرزانة، وبدت وكأنها مصمِّمة على عدم المشاركة في إدخال السرور على غيرها، فأبت أن تقول كلمة واحدة، وتحمَّلت إلينور عبء الكلام، واضطرت أن تتطوع بالإدلاء لإدوارد بسائر المعلومات عن صحة والدتها وقدومهن إلى لندن. . إلخ، مما كان ينبغي لإدوارد السؤال عنه بنفسه ولكنه أبى أن يفعل.

ولم تقف رباطة جأشها عند هذا الحدّ، إذ لم تلبث أن استشعرت الشجاعة فصمَّمت أن تتركهما على انفراد وتعلَّلت بأنها ذاهبة لإحضار مريان وفعلت ذلك بألطف أسلوب، إن تريثت بضع دقائق على منبسط الدرج بكلّ صبر وجلد قبل أن تذهب لأختها، ولكن ما إن فعلت ذلك حتى انتهت فرحة إدوارد، إذ دفع السرور

مريان إلى الدخول في الحال في حجرة الاستقبال وكان سرورها بلقائه ككلّ شعور من مشاعرها، قوياً في ذاته، وقوياً في عبارته فصافحته بحرارة، وبصوت يعبّر عن محبّة الأخت لأخيها.

صاحت: «عزيزي إدوارد! هذه لحظة من لحظات السعادة العظيمة - إنّ هذه اللحظة تكاد تكفِّر عن كل شيء».

وحال إدوارد أن يردّ التحية بمثلها ولكنه لم يجرؤ أن يعبّر عن نصف ما يشعر به أمام هؤلاء الشهود. ثم عدن فجلسن جميعاً، ولذن بالصمت دقيقة أو دقيقتين، بينما كانت نظرات مريان تعبّر عن أشدّ الحنان، تارة تنظر إلى إدوارد وتارة إلى إلينور، غير آسفة إلّا لأن وجود لوسي البغيض يحدّ من فرحة كلّ منهما بلقاء الآخر. وكان إدوارد أوّل مَن تكلم فلاحظ تغيّر وجه مريان وقال: إنه يخشى أن يكون جو لندن لا يناسبها.

فأجابت بحدّة، وإن اغرورقت عيناها بالدموع وهي تتكلم: «ويْ! لا تفكّر فيَّ! لا تفكِّر في صحتي! إلينور بصحة جيدة كما ترى. وهذا يكفي!».

وزاد هذا القول من حرج إدوارد وإلينور، كما أنه لم يُرضِ لوسي التي حدجت مريان بنظرة لا تنمّ عن العطف.

وقال إدوارد، الذي أراد أن يقول شيئاً يتخلّص به إلى موضوع آخر: «هل تحبين لندن؟».

«كلا! على الإطلاق. لقد توقعت أن أرى فيها الكثير ممّا يسرني، ولكني لم أجد شيئاً. وإن رؤيتك يا إدوارد هي السلوة الوحيدة التي ظفرت بها في لندن. والحمد للّه! فأنت كما كنت دائماً!».

ثم سكتت، ولم يتكلم أحد.

وقالت بعد قليل: «أعتقد يا إلينور أنه يجب علينا أن نستعين بإدوارد في أن يرافقنا في عودتنا إلى بارتون وأظن أننا سنسافر بعد أسبوع أو أسبوعين، وأنا أعتقد أن إدوارد لن يحجم عن القيام بهذه المهمة».

وتمتم إدوارد المسكين ببضع كلمات، ولكن أحداً لم يدرِ ما قال، حتى هو نفسه. بيدَ أنّ مريان التي لاحظت ارتباكه واستطاعت أن تعزوه بسهولة إلى أيّ سبب يروق لها شعرت بالارتياح التام وسرعان ما تحدثت في موضوع آخر.

«لقد قضينا يوماً بالأمس يا إدوارد في هارلي ستريت ويا له من يوم! يوماً عبوساً قمطريراً! ولكن لديَّ الكثير ممّا أود أن أقوله لك في هذا الموضوع، ولا يمكن أن أقوله الآن».

وبهذا التصرُّف الحكيم أرجأت التحدُّث إليه فيما بدا من أقاربهما من فظاظة وامتعاضها من أمه بصفة خاصة إلى أن تتهيأ الفرصة للحديث على انفراد.

«ولكن لماذا لم تكن هناك يا إدوارد - لماذا لم تحضر؟».

«كنت مرتبطاً بموعد في مكان آخر».

«مرتبطاً بموعد! ولكن كيف ترتبط بهذا الموعد في الوقت الذي تقرّر فيه التقاء مثل هؤلاء الأصدقاء؟».

فصاحت لوسي وهي تتوق للتشفي من مريان «أنت تعتقدين أنّ الشبان لا يتمسكون بمواعيدهم قط إذا لم يميلوا إلى الوفاء بها تافهة كانت أم هامة».

فاغتاظت إلينور، ولكن مريان بدت وكأنها لم تشعر بهذه الغمرة إطلاقاً إذ أجابت بهدوء:

«ليس الأمر في الواقع كذلك لأني أقول بلهجة الجدّ: إنني

متأكدة أنّ ضمير إدوارد هو الذي منعه من الحضور إلى هارلي ستريت وأعتقد حقاً أنّ له أرقّ ضمير في العالم، وأشدّه حرصاً على مراعاة أي موعد مهما كان تافهاً، ومهما كان مخالفاً لمصلحته أو رغبته، وهو أشد الناس خوفاً من إيلام الناس وإخلاف ظنهم وأبعد من الأنانية من أي إنسان عرفته. إدوارد! الأمر كما قلت، وسأظلّ أقول ذلك. عجباً! أتخجل أن تسمع ثناء الناس عليك! إذن يجب ألا تكون صديقاً، لأن مَن يقبل محبتي وتقديري يجب أن يقبل ثنائي الصريح».

على أنّ طبيعة ثنائها في القضية الحالية، لم يصادف هوى في نفوس ثلثي سامعيها، ولم يبعث سروراً كبيراً في نفس إدوارد، فلم يلبث أن قام لينصرف.

قالت مريان: «أتنصرف بمثل هذه السرعة يا عزيزي إدوارد؟ إنّ هذا يجب ألّا يكون».

وانتحت به جانباً وهمست في أذنه أن لوسي لن تلبث أن تنصرف. ولكن حتى هذا التشجيع لم يحمله على البقاء، بل أصرّ على الانصراف. وسرعان ما انصرفت لوسي وهي التي ما كانت لتنصرف لو استمرت زيارته ساعتين.

وقالت مريان عند انصرافها: «ماذا يحملها على تكرار الزيارة لنا! إنها رأت أننا أردنا أن نخرج! ما أشدّ ما سبّبته لإدوارد من الكدر!».

«لماذا تقولين ذلك؟ لقد كنا جميعاً صديقاته. وقد عرف لوسي قبل أن يعرفنا. ومن الطبيعي أن يحبّ أن يراها كما يرانا نحن».

فصوّبت إليها مريان النظر وقالت: «أنت تعرفين يا إلينور أنني لا أطيق هذا النوع، من الحديث. وإذا كنت لا تريدين بذلك إلا أن

أناقض كلامك - وهو ما أظن أنك تريدينه - فإنه ينبغي لك أن تذكري أنني آخر امرأة في العالم تفعل ذلك. إنني أربأ بنفسي أن يخدعني أحد حتى ينتزع مني أقوالاً لا داعي لها في واقع الأمر».

ثم غادرت الحجرة، ولم تجرؤ إلينور أن تتبعها لتقول لها شيئاً، لأنها سبق أن وعدت لوسي بكتمان أمرها، فلم يكن في وسعها أن تفضي لمريان بأية معلومات تقنعها، ولم يكن بدّ من أن تذعن إلينور للأمر مهما كانت نتائج استمرار مريان في خطئها أليمة. وكل ما كانت ترجوه ألّا يعرِّضها إدوارد أو يعرض نفسه كثيراً للألم الناجم عن سماع حدّة مريان الخاطئة، ولا إلى تكرار شيء من الألم الذي صاحَبَ لقاءهما الأخير - وكان لديها من الأسباب ما يحملها على توقع ذلك.

الفصل السادس والثلاثون

أعلنت الصحف إلى العالم في غضون أيام قلائل بعد ذلك الاجتماع أن السيدة زوجة السيد توماس بالمر المحترم قد وضعت بسلام ذكراً ووريثاً. وهو خبر يبعث السرور والارتياح في نفوس جميع الأقارب الذين كانوا يعرفون الأمر، على الأقل.

وترتَّب على هذا الحادث الذي أسعد السيدة جننجز كثيراً تغيير مؤقت في تنظيم وقتها، كما أثّر في مواعيد صديقتيها الصغيرتين. ذلك أنها أرادت أن تكون بجانب شارلوت ما أمكن فكانت تذهب إليها صباح كل يوم بمجرد أن ترتدي ملابسها ولا تعود إلّا في ساعة متأخرة من الليل، كما كانت الآنستان داشوود تقضيان سحابة اليوم في كندوي ستريت بناءً على طلب آل ميدلتون. وكانتا تؤثران - حرصاً على راحتيهما - أن تبقيا طول فترة الصباح على الأقل في منزل السيدة جننجز، ولكنهما لم تتمسكا بذلك، لأنه كان يخالف رغبة الجميع. ولذلك كانتا تقضيان وقتهما مع ليدي ميدلتون والآنستين ستيل وكان هؤلاء لا يملن إلى صحبتهما كثيراً بقدر ما كن يطلبنها بصراحة.

وكان لديهما من وفور العقل والذكاء ما لا يُرغِّب الأولى في صحبتهن، وكانت الأخريان تنظران إليهما بعين الحسد، لأنهما

تطفلتا على أرضهما، وشاركتاهما العطف الذي أرادتا أن تحتكراه لنفسيهما. وكانت ليدي ميدلتون لا تحب إلينور ومريان في الواقع على الرغم من حسن معاملتها لهما، ولا تعتقد أنهما تتصفان بالرقة واللطف لأنهما لم يتملقاها هي وأولادها، بل تتهمهما بالميل إلى الهجاء لولعهما بالقراءة وربما دون أن تعرف تماماً ما هو الهجاء. ولكن ذلك لا يهم لأنه كان من الشائع أنه ضرب من اللوم والذم، يمكن توجيهه إلى الناس بسهولة.

وكان وجودهما قيداً عليها هي ولوسي، إذ حالَ دون كسل الأولى، وعمل الأخرى، فكانت ليدي ميدلتون تخجل من عدم قيامها بأي عمل أمامهما، ولوسي تخشى أن تحتقراها لما تبديه من التملّق الذي تفخر بالتفكير فيه أحياناً وبإظهاره أحياناً أخرى. وكانت الآنسة ستيل هي أقل الثلاثة تبرماً بوجودهما، وإن كان في مقدورهما أن ينالا رضاها التام عن ذلك. ولو أن إحداهما حدّثتها عن قصة مريان وولبي حديثاً شافياً وافياً لرأت في ذلك عوضاً كافياً عن تضحيتها بأحسن مكان بجانب المدفأة عقب طعام الغداء، وهي التضحية التي نشأت عن وجودهما، ولكنهما لم تعملا على إرضائها، لأنه على الرغم من أنها أعربت لإلينور مراراً عن عطفها على مريان، وعلى الرغم من أنها أنحت باللائمة على العشاق أمام مريان أكثر من مرة، لم يكن لذلك أي أثر اللهم إلا نظرة تدلّ على عدم الاكتراث من جانب الأولى، وعلى الامتعاض من جانب الأخرى. على أنه كان في وسعهما أن يكسبا صداقتها بمجهود أيسر من ذلك ألا وهو التندّر عليها بشأن الدكتور! ولكنهما قلما كانتا تميلان إلى إرضائها، شأنهما في ذلك شأن غيرهما إلى حدّ أنها قد تقضي اليوم كله - إذا تغدى سير جون خارج المنزل - دون أن

تسمع نكتة واحدة عن هذا الموضوع اللهم إلّا ما تتكرم به هي على نفسها.

على أن السيدة جننجز لم تلاحظ إطلاقاً هذا الحسد ولا هذا الاستياء، حتى لقد كانت ترى أن اجتماع الفتيات معاً من دواعي سرورهن، وتهنئ بوجه عام صديقتيها الصغيرتين كل ليلة بنجاتهما من صحبة امرأة غبية طيلة هذا الوقت وكانت تلحق بهن أحياناً في منزل سير جون، وأحياناً في منزلها هي. وأينما التقت بهما كانت تشعر بملء السرور والفخر، وتعزو إلى عنايتها حسن حال شارلوت، وتصف حالتها وصفاً دقيقاً على الوجه الذي يرضي فضوله الآنسة ستيل وحدها. وكان لا يزعجها سوى شيء واحد، تدأب على الشكوى منه كل يوم، ألا وهو تمسُّك السيد بالمر بالرأي الشائع بين أبناء جنسه، الذي لا يتفق مع عطف الأبوة، وهو أن الأطفال كلهم سواء. ومع أنها كانت تلاحظ بجلاء في مختلف الأوقات أكبر شبه بين هذا المولود وكلّ طفل من أقاربه من جهة أمه وأبيه، لم تجد سبيلاً لإقناع أبيه بوجود هذا الشبه، ولا سبيلاً لحمله على الاعتقاد أنه لا يشبه تماماً أي طفل آخر، ولا سبيلاً لحمله على الاعتراف بهذه القضية البسيطة، وهو أنه أجمل طفل في العالم.

والآن أنتقل إلى قصة الكارثة التي نزلت بالسيدة جون داشوود في ذلك الوقت، وذلك أنه اتفق أن قدِمت إحدى صديقاتها لزيارتها في أثناء زيارة أختَي زوجها لها بصحبة السيدة جننجز في هارلي ستريت لأول مرة، وهو حادث في حدّ ذاته لا يُحتمل فيما يظهر أن يجلب شيئاً من الضرر، ولكن حينما يجمع الخيال بالناس إلى تكوين أحكام خاطئة عن سلوكنا، والحكم عليه بظواهر الأمور البسيطة، فلا شك أن سعادة الإنسان تصبح إلى حدٍّ ما تحت رحمة

المصادفات دائماً. وفي الحادث الراهن جمح الخيال بهذه السيدة حتى جاوز حدّ الحقيقة والاحتمال، فحكمت بمجرد أن سمعت اسم الآنستين داشوود، وعلمت بأنهما أختا السيد داشوود، أنهما يقيمان في هارلي ستريت، وأدى بها هذا الفهم الخاطئ إلى أن أرسلت بعد يوم أو يومين بطاقات دعوة للآنستين ولأخيهما وزوجته لحضور حفلة موسيقية بمنزلها. وترتَّب على ذلك أن اضطرت السيدة جون داشوود إلى أن تتجشّم مشقة كبيرة، ألا وهي إرسال عربتها للآنستين داشوود، وأدهى من ذلك أن تتجشم مشقة التظاهر بحسن معاملتهما، ومَن يدري أنهما قد لا تتوقعان الخروج معها مرة أخرى؟ صحيح أنها هي صاحبة الرأي في خروجهما معاً ولكن الأمر لن يقف عند هذا الحد، لأنّ الناس إذا اعتادوا اتّباع طريقة من السلوك يعلمون أنها خاطئة، استاءوا إذا طلب إليهم أن يتبعوا طريقة أمثل.

ثم اعتادت مريان تدريجياً الخروج كلّ يوم بحيث أصبحت لا تُبالي خرجت أو لم تخرج، وكانت تستعدّ لكلّ موعد في المساء بطريقة آلية وهادئة، ولكن بدون أن تتوقع من هذا الموعد أية تسلية، وبدون أن تدري في أغلب الأحيان أين تذهب إلّا في اللحظة الأخيرة.

وأصبحت لا تهتمّ أي اهتمام بملبسها ومظهرها بحيث لا توليهما خلال فترة زينتها كلها نصف الاهتمام الذي تُبديه الآنسة ستيل خلال الدقائق الخمس الأولى من اجتماعهما معاً، وهي الفترة التي تنتهي فيها مريان من تلك الزينة.

وكانت الآنسة ستيل لا ترى شيئاً دون أن تسأل عنه، فكانت ترى كلّ شيء وتسأل عن كل شيء، ولا يهدأ لها بال حتى تعرف

ثمن كلّ جزء من ملابس مريان. وكان في وسعها أن تقدِّر عدد ملابس مريان تقديراً أصح من تقديرها هي نفسها. ولم تتخلَّ عن الأمل في أن تعرف قبل افتراقهما كم تنفق مريان على غسل ملابسها كلّ أسبوع، وعلى نفسها في كل عام. زدْ على ذلك أنها كانت تختم الوقاحة التي يتسم بها مثل هذا النوع من الأسئلة بعبارات الثناء التي يُراد بها التلطيف من حدّة هذه الوقاحة، ولكن مريان كانت تعدّها غاية الوقاحة، إذ كانت بعد الأسئلة الدقيقة عن قيمة ملابس مريان وعلامتها التجارية ولون حذائها وتسريحة شعرها تؤكد لمريان بشرفها أنها تبدو غاية في الأناقة وأنها ستغزو قلوب كثير من الرجال.

وبمثل هذه العبارات المشجعة خرجت مريان في ذلك الوقت لتركب عربة أخيها. وركبتا فيها بعد خمس دقائق من وقوفها بالباب، وهي دقّة في المحافظة على المواعيد لم ترق كثيراً في نظر زوجة أخيهما التي سبقتهما إلى دار صاحبتها، وهي تتوقع أن تتأخرا عن الحضور تأخيراً يضايقها أو يضايق السائق.

ولم يحدث في السهرة ما هو جدير بالذكر، فقد ضمّ الحفل - كأي حفل موسيقي آخر - عدداً كبيراً من الناس يتذوقون الموسيقى حقاً، وعدداً أكبر لا يتذوقونها على الإطلاق. وكان العازفون أنفسهم في تقديرهن وتقدير أصحابهن المقربين هم أوائل العازفين الخصوصيين في إنجلترا كما جرت العادة.

ولما كانت إلينور لا تعرف الموسيقى ولا تدّعي ذلك، لم تتحرج من أن تصرف النظر عن البيانو العظيم متى حلا لها ذلك، بل إن القيثارة والكمان الجهير لم يستلفتا نظرها، فأخذت تردِّد النظر كما تشاء في أي شيء في الحجرة. وفي أثناء هذه النظرات الشاردة

وقع بصرها بين ثلة من الرجال على الرجل نفسه الذي أعطى محاضرة عن علب عيدان الأسنان في محل غراي، وسرعان ما رأت بعد ذلك أن ينظر إليها ويتحدث مع أخيها بلا كلفة. وإنها لتهمّ بالاستفسار من أخيها عن اسمه وإذا بهما يدلفان إليها. فقدّمه السيد داشوود إليها باسم السيد روبرت فيرارز.

فتحدّث معها برقة وأدب وأحنى رأسه على شكل قوس بما يؤكد بوضوح يعادل وضوح العبارة أنه هو عين المذكور الذي سمعت لوسي تتحدث عنه. وما كان أسعدها لو كان حبها لإدوارد يعتمد على مزاياه الخاصة أقل من اعتماده على مزايا أقاربه الأدنين! إذن لكانت انحناءة أخيه هي الضربة القاضية بعد كلّ الذي رأته من سوء طباع أمه وأخته. ولكنها إذ عجبت للاختلاف بين الرجلين لم يحملها تفاهة أحدهما وغروره، على الغض من فضل الآخر وتواضعه وقد شرح لها روبرت نفسه سرّ اختلافهما في أثناء حديثه الذي استغرق ربع ساعة إذ تأسف في حديثه عن أخيه على الحماقة التي حالت - فيما يعتقد - بين إدوارد والاختلاط بالعناصر الطيبة في المجتمع، وعزا ذلك بصراحة إلى كارثة التعليم الخاص أكثر ممّا عزاها إلى أيّ نقص طبيعي في أخيه، في حين أنه هو نفسه استطاع أن يختلط بالمجتمع كأيّ إنسان آخر، وإن كان ذلك لا يرجع إلى مواهب طبيعية فائقة خاصة، وإنما يرجع إلى أنه تلقى تعليمه في مدرسة عامة.

وأضاف: «لعمري أنّ الأمر لا يعدو أن يكون كذلك. وهكذا أقول لأمي كثيراً حينما تتأسف على هذا الأمر. أقول لها دائماً: «لا تأسفي يا سيدتي العزيزة! إنّ العلة لا يمكن علاكها الآن، ولقد كان ذلك من صنع يديك. لماذا أذعنت لرأي عمي سير روبرت وعدلت

عن رأيك، فأرسلت إدوارد إلى مدرسة خاصة في أحرج أوقات حياته؟ لو أنك أرسلته إلى وستمنستر كما أرسلتني أنا بدلاً من إلحاقه بمدرسة السيد برات لما حدث كل ذلك». هذا هو رأيي في الأمر دائماً وأمي مقتنعة بخطئها تماماً.

ولم تعارضه إلينور في هذا الرأي لأنه مهما يكن تقديرها العام لمزايا المدارس العامة فإنه لم يسعها أن تنظر بعين الارتياح إلى إلحاق إدوارد بمدرسة السيد برات.

ثم قال بعد ذلك: «أظن أنك تقيمين في ديفونشاير في منزل ريفي بالقرب من دولش».

فصحَّحت له إلينور موقع المنزل، وكان يرى بعض الغرابة في أن يقيم أحد في ديفونشاير دون أن يقيم بالقرب من دولش، على أنه أعرب عن استحسانه القلبي لنوع المنزل.

قال: «إنني شخصياً أحب المنازل الريفية حباً جماً، فهي تهيئ للإنسان كثيراً من وسائل الترويح عن النفس، وتمتاز بالكثير من الرشاقة. وأؤكد أنه لو كان لي بعض المال لاشتريت قطعة أرض صغيرة، وبنيت عليها منزلاً ريفياً على مسافة صغيرة من لندن حتى أستطيع أن أستقل عربتي إليه في أي وقت مع «شلة» من الأصدقاء، وأتفيأ ظلال السعادة في رحابه، وقد جاءني صديق لورد كورتلاند منذ بضعة أيام بقصد استشارتي، وعرض عليَّ ثلاثة تصميمات مختلفة لمنزل بونومي وطلب إليَّ أن أختار أحسنها، فما كان مني إلّا أن ألقيتها جميعاً في النار، وقلت له: لا تختر واحداً منها، بل شيّد منزلاً ريفياً بأية وسيلة وأظنّ أنه سينتهي إلى هذا الرأي».

«ويظن بعضهم أن المنزل الريفي تنقصه وسائل الراحة

والرفاهية، كما تنقصه السعة والرحابة. ولكن ذلك غير صحيح. لقد زرتُ في الشهر الماضي منزل صديقي إليوت بالقرب من دارتفورد، وأرادت ليدي إليوت أن تقيم حفلة راقصة فقالت: «كيف يمكن إقامة هذه الحفلة؟ عزيزي السيد فيرارز، أخبرني ماذا أفعل، فليس في هذا المنزل الريفي حجرة تتّسع لعشرة أزواج؛ وأين يمكن تقديم طعام العشاء؟» وبدا لي على الفور أنه لا عقبة في الأمر إطلاقاً، فقلت: «عزيزتي ليدي إليوت؛ لا تنزعجي! قاعة الطعام تتسع لثمانية عشر زوجاً بسهولة. وموائد الورق يمكن وضعها في حجرة الاستقبال والمكتبة يمكن فتحها لتناول الشاي والمرطبات الأخرى. وطعام العشاء يمكن تناوله في الصالون».

فسرت ليدي إليوت بهذه الفكرة وتمّت إقامة الحفلة على نحو ما اقترحتُ تماماً ومن ذلك ترين في الواقع أنه إذا عرف الناس كيف يدبّرون أمورهم تهيأت لهم أسباب الراحة سواء في المنزل الريفي أو في أكثر المنازل رحباً وسعة».

فوافقت إلينور على كلّ ما قال لأنها لم ترَ أن كلامه يستحق تحية المعارضة المنطقية.

وكان جون داشوود كأخته الكبرى لا يهوى الموسيقى، فانصرف ذهنه إلى التفكير في أمر آخر، فخطرت له فكرة أفضى بها إلى امرأته لتوافق عليها عندما يعودان إلى المنزل. ذلك أنّ الظن الخاطئ الذي حمل السيدة دينيسون على الاعتقاد بأن أختيه هما ضيفتان عليه أوحى إليه أنه يحسن به أن يدعوهما لينزلا عنده كذلك في أثناء غياب السيدة جننجز عن المنزل للوفاء بمواعيدها. وقال: إن نفقات ضيافتهما لن تكون كبيرة والمشقة لن تكون أكبر. وفضلاً عن ذلك فإن هذه الدعوة ستكون لفتة كريمة يُحدِّثه ضميره أنها

ستحله إحلالاً تامّاً من عهدة وعده لأبيه، فما كان من فاني إلّا أن ذعرت لهذا الاقتراح.

فقالت: «لا أدري كيف يمكن تنفيذ هذا الاقتراح دون الإساءة إلى ليدي ميدلتون لأنهما تقضيان كلّ يوم معها، وإلا فإنه يسرني غاية السرور. وأنت تعرف أنني على استعداد دائم لأن أوليهما كلّ رعاية في مقدوري، كما فعلت حين اصطحبتهما معي في هذه السهرة. ولكنهما ضيفتان على ليدي ميدلتون وكيف أدعوهما إلى تركها؟».

ولم يقتنع زوجها بقوة معارضتها، ولكنه أبدى خنوعاً شديداً «لقد قضتا بالفعل أسبوعاً على هذا النحو في كوندوي ستريت، ولا يمكن أن تستاء ليدي ميدلتون من السماح لهما بزيارة أقاربهما مثل هذا العدد من الأيام».

وسكتت فاني برهة ثم قالت بحدة:

«يا حبيبي! أنا لا أتردَّد في دعوتهما إذا كان ذلك في مقدوري، ولكني نويت في قرارة نفسي أن أدعو الآنستين ستيل لقضاء بضعة أيام معنا. إنهما آنستان مؤدبتان ورقيقتان وأظن أنهما جديرتان بالرعاية كما أحاط لهما إدوارد برعايته. وأنت تعلم أنه في وسعنا أن ندعو أختيك في عام آخر. ولكن الآنستين ستيل قد لا تأتيان إلى لندن مرة أخرى وأنا واثقة أنك ستحبهما. الواقع أنت تعلم أنك أحببتهما كثيراً من قبل. وكذلك والدتي تحبهما، كما أنّ هاري يحبهما!».

فاقتنع السيد داشوود بقولها، ورأى ضرورة دعوة الآنستين ستيل في الحال وارتاح ضميره بالعزم على دعوة أختيه في عام آخر. ولكنه

في الوقت نفسه رأى في مكر وخبث أنّ إرجاء الدعوة عاماً آخر سيجعل هذه الدعوة لا ضرورة لها إذ ستحضر إلينور إلى لندن كزوجة كولونيل براندون ومريان بصفتها زائرة لهما.

فرحت فاني لتخلّصها من دعوتهما، وشعرت بالزهو والفخر لحضور بديهتها التي مكَّنتها من هذا التخلّص فكتبت في صباح الغد إلى لوسي تدعوها وأختها إلى زيارتها بضعة أيام في هاري ستريت بمجرد أن تسمح لهما ليدي ميدلتون. بذلك وكان هذا كافياً لإدخال السرور على قلب لوسي وشعورها بالسعادة الحقة، فقد بدا لها أن السيدة داشوود تعمل لمصلحتها هي نفسها، وأنها تشاطرها آمالها، وتعمل على تحقيق أغراضها! ولا ريب أنّ إتاحة مثل هذه الفرصة للاجتماع بإدوارد وأسرته هي قبل كلّ اعتبار أكبر شيء يخدم مصلحتها، وأن مثل هذه الدعوة هي أكبر باعث على سرورها! لقد كانت هذه الدعوة منه يقصر دونها الشكر، ولا يجوز التواني عن استغلالها. وتبيّن لهما أن زيارتهما لليدي ميدلتون التي لم تجدّد مدتها من قبل ستنتهي بعد يومين.

ولما اطّلعت إلينور على بطاقة الدعوة بعد وصولها بعشر دقائق شاركت لوسي لأول مرة بعض ما توقعته من آمال لأن مثل هذا المظهر من مظاهر العطف غير العادي الذي بدا بعد معرفة قصيرة الأمد، يدلّ على أنّ مصدره أمر آخر غير مجرد، الحقد على إلينور، ويمكن أن يؤدي بفعل الزمن وبفضل ذلاقة اللسان إلى تحقيق كلّ ما تتمناه لوسي، فقد استطاعت بالملق والرياء أن تخفِض من كبرياء ليدي ميدلتون، وأن تتغلغل إلى قلب السيدة جون داشوود، وهاتان النتيجتان تفتحان باب الأمل في حدوث ما هو أعظم.

وانتقلت الآنستان ستيل إلى هارلي ستريت. وكان كلّ ما بلغ

إلينور عن تأثيرهما يقوي لديها احتمال ما تتوقعه من أمور. فقد زارهما سير جون أكثر من مرة وعاد يقصّ عليهما ما لقيتاه من مظاهر الحب والعطف الرائعة. فلم تسرّ السيدة جون داشوود قط سرورها بلقاء هاتين الفتاتين. وأعطت كلّ واحدة منهما مأبرة من صنع بعض المهاجرين، ونادت لوسي باسمها الحقيقي، ولم تدرِ كيف تطيق فراقهما يوماً ما.

الفصل السابع والثلاثون

تحسنت صحة السيدة بالمر بعد أسبوعين، فرأت أمها أنه لم يعُد ثمة داعٍ لأن تنقطع إليها، فعادت إلى منزلها بعد تلك المدة مكتفيةً بزيارتها مرة أو مرتين كل يوم، وعادت إلى ممارسة ما اعتادته، ووجدت الآنستين داشوود على استعداد كبير لمشاركتها من جديد في هذه العادات.

وفي صباح اليوم الثالث أو الرابع، بعد أن عدن فاستقررن في بركلي ستريت على هذا النحو، عادت السيدة جننجز من زيارتها المعتادة، وأسرعت بدخول حجرة الاستقبال حيث جلست إلينور بمفردها، على نحو ينطوي على مغزى بحيث أعدَّ ذهن إلينور لسماع نبأ عجيب، ولم تمهل إلينور إلا ريثما دارت بخلدها هذه الفكرة، فقالت من فورها ما حقق ظنها:

«رباه! عزيزتي آنسة داشوود! هل سمعت الخبر؟».

«كلا يا سيدتي! ما هو؟».

«خبر غريب جداً! ولكني سأقصّه عليك كله - عندما وصلت إلى منزل شارلوت، وجدتها في حالة قلق شديد على الولد. اعتقدتُ أنه مريض جداً - بكى وتململ وتناثرت على جلده البثور، فنظرت إليه في الحال وقلت: «رباه! عزيزتي ليس في الأمر سوى طفحٍ

جلدي». وقالت الممرضة مثل ذلك. ولكن شارلوت أبَت أن تقتنع. لذلك استدعينا السيد دنافان، ولحسن الحظ كان آتياً لتوه من هارلي ستريت، فدخل في الحال، وما إن رأى الطفل حتى قال ما قلناه، وإن كل ما في الأمر أنه يشكو من طفح جلدي، وحينئذٍ اطمأن بال شارلوت - وفيما كان يهم بالخروج خطر ببالي - ولا أدري كيف اتفق لي أن أفكِّر في ذلك - أن أسأله: أهناك أخبار؟ فتكلّف الابتسام عند ذلك، وتجهّم وجهه، وبدا عليه أنه يعرف نبأ ما، وأخيراً همس في أذني قائلاً: «خوفاً من أن يبلغ الآنستين اللتين تقيمان في كنفك خبر سيئ عن مرض زوجة أخيهما أظن أنه يحسُن بي أن أقول: إنني أعتقد أنه لا مبرّر للخوف. وأرجو أن تتماثل السيدة داشوود للشفاء».

«وَيْ! هل فاني مريضة؟».

«هذا ما قلته تماماً يا سيدتي». فقلت: «رباه! هل السيدة داشوود مريضة؟» ثم اتضح لي كل شيء. وخلاصة الأمر حسبما علمت أن السيد إدوارد فيرارز، وهو عين الشاب الذي اعتدتُ أن أمزح معك في شأنه (ومع ذلك يسرني كثيراً - كما اتضح في النهاية - أن الأمر لم تكن فيه قط أية ذرة من الحقيقة) أن السيد فيرارز - فيما يبدو - عقد خطبته منذ أكثر من عام على ابنة عمي لوسي! - وهذا نبأ لك خاصة يا عزيزتي! - ولا يعلم مخلوق أيّ حرف عنه سوى نانسي! - أكان يدور بخلدك أنّ هذا يمكن أن يحدث؟ لا شيء يدعو إلى العجب في أن يحب كلّ منهما الآخر، ولكن أن يصل الأمر بينهما إلى هذا الحدّ دون أن يعلم به أحد! إن هذا لأمر عجاب! - لم يتفق لي قط أن رأيتهما معاً وإلا لاكتشفت السرّ من فوري. ولكنهما تكتما الآمر خوفاً من السيدة فيرارز، فلم تعلم عنه

شيئاً لا هي ولا أخوك ولا زوجة أخيك - إلا في صباح هذا اليوم إذ أفشت نانسي المسكينة السرّ كله، وهي كما تعلمين إنسانة حسنة النيّة، لا تلقي القول على عواهنه. قالت في نفسها: «رباه! إنهن جميعاً يحببن لوسي، ومن المؤكد أنهن لن تقمن عقبات في الأمر». وعلى ذلك توجهت إلى زوجة أخيك التي كانت تجلس بمفردها، وقلما خطر ببالها ما ستحدِّثها به نانسي - لأنها قالت لأخيك منذ قليل - منذ خمس دقائق فقط - إنها تفكّر في تزويج إدوارد من بنات أحد اللوردات - نسيت اسمها. ولذلك ففي وسعك أن تتصوري كم كانت الضربة أليمة لغرورها وكبريائها! فتهاوت من فورها وتشنَّجت، وهي تصرخ صراخاً عالياً وصل إلى مسامع أخيك، وهو جالس في حجرة الزينة والملبس في الطبقة السفلى، يفكِّر في كتابة خطاب لوكيله في الريف، فطار على الفور، وحدثت ضجة هائلة، إذ حضرت لوسي في ذلك الوقت وقلّما خطر ببالها ما حدث يا لها من مسكينة! إني أرثي لحالها. وأرى لزاماً عليَّ أن أقول: إنها عوملت بقسوة لأنّ زوجة أخيك أوسعتها لوماً وتعنيفاً، فغشي عليها في الحال. أما نانسي فقد جثت على ركبتيه، وأخذت تذرف الدمع السخين. وأمّا أخوك فأخذ يذرع الحجرة جيئة وذهوباً، وقال: لأنه لا يدري ماذا يفعل، وقالت السيدة داشوود: إنه يجب ألّا تمكثا في المنزل دقيقة واحدة، واضطر أخوك أن يجثو على ركبتيه يرجوها أن تسمح لهما بالبقاء ريثما تحزمان ملابسهما. وحينئذٍ عادت فتشنّجت، فاعتراه الخوف واستدعى السيد دنافان، فلما حضر وجد هذه الضجة في البيت، وكانت العربة واقفة بالباب لتقلّ ابنتَي عمي المسكينتين فرآهما تستقلان العربة، وهو خارج من المنزل، وقال: إن لوسي المسكينة لا تكاد تستطيع المشي، ونانسي لا تقل عنها سوءاً. إنني

أصرح أني ضقت ذرعاً بزوجة أخيك، وأرجو من صميم قلبي أن يتمّ هذا الزواج رغم أنفها. رباه ما أشدّ ما يخالج إدوارد من القلق والانزعاج عندما يبلغه أن حبيبته عوملت بمثل هذا الازدراء! لأنهم يقولون: إنه يحبها حباً جماً، وحق له ذلك. فلا عجب إذا ثارت ثائرته! ويرى السيد دنافان هذا الرأي. وقد جرى بيني وبينه حديث طويل في هذا الشأن. وخير ما يمكن عمله هو أن يعود إلى هارلي ستريت حتى يتسنى استدعاؤه في الحال حينما تعلم السيدة فيرارز بالخبر لأنهم استدعوها بمجرد أن خرجت ابنتا عمي من البيت، وذلك لأن زوجة أخيك لا يخالجها شك أنها هي الأخرى ستتشنج، وهو أمر محتمل فيما أعتقد ولكن لا أرثي لأيّ واحدة منهما. إنني لا أدري لماذا تقوم كلّ هذه الضجة من أجل المال والعظمة، فلا مبرر على الإطلاق يمنع من زواج إدوارد ولوسي، لأني أعتقد أن السيدة فيرارز تستطيع أن تساعد ابنها، وأن لوسي وإن لم تملك شيئاً؛ فهي تعرف كيف تدبّر معيشتها على أحسن وجه. وأعتقد أن السيدة فيرارز لو رتبت له مبلغ خمسمائة جنيه في العام، لعاشت به لوسي في سعة كما تعيش أي امرأة أخرى بثمانمائة جنيه. رباه ما أجمل أن يقيما في منزل ريفي كمنزلكما أو أكثر قليلاً ومعهما خادمتان وخادمان! وأعتقد أن في وسعي أن أساعدهما بخادمة لأن خادمتي بتي لها أخت لا تجد عملاً، وهي تصلح لخدمتهما تماماً».

وهنا انتهت السيدة جننجز من حديثها. وإذا كان لدى إلينور من الوقت ما يسمح لها بأن تستجمع أفكارها فقد استطاعت أن تردّ وتُبدي من الملاحظات ما تقتضيه طبيعة الموضوع وسُرّت حين وجدت أن السيدة جننجز لم تلاحظ عليها اهتماماً غير عادي بالأمر، وأنها (كما كانت ترجو أخيراً أن يكون الأمر عليه) لم تعد تتصور أن

إلينور تحبّ إدوارد على الإطلاق، وسُرَّت قبل كل شيء لأنها استطاعت - في غياب مريان - أن تتحدث عن الأمر دون حرج وأن تبدي رأيها كما تعتقد، وبدون محاباة في تصرف كلّ من يعنيه الأمر.

ولم تستطع إلينور أن تجزم بالنتيجة التي ينتظر أن ينتهي الأمر إليها، وإن حاولت جاهدة أن تطرد من ذهنها احتمال إنهائه بغير زواج إدوارد من لوسي. وكانت تتوق إلى سماع ما تقوله السيدة فيرارز وما تفعله، وإن لم تشكّ في كُنه هذا القول والفعل، ولكنها كانت أتوق إلى أن تعرف كيف يتصرف إدوارد في الموقف، وكانت ترثي لحاله كثيراً، ولحال لوسي قليلاً وقد تجشمت كثيراً من العناء لإكراه نفسها على هذا القليل، أما بقية الزمرة فلم ترث لحالهن على الإطلاق.

وإذ كانت السيدة جننجز لا تتحدث إلّا في هذا الموضوع، فقد رأت إلينور ضرورة إعادة مريان لبحثه ومناقشته، ولم تتردَّد في تبصيرها بالأمر وإطلاعها على حقيقته، وترويضها على سماعه من الغير دون أن تظهر الشعور بأي قلق على أختها أو أي استياء من إدوارد.

وكانت مهمة إلينور مهمة شاقة لأنها ستزيل ما كانت تعتقد أنه أكبر سلوة لأختها، وتقصّ عليها من أنباء إدوارد ما تخشى أن يهدم حسن ظنها فيه إلى الأبد، وتشعر مريان بخيبة الأمر مرة أخرى حين ترى وجه الشبه واضحاً بين حالها وحال أختها، وهو شبه يبدو في نظرها قوياً. ولكن مهما كانت هذه المهمة بغيضة، فلم يكن بدّ من القيام بها، ولذلك بادرت إلينور إلى أدائها.

ولم ترغب كثيراً في الإسهاب في وصف شعورها، المبالغة في تصوير آلامها اللهم إلا ما يسمح به ضبط النفس الذي تذرّعت به منذ أن علمت لأول مرة بخطبة إدوارد، من الإشارة إلى أمر فيه فائدة

لمريان. وكانت روايتها لوقائع الحادث واضحة وبسيطة، وهي وإن لم تخلُ من التأثر، لم تقترن بالهلع أو الجزع - بل كان ذلك من شأن مريان التي استمعت لهذا الحديث بكثير من الهلع وبكت بالدمع الهتون. وكان من عادة إلينور أن تعزي غيرها في مصابها هي، كما تعزيهم في مصابهم فأخذت في تعزية مريان بلا تردّد، فأكدت لها أنها تشعر بهدوء البال، وتصدّت لنفي كلّ تهمة عن إدوارد اللهم إلّا تهمة التهوّر.

ولكن مريان ظلّت بعض الوقت لا تصدق أياً من الأمرين، فقد بدا لها أن إدوارد ما هو إلا ولبي آخر، واعترفت كما اعترفت إلينور أنها كانت تحبه أخلص الحب، وهل يمكن أن تكون عاطفتها أقل من عاطفة أختها! أما لوسي ستيل فكانت تعدّها فتاة بغيضة كلّ البغض، لا يمكن أن تظفر إطلاقاً بمحبة أي إنسان عاقل بحيث أبت أولاً أن تصدق أن إدوارد سبق أن أحبها ثم أبت بعدُ أن تغفر له هذا الحب، بل قد أبت أن تعترف بأن هذا كان أمراً طبيعياً، ولكن إلينور تركتها لتقتنع بأن الأمر كذلك بالوسيلة الوحيدة للإقناع ألا وهي معرفة الطبائع البشرية على نحو أفضل.

ولم يتجاوز أول ما أفضت به إلينور لأختها نبأ الخطبة ومدتها، وحينئذٍ انفجرت مريان باكية، فلم تستطع إلينور أن تواصل سرد الوقائع بانتظام وكل ما استطاعت أن تفعله خلال فترة من الوقت أن تخفف من آلامها وتهدئ من روعها وتلطف من حدّة استيائها. وكان أول سؤال من جانبها أدى إلى ذكر تفاصيل أخرى، هو:

«متى علمت بهذا الأمر؟ هل كتب لك؟».

«لقد عرفته منذ أربعة شهور خلت. أسرَّت لي لوسي نبأ خطبتها حينما قدمت في نوفمبر الماضي إلى بارتون أول مرة».

وعندما سمعت مريان هذه الكلمات أعربت عيناها عن الدهشة التي لم تستطع شفتاها أن تعبّر عنها ثم صاحت بعد أن أطرقت هنيهة وهي في عجب:

«أربعة أشهر! هل عرفتِ هذا منذ أربعة أشهر؟».

فأكدت لها إلينور ذلك.

«عجباً! أكان هذا السر يجثم على قلبك، وأنت تواسينني في آلامي - وأنا أعنفك لأني أراك سعيدة!».

«لم يكن من اللائق أن تعرفي حينئذٍ أني على نقيض ذلك».

فصاحت مريان: «أربعة أشهر! وتُظهرين مثل هذا الهدوء! - مثل هذا الابتهاج! - كيف احتملت هذا؟».

«لشعوري بأني أؤدي واجبي - وعدي للوسي أرغمني على الكتمان. كان واجبي نحوها يقتضيني أن أتجنب أية إشارة إلى الحقيقة. وكان واجبي نحو أسرتي وأصدقائي يقتضيني ألا أبعث في نفوسهم قلقاً عليَّ لا أستطيع أن أقنعهم بأسبابه».

فذهلت مريان كثيراً.

وأضافت إلينور: «كثيراً ما أردتُ أن أطلعك وأطلع والدتي على حقيقة الأمر. وحاولتُ ذلك مرة أو مرتين. ولكن ما كنت لأستطيع أن أقنعكما دون أن أخون الأمانة».

«أربعة أشهر! ومع ذلك كنت تحبينه!».

«نعم، ولكني لم أحبّه هو وحده، فقد كنت أحب أن أواسي غيري ولذلك كان يسرني ألا أفضي لهم بما يؤلمني. والآن أستطيع أن أفكِّر في الأمر وأتحدث فيه بدون أن يخالجني كثير من الألم. لم أرد أن تتألمي من أجلي، وأؤكد لك أنني لم أعُد أشعر بألم محسوس، فلي عزاء في كثير من الأمور. إنني أشعر أنني لم أجلب

على نفسي بسبب تهوري ما أصابني من خيبة الأمل. وقد احتملت هذه الخيبة بصبر جميل دون أن أحدث بها إنساناً. إنني أبرئ إدوارد من وصمة سوء التصرُّف، وأتمنى له السعادة وأنا واثقة أنه سيظل يؤدي واجبه حتى يصبح سعيداً في النهاية على الرغم ممّا قد يشعر به الآن من بعض الندم والأسف. ولوسي لا ينقصها العقل، وهذا هو الأساس الذي يقوم عليه كل خير. وعلى الرغم يا مريان ممّا يبدو من جمال الفكرة القائلة بالزواج الواحد الدائم وكلّ ما يمكن أن يُقال عن توقف سعادة المرء على شخص بعينه فليس المقصود - ليس من المناسب - ليس من الممكن - أن يكون الأمر كذلك. إن إدوارد سيتزوج لوسي. سيتزوج امرأة تفوق في جمال شخصها ورجاحة عقلها نصف بنات جنسها، وسينسى بفعل الزمن وإلف العادة أنه سبق أن رأى امرأة تفوقها عقلاً وجمالاً».

قالت مريان: «إذا كان هذا هو أسلوب تفكيرك، وإذا كنت ترين أنه «لكل شيء إذا فارقته عِوَضٌ»[1] فليس للمرء أن يعجب لما تتصفين به من قوة العزيمة ورباطة الجأش - وفي وسعي الآن أن أدرك أنك تتصفين بهاتين الخصلتين».

«إنني أفهم قصدك. أنت لا تعتقدين أنني شعرت بالكثير من الألم قط. لقد ظلّ هذا الأمر يا مريان يجثم على فؤادي أربعة أشهر دون أن أكون في حلٍّ من الإفضاء به إلى أي مخلوق، وأنا أعلم أنه سيحزنك أنت ووالدتي أشدّ الحزن إذا أخبرتكما به، ومع ذلك لا

---

(1) هذا هو الشطر الأول من أحد الأبيات الشعرية المشهورة وهو يؤدي معنى النص الإنجليزي، والبيت كله هو:

لكل شيء إذا فارقته عوض   وليس للّه إن فارقت من عوض

(المترجم)

أستطيع أن أهيئ له ذهنكما على الأقل - لقد أبلغت هذا الأمر - لقد أبلغت به كرهاً - إلى حدّ ما - من المرأة نفسها التي حطّمت خطبتها السابقة كل آمالي، وأخبرتني به - كما اعتقدت - بلهجة الشماتة، ولذلك اضطررتُ أن أنفي ظنون هذه المرأة بأن أتظاهر بعدم الاكتراث في الوقت الذي كنت فيه أشعر بأعظم الاهتمام. ولم يحدث ذلك مرة واحدة. لقد كانت تضطرني مراراً وتكراراً إلى سماع ما يخالجها من آمال وأفراح. لقد عرفت أني افترقت عن إدوارد إلى الأبد، دون أن أسمع أية واقعة من شأنها أن تقلّل من رغبتي في الزواج به، فلم أسمع شيئاً يُثبت به أنه رجل غير فاضل، أو أنه أصبح لا يهتم بي. واضطررت أن أحتمل جفوة أخته، ووقاحة أمه، وتحمّلت عذاب الحبّ دون أن أتمتع بثمراته. وكان كلّ ذلك يحدث في وقت تعلمين جيداً أنني لم أكن أقاسي فيه آلامي وحدها. وإذا كان في وسعك أن تعتقدي أنني أستطيع أن أشعر بالألم يوماً ما، ففي وسعك أن تعتقدي حقاً أنني قد شعرت به الآن. إنّ رباطة الجأش التي استطعتُ بها أن أتحدث في الأمر الآن، والعزاء الذي سرّني الاعتراف به كانا ثمرة التجلّد الدائب الأليم، - لم ينشآ من تلقاء نفسهما - ولم يحدثا لي ليخففا من آلامي في البداية - كلا يا مريان - وإلا فمن المحتمل أنني لو لم أتعهد بالكتمان، لما منعني شيء - حتى واجبي نحو أعزّ أصدقائي - من أن أظهر صراحة حزني وآلامي.

فخشعت مريان وذلت.

وصاحت: «عجباً! إلينور! لقد جعلتني أمقت نفسي إلى الأبد. ما كان أقساني عليك! أنت التي كنت أكبر سلوتي، التي واسيتني في آلامي وأحزاني، التي كنتِ تتظاهرين بأنك لا تتألمين إلا من أجلي!

أهذا هو عرفاني بالجميل؟ أهذا هو جزاؤك عندي؟ أن أنحني عليك باللائمة لأنك كنت تهيبين بي أن أتجلد».

وأقبلَت على أختها بعد هذا الاعتراف تغمرها بأحرّ القبلات والأحضان. ولم تجد إلينور عناء في أن تنتزع من مريان في هذه الحالة النفسية التي انتابتها الآن أيّ وعد تشاء، فتعهدت لها - بناءً على طلبها - ألا تتحدث لأي إنسان عن هذا الموضوع بما يدلّ أدنى دلالة على أي شعور بالمرارة، وأن تقابل لوسي دون أن تظهر لها كراهية، وتقابل إدوارد نفسه - إذا جمعتهما الصدفة - دون أيّ إقلال من مظاهر المودة التي اعتادت أن تقابله بها. وقد أبدت مريان تساهلاً عظيماً في تقديم هذه الوعود ولكنها كانت تشعر أنها حيث أساءت فليس بكثير أن تقدِّم أية ترضية تُطلب منها.

وبرَّت مريان بما وعدت به من مراعاة الحكمة والروية إلى درجة تدعو إلى الإعجاب، فأصغت لكلّ ما أرادت السيدة جننجز أن تقوله عن الموضوع دون أن يبدو على وجهها أي مظهر من مظاهر التأثر، ولم تخالفها في أيّ قول من أقوالها، وسمعتها إلينور تقول ثلاث مرّات «نعم، يا سيدتي» - واستمعت إلى ثنائها على لوسي دون أن تُبدي حِراكاً اللهم إلا الانتقال من كرسي إلى آخر. ولما تحدثت السيدة جننجز عن محبة إدوارد، لم يسبِّب لها هذا الحديث سوى تقلُّص في حلقها - وكان هذا التقدّم الذي أحرزته مريان نحو التمسّك بأهداب الشجاعة ممّا جعل إلينور تشعر بأن في مقدورها هي أن تقوى على كلّ شيء.

وجاء صباح الغد بتجربة أخرى في هذا الباب، إذ قَدِم أخوها زائراً وهو متجهِّم الوجه ليحدِّثهما عن الحادث الجلل ويقصّ عليهما أنباء زوجته.

وما إن جلس حتى قال بلهجة الجدّ والوقار: «أظن أنكما سمعتما عن نبأ الحادث المفزع الذي وقع تحت سقف بيتنا بالأمس.

فنظرتا إليه نظرة تنمّ عن الموافقة، وكانت اللحظة رهيبة لا تسمح بالكلام.

واستطرد يقول: «إن «سلفتكما» قاست آلاماً مروعة، وكذلك السيدة فيرارز - وبالاختصار كان المشهد حافلاً بالآلام الكثيرة - ولكني أرجو أن تنقشع الغمّة دون أن يصاب أحد منا بسوء. وارحمتاه لفاني! لقد تشنّجت طوال أمس ولكن لن أزعجكما كثيراً. فدنافان يقول: إنه ليس ثمة ما يدعو إلى الخوف الشديد، فبنيتها قوية، وعزيمتها تستطيع التغلب على أي شيء.

لقد تحمَّلت الأمر كله بصبر جميل! وقالت: إنها لن تحسن الظنّ بعد اليوم بأيّ إنسان. ولا عجب في ذلك بعد أن خدعت على هذا النحو! فقوبلت بالجحود بعد الذي أسدته من حسن الصنيع، وأظهرته من كبير الثقة. لقد دعت هاتين الفتاتين إلى منزلها بدافع من طيبة قلبها، لا لسبب إلّا لأنها كانت تعتقد أنهما تستحقان بعض الرعاية والاهتمام، وأنهما فتاتان بريئتان مؤدبتان، تأمل أن تأنس بصحبتهما. وإلا فقد كنا نتمنى كثيراً أنا وهي أن ندعوك أنت ومريان لتكونا معنا في أثناء زيارة صديقتكما الكريمة لكريمتها. والآن تأمّلا كيف كان جزاؤنا! لقد قالت فاني بلهجتها الودية: «كنت أتمنى من صميم فؤادي أن أدعو أختيك بدلاً منهما».

وهنا توقف عن الكلام ليتلقى الشكر منهما ثم أردف: «ليس في وسعي أن أصف ما شعرت به السيدة فيرارز من الألم حينما أبلغتها فاني الخبر أول مرة. هل كان يتبادر إلى الذهن في الوقت الذي دفعتها فيه أصدق مشاعر الحب إلى التفكير في تزويجه فتاة ذات

حسب ونسب أن يكون قد عقد خطبته سراً على فتاة أخرى طول هذه المدة! إن مثل هذه الفكرة ما كانت لتخطر ببالها قط وإذا خطر ببالها أن يخطب أية امرأة أخرى، فلا تكون من هذا الطراز. وقالت: «لو أنه خطب الفتاة إياها لما شعرت بشيء من القلق». والواقع أنها كانت في محنة. على أننا تشاورنا فيما يجب عمله، وأخيراً استقرّ الرأي على استدعاء إدوارد فحضر، ولكن يؤسفني أن أروي ما حدث بعد ذلك. فكلّ ما قالته السيدة فيرارز لحمله على إنهاء هذه الخطبة، معزّزاً بحججي وتوسلات فاني لم يُجْدِ نفعاً، فقد ضرب عرض الحائط بالواجب والمحبة وكل شيء. لم أكن أظنّ أن إدوارد عنيد إلى هذا الحدّ، قاسٍ إلى هذا الحدّ. وقد شرحت له أمه المعاملة السخية التي تنوي معاملته بها إذا تزوج الآنسة مورتون، وأخبرته أنها سوف تهبُ له ضيعة نور فولك، وهي ضيعة معفاة من ضريبة الأراضي تدرّ إيراداً يبلغ ألف جنيه في العام، بل لقد عرضت عليه أن ترفع هذا المبلغ إلى ألف ومئتي جنيه إذا ساءت الأمور. وأوضحت له أنه إذا عارض هذا الاقتراح، وأصرّ على هذا الزواج الوضيع فإنّ مصيره إلى الفقر المدقع، وقالت: إن الألفي جنيه التي يملكها ستكون هي كلّ ما يملك وأنها لن تراه بعد اليوم، وستمتنع عن تقديم أدنى مساعدة له بحيث إذا فكّر في ممارسة أية مهنة بقصد تحسين دخله فإنها ستبذل كل ما في وسعها للحيلولة دون نجاحه فيها».

وهنا اعترت مريان نوبة من الغيظ والحنق، فصفقت بيديها وصاحت: «رحماك اللهم! أيمكن أن يحدث هذا؟».

فأجاب أخوها «إن من حقك يا مريان أن تعجبي للعناد الذي يقف في وجه حجج كهذه. إن تعجبك أمر طبيعي جداً».

وهمت مريان بالردّ عليه، ولكنها تذكرت وعدها، فأمسكت عن الكلام.

استطرد: «على أنّ كل ما قالته أمه ذهب سدى، فلم يتكلّم إدوارد إلّا قليلاً. ولكن ما قاله قاله بلهجة الحزم والعزم وما من شيء أمكن أن يحمله على فسخ الخطبة، بل أصرّ عليها مهما كلفه الأمر».

وصاحت السيدة جننجز بإخلاص وصراحة ولم تطق الصمت أكثر من ذلك فقالت: «إذن فقد سلك مسلك الرجل الشريف. معذرة يا سيد داشوود إذا قلت: إنه لو فعل غير ذلك لكان في رأيي نذلاً وضيعاً. إنّ الأمر يعنيني قليلاً كما يعنيك لأنّ لوسي ابنة عمي. وأعتقد أنه ما من فتاة في العالم هي خير منها، ولا فتاة هي أجدر منها بزوج صالح».

فأبدى جون داشوود دهشته الكبيرة ولكنه كان رجلاً هادئاً لا يميل إلى الاستفزاز ولا يرغب قط في الإساءة إلى أحد ولا سيما إذا كان ثرياً. ولذلك أجاب بدون امتعاض:

«إنني لا أريد بأية حال أن أتحدَّث بازدراء عن أيّ أحد من أقاربك يا سيدتي وأؤكد أنّ الآنسة ستيل فتاة جليلة القدر. ولكنك تعلمين أنّ الزواج في القضية الحالية يعدّ أمراً مستحيلاً. وعقدها خطبة سرية على شاب في رعاية خالها، هو ابن امرأة طائلة الثراء كالسيدة فيرارز، ربما لا يخلو من الغرابة إطلاقاً. وجملة القول أنني لا أريد أن أعيب سلوك أيّ شخص تحبينه يا سيدة جننجز. إننا جميعاً نتمنى لها كل السعادة. وقد كان سلوك السيدة فيرارز خلال الأمر كله هو السلوك الذي تنتهجه كلّ أم حية الضمير طيبة القلب في

ظروف مماثلة. لقد كان سلوكاً ينطوي على الإباء والكرم. ولقد رسم إدوارد مصيره وأخشى أن يكون مصيراً سيئاً».

وتنهّدت مريان مُعربة عن مثل هذه المخاوف وتمزّقت نياط قلب إلينور حزناً على إدوارد وهو يواجه وعيد أمه بسبب امرأة لا تصلح له.

وقالت السيدة جننجز: «نعم يا سيدي، وكيف انتهى الأمر؟».

«يؤسفني يا سيدتي أن أقول: إنه انتهى بقطيعة محزنة إلى أقصى حدّ - فقد حُرِم إدوارد من رؤية أمه إلى الأبد وغادر المنزل بالأمس ولكن لا أدري أين ذهب وهل لا يزال في لندن لأننا بالطبع لا نستطيع أن نقوم بشيء من التحري».

«يا له من فتى مسكين! وماذا سيحلّ به؟».

«ماذا يا سيدتي! إنه لأمر محزن. رجل وُلد لينعم بمثل هذه الثروة! لا أستطيع أن أتصور موقفاً أدعى إلى الرثاء من موقفه. فائدة ألفي جنيه - كيف يتسنى لإنسان أن يعيش بها! وإذا أضيف إلى ذلك أنه كان في وسعه - لولا حماقته - أن يتسلم في غضون ثلاثة أشهر ألفين ونصف ألف من الجنيهات كل عام (لأن الآنسة مورتون تملك ثلاثين ألف جنيه) فلا يسعني أن أتصوّر ما هو أسوأ من حالته يجب علينا جميعاً أن نرثي لحاله وبخاصة لأنه ليس في مقدورنا أن نساعده إطلاقاً».

فصاحت السيدة جننجز: «يا له من شاب مسكين. إنني أرحِّب أن ينام ويأكل في منزلي. ولو أنني رأيته لقلت له ذلك، إذ ليس من اللائق أن يعيش الآن على نفقته في حانة أو غرفة بالإيجار».

فشكرتها إلينور بقلبها لما أظهرته في العطف على إدوارد وإن لم تتمالك من الابتسام لنوع هذا العطف.

قال جون داشوود: «لو أنه أحسن إلى نفسه كما أراد جميع أصدقائه أن يحسنوا إليه، لكان الآن في الوضع الذي يليق بمقامه، ولما احتاج إلى شيء. ولكن الواقع أن أحداً لا يستطيع أن يمدّ إليه يد المساعدة. وهناك إجراء يُتخذ ضده الآن - ومن المؤكد أنه سيكون أسوأ من أي إجراء آخر، وهو أن أمه قرّرت - وهذا أمر طبيعي جداً - أن تهب الضيعة لروبرت في الحال بشروط مناسبة، وهي الضيعة التي كان يمكن أن تكون من نصيب إدوارد. لقد تركتها صباح اليوم مع محاميها لبحث هذا الموضوع».

قالت السيدة جننجز: «حسن! وهذا هو انتقامها! لكلّ امرئ فيما يحاول مذهب. ولكن لا أظن أن مذهبي هو أن أوفِّر لأحد أولادي سعة العيش لأن ولداً آخر خالفني».

وقامت مريان وتمشَّت في الحجرة.

واستطرد جون: «هل من شيء هو أغيظ لقلب الرجل من أن يرى أخاه الأصغر يحوز الضيعة التي كان يمكن أن تكون ملكاً له؟ مسكين إدوارد! إني أرثي له حقاً!».

ثم أنهى زيارته بعد دقائق قليلة قضاها في مثل هذا الحديث، وانصرف بعد أن أكَّد لأختيه مراراً أنه لا ضرر يُخشى من توعّك فاني وأنه لا داعي لقلقهما عليها. وخرجت السيدات الثلاث من هذه المقابلة وهن متفقات في شعورهن بإزاء هذا الأمر فيما يتعلق - على الأقل - بمسلك السيدة فيرارز، وآل داشوود، وإدوارد.

وأعربت مريان عن سخطها بمجرد مغادرته الحجرة. ولما كان سخطها قد جعل التحفظ من جانب إلينور مستحيلاً، ولا ضرورة له من جانب السيدة جننجز، فقد اشتركن جميعاً في نقد الجماعة نقداً حامي الوطيس.

الفصل الثامن والثلاثون

تحمّست السيدة جننجز في ثنائها على مسلك إدوارد، ولكن إلينور ومريان وحدهما هما اللتان كانتا تفهمان هذا المسلك على حقيقته، وتعرفان أنه لم يكن لدى إدوارد كثير من المبررات التي تُغريه بمخالفة أمه، ولا عزاء له عن فقدان أصدقائه وثروته سوى شعوره بأنه لم يعد الصواب في تصرفاته. وكانت إلينور تفخر باستقامته، ومريان تغفر له كلّ سيئاته أسفاً على ما حلّ به من عقاب. ولكن لا واحدة منهما كانت تحبّ الإسهاب في هذا الموضوع على الرغم من عودة الثقة بينهما إلى وضعها الصحيح، بعد أن برح الخفاء وأصبح الأمر معروفاً للجميع، فكانت إلينور تتحاشى التحدث في الموضوع من حيث المبدأ، لأن ذلك من شأنه أن يثبت في ذهنها بصورة أقوى - عن طريق تأكيدات مريان الحماسية القطعية - الاعتقاد باستمرار محبة إدوارد لها، وهو ما كانت تميل إلى إزالته من ذهنها. وكانت مريان تخونها الشجاعة وهي تحاول التحدث في موضوع تخرج منه دائماً وهي أشدّ ما تكون سخطاً على نفسها، بسبب ما يتمخّض عنه بالضرورة من المقارنة بين مسلكها ومسلك إلينور.

وقد شعرت مريان بأثر هذه المقارنة شعوراً قوياً، ولكن هذا

الأثر لم يكن هو حثّها على التجلّد في الوقت الراهن، بل هو الشعور المستمرّ بوخز الضمير وشدّة الندم على أنها لم تتجلد من قبل، وهكذا لم ينتج عن هذه المقارنة سوى عذاب الندم دون الأمل في تحسّن حالتها إذ ضعفت روحها المعنوية إلى حدّ اعتقدت معه أنّ التجلد في الوقت الراهن ضربٌ من المستحيل، ولذلك لم تؤدِّ هذه المقارنة إلّا إلى تثبيط همتها أكثر من ذي قبل.

ولم تبلغهن بعد يوم أو يومين أنباء جديدة عن سير الأمور في هارلي ستريت أو بارلتز بلدنغ. ولكن السيدة جننجز صمّمت منذ بداية الأمر على زيارة ابنتَي عمها بأسرع ما تستطيع بقصد المواساة واستقصاء الأخبار على الرغم من وقوفها على كثير من الأخبار عن الحادث بحيث كان يحتمل أن تجد الكثير من العمل في نشرها على نطاق أوسع ولم يمنعها من أداء هذه الزيارة في أثناء هذه المدة سوى كثرة الزوار بدرجة أكبر من المعتاد.

وقد وافق اليوم الثالث الذي أعقب علمهن بتفاصيل الحادث يوماً من أيام الآحاد كان الطقس فيه جميلاً رائعاً، فأغرى كثيراً من الناس بالخروج إلى حدائق كننغتون، على الرغم من أن ذلك الوقت لم يتجاوز الأسبوع الثاني من شهر مارس. وكانت السيدة جننجز وإلينور من بين من خرجوا. ولكن مريان كانت تعلم أن ولبي وزوجته عادا إلى لندن، وتخشى دائماً أن تلتقي بهما، فآثرت البقاء بالمنزل، على المجازفة بالخروج إلى أحد الأماكن العامة.

وانضمت إليهما إحدى صديقات السيدة جننجز الحميمات، عقب دخولهما الحدائق ولم تأسف إلينور لبقائها معهما، واستئثارها بحديث السيدة جننجز كله لأن ذلك أتاح لها الفرصة للتأمل الهادئ، ولم ترَ ولبي وزوجته ولا إدوارد، وظلّت بعض الوقت لا ترى أي

شخص آخر ممّن يهمها لقاؤه بطريق الصدفة السعيدة أو غير السعيدة، وأخيراً وجدت أمامها - مع شيء من الدهشة - الآنسة ستيل التي أعربت عن ارتياحها الشديد إلى لقائهما، وإن بدا عليها شيء من الخجل. وعندما لقيت بعض التشجيع من السيدة جننجز التي شملتها بعطفها الخاص تركت صديقاتها فترة قصيرة لتنضمّ إليهما وسرعان ما همست في أذن إلينور:

«استقِ منها الأخبار كلها يا عزيزتي. ستخبرك بكلّ شيء إذا سألتها. ها أنت ذي ترين أنني لا أستطيع أن أترك السيدة كلارك».

على أن إفضاءها بأيّ نبأ دون سؤال كان أدعى إلى إرضاء فضول السيدة جننجز، وإلينور أيضاً، لأنه ما كان يمكن معرفة شيء بدون ذلك.

قالت الآنسة ستيل، وقد تأبّطت ذراعها بلا كلفة، «إنني مسرورة بلقائك لأني كنتُ أشدّ ما أكون شوقاً إلى رؤيتك». ثم خفضت صوتها وقالت: «أظن أن السيدة جننجز قد سمعت كل شيء عن الأمر. هل هي غاضبة؟».

«غير غاضبة منك على الإطلاق».

«هذا خبر سار. وليدي ميدلتون، هل هي غاضبة؟».

«لا أظن أنه من الممكن أن تكون غاضبة».

«إنني في غاية السرور بذلك. رحماك اللهم! لقد نعمتُ بذلك السرور كثيراً. لم أرَ لوسي في حياتي تشعر بمثل هذا الغضب قط. لقد أقسمت أولاً ألّا تزين لي قبعة جديدة، ولا أن تعمل لي شيئاً آخر ما دامت حية.. ولكن قلبها صفا الآن وعدنا صديقتين كما كنا. انظري! لقد صنعت هذا القوس لقبعتي وزينته بالريش في الليلة الماضية. وأرى أنك ستضحكين مني أيضاً: ولكن ما لي لا ألبس

أشرطة وردية اللون؟ لا يهمني أن يكون هو اللون الذي يفضله الدكتور. وأؤكد لك أنني ما كنت لأعرف أنه يفضل هذا اللون على جميع الألوان لولا أنني علمتُ ذلك منه بطريق الصدفة. وقد تندّر على بنات عمي بسبب ذلك! وأنا لا أدري أين أتجه بعيني في حضورهن».

ورأت أنها استطردت إلى موضوع لا تستطيع إلينور أن تتحدث فيه، ولذلك سرعان ما رأت من المناسب أن تعود إلى الموضوع الأول.

وقالت بلهجة الانتصار: «نعم! آنسة داشوود! للناس أن يقولوا ما يشاءون حول تصريح السيد فيرارز بأنه لن يتزوج لوسي، لأنه ليس من شأني أن أحدثك بذلك. ومن العار أن تذاع هذه الإشاعات الخبيثة بين الناس. وأنت تعلمين أنه مهما يكن رأي لوسي فيه، فليس من شأن غيرها أن يجزموا به».

قالت إلينور: «أؤكد لك أنني لم أسمع قط إشارة إلى موضوع من هذا القبيل».

«عجباً! ألم تسمعي؟ ولكني أعرف جيداً أنه قد قِيل ذلك، وعلى لسان أكثر من واحدة لأن الآنسة غُودْ باي أخبرت الآنسة سبارك أنه ما من إنسان لديه مسكة من عقل يمكن أن يتصور أن يعدل السيد فيرارز عن امرأة مثل الآنسة مورتون تبلغ ثروتها ثلاثين ألف جنيه إلى الزواج بلوسي ستيل التي لا تملك شروى نقير. وسمعت ذلك من الآنسة سبارك نفسها. وعلاوة على هاتين سمعت ابن عمي رتشارد نفسه يقول: إنه إذا تمّ هذا الزواج فسيكون مصير إدوارد هو الطرد. وإذا لم يتردّد علينا إدوارد طوال ثلاثة أيام، لم أستطع أن أجزم بشيء. وأعتقد أن لوسي قطعت الأمل من الأمر كله، لأننا غادرنا

منزل أخيك يوم الأربعاء، ولم نرَ له أثراً يوم الخميس والجمعة والسبت، ولم ندرِ ماذا حدث له. وفكّرت لوسي ذات مرّة أن تكتب إليه، ولكنها عادت، فعزفت عن ذلك. على أنه جاءنا صباح اليوم عندما عدنا من الكنيسة، وحينئذٍ اتضح كل شيء: كيف استدعى يوم الأربعاء إلى هارلي ستريت وكيف تحدث إلى أمه وجميع أهله، وكيف صرّح أمامهم جميعاً أنه لا يحب أحداً سوى لوسي، ولن يتزوج امرأة غير لوسي، وكيف أنه انزعج لما حدث. وما إن خرج من بيت والدته حتى امتطى جواده، وسافر إلى مكان ما في الريف، وكيف أقام في حانة طوال يومي الخميس والجمعة لكي ينسى ما حدث. وقال: إنه بعد أن قلب النظر في الأمر بدا له، وقد أصبح الآن معدماً خالي الوفاض، أنه من القسوة أن يقيدها بالخطبة لأنّ ذلك يعود عليها بالضرر لا محالة، إذ لا يملك شيئاً سوى ألفين من الجنيهات، ولا أمل لديه في الحصول على مالٍ آخر، وإذا تقرَّر أن يصبح كاهناً - كما كان ينوي - فلن يحصل إلا على وظيفة نائب خوري، وكيف يتسنى لهما أن يعيشا بدخل هذه الوظيفة؟ - وقال: إنه لا يطيق أن يرى نفسه عاجزاً عن أن يعمل لها شيئاً أفضل ولذلك التمس منها أن تضع حداً للأمر في الحال إذا كان لديها أدنى رغبة في ذلك وأن تتركه وشأنه. سمعته يقول ذلك بكل صراحة يتصوّرها المرء. وإذا كان قد تحدث عن فسخ الخطبة، فلحرصه على مصلحتها، لا مصلحته هو. إنني أقسم أنه لم تخرج من فمه كلمة تشعر بأنه مَلَّ صحبتها أو أنه يرغب في الزواج من الآنسة مورتون، أو أي شيء من هذا القبيل. ولكني أؤكد أنّ لوسي لن تصغي لأي حديث من هذا النوع، لذلك قالت له من فورها (مع كثير من عبارات الغزل، أنت تعلمين، وكل ذلك - أوه، ويْ! تعلمين أنه ليس في

وسعي أن أردد مثل هذه الأشياء. . .) - قالت له على الفور: إنه ليس لديها بأية حال من الأحوال أدنى رغبة في فسخ الخطبة لأنها تستطيع أن تعيش بالقليل، ومهما قلّ ما لديه، فإنها ستشعر بكثير من السرور إذا أعطاها كله أو بعضه. وعندئذٍ سُرَّ إدوارد غاية السرور، وتحدّث بعض الوقت عما يجب عليهما عمله، فاتفقا أن يكرس نفسه من فوره، وأن يرجئا الزواج حتى يحصل على وظيفة كهنوتية. وعندما وصل الحديث إلى هذا الحد، لم أستطع أن أسمع المزيد منه، لأن ابنة عمي نادتني من أسفل لتقول لي: إن السيدة رتشاردسون قد وصلت في عربتها وستأخذ إحدانا إلى حدائق كنسنجتون. لذلك اضطررت أن أدخل الحجرة، وأقطع عليهما الحديث، لأسأل لوسي هل تحبّ أن تذهب. ولكنها لم تشأ أن تترك إدوارد، فصعدت الدرج، ولبست جوربين من حرير وخرجت مع آل رتشاردسون».

قالت إلينور: «لا أفهم ماذا تعنين بقولك: إنك قطعت عليهما الحديث. لقد كنتم جميعاً في الحجرة نفسها، ألم تكوني معهما؟. . ».

«كلا! لم نكن. عجباً! آنسة داشوود، أتظنين أن الناس يتغزّلون على مرأى من أحد؟ واخجلتاه! لا بدَّ أنك تعلمين أكثر من ذلك (تضحك بتكلّف) كلا كلا! لقد كانا يغلقان عليهما باب حجرة الاستقبال، وإنما سمعت ما سمعت باستراق السمع لدى الباب».

فصاحت إلينور: «كيف! أكنتِ تردّدين على سمعي ما لم تسمعيه إلّا باستراق السمع لدى الباب؟ إنني آسفة لأني لم أعرف ذلك من قبل، ولو عرفته لما سمحت لك أن تقصّي عليّ تفاصيل حديث ما كان ينبغي لك أن تعرفيه. كيف تتصرفين مع أختك على هذا النحو غير اللائق؟».

«أوه! عجباً! لا جناح عليّ في ذلك. كل ما فعلته أني وقفت لدى الباب، واستمعت ما استطعت. وأنا أعتقد أن لوسي كانت تفعل معي مثل ذلك، لأنها لم تتحرج من الاختفاء في مقصورة أو خلف لوح المصطلى بقصد سماع ما أقوله حينما كنت أتناجى مع مارثا شارب منذ سنة أو سنتين».

وحاولت إلينور أن تتحدث في حديث آخر، ولكن الآنسة ستيل لم تستطِع أن تصبِّر نفسها أكثر من دقيقتين عن التحدث في الموضوع الذي يشغل بالها.

قالت: «يقول إدوارد إنه سيتوجه إلى أكسفورد قريباً، ولكنه الآن يقيم بمنزل رقم - في بول مول. يا لأمّه من امرأة خبيثة الطوية. أليس كذلك؟ وما كان أقسى أخاك وزوجته! على أنني لن أقدح فيهما أمامك فالحق يُقال إنهما أقلانا إلى منزلنا في عربتهما، وهو أكثر ممّا كنت أتوقعه. وكان أكبر ما أخشاه أنا شخصياً أن تطلب زوجة أخيك علب الخياطة التي أهدتها لنا قبل ذلك بيوم أو يومين، ولكنها لم تشِر إليها بكلمة، وقد حرصتُ على إخفاء علبتي عن الأنظار. ويقول إدوارد إنه سيذهب إلى أكسفورد لبعض شأنه، وسيمكث بها فترة من الزمن، ثم يرسَّم قساً بعد ذلك، بمجرد عثوره على أحد الأساقفة. ولا أدري أية وظيفة كنسية سيحصل عليها! - رحماك اللهم (تضحك مستهزئة وهي تتكلم) ليت شعري ماذا سيقوله أقاربهم عندما يبلغهم ذلك! سيقولون يجب أن أكتب للدكتور حتى يتوسّط لإدوارد في الحصول على أبرشيته الجديدة. أنا أعرف أنهم سيقولون ذلك. ولكني لن أفعل شيئاً من هذا القبيل إطلاقاً. سأقول لهم من فوري: «عجباً! كيف تفكرون في مثل هذا الأمر؟ أنا أكتب للدكتور - حقاً!».

فقالت إلينور: «على كلّ حال، ممّا يريح البال، أن يستعدّ المرء لأسوأ الاحتمالات. لقد أعددتُ الجواب عن سؤالهم».

وهمّت الآنسة ستيل بالردّ عليها في هذا الموضوع نفسه، ولكن صديقاتها أقبلن، فاضطرت أن تخوض في حديث آخر.

«عجباً! ها قد أقبل آل رتشاردسون. كنت أود أن أقول لك أشياء كثيرة. ولكن لا أستطيع أن أتخلّف عنهما أكثر من ذلك. أؤكد لك أنهما على جانب كبير من الظرف واللطف، فالسيد رتشاردسون رجل طائل الثراء، ولهما عربة. لم تتح لي فرصة التحدث مع السيدة جننجز في الأمر بنفسي، ولكني أرجو أن تخبريها أنني جد سعيدة لأنها غير غاضبة علنياً، وأن تخبري ليدي ميدلتون بمثل ذلك. وإذا اتَّفق أن خرجت مع أختك لبعض شأنكما، ورغبت السيدة جننجز فيمن يؤنس وحدتها، فسيكون من دواعي سرورنا أن نزورها ونمكث معها أطول وقت تشاء. وأظن أن ليدي ميدلتون لن تدعونا لزيارتها هذه المرة. وداعاً! إنني آسفة لأني لم أرَ الآنسة مريان. تحياتي إليها. عجباً! لماذا لا ترتدين ثوبك المصنوع من الموسلين المرقش! ربما خشيت أن يكون ممزقاً!».

وهكذا ودَّعتني بهذه الكلمات، لأنها لم تلبث بعد ذلك إلّا ريثما حيَّت السيدة جننجز تحية الوداع قبل أن تطلبها السيدة رتشاردسون. وخرجت إلينور من هذا الحديث بمعلومات تصلح مادة غزيرة للتفكير فترة من الزمن، وإن كانت هذه المعلومات لا تزيد كثيراً عمّا توقعته ورتبته في ذهنها من قبل، فقد عرفت أنّ لوسي وإدوارد قد عقدا العزم على الزواج، وأن موعد عقده لا يزال غير معروف بصفة قاطعة كما فهمت من قبل، وأن كلّ شيء يتوقف - كما توقعت تماماً - على الوظيفة الكنسية التي لا يبدو الآن أدنى أمل في حصوله عليها.

وما إن عادتا إلى العربة، حتى تاقت السيدة جننجز إلى معرفة الخبر. ولكن إلينور أرادت أن تذيع أقل ما يمكن من الأخبار التي أمكن الحصول عليها قبل كلّ شيء بطريقة غير شريفة، فاقتصرت على تكرار بعض الوقائع البسيطة التي أيقنت أنّ لوسي تحب إذاعتها تعزيزاً لمركزها، فكان استمرار الخطبة والوسائل التي تقرّر اتخاذها للوصول بها إلى نهايتها المحتومة هو كلّ ما ما أفضت به.

وهذا حمل السيدة جننجز على إبداء الملاحظة الطبيعية الآتية:

«ينتظر حتى يحصل على وظيفة كنسية! نعم، نحن نعلم كيف ينتهي ذلك، - إنهما سينتظران اثني عشر شهراً. وبعد أن يجدا أنه لا فائدة من البحث، سيضطران إلى قبول وظيفة نائب خوري التي يبلغ إيرادها خمسين جنيهاً في العام بالإضافة إلى فائدة الألفي جنيه التي يملكها، وما عسى أن يقدم لهما السيد ستيل والسيد برات من نزر يسير - ثم إنهما سينجبان طفلاً كل عام. كان اللّه في عونهما! ما أشدّ الفقر الذي سيحلّ بهما! يجب أن أفكِّر فيما يمكن أن أساهم به في تأثيث منزلهما. خادمتان وخادمان في الواقع! كما قلت منذ أيام - كلا، كلا! يجب أن يستخدما فتاة قوية تستطيع النهوض بكافة الأعمال المنزلية - وأخت بتي لا يمكن أن تصلح لهما الآن».

في صباح اليوم التالي ورد لإلينور خطاب من لوسي. ونصه كما يلي:

بارتلتز بلدنغ - مارس.

أرجو يا عزيزتي الآنسة داشوود أن تتجاوزي عن اجترائي عليك في كتابة هذا الخطاب. ولكني أعلم أن صداقتك لي ستحملك على السرور بسماع قصتي وقصة عزيزي إدوارد، بعد كل

المتاعب التي لاقيناها أخيراً. ولذلك فإني لن أعتذر مرة أخرى، بل أمضي فأقول: الحمد للّه! فنحن على الرغم ممّا قاسيناه من آلام مروعة، نتمتّع بصحة طيبة، وننعم بالسعادة كما يجب أن ننعم بها في ظلّ الحب الذي يكنه كلّ منا لقرينه. لقد قاسينا محناً عظيمة، ولاقينا أذى كثيراً، ولكننا مع ذلك نشعر في الوقت نفسه بالشكر والامتنان لكثير من الأصدقاء - ولستِ أنتِ أقل هؤلاء شأناً - الذين سأظل دائماً أنا وإدوارد الذي أنبأته بذلك - نذكر مع الشكر ما أبدوه من عطف عظيم. وأنا على يقين أنه يسرك - كما يسر عزيزتي السيدة جننجز - أن تعلمي أنني قضيت ساعتين سعيدتين معه بعد ظهر أمس، إذ أبى أن يوافق على افتراقي عنه على الرغم من أنني - استجابة لنداء الواجب - ألححتُ عليه في ذلك مراعاة للحكمة، وأبديت رغبتي في الفراق على الفور إذا وافق على ذلك، ولكنه قال: إن هذا لن يكون أبداً، وإنه لا يأبه لغضب أمه ما دام يتمتع بحبي له. إنّ طريق المستقبل ليس مشرقاً أمامنا بلا ريب، ولكن يجب علينا أن ننتظر ونأمل خيراً، فإدوارد سيُرسَّم قساً عمّا قريب. وإذا أتيح لك في أي وقت أن تزكيه لدى أي شخص يمكن أن يمنحه وظيفة كنسية فأنا واثقة أنك لن تنسينا، وكذلك أعتقد أن السيدة جننجز ستثني علينا لدى سير جون أو السيد بالمر، أو أي صديق في وسعه أن يساعدنا. إنّ آن المسكينة ملومة كثيراً على ما فعلت، ولكنها فعلت ذلك بحسن نيّة، ولذلك فأنا لا أقول شيئاً. وأرجو ألا تجد السيدة جننجز عناءً كبيراً في زيارتنا متى عنّ لها أن تمرّ بمنزلنا صباح أي يوم. وستكون هذه الزيارة فضلاً عظيماً، وسيفخر أقاربي بالتعرُّف إليها والآن يجدر بي أن أختم خطابي، وأرجو أن تبلغيها أسمى شكري واحترامي هي وسير جون وليدي

ميدلتون والأطفال الأعزاء متى سنحت لك الفرصة للقائهم، ومحبتي للآنسة مريان.

وأنا... إلخ... إلخ...

وما إن انتهت إلينور من قراءته حتى نفذت ما رأت أنه القصد الحقيقي من كتابته فناولته السيدة جننجز التي قرأته بصوت جهير مع كثير من التعقيب الذي ينمّ على الارتياح والثناء.

حقاً جميل جداً! - ما أجمل أسلوبها في الكتابة! - نعم كان من اللائق تماماً أن تفسخ الخطبة إذا أراد. هذا ما يليق بلوسي تماماً. مسكينة هي! بودّي لو استطعت أن أحصل له على وظيفة كنسية! لاحظي أنها تسميني السيدة جننجز العزيزة. إنها من أطيب الفتيات قلباً - لعمري إنه لخطاب جميل. هذه الجملة صيغت في عبارة جميلة. نعم نعم، سأتوجه إلى زيارتها حقاً. ما ألطف أن تفكر في كل إنسان! أشكرك يا عزيزتي لإطلاعي على هذا الخطاب. إنه من أجمل ما رأيت من الخطابات في حياتي. وهو يشهد بحصافة اللب، ورقّة القلب.

الفصل التاسع والثلاثون

قضت الأنستان داشوود أكثر من شهرين في لندن حتى الآن، وأخذت مريان تزداد لهفةعلى الرحيل كل يوم، واشتاقت إلى هواء الريف وحريته وهدوئه وخُيل إليها أنه إذا كان من مكان تنعم فيه براحة البال فهو بارتون. ولم تكن إلينور أقل من أختها شوقاً إلى الرحيل، وكل ما في الأمر أنها لم ترغب فيه على الفور، لشعورها بما تنطوي عليه هذه الرحلة الطويلة من مشاق أبت مريان أن تعترف بها، على أنها أخذت تفكر في السفر بصورة جدية، فأعربت بالفعل عن هذه الرغبة لمضيفتها الكريمة التي عارضت فيها بكل ما أوتيت من بلاغة الحب والود، ثم اقترحت فكرة رأتها إلينور أدعى إلى القبول من غيرها، وإن كان من شأنها أن ترجئ سفرهما بضعة أسابيع أخرى، ذلك أنه تقرر أن يسافر آل بالمر إلى كليفلاند في نهاية مارس لقضاء إجازة عيد الفصح، فأرسلت شارلوت إلى السيدة جننجز دعوة ملحة بالسفر معهم، ولم تكن هذه الدعوة كفاية في حد ذاتها لحمل الآنسة داشوود على السفر معهم، فتقدّم بها السيد بالمر بنفسه بكل أدب، وعزَّزها ما طرأ على سلوكه نحوها من تحسُّن عظيم منذ أن عرف أن أختها تعاني لوعة الأسى، فحملها ذلك على قبول الدعوة بكل سرور.

على أنها حين أخبرت مريان بما فعلت، كان أول ردّ لها لا يبعث على السرور.

قالت بلهجة تنمّ عن القلق الشديد : (كليفلاند! كلا، لا يمكن أن أذهب إلى كليفلاند)

فأجابت إلينور برفق : (أنت تنسين أنّ موقعها ليس . . . ليست في جوار . .).

(ولكنها في سومرستشاير – لا يمكن أن أذهب إلى سومرستشاير – هناك، حيث كنت أتطلع إلى الذهاب . . . كلا يا إلينور ! لا تنتظري مني أن أذهب إليها).

ولم تشأ إلينور أن تتجادل معها في وجوب نسيان هذه المشاعر – وإنما حاولت أن تزيل أثرها من نفسها بإثارة مشاعر أخرى – فصورت الأمر على أنه وسيلة لتحديد موعد عودتهما إلى أمهما العزيزة التي كانت هي تتوق إلى رؤيتها كثيراً، على نحوٍ أفضل وأدعى إلى الراحة من أية وسيلة أخرى، وربما بدون تأخير كبير، تلك المسافة من كليفلاند التي تبعد عن برستول بضعة أميال إلى بارتون، لا تتجاوز يوماً واحداً، وإن كان السفر يستغرق اليوم بطوله، ثم إن خادمة والدتهما يسهل أن تأتي إليهما لترافقهما في طريق العودة؛ وإذا لم يكن من المحتملأن تزيد مدة إقامتهما في كليفلاند على أسبوع، فمن الممكن أن تعودا إلى منزلهما بعد ثلاثة أسابيع أو تزيد قليلاً.

ولما كانت مريان تحبّ أمها محبة صادقة، فقد كان من المؤكد أن تتغلب دون كبير عناء على المخاوف الوهمية التي أعربت عنها.

كانت السيدة جننجز أبعد من أن تملّ صحبة ضيفتيها فألحّت عليهما أن تعودا معها من كليفلاند، فشكرتها إلينور على هذه

المجاملة، ولم تغيّر من عزمها على السفر، ثم إن إمهما أبلغتهما موافقتها على السفر، فأعدتا له العدة بأسرع ما يمكن. وأخذت مريان تتنفس الصعداء، وتحصي الساعات التي تفصلها عن بارتون.

وقالت السيدة جننجز للكولونيل عندما زارهن لأول مرة بعد أن تقرّر مفارقتهما لها: «آه! كولونيل، لا أدري ما سأفعل أنا وأنت بدون الآنستين داشوود، لأنهما عقدتا النيّة على السفر إلى أهلهما بعد انتهاء زيارتهما لآل بالمر. كما سنشعر بالوحشة بعد عودتي! - رباه! سنجلس معاً ويتثاءب كلّ منا في وجه الآخر في خمول وكسل كما تفعل القطط».

ربما كانت السيدة جننجز تأمل بهذا التصوير الحي لما سيشعران به من الملل والضجر أن تستحثّه على التقدم بالعرض الذي يمكن أن يهيئ له مخرجاً من هذا الملل - وإذا كانت تأمل كذلك، فقد وجدت بعد قليل من الأسباب القوية ما يحمل على الاعتقاد بتحقيق هذا الأمل. وذلك أنه عندما انتقلت إلينور إلى النافذة لتقبس على وجه السرعة أبعاد إحدى الصور التي أرادت أن ترسمها لصديقتها سار براندون وراءها إلى النافذة وهو يرمقها بنظرة ذات مغزى، وتحدَّث معها عدة دقائق. ولم يفتها أن تلاحظ أن إلينور قد تغيّر وجهها، واعتراها الاضطراب وبلغ من اهتمامها بحديثه أنها لم تستطع أن تواصل عملها، على الرغم من أنها (أي السيدة جننجز) كانت أنبل من أن تصغي إلى حديثهما حتى لقد غيّرت مقعدها حتى لا تسمعه، إلى مقعد بالقرب من البيانو الذي كانت مريان تعزف عليه. وممّا قوى أملها أيضاً أنه في الفترة التي انتقلت فيها مريان من درس إلى آخر طرقت أذنها لا محالة بعض كلمات للكولونيل يبدو أنه يعتذر فيها عن سوء حالة بيته، وهذا قطع الشك باليقين. وعجبت

في الواقع لاعتقاده أنه من الضروري أن يعتذر عن ذلك، ولكنها رأت أنّ هذا ممّا تقضي به آداب المجاملة. ولم تستطع أن تتبيّن ردّ إلينور عليه، ولكنها استنتجت من حركة شفتيها أنها لا ترى في ذلك مانعاً قوياً - وأثنت عليها السيدة جننجز في نفسها لهذه الصراحة. ثم أخذا يتحدثان بعض دقائق بدون أن تلتقط من حديثهما حرفاً، وإذا بمريان تتوقف عن العزف مرة أخرى لحسن حظها، فتسمع هذه الكلمات من حديث الكولونيل الهادئ:

«أخشى ألّا يتم هذا الأمر عاجلاً».

فدهشت وذعرت لهذا الكلام الذي لا يعبّر عن الحب وأوشكت أن تصيح: «رباه! ماذا يعوق الأمر؟» ولكنها كبحت جماح نفسها، فاكتفَت بهذه العبارة الصامتة:

«هذا غريب جداً! لا حاجة به حقاً أن ينتظر حتى يهرم».

على أنّ هذا الإرجاء والتسويف من جانب الكولونيل لم يسبِّب فيما يبدو أدنى غضب أو ألم لصاحبته الحسناء، لأنه عندما فرغا من الحديث بعد قليل، وراح كلّ منهما في طريقه، سمعت السيدة جننجز - بكل وضوح - إلينور وهي تقول بصوت يدلّ على إحساسها بما تقول:

«سأعد نفسي دائماً مدينة لك بالشكر والامتنان».

وسُرَّت السيدة جننجز بما أعربت عنه من الشكر، ولكنها لم تعجب إلّا لأنها - بعد سماع هذه الجملة - رأت الكولونيل يستأذن من فوره بكل برود وبدون أن يرد عليها! ولم تكن تظن أن صديقها العجوز يبدي مثل هذا الفتور نحو خطيبته.

والواقع أن الحديث الذي دار بينهما كان مؤداه ما يأتي:

قال بلهجة تشفّ عن الأسى: «لقد بلغني نبأ المعاملة الجائرة

التي لقيها صديقك السيد فيرارز من أسرته وأنها - إذا صحّ ما بلغني - نبذته نبذاً تامّاً لتمسكه بخطبة فتاة أهل للزواج منه. فهل ما بلغني صحيح؟ هل الأمر كذلك؟».

فأخبرته إلينور أنه صحيح.

فأجاب بلهجة تدلّ على العطف الشديد: «إن القسوة، القسوة الجائرة التي تدعو إلى التفريق أو محاولة التفريق بين خطيبين شابين أحبّ أحدهما الآخر زمناً طويلاً لهي قسوة مروعة. إن السيدة فيرارز لا تدري مغبَّة عملها، وما تسوق ابنها إليه. لقد رأيت السيد فيرارز مرتين أو ثلاث مرّات في هارلي ستريت، وأعجبت به كثيراً. وهو شاب لا يستطيع الإنسان أن يوثّق معه عري المودة في فترة قصيرة، ولكن عرفت عنه ما يكفي لأن أتمنى له الخير، حباً فيه وبوصفه صديقاً لك. ولا أزال أتمنى له المزيد من الخير. لقد علمت أنه يريد الانخراط في سلك الكهنوت. فهل تتكرمين بأن تُخبريه أن أبرشية ديلافورد التي خلَت الآن كما علمت من بريد اليوم هي له إذا رآها جديرة بالقبول. ولكني كنت أودّ أن يكون إيراد هذه الأبرشية كبيراً نظراً إلى ظروفه السيئة في الوقت الراهن، ومن اللغو أن نتمارى في هذا الأمر. وهي وظيفة نائب خوري ولكنها وظيفة صغيرة. وأعتقد أن القسيس السابق لم يظفر منها بأكثر من مائة جنيه في العام. صحيح أن هذا المبلغ قابل للزيادة، ولكني أخشى ألّا يزيد إلى الحد الذي يتيح له دخلاً كبيراً. على أنه إذا قبلها، فإني سأشعر بسرور كبير حين أقدّمها له. أرجو أن تؤكدي له ذلك».

ولم تكن دهشة إلينور لهذا التكليف تزيد على دهشتها فيما لو عرض عليها الكولونيل يده، فالوظيفة التي كانت ترى منذ يومين اثنين أنه لا أمل لإدوارد في الحصول عليها أتيحت له الآن لتمكينه

من الزواج. وكانت هي دون غيرها التي وقع عليها الاختيار لإسباغ هذه الوظيفة على إدوارد! وبلغ بها التأثر حداً جعل السيدة جننجز تعزوه إلى سبب يختلف كثيراً عن سببه الحقيقي. ولكن مهما شابَ هذا التأثر من مشاعر الكدر والنفور فإنها أعربت بحرارة عن تأثرها وتقديرها للكرم الفياض، وشكرها للودّ الصادق اللذين دفعا كولونيل براندون إلى هذا العمل، فشكرته من صميم فؤادها على ذلك وأثنت على أخلاق إدوارد وطِباعه بما هو أهله، ووعدت بأداء المهمة بكلّ سرور إذا كان يرغب حقيقة في إسناد هذه المهمة السارة إلى غيره، لكن لم يسعها في الوقت نفسه إلّا أن تقول إنه لا أحد أقدر منه هو على أدائها، وإنها بالاختصار مهمة تودّ لو أعفاها منها لأنها لا تريد أن تجرح شعور إدوارد بتقبل المنَّة منها ولكن كولونيل براندون رفض القيام بهذه المهمة للسبب نفسه الذي أبدته هي من مراعاة شعور إدوارد، وأعرب عن شديد رغبته في قيامها هي بهذه المهمة، فلم تشأ أن تبدي أية معارضة لسبب ما. وكانت تعتقد أن إدوارد لا يزال في لندن ولحسن الحظ سبق لها أن سمعت عنوانه من الآنسة ستيل، ولذلك استطاعت أن تتعهّد بإبلاغه الأمر في بحر يوم. وبعد أن تقرَّر ذلك أخذ كولونيل براندون يتحدث عن مزيّة ظفره بمثل هذا الجار اللطيف الجدير بالاحترام. وعندئذٍ ذكر مع الأسف أن المنزل صغير ومتواضع - وهو عيب لم تهتم به إلينور كثيراً - كما ظنت السيدة جننجز - ولا سيما فيما يتعلق بحجمه على الأقل.

فقالت: «لا أستطيع أن أتصوّر أن صغر المنزل قد يسبب أية مضايقة لهما لأنه سيكون متناسباً مع عدد الأسرة ودخلها».

ودهش كولونيل براندون لهذا القول، لأنه يدلّ على أنها ترى أنّ زواج السيد فيرارز نتيجة مؤكدة لهذه الوظيفة الدينية، إذ لم يكن

يرى من الممكن أن تغلّ أبرشية ديلافورد إيراداً يتيح لأيّ إنسان يمارس أسلوب حياته أن يتزوّج به، وصرّح بهذا الرأي أيضاً فقال:

«هذه الأبرشية الصغيرة لا يمكن أن تؤدي إلى أكثر من أن يحيا حياة طيبة كأعزب، ولا يمكن أن تمكّنه من الزواج. إنني آسف لأن أقول إن مساعدتي له تقف عند هذا الحد، واهتمامي بأمره لا يتجاوز هذا القدر. ولكن إذا حدث ما ليس في الحسبان، وأمكنني أن أسدي إليه خدمة أكبر، وجب أن أفكّر في شأنه تفكيراً يختلف كثيراً عمّا أراه الآن اللهم إلّا إذا لم أكن مستعداً لخدمته حينذاك استعدادي لخدمته بإخلاص في الحاضر. إنّ ما أسديه الآن من خدمة لا يبدو في نظري شيئاً مذكوراً على الإطلاق، لأنه ليس سوى خطوة قصيرة نحو هدفه الأساسي الوحيد وهو السعادة. أمّا الزواج فيجب أن يعلم أنه لا يزال أملاً بعيداً، إذ إنني أخشى على الأقل ألّا يتم قريباً.

هذه هي الجملة التي جرحَت بحقّ مشاعر السيدة جننجز الرقيقة عندما أساءت فهمها، ولكن بعد أن قصَّت عليها إلينور حقيقة ما جرى بينها وبين كولونيل براندون وهما واقفان عند النافذة، أعربت له عند الوداع عن شكرها شكراً ربما لا يقلّ بوجه عام في حرارته وعبارته عن الشكر الذي كانت تعرب عنه فيما لو عرض عليها الزواج.

الفصل الأربعون

قالت السيدة جننجز وهي تبتسم على نحوٍ يدلّ على الفطنة الثاقبة، بمجرد أن خرج الرجل:

«الآنسة داشوود! لا أطلب منك أن تقصّي عليّ ما قاله الكولونيل لك، لأني استطعت أن أتلقّف من كلماته ما يكفي لفهم مقصده. على الرغم من أنني أقسم لك بشرفي أنني اجتهدت أن أكون بعيدة عن مسامعكما. وأؤكّد لكِ أنني لم أسرّ قط كما سُررتُ بهذا الحديث. وأتمنى من صميم قلبي أن تكوني مسرورة به».

فقالت إلينور: «الشكر لك يا سيدتي. إنه لأمر يسرني كثيراً. وأنا أقدِّر كلّ التقدير ما أسداه كولونيل براندون من حُسن الصنيع. كثير من الناس يأبون أن يفعلوا مثل ما فعل. قليل منهم مَن يحمل مثل هذا القلب الرحيم. ما دهشت قط أكثر من دهشتي الآن».

«رباه! عزيزتي، إنك متواضعة جداً. أما أنا فلم أشعر بأدنى دهشة، لأنه بدا لي في الأيام الأخيرة أنه ما من شيء هو أكثر احتمالاً من ذلك».

«لقد حكمتُ بذلك لما تعلَمين عن الكولونيل من حبّ الخير والمعروف ولكن ما كنتِ تتوقعين على الأقل أنّ الفرصة ستسنح بمثل هذه السرعة».

فردَّدت السيدة جننجز: «الفرصة! عجباً! إن الرجل متى عقد العزم، فسرعان ما يجد الفرصة على نحوٍ ما. حسن يا عزيزتي، أتمنى لك السرور دوماً. وإذا كان في العالم زوجان سعيدان فأنا أعتقد أنني لن ألبث أن أعرف أين أبحث عنهما».

قالت إلينور بابتسامة خفيفة: «تعنين أنك ستذهبين وراءهما إلى ديلافورد».

«نعم! يا عزيزتي. هذا ما سأفعله حقاً. أما فيما يتعلق بسوء حالة المنزل فأنا لا أدري ماذا يريد الكولونيل! إنه منزل طيب كأحسن منزل رأيته».

«قال إنه لا يقبل الترميم».

«حسن، ومَن المسؤول عن ذلك؟ لماذا لا يرمِّمه؟ مَن سواه يجب أن يفعل ذلك؟».

وقطع عليهما الخادم الحديث إذ دخل ليقول إن العربة لدى الباب فقالت السيدة جننجز وهي تهمّ بالخروج:

«معذورة يا عزيزتي. أنا مضطرّة الآن إلى الخروج قبل أن أفرغ من نصف حديثي. ولكن في وسعنا أن نفرغ منه في المساء لأننا سنكون وحدنا. ولا أطلب إليك أن ترافقيني لأني أعتقد أن الأمر يشغل بالك بحيث لا ترغبين في مرافقتي، وفضلاً عن ذلك فأنت تتوقين بلا شكّ إلى إخبار أختك بكل شيء».

وكانت مريان قد غادرت الحجرة قبل بدء حديثهما.

«حقاً يا سيدتي. سأطلع مريان عليه، ولكن لن أذكره في الوقت الحاضر لأي إنسان آخر».

فقالت السيدة جننجز بشيء من الامتعاض: «ويْ! جميل جداً

كأنك لا تريدين أن أخبر لوسي به، فأنا أنوي الذهاب إلى هلبورن اليوم».

«كلا يا سيدتي ولا للوسي، من فضلك. إن الانتظار يوماً واحداً لن يضرّ كثيراً. وأعتقد أنه ينبغي عدم ذكره لأيّ إنسان حتى أكتب لإدوارد. وسأكتب إليه من فوري. فمن المهم ألّا نتوانى في إبلاغ الأمر إليه، لأنه سيكون مضطراً بالطبع إلى اتخاذ كثير من الإجراءات الخاصة برسامته».

وقد سبَّب هذا الكلام للسيدة جننجز كثيراً من الحيرة والارتباك في البداية إذ لم تستطِع أن تفهم في الحال فيمَ العجلة في الكتابة للسيد فيرارز حول الأمر ولكنها بعد أن فكّرت بضع دقائق خطرت لها هذه الفكرة الموفّقة فصاحت:

«وَيْ! وَيْ! قد فهمت مرادك. إنّ السيد فيرارز هو الزوج المرتقب. حسن! خير البر عاجله. نعم حقاً يجب أن يتم تكريسه في الحال. إنني مسرورة لاتفاقكما على التعجيل بالأمر. ولكن ألا ترين يا عزيزتي أنّ ذلك يخالف المألوف؟ أما كان يجب أن يكتب إليه الكولونيل نفسه؟ حقاً إنه هو الخليق بذلك».

ولم تفهم إلينور الشطر الأول من كلام السيدة جننجز، ولم تره جديراً بالسؤال عنه. ولذلك اكتفت بالإجابة عن الشطر الأخير.

إن كولونيل براندون رجل رقيق الشعور، فأراد أن يكلِّف شخصاً غيره بإبلاغ نواياه إلى إدوارد».

«إنه كلفك أنت أداء هذه المهمة. عجباً! هذا ضرب غريب من رقّة الإحساس! على أني لن أزعجك (إذ رأتها تهمّ بالكتابة) أنت أدرى بمصلحتك. وداعاً يا عزيزتي! ما سمعت بشيء سرّني أكثر من ذلك منذ أن وضعت شارلوت مولودها».

ثم خرجت ولكنها عادت بعد لحظة.

«لقد خطرت ببالي الآن أخت بيتي، يا عزيزتي. يسرني كثيراً أن تكون في خدمة ربة بيت طيبة كهذه. ولكني لا أستطيع أن أجزم هل تصلح أن تكون وصيفة لسيدة. هي خادمة بيت ممتازة، ماهرة في شغل الإبرة. ومع ذلك أرجو أن تفكري في الأمر على هينتك».

فأجابت إلينور: «بالتأكيد يا سيدتي» دون أن تسمع كثيراً ممّا قالته، وهي أحرص على أن تخلو بنفسها منها على أن تكون ربة البيت المشار إليها.

وكان أكبر ما يشغل بالها الآن هو كيف تبدأ الخطاب - كيف تعبّر عن أفكارها في خطابها لإدوارد. إن ظروفهما الخاصة جعلت من الصعب العسير ما كان يمكن أن يكون أسهل شيء في العالم على أي شخص آخر، ولكنها كانت تخشى على السواء أن تقول أكثر أو أقل مما يقتضيه المقام. وجلست وهي تتروى في الأمر فوق الورق والقلم في يدها، وإذا بإدوارد يدخل عليها فيقطع عليها سلسلة التفكير.

وكان إدوارد قد قابل السيدة جننجز لدى الباب، وهي تتجه إلى العربة بينما كان قادماً ليترك بطاقته مودعاً ثم اعتذرت له عن عدم عودتها معه، واضطرته إلى الدخول حين أخبرته أن الآنسة داشوود في الطبقة العليا وأنها تريد التحدث إليه في موضوع خاص.

وكانت إلينور منذ لحظة تُحدِّث نفسها في غمرة حيرتها أنه إذا كان من الصعب أن تعبّر عن أفكارها في خطاب تعبيراً صحيحاً فمن الأفضل على الأقل أن تبلغه الخبر شفهياً، وإذا به يدخل عليها، فيرغمها على إبداء أعظم مظاهر التجلّد ورباطة الجأش، وقد اعتراها كثير من الدهشة والارتباك عندما حضر على هذا النحو

المفاجئ، إذ لم يسبق لها أن رأته منذ أن شاع نبأ خطبته، لا منذ أن عرف هو أنها علمت بهذا النبأ - جعلها تشعر بكثير من الحرج بضع دقائق. وكان هو يشعر بالهم والأسى أيضاً فجلسا معاً في حالة يكتنفها الحرج الشديد، فلم يستطع أن يذكر هل اعتذر لها عن تطفله عليها بالدخول إلى الحجرة ولكنه رأى أن يأخذ بالأحوط فقدَّم لها اعتذاره بعبارة لائقة عندما استطاع أن يتكلم بعد أن أخذ كرسياً وجلس عليه.

قال: «أخبرتني السيدة جننجز أنك تريدين أن تتحدثي معه، أو على الأقل هذا ما فهمته منها - وإلا لَما تطفَّلت عليك على هذا النحو، ولكن كنت سأشعر بغاية الأسف إذا غادرت لندن دون أن أراك وأختك، ولا سيما أنه يُحتمل كثيراً أن أغيب حيناً من الزمن، ولا يُحتمل أن أسعد قريباً بلقائك مرة أخرى. سأذهب إلى أكسفورد غداً».

وعادت إلينور فملكت جأشها، وصمَّمت على نسيان ما تخشاه كثيراً، بأسرع ما يمكن وقالت: «على أنه ما كان لك أن تسافر دون أن تتلقى تمنياتنا الطيبة حتى ولو عجزنا عن تقديمها شخصياً. ولقد صدقت السيدة جننجز فيما قالت: فلدي نبأ هام أودّ الإفضاء به إليك، وكنت على وشك أن أخبرك به عن طريق الكتابة. لقد كلفت أداء مهمة تبعث في نفسي أعظم الرضا (وتنفّست أسرع من المعتاد وهي تتكلم) فقد رغب إلى كولونيل براندون الذي كان هنا منذ عشر دقائق أن أبلغك أنه يسرّه كثيراً بعد أن علم أنك تنوي الانخراط في سلك الكهنوت - أن يعرض عليك أبرشية ديلافورد التي خلت الآن، وكان يتمنى لو أنّ هذه الأبرشية تغلّ إيراداً أكبر. اسمح لي أن أهنئك بهذا الصديق المحترم العاقل وكنت أتمنى مثله لو كانت

هذه الوظيفة الكنسية أكبر إيراداً - إذ ليست إلا وسيلة مؤقتة لتيسير أسباب الحياة لك - تمكنك بالاختصار من أن تحقّق ما تتمناه من السعادة».

وليس في وسع أحد أن يعبّر عمّا شعر به إدوارد، لأنه هو نفسه عجز عن التعبير عن مشاعره، فقد نظر بعين ملؤها الدهشة التي لم يكن بدّ من أن يثيرها في نفسه مثل هذا النبأ المفاجئ الذي لم يخطر على باله. ولكنه اكتفى بهاتين الكلمتين:

«كولونيل براندون».

واستطردت إلينور بعد أن ملكت جأشها، إذ انتهى بعض ما كانت تخشاه «كولونيل براندون يريد أن يكون ذلك دليلاً على قلقه لما حدث أخيراً - للموقف القاسي الذي وضعك فيه تصرف أهلك الجائر - وهو قلق أؤكّد لك أنّ مريان وإياي وجميع أصدقائك يشعرون به - وأن يكون أيضاً دليلاً على تقديره العظيم لأخلاقك العامة، وإعجابه الخاص بمسلكك في الموقف الراهن».

«كولونيل براندون يعطيني أبرشية! أهذا معقول؟».

«إنّ قسوة أهلك جعلتك تدهش لأن وجدت الصداقة عند غيرهم».

فأجاب فجأة: «كلا، لم أدهش لأني وجدتها فيك أنت، فأنا لا أستطيع أن أجهل أنني مدين بذلك كله لك، لفضلك - إنني أشعر بذلك. وبودّي لو استطعت أن أعبِّر عن شعوري، ولكنك تعرفين جيداً أني لست بخطيب».

«إنك مخطئ جداً. أؤكد لك أنك مدين بذلك كله - كله تقريباً على الأقل - إلى فضائلك الشخصية، وتقدير كولونيل براندون لهذه الفضائل. وليس لي يدٌ في ذلك، بل لم أكُن أدري أنّ الأبرشية

خالية إلى أن فهمت قصده ولا خطر ببالي قط أن لديه أبرشية يمكن أن يهبها لأحد. فهو كصديق لي، وصديق لأسرتي ربما يسرّه - الواقع أني أعرف أنه يسرّه كثيراً أن يهبَ هذه الأبرشية. ولكني أؤكد لك أنك لا تدين بشيء إلى وساطتي».

ولكن حبّ الحقيقة أجبرها على الاعتراف بأن لها نصيباً ضئيلاً في الأمر. ولكنها كانت تكره في الوقت نفسه أن تتظاهر بأنها أسدَت إلى إدوارد معروفاً ومن هنا اعترفت بشيء من التردّد، ممّا قوى في نفسه الشبهة التي دارت بخلده أخيراً. وجلس هنيهة وهو مستغرق في التفكير بعد أن سكتت إلينور عن الكلام، وأخيراً قال بعد لأي:

«يبدو أنّ كولونيل براندون رجلٌ على جانب كبير من الفضل والاحترام: لقد سمعت الناس دائماً يتحدثون عن اتّصافه بعيدان الأسنان هذه، وأنا أعلم أن أخاك يكنّ له أعظم التقدير. لا شك أنه رجل عاقل. وهو في أخلاقه مثال الرجل المهذب الكامل».

فأجابت إلينور: «أعتقد أنك ستجده - عندما تزداد معرفة به - يتحلى بكل ما سمعت من الصفات. وبما أنكما ستكونان جارين متقاربين (لأني علمت أن الأبرشية قريبة من قصره) فمن المهم جداً أن يكون متحلياً بكل ذلك».

فلم يجب إدوارد بشيء، ولكنها حينما أدارت وجهها، نظر إليها في جدّ ينبئ عن عدم ابتهاجه، وكأنه يريد أن يقول إنه قد يتمنى في المستقبل أن تكون المسافة بين الأبرشية والقصر أكبر من ذلك.

وسرعان ما قال وهو ينهض من كرسيه: «أظنّ أن كولونيل براندون يقيم في شارع سنت جيمس».

فأخبرته إلينور برقم المنزل:

«يجب أن أسرع إذن لأقدِّم له الشكر الذي أبيتُ أن أقدِّمه لك، لأؤكّد له أنه جعلني رجلاً سعيداً جداً - سعيداً للغاية».

ولم تحاول إلينور أن تمنعه من الخروج، وافترقا وهي تؤكِّد له من جانبها تمنياتها الطيبة الدائمة لسعادته في جميع صروف الحوادث التي تلمّ به، وهو يحاول من جانبه أن يردّ على تمنياتها الطيبة بمثلها أكثر ممّا يقدر على التعبير عنها.

وحدَّثت إلينور نفسها بعد أن أغلقت الباب وراءه: «عندما أراه ثانية سأراه زوجاً للوسي».

وبهذا التوقع السارّ جلست لتُعيد النظر في الماضي، وتستحضر كلمات إدوارد، وتحاول أن تفهم جميع مشاعره، وتتأمل بالطبع في مشاعرها هي بشيء من عدم الرضا.

ولما عادت السيدة جننجز إلى المنزل، كان السرّ الهام الذي تعرفه - على الرغم من أنها عادت من زيارة قوم لم ترَهُم من قبل، وتودّ أن تقول الكثير عمّا عرفته عنهم - يشغل بالها أكثر ممّا سواه بحيث عادت إلى ذكره بمجرد أن حضرت إلينور:

صاحت قائلة: «أخبريني يا عزيزتي. لقد أرسلت إليك الرجل. ألم أفعل صواباً؟ وأظن أنك لم تجدي عناءً كبيراً - لم تجدي أنه لا يرغب كثيراً في قبول طلب الزواج».

«كلا يا سيدتي. إن هذا لم يكن أمراً قوي الاحتمال».

«حسن، ومتى يستعدّ لذلك؟ إذ يبدو أن كل شيء يتوقف على هذا».

قالت إلينور: «في الحق أنني لا أعرف عن هذه الإجراءات الشكلية إلّا قليلاً بحيث لا أستطيع الحدس بشأن الزمن أو

الاستعداد اللازم. ولكني أعتقد أنّ رسامته ستتمّ في غضون شهرين أو ثلاثة».

صاحت السيدة جننجز: «شهران أو ثلاثة! رباه! عزيزتي، كيف تتحدثين عن هذا بهذا الهدوء؟ هل في وسع الكولونيل أن ينتظر شهرين أو ثلاثة! رحماك اللهم! إنّ صبري يكاد ينفد! ومهما سر الإنسان لإسداء بعض الجميل لإدوارد المسكين، فإنه لا يجدر بالكولونيل الانتظار شهرين أو ثلاثة من أجله. من حقه أن يبحث عن آخر يحلّ محله، تمت رسامته من قبل».

فقالت إلينور: «سيدتي العزيزة ماذا تفكرين فيه؛ عجباً إن هدف كولونيل براندون الوحيد هو أن يسدي خدمة للسيد فيرارز».

«بارك اللّه فيك يا عزيزتي! لعلك لا تقصدين أن تقنعيني بأنّ الكولونيل إنما يتزوّجك من أجل إعطاء عشرة جنيهات للسيد فيرارز».

لم يكن من الممكن أن يستمرّ الخداع بعد ذلك، فتمّ إيضاح الأمر في الحال وسرت كل منها بذلك سروراً كبيراً إلى حين؛ دون أن يقلل ذلك من شعورهما بالسعادة؛ لأن السيدة جننجز استبدلت سروراً بسرور دون أن تفقد الأمل في الأول.

وقالت السيدة جننجز، بعد أن هدأت ثورة الدهشة والارتياح التي اعترتها في البداية: «نعم، نعم، دار الكاهن صغيرة فعلاً، ومن المحتمل جداً ألا تكون قابلة للترميم، ولكن ممّا يدعو إلى السخرية حقاً أن أسمع رجلاً يعتذر - كما ظننت - من أجل بيت أعلم أنا أنه يشتمل على خمس غرف للجلوس في الدور الأرضي، ويتّسع كما قالت لي مدبرة المنزل لخمسة عشر سريراً! ويعتذر أيضاً لكِ أنتِ التي تعوّدت الإقامة في بارتون كوتيج! ولكن يا عزيزتي يجب أن

نحث الكولونيل على إصلاح البيت وتوفير وسائل الراحة لهما قبل أن تذهب لوسي إليه.

«ولكن الكولونيل لا يرى إطلاقاً أن دخل الأبرشية يسمح لهما بالزواج».

«إن الكولونيل رجل أبله يا عزيزتي! ألأن دخله ألفا جنيه في العام يظنّ أنه لا يستطيع أي إنسان آخر أن يتزوج بأقل منه. صدقيني أنه إذا كان في الأجل بقية فسأزور أبرشية ديلافورد في عيد القديس ميخائيل. ولن أذهب إليها ما لم تكن لوسي فيها».

وكانت إلينور توافقها تماماً على رأيها بشأن احتمال عدم انتظارهما لأكثر من ذلك الموعد.

مكتبة 707
سُر مَن قرأ

الفصل الحادي والأربعون

بعد أن قدّم إدوارد شكره لكولونيل براندون توجّه إلى لوسي وهو يشعر بالسعادة، وكان الشعور بهذه السعادة يغمره عندما وصل إلى بارتلتز بلدنغ لدرجة أنها أكدت للسيدة جننجز عندما زارتها في اليوم التالي مرة أخرى لتقدم لها تهانيها، أنها لم ترهُ مبتهجاً قط كما رأته في ذلك اليوم.

ولم يكن ثمة شكّ في شعورها بالسعادة والسرور، وشاركت السيدة جننجز من صميم فؤادها في توقعها أن يستقر بهما المقام في أبرشية ديلافورد قبل عيد القديس ميخائيل. ولم تحجم في الوقت نفسه عن أن تعزو إلى إلينور من الفضل ما يعزوه إدوارد إليها، حتى تحدّثت عن صداقتها لهما بأخلص عبارات الشكر ولم تتردّد في الاعتراف بامتنانها لها، وقالت بصراحة إنها لن تدهش لأيّ مجهود تبذله الآنسة داشوود لصالحهما سواء في الحاضر أو المستقبل، لاعتقادهما أنها تبذل قصارى جهدها في سبيل مَن تقدِّرهم في الواقع. أما فيما يتعلق بكولونيل براندون فلم تبدِ استعدادها فحسب، لأن تعبده بوصفه قديساً، بل أبدت حرصها الشديد أيضاً على وجوب معاملته كذلك في جميع الشؤون الدنيوية، وحرصها على ضرورة زيادة عشوره إلى الحد الأقصى، وصمَّمت في سرها

على الانتفاع في ديلافورد ما استطاعت بخدمه، وعربته، وبقره، ودواجنه.

وكان قد مضى الآن أكثر من أسبوع منذ أن زارهن جون داشوود في بركلي ستريت، ونظراً إلى أنهن لم يبدين أيّ اهتمام بمرض زوجته منذ ذلك الوقت. إلّا مرة واحدة سألن فيها عن صحتها شفهياً، فقد رأت إلينور من الواجب أن تزورها. على أنّ هذا الواجب لم يكن يتعارض مع رغبتها فحسب، بل إنه لم يلقَ أي تشجيع من إحدى صاحباتها؛ فمريان لم تكتفِ برفض الزيارة رفضاً باتاً، بل ألحت على أختها ألّا تقوم بها إطلاقاً، والسيدة جننجز التي كانت تضع دائماً عربتها في خدمة إلينور، كرهت السيدة جون داشوود كراهية شديدة لدرجة أن تلهّفها على رؤيتها بعد إذاعة النبأ الأخير، ورغبتها الشديدة في إهانتها بالوقوف إلى جانب إدوارد، لم يحملاها على مرافقة إلينور. وكانت النتيجة أن خرجت إلينور بمفردها لأداء الزيارة التي لم يكن أحد في الواقع أقلّ منها رغبة في أدائها والمجازفة بمحادثة امرأة لم يكن لدى أحد من الأسباب ما يحمله على كرهها أكثر ممّا لدى إلينور.

وقيل لها: إن السيدة داشوود غير موجودة، ولكن زوجها خرج بطريق الصدفة، قبل أن يتسنى للعربة أن تنصرف من المنزل، فأعرب عن عظيم سروره بلقاء إلينور، وأخبرها أنه كان يهمّ منذ لحظة بزيارة بركلي ستريت، ثم دعاها إلى الدخول مؤكداً لها أن فاني ستسرّ برؤيتها.

وصعدا الدرج، ودخلا حجرة الاستقبال - ولم يكن فيها أحد.

وقال: أظن أنّ فاني في حجرتها. سأذهب إليها حالاً، لأني واثق أنه لن يكون لديها أدنى مانع من رؤيتك أنت، حاشاها من

ذلك. والآن بصفة خاصة لا يمكن أن يكون. على أنها كانت تحبك أنت ومريان دائماً. لماذا أبت مريان أن تحضر؟».

والتمست لها إلينور ما وَسِعَها من الأعذار.

فأجاب: «إنني غير آسف لأني رأيتك، فأنا أحبّ أن أقول لك الشيء الكثير. هذه الأبرشية الخاصة بكولونيل براندون - أصحيح هذا؟ هل وهبها لإدوارد حقاً؟ لقد سمعت ذلك أمس بمحض الصدفة، وهممتُ بزيارتك لأعرف المزيد عن هذا الأمر».

«صحيح تماماً، لقد وهب كولونيل براندون أبرشية ديلافورد لإدوارد».

«صحيح! إنه لأمر يدعو إلى الدهشة! لا قرابة! لا صلة بينهما، وفي الوقت الذي تجلب فيه الأبرشيات مثل هذا الإيراد! كم يبلغ قدره؟

«حوالي مائتي جنيه في العام».

«جميل جداً! إنني أؤكد أنه كان في وسعه أن يحصل على ألف وأربعمائة جنيه في مقابل تعيين أحد الأشخاص في أبرشية تغلُّ مثل هذا الريع، مكان القسيس الأخير إذا كان هذا القسيس قد طعن في السن وأصبح مريضاً بحيث يحتمل أن يتخلى عن هذه الوظيفة قريباً. ولماذا لم يقرّر هذا الأمر قبل موت هذا الشخص؟ لقد فات الآن في الواقع أوان بيعها، ولكن عجباً لرجل عاقل مثل كولونيل براندون! إني أعجب كيف لا يتبصَّر في العواقب في أمر عادي طبيعي كهذا الأمر! نعم أعتقد أنّ كل إنسان لا يخلو من التناقض. على أني أظنّ - بعد إمعان النظر - الأمر يحتمل أن يكون هكذا: أن يتقلّد إدوارد الأبرشية حتى يكبر الشخص الذي باع له الكولونيل الوظيفة بالفعل - نعم، نعم - ثقي أنّ هذه هي الحقيقة».

ولكن إلينور نفَت ذلك بلهجة قاطعة، وأفهمته أنها كانت هي الواسطة في إبلاغ العرض من الكولونيل إلى إدوارد، ولذلك فهي تفهم الشروط التي تمَّ بها، فاضطر أن يذعن لقولها.

فصاح قائلاً، بعد أن سمع ما قالته: «إن الأمر في الواقع يدعو إلى الدهشة. وما الدافع الذي حدا بالكولونيل إلى ذلك؟».

«أمر بسيط جداً، هو خدمة السيد فيرارز».

«جميل، جميل! مهما يكون كولونيل براندون، فإنّ إدوارد رجل حسن الحظ جداً! أرجو مع ذلك ألا تذكري الأمر لفاني لأنها لا تحبّ أن تلوكه الألسنة كثيراً، على الرغم من أني تلطّفت في إبلاغها إياه واحتملت سماعه بصبر وجلد».

وهنا لم تجد إلينور مندوحة من القول بأنها تعتقد أنّ فاني لن يسوءها أن يظفر أخوها بثروة، ما دامت هذه الثروة لا تنتقص من مالها هي أو مال ابنها.

فأضاف، وقد خفض صوته إلى الحدّ الذي يتناسب مع أهمية الموضوع: «السيدة فيرارز لا تعلم شيئاً عن هذا الموضوع في الوقت الراهن. وأعتقد أنه يحسن كتمانه عنها أطول مدة ممكنة. وعندما يتمّ الزواج، فإنني أخشى أنها لا بدَّ أن تقف على حقيقة الأمر».

ولكن ما الداعي إلى اتخاذ مثل هذه الحيطة؟ إذا لم يكن من المحتمل أن تشعر السيدة فيرارز بأدنى ارتياح حين تعلم أنّ ابنها لديه من المال ما يكفيه - لأنّ ذلك أمر مستحيل - فلماذا يظن - بعد مسلكها الأخير - أنها تشعر نحوه بأيّ شيء على الإطلاق؟ لقد قطعت كل صلة بابنها، ونبذته إلى الأبد، وحملت كلّ ما لها نفوذ لديه على نبذه كذلك. ومن المؤكد أنه بعد أن فعلت ذلك لا يمكن لأحد أن يتصوّر أنها تحزن أو تفرح من أجله - لا يمكن أن تهتم

بأي شيء يصيبه - ولن يصل بها الضعف إلى الحدّ الذي تنبذ فيه راحة الابن، ثم تحتفظ بقلق الأم؟».

فقال: «آه! إلينور. إن تفكيرك منطقي جداً، ولكنه مبني على الجهل بالطبيعة البشرية. ثقي أنه عندما يتمّ زواج إدوارد، غير الموفّق، فإن أمه ستنسى أبداً أنّ إدوارد ابنها».

«إنني لأدهش لما تقول. فأنا أعتقد أنها ستكون قد نسيت ذلك تقريباً عندما يتمّ هذا الزواج».

«إنك تظلمينها كثيراً، فإن السيدة فيرارز من أكثر الأمهات في العالم حباً لأبنائها».

فسكتت إلينور.

وقال السيد داشوود بعد أن سكت فترة قصيرة:

«نحن نفكر الآن في زواج روبرت من الآنسة مورتو».

وابتسمت إلينور للّهجة الرزينة القاطعة التي تكلَّم بها أخوها وأجابت في هدوء:

«أظن أنّ هذه السيدة ليس لها خيار في الأمر».

«خيار! ماذا تعنين»؟

«أعني فقط أنني فهمت من لهجة كلامك أنه سواء على الآنسة مورتون أتزوَّجت إدوارد أم روبرت».

«حقاً، لا يمكن أن يكون ثمة فرق، لأنّ روبرت يُعتبر الآن هو الابن الأكبر من كافة الوجوه. وفيما عدا ذلك كلاهما شاب لطيف مقبول. ولا أعلم أنّ أحدهما يفوق الآخر».

فلم تزد إلينور على ذلك، ثم سكت سير جون كذلك برهة قصيرة. وأنهى تفكيره على النحو الآتي:

تناول يدها برفق وتكلم في همس رهيب قائلاً: «شيء واحد في

وسعي أن أؤكد يا أختي العزيزة، أؤكده لأني أعلم أنه لا بدَّ أن يسرّك. لدي من الأسباب ما يحملني على الاعتقاد - الواقع أنني علمت ذلك من أوثق المصادر، وإلّا لما ردّدته، لأنه لو كان بخلاف ذلك لكان من أكبر الخطأ أن أقول عنه حرفاً - ولكني استقيته من أوثق المصادر - ليس معنى ذلك أنني سمعته على وجه الدقة من السيدة فيرارز ولكن بنتها تحدّثت عنه ومنها علِمْته - وفحواه بإيجاز أنه مهما يكن من اعتراض على زواج - زواج معين - أنت تفهمين قصدي - فإن هذا الزواج كان أحبّ إليها بكثير - وما كان ليسبّب لها نصف ما سببه هذا الزواج من ألم وكدر. لقد سررت بالغ السرور حين سمعت السيدة فيرارز تنظر إليه هذه النظرة - وهو كما تعلمين أمر يسرنا جميعاً. قالت: «لو أنّ هذا الزواج تمّ لما كان ثمة وجه للمقارنة - على الأقل يعدّ أخف الضررين ويسرّها أن توافق عليه الآن باعتباره ليس أسوأ من غيره». ولكن ذلك كله مستحيل - لا يمكن التفكير فيه أو ذكره - فأنت تعلمين أن الزواج - لا يمكن أن يتمّ أبداً - كل ذلك قد مضى وانقضى ولكني رأيت أن أذكر لك ذلك لأني عرفتُ أنه يسرك لا محالة، ولا يحزنك يا عزيزتي إلينور. فلا شك أنك ستوفقين إلى الزواج من رجل صالح، وربما كان خيراً منه إذا نظرنا إلى جميع الاعتبارات. هل اجتمعت بكولونيل براندون أخيراً؟».

وكان ما سمعته إلينور يكفي لأن يثير أعصابها ويشغل فؤادها إن لم يرضِ غرورها ويزيد من كبريائها. ولذلك سرَّت كثيراً عندما دخل السيد روبرت فيرارز إذ أعفاها من الردّ على أخيها وسماع المزيد منه، وتذكر جون داشوود بعد حديث استغرق بضع دقائق أن فاني لم تعلم بوجود أخته، فغادر الحجرة ليبحث عنها، وترك إلينور لتزداد

معرفة بروبرت الذي عزّز رأيها السيئ في لبّه وقلبه باستهتاره المرح وغروره، وزهوه بما غمرته به أمه - بغير حق - من حب وكرم للإضرار بأخيه المنبوذ، وهو أمر ظفر به بسبب إسرافه وانغماسه في اللذات واستقامة أخيه.

ولم تكد تمضِ دقيقتان على جلوسهما معاً حتى أخذ يتحدث عن إدوارد، لأنه هو أيضاً سمع عن الأبرشية، وطلب مزيداً من المعلومات عن الموضوع، فردَّدت إلينور على مسامعه ما ذكرته لجون من تفاصيل. وكان أثرها في نفس روبرت لا يقلّ عنه في نفس جون، وإن اختلف كثيراً، فقد أغرق في الضحك عندما علم أن إدوارد سيكون قسيساً وسيقيم في منزل صغير بالأبرشية، ولم يرَ ما هو أدعى إلى السخرية من تخيّل إدوارد وهو يتلو الصلوات في حالة كهنوتية ويعلن قصد الزواج بين جون سميث وماري براون.

وبينما كانت إلينور تنتظر انتهاء هذه الحماقة، وهي صامتة ساهمة الوجه لا تُبدي حراكاً لم يسعها إلّا أن ترمقه بنظرة ملؤها الاحتقار، ولكنها كانت نظرة سديدة لأنها فرجت من همومها دون أن يفهم هو منها شيئاً. بيدَ أنه ارعوى عن السخرية إلى الحكمة بإحساسه المرهف لا بأيّ توبيخ منها.

وأخيراً قال، بعد أن كفَّ عن الضحك المصطنع الذي أطال فترة المرح في تلك اللحظة: «في وسعنا أن نعدّ الأمر مجرد نكتة، ولعمري إنه لمن أخطر الأمور. مسكين إدوارد! لقد أفلس إلى الأبد. إنني أرثي له كثيراً - لأني أعرف أنه إنسان طيب القلب سليم الطوية ربما لا يقلّ في ذلك عن أي إنسان آخر في العالم. يجب ألّا تحكمي عليه يا آنسة داشوود من تلك المعرفة البسيطة - مسكين إدوارد إنّ أخلاقه ليست بالتأكيد أرضى الأخلاق - ولكننا جميعاً لم

نوهب ملكات ولا قوى واحدة - ولا طريقة واحدة في الحديث - وأسفاه عليه! حينما أراه يعيش بين زمرة الغرباء! - لا شك أنّه أمر يدعو إلى الرثاء! - ولكني أقسم أنه من أطيب الناس قلباً في هذه المملكة، وأصرح، بل أؤكد لك أنني لم أصعق في حياتي كما صعقت عندما علمتُ بهذا الأمر - لم أستطِع أن أصدقه - كانت أمي أول مَن أخبرني به ورأيتُ أن الواجب يدعوني إلى التصرُّف بحزم وعزم فقلت لها في الحال: «سيدتي العزيزة! لا أدري ماذا تريدين أن تفعلي في هذا الموقف. أما أنا فأرى لزاماً عليّ أن أقول: إن إدوارد إذا تزوج هذه الفتاة فلن أراه بعد اليوم مرة أخرى». هذا ما قلته من فوري. لقد صعقت إلى أقصى حدّ بحق! مسكين إدوارد! لقد جنى على نفسه تماماً وحَرَم نفسه من كل مجتمع كريم! ولكني - كما قلت لأمي على الفور - لا أشعر بأدنى دهشة لهذا الأمر فقد كنت أتوقعه دائماً بسبب نوع التعليم الذي تلقاه. لقد كادت أمي يجن جنونها.

«هل رأيت السيدة قط؟».

«نعم، ذات مرة، بينما كانت تقيم في هذا المنزل حضرت على غير انتظار ومكثت عشر دقائق وعرفت عنها الكثير، فهي مجرّد فتاة ريفية خرقاء مجردة من الأناقة والرشاقة، تكاد تخلو من الجمال. إنني أذكرها جيداً، وهي من ذلك الطراز من الفتيات الذي يستهوي إدوارد المسكين. وقد اقترحت في الحال حينما قصَّت على أمي الخبر أن أتحدث إليه بنفسي وأصرفه عن الزواج، ولكن الأوان كان قد فات حينئذٍ، فلم يكن في وسعي أن أعمل أي شيء، إذ لم أعلم بالأمر منذ البداية لسوء الحظ، ولم أعلم به إلّا بعد أن حدثت القطيعة، ولم يكن من شأني حينئذٍ أن أتدخل كما تعلمين. ولو أني

علمتُ به قبل ذلك ببضع ساعات لكان من المحتمل كثيراً أن أهتدي إلى حلّ كان من المؤكد أن أقنع إدوارد بحجج أقوى كأن أقول له: «تدبّر يا أخي العزيز ما أنت فاعل. أنت مقبل على زواج يجلب العار والشنار، زواج تستنكره أسرتك بالإجماع». وبالاختصار لا يسعني إلّا أن أقول: إننا ما كنا لنعدم وسيلة لإقناعه. ولكن لقد فات الأوان الآن. لا بدَّ أن يموت جوعاً كما تعلمين. هذا أمر لا ريب فيه، يموت جوعاً بلا شك».

وما إن انتهى من هذه الكلمة التي قالها بهدوء كبير حتى دخلت السيدة جون داشوود، فوضعت حداً للكلام في هذا الموضوع. ومع أنها لم تتحدث عن هذا الأمر قط إلى أحد من غير أهلها، فقد استطاعت إلينور أن ترى تأثيره في نفسها، تأثيراً يتجلى في الاضطراب الذي بدا على وجهها عند دخولها، وفي محاولة التودّد إليها، بل لقد زادت على ذلك إلى حدّ أنها أعربت عن قلقها لما بلغها عن مغادرة إلينور ومريان للندن عمّا قريب، لأنها كانت ترجو أن تقابلهما مرة أخرى، ورأى - في ذلك - زوجها الذي رافقها عند دخولها الحجرة، وأصغى إلى كلامها بشغف، أعظم مظاهر الحب واللطف.

الفصل الثاني والأربعون

وكانت نهاية اللقاء بين الأخ وأختيه في لندن، زيارة أخرى قصيرة قامت بها إلينور إلى هارلي ستريت تلقّت في أثنائها تهاني أخيها بسفرهما هي وأختها نحو بارتون، دون أن تتكبدا شيئاً من نفقات السفر حتى الآن، وتهانيه لها باقتفاء كولونيل براندون أثرها بعد يوم أو يومين. وكان كلّ ما ينبئ باحتمال أي لقاء بينهما في الريف هو دعوة فاترة من فاني لزيارة نورلاند كلما مرّت إلينور بها في طريقها - وهو أمر يعدّ أبعد الأشياء احتمالاً - وتأكيداً حاراً من أخيها، وإن لم يكن بصفة علنية - بأنه سيزورها في ديلافورد قريباً.

وممّا يبعث على التسلية أنها لاحظت أنّ جميع أصدقائها مصمّمون على إرسالها إلى ديلافورد، وهي آخر مكان كانت في ذلك الوقت تفكّر في زيارته أو ترغب في الإقامة فيه. فكان أخوها والسيدة جننجز يعدّان هذا المكان منزلها المستقبلي، بل إن لوسي دعتها بإلحاح عند الوداع إلى زيارتها فيها.

وفي أوائل شهر أبريل وفي ساعة مبكرة من النهار، سافر أهل «هانوفر سكوير» و«بركلي ستريت» من منازلهم، والتقوا على الطريق بناءً على موعد سابق، واتفقوا حرصاً على راحة شارلوت وابنها أن تستغرق الرحلة أكثر من يومين وأن يسرع السيد بالمر بالسفر مع

كولونيل براندون بحيث يلحقان بهم في كليفلاند عقب وصولهم بقليل.

وعلى الرغم من أن مريان لم تنعم براحة البال في لندن إلا ساعات قليلة، وعلى الرغم من أنها ظلّت تتوق كثيراً إلى مغادرتها، فإنها حين أزفت ساعة الرحيل لم تستطع - دون أن تشعر بلوعة الأسى - أن تودع البيت الذي نعمت فيه للمرة الأخيرة بما علقته على ولبي من آمال، وما أوْلته من ثقة، وهما الأمران اللذان ذهبا الآن هباء منثوراً إلى الأبد، كما أنها لم تستطع - دون أن تذرف ماء العيون - أن تفارق المكان الذي أقام فيه ولبي، وهو مشغول بمواعيده الجديدة ومشروعاته الجديدة.

وكانت إلينور أكثر منه ارتياحاً عند ساعة الفِراق لم يكن لديها ما يشغل ذهنها. ولم تخلف وراءها مخلوقاً تأسف لحظة واحدة على فراقه إلى الأبد، بل كانت تشعر بالسرور لأنها تخلَّصت من نقمة صداقة لوسي وتحمد اللّه لأنها خرجت بأختها من لندن، دون أن ترى ولبي منذ زواجه، وكانت تأمل أن تستردّ أختها راحة البال، وأن تنعم هي بالمزيد منها بعد شهور قلائل تقضيها في بارتون.

وقد تمّت الرحلة بسلام، فوصلوا في اليوم الثاني إلى مقاطعة سمرست التي كانت مريان تراها تارة محبوبة، وتارة محرّمة. ووصلوا إلى كليفلاند في صباح اليوم الثالث.

وكانت كليفلاند داراً فسيحة مبنية على الطراز الحديث تقع في مروج منحدرة. ولم يكن بها حديقة، ولكن فناءها كان واسعاً إلى حدّ لا بأس به. وكانت الأشجار تتخللها كأيّ دار أخرى تضارعها في الأهمية، وفيها ممشى من الشجيرات المتقاربة، وطريق مفروش بالحصباء يلتف حول مزرعة، ويؤدي إلى واجهة الدار. وكانت

المروج تتخللها الأشجار، والدار ذاتها تكتنفها أشجار الشربين والإجاص والسنط التي يتخللها شجر الحور، فتحجب مرافق الدار وملحقاتها.

ودخلت مريان الدار بقلب يفيض بالتأثر لعلمها أنها تبعد عن بارتون ثمانين ميلاً فقط لا ثلاثين ميلاً من كومب ماجنا، ثم خرجت منها قبل أن تقضي بين جدرانها خمس دقائق، بينما شغل الآخرون بمساعدة شارلوت على تسليم ابنها لمديرة المنزل، وتسللت من خلال الشجيرات المتعرجة التي أخذت تلبس حلّة الجمال في ذلك الوقت وتمدّ فروعها إلى مسافة بعيدة، وجالت بعينها من المعبد الإغريقي، في رقعة فسيحة من الإقليم إلى الجنوب الشرقي، ثم استقر بصرها على حافة التلال البعيدة التي تتراءى في الأفق، وخُيِّل إليها أنها تستطيع مشاهدة كومب ماجنا من قمم هذه التلال.

وفي مثل هذه اللحظات التي عانت فيها لوعة الأسى، فرحت - وهي تذرف دموع الألم - لوجودها في كليفلاند. وعندما عادت إلى المنزل من طريق آخر، وهي تشعر بنعمة الحرية في الريف - حرية المتجوّل من مكان إلى آخر في عزلة طليقة ترفّه عن النفس، قررت أن تقضي معظم ساعات النهار في التمتع بهذه الجولات المنفردة طوال إقامتها مع آل بالمر.

وعادت في الوقت المناسب لتلحق بالأخريات وهنّ يغادرن المنزل للقيام بجولة لتفقد المباني الملحقة به، وقضين بقية ساعات الصباح في تفقد حديقة المطبخ، وفحص الأزهار المتهدّلة على جدرانها، والاستماع إلى حسرات البستاني على الآفات الزراعية - وفي تفقد بيت النبات حيث ضحكت شارلوت لِتَلَف نباتاتها المحبوبة بسبب الإهمال في وقايتها من المؤثرات الجوية، وطول مدة الصقيع

الذي أدى إلى وقف نموها - وفي تفقد حظيرة الدواجن حيث وجدت ألواناً جديدة من التسلية فيما أعربت عنه الحلابة من خيبة الأمل بسبب هجر الدجاج لأكنانها، وسرقة الثعالب لها وسرعة تناقص فراخها الصغيرة.

وكان الطقس في الصباح جميلاً وجافاً. ولم تقدِّر مريان في الخطة التي وضعتها للتنزه خارج المنزل أنّ الطقس سيطرأ عليه أيّ تغيير في خلال إقامتها في كليفلاند، ولذلك دهشت كثيراً عندما حال المطر الغزير المتواصل دون خروجها بعد الغداء. وكانت تأمل أن تقوم بجولة وقت الغسق إلى المعبد الإغريقي وربما في المنطقة كلها، ولو كان الجو في المساء بارداً أو رطباً فحسب، لما منعها ذلك من هذه الجولة ولكنها رأت أنّ المطر الغزير المتصل لا يهيئ الجو الجاف اللطيف الذي يصلح للنزهة.

وكنّ زمرة قليلة العدد فمرت الساعات في هدوء. وكانت السيدة بالمر تحمل ابنها والسيدة جننجز، شغل السجاد، وتحدثن عمن خلفن وراءهن من الأصدقاء، ونظّمن مواعيد ليدي ميدلتون وتساءلن هل يستطيع السيد بالمر وكولونيل براندون أن يتجاوزا في سفرهما ريدنج في تلك الليلة؟ واشتركت إلينور في الحديث، وإن كان لا يعنيها كثيراً. ولكن مريان التي كانت تعرف ببراعة كيف تتلمّس طريقها إلى المكتبة في كلّ بيت تحلّ فيه - مهما بلغ من تجنب الأسرة لاستعمالها بوجه عام - لم تلبث أن أخذت كتاباً لتقرأه.

ولم تدّخر السيدة بالمر جهداً في إظهار ما أمكن من الودّ والبشاشة حتى تشعرهن بحسن الحفاوة وكان ما أظهرته من الصراحة والمودّة يكفِّر عن ضعف ذاكرتها وقلّة ظرفها وكياستها ممّا حال

كثيراً دون مراعاتها أصول المجاملة. وكانت رقة قلبها، التي تزينها ملاحة وجهها، تأسر القلوب. وكانت حماقتها - مع وسع إلينور لا تدعو إلى الاشمئزاز، لأنها لم تكن مقرونة بالغرور. وكان في ظهورها - أن تغفر لها كل عيوبها لولا ضحكتها.

ووصل الرجلان في الغد بعد موعد الغداء بكثير، فزادا من عدد الجماعة وسرورهم، كما ساعد حضورهما على تنوع الحديث الذي خفض هطول المطر طول الصباح من أصواتهم فيه.

ولم ترَ إلينور - السيد بالمر إلا قليلاً، وفي خلال هذه الفترة القصيرة أتيح لها أن تلحظ تغيراً كثيراً في حديثه معها ومع أختها بحيث لم تدرِ ماذا ينتظر أن يكون سلوكه مع أسرته. بيدَ أنها وجدته مثال الرجل المهذب في معاملته لجميع زواره ولا يبدي الفظاظة لزوجته وأمها إلا أحياناً، كما وجدت لديه الاستعداد للطف المعاشرة، وكلّ ما يمنعه من إظهار ذلك على الدوام، هو شعوره بأنه أرفع مقاماً من الناس عموماً، وشعوره - وبلا ريب - بأنه أرفع مقاماً من السيدة جننجز وشارلوت. أما فيما عدا ذلك من الأخلاق والعادات، فلم تلاحظ إلينور عليه شيئاً يخالف المألوف في بني جنسه وفي مثل سنه. كان يتأنق في طعامه، ولا يراعي الدقة في مواعيده، ويحب ابنه وإن تظاهر باحتقارِه، ويزجي وقته صباح كل يوم في لعب البلياردو، وهو ما كان ينبغي أن يقضيه في العمل. على أنها أحبّته بوجه عام، أكثر ممّا توقعت، ولا تأسف في قرارة نفسها على أنها لم تستطع أن تحبه أكثر من ذلك - لا تأسف أن يحملها تأنقه في الطعام وأنانيته وغروره على الشعور بالرضا والارتياح عندما تتذكر ما يتصف به إدوارد من سماحة الطبع والزهد والحياء.

وقد حدّثها كولونيل براندون - الذي سافر إلى دورستنشاير أخيراً

– عن بعض شؤونه. وكان كولونيل براندون يعدّها صديقة السيد فيرارز المنزّهة عن الغرض، كما يعدّها أمينة سره هو في الوقت نفسه، فتحدث إليها كثيراً عن أبرشية ديلافورد ووصف لها عيوبها، وأخبرها بما ينوي أن يعمله لإزالتها. وكان تصرفه معها في هذا وفي كلّ شأن آخر، وسروره بلقائها بعد غيبة لم تتجاوز عشرة أيام، وإقباله على التحدث معها، واحترامه لرأيها، ممّا يبرر اقتناع السيدة جننجز بحبه لها، وربما كان هذا يكفي لأن تلاحظ هي هذا الحب لولا أنها كانت لا تزال حتى هذه اللحظة تعتقد كما اعتقدت منذ البداية أن مريان هي محبوبته الحقيقية. ولكن الواقع أن هذه الفكرة ما كانت لتدور بخلدها لولا أن السيدة جننجز هي التي أوحتها، ولم يسعها ألّا تلاحظ أنها هي أدق الاثنتين ملاحظة، إذ كانت ترقب نظرات عينيه، بينما السيدة جننجز لا تفكر إلّا في سلوكه. وفي حين أن هذه السيدة فاتها أن تلاحظ ما يُبديه من نظرات القلق لما شعرت به مريان في رأسها وحلقها من بوادر نزلة برد شديدة، لأنه لم يعبّر عن هذا القلق بالكلام، استطاعت هي أن تلاحظ في هذه النظرات ما يشعر به المحب من ذعر وإشفاق لا مبرر لهما.

وكانت مريان قد قامت بنزهة ممتعة وقت الغسق في مساء اليوم الثالث والرابع من وجودها هناك لا على الطريق الحاف المفروش بالحصباء بين الأشجار فحسب، بل في جميع أماكن النزهة، ولا سيما في أجزائها المتطرفة التي كانت مقفرة أكثر من الأجزاء الأخرى، والتي كانت حافلة بأقدم الأشجار وأطول الأعشاب، وأكثرها مللاً، فأدى ذلك – بالإضافة إلى ما ارتكبته من حماقة أعظم وهو الجلوس في حذائها وجواربها المبتلة – إلى إصابتها بزكام شديد أثار قلق الجميع. كما أثار اهتمامها بسبب ما أحدثه من

مضاعفات، مع أنها ظلت يوماً أو يومين تستهين به وتنكره. فانهالت عليها الوصفات الطبية من كل جانب، ورفضتها جميعاً كما هي العادة. ومع أنها كانت تشعر بالكآبة والحمى ووجع الأطراف وتشكو من السعال والتهاب الحلق، فقد كان إخلادها إلى الراحة التامة ليلة واحدة هو السبيل لشفائها. وقد استطاعت إلينور بصعوبة أن تقنعها عندما أوت إلى الفراش أن تتناول دواء أو اثنين من أبسط الأدوية.

الفصل الثالث والأربعون

استيقظت مريان صباح اليوم التالي في موعدها المعتاد وأجابت عن كل استفسار بأنها أحسن حالاً، وحاولت أن تثبت ذلك بانهماكها في أعمالها المعتادة. ولكن يوماً تقضيه جالسة وهي ترتعش أمام المدفأة، وبيدها كتاب لا تستطيع قراءته أو ترقد عَلَى الأريكة وهي متعبة واهنة القوى، لا يدل كثيراً على تحسّن صحتها. وعندما بكرت بالنوم أخيراً بعد أن ازدادت توعكاً لم يسَع كولونيل براندون إلّا أن يدهش لرباطة جأش أختها التي كانت تثق كمريان بفائدة النوم وتأثيره، ولا تشعر بأدنى خوف مع أنها كانت تلازم مريان وتطبّبها طوال اليوم رغم أنفها وتكرهها على تناول الأدوية في أثناء الليل.

ولكنها قضت ليلة عانت فيها آلام الأرق والحمى، فأخلفت ظنهما. وعندما اعترفت مريان بعجزها عن السهر بعد أن أصرَّت على هجر الرقاد وعادت بمحض إرادتها إلى الفراش، بادرت إلينور إلى الأخذ بنصيحة السيدة جننجز التي أشارت باستدعاء طبيب آل بالمر.

فحضر وفحص المريضة، وطمأن الآنسة داشوود بأنّ أختها ستبلّ من مرضها بعد بضعة أيام إلا أنه عندما صرّح بأنها تحمل

أعراض الحمى العفنة، وتلفّظ بكلمة «العدوى» ذعرت السيدة بالمر، وخشيت على ابنها في الحال. وكانت السيدة جننجز تميل منذ البداية إلى الاعتقاد بأن مرض مريان أخطر ممّا تظن إلينور، فلما سمعت كلام السيد هاريس بدا عليها القلق، وأيدت شارلوت في خوفها وحذرها، فرأت وجوب انتقالها في الحال هي وابنها من البيت. ولم يعارض السيد بالمر فيما أبدته زوجه من قلق ولجاجة، وإن رأى أنّ مخاوفها ضربٌ من الهراء، فاستقر الرأي على رحيلها من البيت، فغادرته بعد قدوم السيد هاريس بساعة، مع ابنها الرضيع وممرضته إلى منزل أحد أقارب السيد بالمر على الجانب الآخر من باث ووعد زوجها - بناءً على إلحاحها - أن يلحق بها بعد يوم أو يومين، وألحّت على أمها أن ترافقها أيضاً. ولكن السيدة جننجز أظهرت من العطف والبر ما ضاعف من حب إلينور لها، فأعلنت عزمها على عدم الانتقال من البيت ما دامت مريان مريضة، وأنها ستحاول أن تعوّضها عن حنان الأم التي أخذتها هي منها. وكانت إلينور تجد في السيدة جننجز خير معين لها في كل مناسبة، وتأنس منها الرغبة في مشاركتها في كلّ متاعبها، كما كانت تفيد من خبرتها في التمريض.

ولم يعد في وسع مريان المسكينة أن ترجو الشفاء في غدها، لما كانت تشعر به من ضعف ووهن يرجعان إلى طبيعة المرض الذي أصابها أو من ألم يسري في جميع أعضائها. وحينما فكّرت فيما كان يأتي به الغد لولا هذا المرض المنكود اشتدّ عليها المرض، إذ كان من المقرر أن يبدأ سفرهما إلى منزلهما في ذلك اليوم، وأن تفاجئا أمهما صباح الغد يرافقهما خادم السيدة جننجز طول الطريق. وكانت الكلمات القليلة التي تفوّهت بها تفيض بالأسف على هذا

التأخير الذي لا مفر منه، وإن حاولت إلينور أن تشجّعها وتوهمها - كما تعتقد حينئذٍ بالفعل - أن هذا التأخير لن يطول أمره كثيراً.

وجاء الغد دون أن يطرأ تغيُّر يُذكر على حالة المريضة. والواقع أنها لم تكن أحسن حالاً، كما أنها لم تبدُ أسوأ حالاً على الرغم من أنه لم يطرأ على صحتها أي تغيير. ثم قلَّ الآن عدد أصحابهما لأن كولونيل براندون أقنع أخيراً السيد بالمر بضرورة زيارة زوجته وفاء بوعد لها، على الرغم من عدم رغبته في ذلك ويرجع ذلك إلى شفقته وكرم أخلاقه كما يرجع إلى كراهته أن يظهر بمظهر الخائف من زوجته. وبينما كان يتهيأ للخروج بدأ كولونيل براندون يلح في الانصراف هو أيضاً. ولكن السيدة جننجز تدخّلت وأبدت من مظاهر العطف والبر ما يبعث على الرضا، لأنها رأت أنّ انصراف الكولونيل في الوقت الذي تشعر فيه محبوبته بالقلق على أختها، معناه حرمانهما معاً من أسباب العزاء والسلوان، فأخبرته من فورها أنها لا تستغني عن إقامته في كليفلاند لأنها تريد أن يلعب معها لعبة الاثنين والثلاثين في المساء في أثناء قيام الآنسة داشوود بمرافقة أختها في الطبقة العليا. . . إلخ وناشدته البقاء بإلحاح، فلم يعد في وسعه - وقد أيقن أنه باستجابته لطلبها إنما يستجيب لأحبّ الأماني إلى قلبه - أن يتظاهر بالرفض لا سيما وأن السيدة جننجز لقيت تأييداً قوياً من السيد بالمر الذي شعر بالارتياح لأنه سيترك وراءه رجلاً يستطيع أن يمدّ داشوود بالمساعدة أو المشورة عند الضرورة.

وبالطبع أخفِيَت كل هذه الأمور عن مريان، فلم تعلم أنها هي السبب في إخراج أهل كليفلاند من دارهم بعد قدومهم بنحو سبعة أيام، ولم تدهش قط لعدم رؤية السيد بالمر ولا اهتمت برؤيتها قط، ولذلك لم تسأل عنها.

ومرّ يومان على رحيل السيد بالمر، واستمرت حال مريان على ما هي عليه مع تغيير طفيف، وكان السيد هاريس الذي أتى كل يوم لا يزال يأمل في الشفاء العاجل، وتفاءلت الآنسة داشوود كذلك، ولكن غيرهما لم يشعر بمثل هذا التفاؤل، إذ أصرّت السيدة جننجز على اعتقادها بأن مريان لن تشفى من هذا المرض، ولم يجد كولونيل براندون الذي أصغى إلى مخاوف السيدة جننجز مندوحة عن مشاركتها في ذلك، وحاول أن يزيل من نفسه هذه المخاوف التي وضعها الطبيب بأنها ضرب من الهراء. ولكنه كان يجنح إلى التشاؤم في الساعات الكثيرة التي يخلو فيها إلى نفسه كلّ يوم. ولم يستطع أن يطرد من ذهنه الاعتقاد بأنه لن يرى مريان بعد اليوم.

على أنه في صباح اليوم الثالث تبدَّدت مخاوف الاثنين أو كادت، إذ صرح السيد هاريس عند وصوله أن المريضة تماثلت للشفاء، فقد قوي نبضها، وظهر عليها أعراض التحسن أكثر ممّا يظهر في الزيارة السابقة، فبدا السرور على وجه مريان التي أيّد الطبيب تفاؤلها، وفرحت لأنها أعربت في الخطابات التي أرسلتها لوالدتها عن رأيها هي لا عن رأي صديقتها فهوّنت من المرض الذي أخّرهما في كليفلاند، وحدَّدت تقريباً الموعد الذي يتسنّى فيه لمريان أن تقوم بالسفر.

ولكن نهاية اليوم لم تكن سعيدة كبدايته، فقد عاود المرض مريان في المساء، فاشتدّ بها الكرب والقلق والتعب أكثر من ذي قبل، غير أنّ أختها ظلّت متفائلة، ولم تعز هذا التغيُّر إلا إلى التعب الذي حلّ بها عندما جلست حتى يتمّ إعداد فراشها، وحرصت على إعطائها الأدوية المنعشة التي وصفها الطبيب، وخالجها الارتياح عندما رأتها تستغرق أخيراً في النوم الذي توقعت أن يعود عليها

بأعظم فائدة. وظلّت مريان نائمة مدة طويلة وإن لم يكن نومها هادئاً كما تمنّت إلينور. وحرصت هذه على ملاحظة أثره بنفسها، فجلست معها خلال نومها كله. ولم تعلم السيدة جننجز بأيّ تغيير في حالة المريضة، فبكرت بالنوم على غير عادتها. وكانت خادمتها - وهي من كبار الممرضات - تستجمّ في حجرة مدبرة المنزل، فبقيت إلينور وحدها مع مريان.

وازدادت هذه اضطراباً وانزعاجاً في رقادها، وكانت أختها تلاحظ بعين ساهرة تقلّبها المستمر على الفراش، وتأوّهاتها المتكررة التي تخرج من شفتيها، فهمَّت بإيقاظها من ذلك الرقاد الأليم، وإذا بمريان تستيقظ فجأة على صوت في البيت، فنهضت مسرعة، وصاحت في هياج المحموم:

«هل حضرت ماما؟».

فأجابت أختها وهي تكتم فزعها، وتساعد مريان على الرقاد مرة أخرى: «ولكن أرجو أن تحضر هنا بعد قليل. فالطريق طويل كما تعلمين من هنا إلى بارتون».

وصاحت مريان باللهجة السريعة نفسها: «لن أراها أبداً إذا ذهبت إلى لندن».

ورأت إلينور وقد اعتراها الفزع أن أختها ليست في حالتها الطبيعية، فأقبلت على جسّ نبضها، وهي تحاول أن تهدئ من روعها. فلاحظت أنه أكثر هبوطاً، وأشدّ سرعة ممّا كان عليه من قبل! وظلّت مريان تهذي باسم أمها فاستحوذ الفزع على إلينور، وصمَّمت أن تستدعي السيد هاريس في الحال، وتبعث رسولاً إلى بارتون لإحضار أمها. وخطر لها مباشرة بعد أن صمَّمت على ذلك أن تستشير كولونيل براندون في أمثل طريقة لتنفيذ الأمر الأخير. وما

أن استدعت الخادمة لتجلس مكانها بجانب أختها، حتى أسرعت بالنزول إلى حجرة الاستقبال وكانت تعلم أنه يظل فيها عادة إلى ما بعد الساعات التي نزلت فيها وقتئذٍ.

لم يكن الوقت يسمح بالتردّد، فبسطت له مخاوفها ومشاكلها من فورها. أما مخاوفها فلم يكن لديه من الشجاعة أو الثقة ما يمكنه من إزالتها - بل اكتفى بأن أصغى إليها في جزع وصمت. ولكنه استطاع أن يحلّ مشاكلها إذ أبدى من الاستعداد ما يقتضيه المقام، ويتفق مع الخدمة التي سبق له أن فكّر في أدائها، فاقترح أن يكون هو الرسول الذي يأتي بالسيدة داشوود، ولم تبدِ إلينور أية معارضة إلا وذلَّلها بسهولة، فشكرته بإيجاز ولكن بحرارة. وبينما ذهب هو ليبعث خادمه برسالة عاجلة إلى السيد هاريس، ويأمره بإحضار الجياد في الحال، أخذت هي تدبج بضعة سطور لأمها.

كم فاض قلبها بعرفان الجميل لما أبداه صديق كالكولونيل براندون من المواساة في تلك اللحظة! - لما أبداه مثل هذا الرفيق لأمها - رفيق يسددها برأيه، ويخفِّف من آلامها بمرافقته، ويهدئ من روعها بصداقته! - ولا شك أنّ صحبته وأخلاقه ومساعدته كفيلة بالتخفيف من وقع استدعائها بقدر ما يمكن تخفيفه من هذه الصدمة.

وكيفما كان شعوره في ذلك الوقت، فقد حزم أمره، وهو رابط الجأش، وأعد العدة للسفر بأقصى سرعة، وحدَّد بالضبط موعد عودته، ولم يضيع دقيقة واحدة في توانٍ أو تأخر أياً كان نوعه، فقد وصلت الجياد حتى قبل الموعد المنتظر، وأسرع إلى العربة بعد أن اكتفى بأن شدّ على يديها ورمقها بنظرة تنمّ عن الجد، وتمتم ببضع كلمات في صوت خافت جداً بحيث لا تسمعه الأذن. وكانت الساعة حينئذٍ نحو الثانية عشرة. ثم عادت هي إلى حجرة أختها

لتنتظر وصول الطبيب، وتسهر على راحتها بقية الليل. وكانت ليلة ليلاء لكلّ منهما، فقد مرّت الساعات تترى، ومريان يؤرقها الألم، وينتابها الهذيان، وإلينور تساورها أقسى مشاعر القلق، وذلك قبل أن يحضر السيد هاريس، واستحوذ عليها الفزع حتى أنساها كلّ ما شعرت به من قبل من أمن وطمأنينة. وزادتها الخادمة التي سهرت معها - إذ لم تشأ أن تستدعي السيدة جننجز - كرباً وعذاباً حين ذكرت المخاوف التي تساور سيدتها دائماً.

وظلّت مريان تهذي في فترات متقطعة باسم أمها، وكلما ذكرته بعثت الألم في قلب إلينور المسكينة التي لامت نفسها لاستهانتها بأمر المرض في خلال هذه الأيام العديدة، وتألمت لأنها لم تبادر إلى تخفيف وطأته، ولكنها رأت أنّ كل وسيلة لتخفيفه قد لا تجدي في الحال، وأن كلّ علاج قد تأخر عن وقته كثيراً، وخُيِّل إليها أنّ أمها المسكينة ستصل بعد فوات الأوان، لترى ابنتها العزيزة وقد انتهى أجلها، أو ذهب عقلها.

وهمَّت باستدعاء السيد هاريس مرة أخرى، أو استدعاء غيره إذا لم يستطع الحضور، وإذا به يحضر، ولكنه لم يحضر إلّا بعد الساعة الخامسة. على أنّ رأيه كفّر عن تأخيره لأنه مع اعترافه بطروء تغيير مفاجئ وسيئ على حالة المريضة، لم يشأ أن يبالغ في شدّة الخطر، وأكد أنه سيعطيها دواءً جديداً يخفّف من حدة المرض بلهجة تنمّ على الثقة التي سرت إلى نفس إلينور، ولكن بدرجة أقل. ووعد بأنه سيعودها مرة أخرى في غضون ثلاث ساعات أو أربع، وترك المريضة وأختها القلقة، وهما أكثر طمأنينة ممّا وجدهما.

وسمعت السيدة جننجز في الصباح عمّا جرى، وأعربت عن قلقها الشديد، ولومها الكثير لعدم استدعائها لمساعدتهما وعاودتها

حينئذٍ مخاوفها السابقة التي جدّ الآن من الأسباب ما يضاعف منها بحيث لم تدَع لديها مجالاً للشك في النتيجة. ومع أنها حاولت أن تواسي إلينور، فإن اعتقادها بخطورة حالة أختها، لم يطوع لها أن تقدّم لها سلوة الأمل. والواقع أنها كانت حزينة الفؤاد، بل إن أي إنسان أقلّ منها اهتماماً بأمر مريان كان لا بدَّ أن يشعر بالقلق والهم، حين يرى فتاة جميلة كمريان تتعرض للهزال السريع والموت المبكر. وكانت مريان جديرة بعطف السيدة جننجز وحزنها لأسباب أخرى، فقد ظلّت تعيش في كنفها ثلاثة أشهر، ولا تزال تستظل بظلّ رعايتها، وصار معروفاً أنها كسيرة القلب، حزينة الفؤاد منذ زمن. وكانت السيدة جننجز - إذا فكرت في أن منزلة مريان من أمها ربما تضارع منزلة شارلوت منها - تشعر بإخلاص بما تشعر به أمهما من آلام.

وحضر السيد هاريس في الموعد المحدد لزيارته الثانية - ولكنه أعرب عن خيبة أمله، لأنّ الدواء الأخير لم يأتِ بالنتيجة المرجوة. لقد فشلت أدويته، ولم تخفّ الحمى. وظلّت مريان مستغرقة في سبات عميق، وكانت أكثر هدوءاً. أما إلينور فلم تكن كذلك، بل سرعان ما شعرت بكل ما أعرب عنه من الخوف، بل بأكثر منه، واقترحت استدعاء طبيب آخر ولكنه لم يرَ داعياً لذلك، وقال: إن لديه أدوية أخرى يكاد يثق بنجاحها وثوقه من نجاح الدواء الأخير، وختم زيارته بتأكيدات مشجّعة ولكنها وصلت إلى أذن الآنسة داشوود دون أن تصل إلى قلبها. وكانت تشعر بالهدوء والسكينة، إلا عندما تفكّر في أمها، ولكنها كادت تفقد الأمل. وظلّت على تلك الحال حتى الظهيرة لا تكاد تتحرك من فراش أختها، وصور الأحزان والأصدقاء الذين يتجرّعون غصص الآلام تتوارد على ذهنها واحدة تلو الأخرى، وتألمت غاية الألم لحديث

السيدة جننجز التي لم تتحرّج من أن تعزو شدّة هذا المرض وخطره إلى الوعكة السابقة التي استمرت عدة أسابيع والتي نجمت عمّا أصابها من خيبة الأمل. وكانت إلينور مقتنعة بصواب هذا الرأي، فزادها ذلك ألماً على ألم.

على أنها أخذت وقت الظهيرة - ولكن مع شيء من الحذر - في الخوف من حدوث شيء من خيبة الأمل، الذي عقد لسانها برهة من الزمن عن الكلام حتى مع صديقتها - أخذت تتخيّل، بل تأمل أن ترى تحسناً بسيطاً في نبض أختها - لقد انتظرت ولاحظت، وفحصت النبض مرة بعد أخرى - وأخيراً أقدمت على الإفضاء بما خالجها من الأمل، وهي تشعر باضطراب تعذَّر عليها إخفاؤه تحت ستر الهدوء الظاهري أكثر ممّا تعذر عليها إخفاء آلامها السابقة. ومع أن السيدة جننجز اعترفت عند فحصها بحدوث انتعاش وقتي فإنها نصحت لصديقتها ألّا تأمل في استمراره. وأخذت إلينور تستظهر كل نصيحة تدعو إلى سوء الظن، وتحدّت نفسها أيضاً بالعدول عن الأمل. ولكن قد فات أوان اليأس، بعد إذ أشرق نور الأمل وأحسّت أنه يرفرف بجناحيه، فانحنت على أختها لتلاحظ - ولم تدر ماذا تلاحظ - ومرّت نصف ساعة، وظهرت عليها أمارات التحسن، وبدت علامات أخرى تؤكد ذلك. لقد ظهرت أمارات التحسن في تنفسها وبشرتها وشفتيها، ونظرت إليها مريان نظرة تدلّ على أنها استعادت رشدها، وإن دلّت على الضعف والوهن. وهنا انتاب إلينور القلق والأمل على حدّ سواء ولم يهدأ بالها لحظة واحدة حتى قدم السيد هاريس في الساعة الرابعة، فأكّد لها شفاء أختها على نحو يفوق ما كان منتظراً، وهنأها بشفائها، فأحسّت بالثقة، وشعرت ببرد الراحة، وسكبت دموع الفرح.

تحسّنت صحة مريان بدرجة محسوسة من كل الوجوه، وصرّح الطبيب أنها تجاوزت منطقة الخطر تماماً. ويظهر أنّ السيدة جننجز اكتفت بالتبرير الجزئي لتشاؤمها الذي تجلى في الفزع الذي استولى عليهما أخيراً، فسمحت لنفسها بتصديق قوله وسلمت - وهي تشعر بفرحة غير مصطنعة، وسرور لا مواربة فيه - باحتمال شفائها شفاءً تامّاً.

ولم تستطع إلينور أن تُظهر البشاشة والمرح. كان سرورها يتّسم بطابع يختلف عن ذلك، كما أدّى إلى شيء آخر خلاف المرح. نعم إن استعادة مريان لحياتها وصحتها وأصدقائها وأمها الحنون أثلج فؤادها وجعله يفيض بالشكر، ولكنه لم يؤدِّ إلى المظاهر الخارجية للسرور - لا كلام ولا ابتسام. كان الارتياح يغمر قلبها، صامتاً قوياً.

وظلّت بجانب أختها طول الأصيل إلّا في فترات قليلة، تهدئ روعها، وتجيب عن كل سؤال عن صحتها الضعيفة، وتقدِّم كل مساعدة، وتراقب كل نظرة وكل نفس. وكان يخشى أن تحدث لها نكسة في وقت ما، فتذكر إلينور بالقلق مرة أخرى ولكن إلينور أسكتت صوت الشك عندما رأت - بعد الفحص الدقيق المتكرر استمرار علامات التحسن، ورأت مريان عند الساعة السادسة، وهي تستغرق في نوم هادئ متواصل يبدو مريحاً في ظاهر الأمر.

وأزف حينئذٍ موعد عودة كولونيل براندون، وكانت تعتقد أن أمها ستصل في الساعة العاشرة أو بعدها بقليل على الأكثر لتستريح من عناء القلق الذي يساورها الآن وهي في طريقها إليهما، ويساور الكولونيل أيضاً! ربما كان لا يقلّ عنها جدارة بالرثاء! أواه! ما أبطأ سير الزمن الذي لا يزال يحجبهما عن معرفة الحقيقة!

وعند الساعة السابعة تركت مريان تنعم بلذّة الكرى، ولحقت بالسيدة جننجز في حجرة الاستقبال، لتتناول معها الشاي. وكانت مخاوفها قد منعتها من تناول الكثير من الفطور، والنكسة المفاجئة من تناول الكثير من الغداء. ولذلك رحبت بتناول الشاي بعد أن شعرت بالسرور، ورغبت إليها السيدة جننجز في نهايته أن تنعم ببعض الراحة قبل قدوم أمها وتسمح لها بأن تنوب عنها في ملازمة مريان، ولكن إلينور لم تشعر بشيء من التعب، ولا بميل إلى النوم في تلك اللحظة، وكانت ترى أن الواجب يحتّم عليها ألّا تفارق أختها لحظة واحدة. لذلك رافقتها السيدة جننجز وصعدت معها الدرج إلى حجرة أختها المريضة لتطمئن بنفسها على استمرار تحسنها، وتركتها مرة أخرى لترعى أختها وتسترسل في أفكارها، وعادت إلى حجرتها لتكتب بعض الخطابات، وتنام.

وكانت ليلة باردة عاصفة زأرت فيها الرياح حول البيت، وتساقط المطر على نوافذه، ولكن إلينور لم تأبه لذلك، لأنّ السعادة كانت تغمرها في قرارة نفسها. ونامت مريان في أثناء العاصفة كلها، أما المسافران فكان القدر يدّخر لهما مفاجأة سارة تعوّضهما عمّا لقياه من وعثاء السفر.

ودقت الساعة الثامنة. ولو أنها دقت العاشرة لما كان ثمة شك في سماع إلينور لصوت العربة وهي تقترب من المنزل، وقوى في نفسها الاعتقاد بوصولها على الرغم من أن قدومها في تلك اللحظة يعدّ في حكم المستحيل لدرجة أنها انتقلت إلى غرفة الزينة المجاورة، وفتحت مصراع النافذة لتقف على حقيقة الأمر. فرأت من فورها أنّ أذنيها لم تخدعاها، إذ رأت مصابيح العربة الساطعة على مدى البصر، واستطاعت أن تتبيّن في ضوئها الخافت أن العربة

يجرها أربعة جياد، وهذا فضلاً عن دلالته على شدة الذعر الذي استحوذ على أمها المسكينة، يفسر هذه السرعة غير المنتظرة.

ولم يسبق لإلينور قط أن وجدت من العسير الاحتفاظ بالهدوء ورباطة الجأش، كما وجدت في تلك اللحظة، إذ كان من المستحيل أن تحتفظ بالهدوء مع علمها بما لا بدَّ أن تشعر به أمها عند وقوف العربة بالباب مع علمها بشكها وخوفها - وربما يأسها! وبما تريد هي أن تحدِّث به أمها! كل ذلك لا بدَّ أن يُقال ويُقال بسرعة، ولذلك لم تلبث إلا ريثما جاءت خادمة السيدة جننجز لتلازم مريان وأسرعت بالنزول.

وكانت الجلبة التي قامت في دهليز الدار عندما مرّت بإحدى الردهات الداخلية تؤكد أنهما قد دخلا البيت، فاندفعت نحو حجرة الاستقبال - ودخلتها - وإذا بها لا ترى إلا ولبي.

الفصل الرابع والأربعون

وتراجعت إلينور مذعورة، وبدا عليها الفزع لرؤيته، واستجابت لأول خاطر دار بخلدها بأن استدارت من فورها لتغادر الحجرة، ووضعت يدها على مغلاق الباب، وإذا به يتقدم مسرعاً ويمنعها من إغلاق الحجرة ويقول بصوت أقرب إلى الأمر منه إلى الرجاء:

«آنسة داشوود؟ نصف ساعة - عشر دقائق - أرجوك أن تنتظري».

فأجابت بحزم: «لا يا سيدي. لن أنتظر. لا شأن لك معي. أظن الخدم نسوا أن يخبروك أنّ السيد بالمر ليس بالدار».

فصاح بحدّة: «لو أنهم أخبروني أن السيد بالمر وجميع أقاربه ذهبوا إلى الشيطان لما منعني ذلك من الدخول. إن شأني معك أنت، أنت وحدك».

قالت، وهي في غاية الدهشة: «معي أنا! هيا يا سيدي! أسرع - وإذا أمكنك - خفّف من حدتك».

«اجلسي، وسأمتثل للأمرين».

فترددت ولم تدرِ ماذا تصنع. وخطر ببالها احتمال وصول كولونيل براندون ولقائه هنا. ولكن لقد وعدت بالاستماع له وكانت رغبتها في استطلاع أخباره لا تقلّ عن رغبتها في التمسك بشرف

وعدها. وبعد أن فكرت في الأمر هنيهة رأت أن الحكمة تقضي بالسرعة، وأن استجابتها له خير كفيل بها، فمشت في صمت صوب المائدة وجلست. وجلس هو على المقعد المقابل. ومرّت نصف دقيقة دون أن يتفوّه أحدهما بكلمة واحدة.

قالت إلينور بصبر نافد: «أسرع يا سيدي. أرجوك ليس لدي وقت أضيعه».

وكان يجلس في حالة تأمل عميق، ويبدو عليه أنه لم يسمعها.

وقال فجأة بعد لحظة: «أختك تجاوزت منطقة الخطر. لقد بلغني ذلك من الخادم. الحمد للّه! ولكن أصحيح ذلك؟ أصحيح ذلك حقاً؟».

فلم تشأ إلينور أن تتكلم، فأعاد السؤال بلهجة أشد:

«ناشدتك اللّه أن تخبريني هل تجاوزت منطقة الخطر أم لا؟».

«نرجو أن تكون قد تجاوزتها».

ونهض واقفاً وأخذ يمشي في الحجرة.

«لو أنني علمتُ ذلك منذ نصف ساعة - ولكن حيث أنني هنا» - وقال وهو يتكلّف البشاشة عندما عاد إلى مقعده: «ماذا يعني ذلك؟ مرة واحدة يا آنسة داشوود - ربما تكون المرة الأخيرة - لنبتهج معاً - إنني في حالة نفسية طيبة تسمح لي بالابتهاج والمرح - أخبريني بصراحة» تحمر وجنتاه احمراراً شديداً «ماذا تعتقدين فيّ أكثر. أخبيث أنا أم أبله؟».

فنظرت إليه إلينور أشدّ ما تكون دهشة. وتبادر إلى ذهنها أنه لا بدَّ أن يكون ثملاً. إن غرابة هذه الزيارة وهذه الأخلاق لا يمكن تفسيرها بغير ذلك وبهذه الفكرة التي انطبعت في ذهنها وقفت من فورها وقالت:

السيد ولبي؟ أنصحك الآن أن تعود إلى كومب. ليس لدي وقت أضيعه معك أكثر من ذلك. مهما يكن لك من شأن معي فأرجو أن تتذكره جيداً وتشرحه لي غداً».

فأجاب بابتسامة معبِّرة وصوت في غاية الهدوء: «نعم، حق ما تقولين. إنني ثمل، فقد شربت كأساً من البيرة مع بعض اللحم البقري البارد في «مالبرو» فشوش ذهني».

فصاحت إلينور، وقد زادت حيرة فلم تدرِ ماذا يريد وقالت: «في مالبرو!».

«نعم - غادرت لندن في الساعة الثامنة من صباح اليوم، ولم أغادر العربة إلّا مدة عشر دقائق فقط منذ ذلك، تناولت خلالها بلغة من الزاد».

ولاحظت إلينور ثبات لهجته وذكاء نظرته في أثناء كلامه فاقتنعت أن الشراب لم يسُقه إلى كليفلاند بصرف النظر عن أية حماقة أخرى لا تغتفر ربما ساقه إليها فقالت بعد أن أطرقت هنيهة:

«سيد ولبي! ينبغي لك أن تشعر وأنا أشعر يقيناً - أنه بعد كلّ ما حدث أن مجيئك هنا على هذا النحو، وحديثك معي، يحتاج إلى عذر خاص - فماذا تعني بالمجيء إلى هنا؟».

فقال بلهجة قوية تتّسم بالجد: «أعني أن أجعلك - إذا استطعت - تبغضينني بغضاً يقلّ درجة واحدة عمّا تبغضينني الآن. أريد أن أقدّم تفسيراً لما حدث، وأن أفتح قلبي لك كله، وأن أقنعك بأنني وإن كنت دائماً أحمق غبياً، لم أكن دائماً وغداً لئيماً، وبذلك أظفر بما يشبه العفو من مر - من أختك».

«أهذا هو السبب الحقيقي لمجيئك؟».

«لعمري إنه لكذلك». هكذا أجاب بحرارة أعادت إلى ذهنها

صورة ولبي الذي عرفته من قبل بعجزه وبحره. وجعلتها تظنّ فيه الإخلاص على كره منها.

«إذا كان هذا كل شيء، ففي وسعك أن تطمئن بالفعل - لأنّ مريان تسامحك - لقد سامحتك منذ زمن».

فصاح باللهجة الحماسية نفسها: «هل سامحتني! إذن لقد سامحتني قبل أن ينبغي لها ذلك، ولكنها ستسامحني مرة أخرى. ولأسباب أقرب إلى العقل. والآن هل تسمحين لي؟».

فحنَت رأسها موافقة.

قال بعد فترة ترقب من جانبها، وتفكير من جانبه: «لا أدري كيف عللت مسلكي نحو أختك أو أي دافع شيطاني عزته إليّ. ومن المحتمل أنك ستجدين من العسير أن تظني بي خيراً، ولكن الأمر يستحق النظر، وستسمعين كل شيء: عندما تعرّفت لأول مرة إلى أسرتكن، لم يكن لي من قصد أو غرض من هذه المعرفة، إلّا أن أقضي وقتي في لذّة ومتعة في أثناء الفترة التي أضطرّ فيها إلى البقاء في ديفونشاير - في لذة ومتعة أكبر ممّا تعودت من قبل. ولم يسعني إلا أن أبدي إعجابي حينما رأيت شخص أختك المحبوب، وشمائلها الحلوة. وكان مسلكها نحوي منذ البداية يكاد يتّسم بـ. عندما أفكِّر في هذا المسلك وفيما كانت تتحلى به أدهش أن يكون قلبي قُدّ من جلمد الصخر بحيث لا يتأثر به وصرت لا أكترث بسعادتها، ولا أفكِّر إلا في لهوي ولذتي، والاسترسال وراء العواطف التي اعتدتُ الاسترسال وراءها دائماً، وحاولت جهد طاقتي أن أتحبَّب إليها دون أن أقصد أن أبادلها حباً بحب».

وعندما وصل إلى هذا الحدّ نظرت إليه الآنسة داشوود نظرة ملؤها الاحتقار والغضب وقاطعته قائلة:

«لا فائدة يا سيد ولبي من مواصلة الحديث، ولا داعي من جانبي للإصغاء إليه. إن مثل هذه البداية لا تشجِّع على الاستمرار فيه. فلا تؤلمني بالاستماع إلى المزيد من هذا الموضوع».

فأجاب: «إنني مصرٌّ على أن تسمعيه كله. لم تكن ثروتي كبيرة قط، وكنت دائماً مسرفاً، أختلط بقوم دخلهم أكبر من دخلي. ومنذ أن بلغت سنّ الرشد أو حتى قبل هذه السن وديوني - كما أعتقد - تزداد سنة بعد أخرى. ومع أنه كان من المقدَّر أن وفاة ابنة عمي ستتيح لي حرية التصرُّف، فإنّ هذه الوفاة لم تكن أمراً مؤكداً، كما أنه كان يُحتمل أن يمتد بها الأجل فترة أطول فاتّجهت نيتي فترة من الزمن إلى تدعيم مركزي المالي بالزواج من امرأة ذات مال. ولذلك لم يخطر على بالي أن أقترن بأختك. وكان مسلكي في ذلك يتّسم بالخسَّة والأنانية والقسوة، إذ كنت أحاول أن أظفر بحبّها دون أن أفكِّر في مبادلتها حباً بحب، وهو مسلك جدير بكل استنكار واحتقار حتى منك أنت يا آنسة داشوود - ولكن شيئاً واحداً يمكن أن يُقال في معرض الدفاع عن نفسي حتى في هذا الأمر الفظيع، وهو الغرور المقرون بالأنانية. ذلك أنني لم أعرف مدى الضرر الذي انتويته، لأني لم أعرف حينئذٍ ما هو الحب. ولكن هل أتيح لي قط أن أعرف الحب؟ الحق أنّ هذا الأمر فيه شك، لأنه لو كان أتيح لي أن أعرف الحب حقاً، أكان في وسعي أن أضحي بعواطفي على مذبح الغرور أو الطمع؟ بل أكثر من ذلك: أكان في وسعي أن أضحي بحبها؟ - ولكني فعلتُ ذلك. ولكي أتجنب الفقر النسبي الذي كانت محبتها وعشرتها ستجنباني كلّ ويلاته. فقدت - بسعي وراء الغنى - كل ما يمكن أن يجعل هذا الفقر نعمة وبركة».

فقالت إلينور، وقد هدأ روعها قليلاً: «إذن كنت تعتقد في وقت ما أنك تحبها؟».

«هل كان في وسعي أن أقاوم هذه المحاسن الجذابة، وأن أثبت أمام هذه الشمائل الرقيقة؟ هل على وجه الأرض إنسان كان في وسعه أن يفعل ذلك! نعم، لقد شغفت بها حباً شيئاً فشيئاً من حيث لا أشعر، وكانت أسعد أوقات حياتي هي الساعات التي أقضيها معها، وكنت أشعر أنّ مقاصدي شريفة وعواطفي بريئة على أنني حتى في ذلك الوقت الذي صَحَتْ فيه نيتي على عقد الخطبة، عمدت - بطريقة غير لائقة إطلاقاً - إلى إرجائها من يوم إلى يوم كراهة أن أقدِم على الخطبة وظروفي المالية شديدة الارتباك. ولكني لن أجادل هنا، ولن أتوقف حتى يتسنى لك أن تتحدثي عن السخف - بل هو أسوأ من السخف - سخف التردّد في خطبة امرأة ارتبطتُ معها بكلمة الشرف. وقد برهنت الحوادث على أنني كنت غبياً ماكراً أسعى جاهداً إلى كلّ ما من شأنه أن يجلب عليَّ الاحتقار والشقاء إلى الأبد. على أني عقدت العزم أخيراً وصمَّمت بمجرد أن أخلو بها أن أبرر ما كنت أحبوها به من صنوف الرعاية والعطف وأؤكد لها علانية تلك المحبة التي حرصت على إظهارها لها. ولكن في فترة - فترة الساعات القليلة التي انقضت قبل أن تتاح لي فرصة التحدث معها على انفراد - حدث أمر - أمر مؤسف حطَّم عزيمتي، وحطم معها جلّ هنائتي وسعادتي. حدث أن بعضهم أفضى سري - وهنا تلعثم وأطرق برأسه إلى الأرض - فقد علمت السيدة سميث بطريقة ما - وأظن أنها علمت من طريق أحد الأشخاص الذين يمتّون لي بصلة القربى من بعيد، ممّن لهم مصلحة في حرماني من عطفها - علمت بأمر - بالصداقة الوثيقة» - وأضاف «ولكن لا

حاجة بي إلى المزيد من البيان» وتورّدت وجنتاه، وحدجها بنظرة تنمّ عن التساؤل «بالصداقة الوثيقة التي تربطني بكن - ولعلك سمعت القصة كلها منذ زمن طويل».

فأجابت إلينور وقد تورّدت وجنتاها أيضاً، وامتنعت مرة أخرى من إظهار العطف عليه: «لقد سمعتُ القصة كلها، وأعترف أني لا أستطيع أن أفهم الطريقة التي تبرر بها أي جزء من الجريمة التي ارتكبتها في هذا العمل المروع».

فصاح ولبي: «تذكري مَن استقيت منه النبأ. هل يمكن أن يكون خالياً من الغرض؟ إنني أعترف أنه كان ينبغي أن أحترم مركزها وأخلاقها. ولا أريد أن أبرّر موقفي. ولكن أريد في الوقت نفسه أن أسمح لك بأن تظني أنه ليس لديّ ما يمكن أن أقوله - وأن تظني أنها بريئة لأنها مجنيّ عليها، وأنها قديسة لأني رجل داعر. وإذا كانت شهواتها العارمة، وعقليتها الضعيفة - على أني لا أريد أن أتصدى للدفاع عن نفسي، فقد كانت جديرة بمعاملة أفضل لقاء محبتها لي. وكثيراً ما أنحيتُ باللائمة على نفسي وأنا أتذكر حنانها الذي حملني فترة قصيرة من الزمن على أن أبادلها إياه ويا ليت - يا ليت ذلك لم يكن. ولكني أسأت إلى غيرها أيضاً. أسأت إلى امرأة كانت تحبني (هل لي أن أقول ذلك؟) حباً لا يقلّ عن حبها لي، وعقلها - وَيْ! ما أسمي قدره!

«على الرغم من أني لا أحب البحث في هذا الموضوع، أرى لزاماً عليَّ أن أقول إن استهتارك لا ينهض عذراً لإهمالك الناس لها. ولا تعتقد أنّ أي ضعف، أو أيّ عيب طبيعي في عقلها ينهض عذراً للقسوة البالغة التي عاملتها بها. لا بدَّ أنك عرفت أنها كانت تُقاسي مرارة الفاقة والحاجة، وأنت في ديفونشاير تنغمس في

ملذاتك، وتجري وراء مشروعات جديدة، وتنعم دائماً بالسرور والحبور.

فأجاب بحماسة: «العمري إنني لم أعلم ذلك. لم أذكر أنه فاتني أن أعطيها عنواني، ولو كان لديها مسكة من عقل لعرفت كيف تهتدي إليه».

«وماذا قالت السيدة سميث يا سيدي؟».

«اتّهمتني بالجريمة في الحال. وفي وسعكِ أن تدركي مدى ارتباكي وحيرتي وكانت طهارة ذيلها، وحرصها على التقاليد، وجهلها بأحوال الناس كلّ ذلك كان ضدي. ولم أستطع أن أنكر الأمر نفسه، وكل سعي للتخفيف منه كان ضرباً من العبث، لأنها كانت تميل من قبل - كما أعتقد - للشك في تمسكي بأهداب الفضيلة بوجه عام. وفضلاً عن ذلك كانت تشعر بالاستياء لقلّة اهتمامي بها، وضآلة الوقت الذي خصَّصته لها في زيارتي آنذاك. وصفوة القول أن الأمر انتهى بالقطيعة التامة. وكان في وسعي أن أنقذ نفسي بوسيلة واحدة، فقد عرضت عليّ - وهي في علياء الفضيلة، يا لها من امرأة فاضلة! - أن تعفو عمّا سلف بشرط أن أتزوج إليزا وما كنت لأقبل ذلك - فحرمتني رسمياً من عطفها، وطردتني من بيتها. وقضيتُ الليلة التي أعقبت هذا الحادث - كان من المقرر أن أذهب في صباح اليوم التالي - وأنا أتدبر ما يجب عمله في المستقبل. كان النضال عظيماً - ولكنه انتهى بسرعة. كان حبي لمريان وإيماني التام بحبها لي - كل ذلك لم يوازن الخوف من الفقر، ولم يتغلب على تلك الفكرة الخاطئة - ضرورة الحصول على المال - التي كنت أميل إليها بطبعي، والتي زادني إيماناً بها كثرة نفقاتي الاجتماعية. وكان لدي من الأسباب ما يحملني على الوثوق

من موافقة زوجتي الحالية إذا شئت إن أتحدث معها في ذلك، واقتنعت بأنه لم يبقَ أمامي ما تقضي به الحكمة سوى سلوك هذا السبيل. على أن مشهداً ثقيلاً على النفس كان ينتظرني قبل مغادرة ديفونشاير كنت مرتبطاً بالغداء معكن ذلك اليوم نفسه. ولذلك لم يكن بدّ من تقديم بعض العذر لإخلافي في الموعد. وأطلتُ التفكير كثيراً حول كتابة هذا الاعتذار أو تقديمه بنفسي. وكنت أوجس خيفة من لقاء مريان، بل كنت أشك في تمسّكي بقراري إذ لقيتها. على أني كنت في ذلك أبخس من قدر شهامتي كما دلت الحوادث، لأني ذهبت إليها ولقيتها ورأيت أنها حزينة، وتركتها حزينة، وتركتها وأنا أرجو ألّا أراها مرة أخرى بعد اليوم».

فقالت إلينور بلهجة التأنيب: «لماذا زرتها يا سيد ولبي؟ كان الخطاب يفي بالغرض. لماذا كانت الزيارة ضرورية؟».

«كانت ضرورية لإرضاء كبريائي. لم أطق أن أغادر الريف على نحوٍ قد يؤدي بك أو ببقية الجيران إلى معرفة أي شيء ممّا دار بين السيدة سميث وبيني - فصممتُ على زيارة المنزل الريفي في طريقي إلى هونيتون على أنّ رؤية أختك كانت أمراً مفزعاً في واقع الأمر. ومما زاد الطين بلة أني وجدتها وحدها، ولا أدري أين خرجتن جميعاً. وكنت قد تركتها مساء اليوم السابق فقط وأنا مصمم في قرارة نفسي على سلوك جادة الحق! وكانت بضع ساعات كفيلة بعقد خطبتي لها إلى الأبد. وإني لأذكر كم كنت سعيداً ومرحاً حينما مشيت من المنزل الريفي إلى ألنهام، راضياً عن نفسي، راضياً عن كل إنسان! ولكن في هذه المقابلة التي كانت آخر العهد بالمودة بيننا، تقدّمت إليها وأنا شاعر بما ارتكبته من إثم شعوراً يكاد ينزع مني ثوب الرياء. ولا أنسى - حينما أخبرتها باضطراري إلى مغادرة

ديفونشاير في الحال ما أبدت من أسف وحزن وحسرة، مع ما أبدته من احتفاظها بالثقة فيّ والإيمان بي! آه يا إلهي كم كنت وَغْداً قاسي القلب!».

ولاذ الاثنان بالصمت بضع دقائق. وكانت إلينور أول مَن تكلم.

«هل وعدتها بأنك ستعود قريباً؟».

فأجاب بصبر نافد: «لا أدري ما قلته لها، ولكنه بلا ريب أقلّ مما يفي بحق الماضي، وأكبر الظنّ أنه أكثر ممّا يبرره المستقبل. ولا أستطيع أن أذكره. ثم جاءت والدتك العزيزة لتذيقني مزيداً من العذاب بما غمرتني به من عطف وثقة. حمداً للّه! لقد عذبتني بالفعل، وفاض قلبي بالأسى. آنسة داشوود! ليس في وسعك أن تتصوري ما أشعر به من العزاء حينما أستعيد ذكرى هذا الأسى. وإني لأحقد على نفسي لما أبديته من الحماقة والنذالة حقداً يجعلني أشعر الآن بنشوة الانتصار والسرور عندما أتذكر جميع الآلام الماضية التي قاسيتها بسبب هذه الحماقة ثم سافرت، وخلفت ورائي كل ما أحب، وذهبت إلى قوم خير ما يُقال فيهم أني لا أحفل بلقائهم. وكانت رحلتي إلى لندن - وأنا أسافر بجيادي، ولذلك كان السفر مملاً - لا رفيق أتحدث معه - كانت تأملاتي تبعث على البهجة والسرور - إذا نظرت أمامي بدا كل شيء مغرياً وجذاباً! وإذا نظرت خلفي إلى بارتون بدا في الصورة ما يلطف حدّة آلامي! كانت رحلة موفقة.

وسكت.

وقالت إلينور التي تعجَّلت انصرافه، وإن رثت لحاله: «هذا كل شيء يا سيدي؟».

«كل شيء! - كلا - هل نسيت ما حدث في لندن؟ هذا الخطاب الشائن، هل أطلعتك عليه؟».

«نعم، رأيت كلّ الخطابات التي دارت بينكما».

«عندما وافاني أول خطاب منها (إذ وصلني فوراً لأني كنت في لندن طول ذلك الوقت) كان شعوري كما يقولون - تقصر دونه العبارة، وبعبارة أكثر بساطة - ربما أبسط من أن تثير أي انفعال - إنني شعرت بالألم.

كل سطر وكل لفظ - إذا جاز لي استعمال الاستعارة المبتذلة التي كانت كاتبتهما العزيزة تعافها لو كانت الآن بيننا - كانا بمثابة خنجر مصوّب إلى قلبي. وعندما علمت أن مريان وصلت إلى لندن وقعَ عليّ هذا النبأ - باللغة نفسها - وقع الصاعقة. صواعق وخناجر! ما أشدّ ما كان يمكن أن توجّهه إليّ من اللوم! - ذوقها وآراؤها - أعتقد أنني أعرفهما أكثر ممّا أعرف ذوقي وآرائي - إنها أحب إليّ».

وعادت إلينور التي انتابت قلبها عدة تغييرات في خلال هذا الحديث الغريب - فرقّت له ولكنها رأت من واجبها أن تمنع محدِّثها من الاسترسال في مثل هذه الأفكار الأخيرة.

«ليس هذا من الصواب يا سيد ولبي. تذكَّر أنك متزوج. لا تقص عليَّ إلا ما يحدثك ضميرك أنه ينبغي لي سماعه».

«إنّ خطاب مريان الذي أكّدت فيه أنها لا تزال تحبني في الأيام الخالية، وأنها على الرغم من الأسابيع العديدة، العديدة التي فرّقت بيننا، لا تزال ثابتة على عهد المودّة كما كانت في أي وقت مضى، كما لا تزال على ثقة تامة من أنني ثابت على عهد المودة كذلك - إن هذا الخطاب أيقظ في نفسي شعور الندم، كل الندم. أقول أيقظ

لأن الزمن، ولندن؛ والعمل واللهو، كل ذلك هدأ من هذا الشعور بعض الشيء، وصيّرني نذلاً قاسي القلب، أوهم نفسي أنني نسيتها وأتخيل أنها هي أيضاً لا بدَّ قد نسيتني؛ وأحدّث نفسي بأن حبنا القديم لغوٌ وهراء، وأهز كتفي دلالة على أنه كذلك، وأُسكِت كلّ صوت من أصوات الملام أو الشك بأن أقول في سري من وقت إلى آخر: سأسرّ من أعماق فؤادي حينما أسمع أنها تزوجت رجلاً طيباً». ولكن هذا الخطاب جعلني أزداد معرفة بنفسي. شعرت أنها أحبّ إلى قلبي من أية امرأة في العالم، وأنني عاملتها على نحو شائن. ولكن الاتفاق كان قد تمّ منذ قريب بيني وبين الآنسة غراي على كل شيء. وكان التقهقر مستحيلاً. كلّ ما اضطررت أن أفعله هو أن أتحاشى رؤيتكما معاً، فلم أرسل رداً إلى مريان قاصداً بذلك أن أحمي نفسي من أن أراها بعد ذلك، بل لقد صمّمت فترة من الزمن على عدم زيارة بركلي ستريت - ولكن أخيراً رأيت من الحكمة أن أتظاهر بأنني صديق عادي لا غير - فراقبتكن حتى خرجتن من المنزل بسلام في صباح يوم من الأيام وتركت بطاقتي.

«راقبتنا حتى خرجنا من المنزل!».

«هكذا كان. وقد تدهشين لأن تعرفي كم راقبتكن، وكم أوشكت أن ألتقي بكن. وقد دخلت أكثر من دكان لأتحاشى رؤيتكن، والعربة تمرّ بي. وإذ كنت أنزل ببوند ستريت لم يكد يمرّ يوم لا ألمح فيه واحدة منكن، وما كان لشيء أن يحُول بيني وبينكن هذه المدة الطويلة لولا المراقبة الدائمة من جانبي، والرغبة القوية المستمرة في تحاشي رؤيتكن. وتحاشيت الاتصال بآل ميدلتون بقدر الإمكان كما تحاشيت الاتصال بأيّ إنسان يحتمل أن يعرفني ويعرفكن، على أني التقيت مصادفة بسير جون دون أن أعلم بوجوده

في لندن، وأعتقد أن ذلك كان في أول يوم وصل فيه إلى لندن، واليوم التالي لزيارتي لمنزل السيدة جننجز، فدعاني سير جون لحفل راقص يُقيمه في منزله في المساء. ولو أنه لم يخبرني أنك وأختك ستشهدان هذا الحفل ليغريني بحضوره لكان من المؤكد جداً أن ألبي دعوته، لكي أشعر بالثقة والطمأنينة وأنا بجانبه. وفي صباح اليوم التالي تلقيت خطاباً وجيزاً من مريان، يفيض أيضاً بالحب والصراحة والبراءة والثقة - أي كل ما يجعل سلوكي ممقوتاً أشدّ المقت. ولم أستطِع أن أردّ عليه، وحاولت ولكني لم أوفّق إلى إنشاء جملة واحدة. ولكني أعتقد أنني ظللت أفكِّر فيها كل لحظة في ذلك اليوم. وإذا كان في وسعك أن ترثي لحالي يا آنسة داشوود، فارثِي لحالي حينئذٍ، فقد كنت مضطراً، وأختك تشغل رأسي وقلبي، أن أقوم بدور المحبّ السعيد مع امرأة أخرى! وكانت هذه الأسابيع الثلاثة أو الأربعة أسوأ ما مرّ بي. وأخيراً - ولا حاجة بي إلى أن أقول ذلك - وقع بصرك عليّ. وما أحلى منظري في ذلك الوقت! ما أشدّ ما عانيته من الآلام في ذلك المساء! مريان - في جمال الملائكة - تناديني - من جانب - بأعذب النغم! أواه! ربي! وهي تمدّ يدها إليّ وتطلب مني تفسيراً بهاتين العينين الساحرتين اللتين ثبتتهما في وجهي باهتمام ظاهر! وصوفيا - من جانب آخر - تشعر بالغيرة كالشيطان وتنظر إلينا نظرة. . . لا داعي للكلام، فقد انتهى كل شيء. يا لها من ليلة! لقد هربت منكن جميعاً بأسرع ما استطعت، ولكني لم أستطع أن أهرب قبل أن أرى وجه مريان الجميل شاحباً شحوب الموت. كانت تلك آخر، آخر نظرة نظرت بها إليّ - آخر منظر بدَت لي فيه، ويا له من منظر مروع! ومع ذلك فإني عندما ظننتُ أنها تحتضر اليوم كان من أسباب العزاء لي أن

أتصوّر أنني أعرف تماماً المنظر الذي تبدو به لمن يرونها آخر مرة في هذه الدنيا. كانت أمامي، وأمامي دائماً عندما سافرت، في نظرتها ومنظرها».

واستغرق الاثنان في التفكير لحظة قصيرة وكان ولبي أول مَن أفاق فقال:

«اسمحي لي أن أسرع، وأنصرف. أختك قد تماثلت للشفاء، وتجاوزت مرحلة الخطر بلا شك».

«نحن على ثقة من ذلك».

«وأمك المسكينة أيضاً! - تهيم حباً بمريان».

«ولكن الخطاب يا سيد ولبي - خطابك أنت، هل لديك ما تقوله عنه؟».

نعم، نعم، هذا بالذات. أنت تعلمين أن أختك كتبت لي مرة أخرى غداة اليوم التالي ذاته. ورأيتِ ما قالت. كنت أتناول الفطور في منزل آل إليسون. وجيء لي بالخطاب مع أشياء أخرى من مسكني. واتفق أن لمحته صوفيا قبل أن ألمحه أنا - وأثار حجمه وأناقة ورقّة وجمال خطه شبهتها في الحال. وكانت قد بلغتها إشاعة مبهمة بأني أحبّ فتاة في ديفونشاير، ثم كان ما جرى على مرأى منها في مساء اليوم السابق ممّا دلها على هذه الفتاة وأثار في نفسها الغيرة أكثر من ذي قبل، فاصطنعت دور المرأة اللعوب الذي يستهوي المحب فيمن يحبها، ففضَّت الخطاب من فورها، وقرأت ما فيه. ولقيت جزاء حماقتها وطيشها، إذ قرأت فيه ما ساءها. وكان في وسعي أن أحتمل حزنها ولكن لم يكن بدّ من تهدئة غيرتها - وحقدها. وبالاختصار ما رأيك في أسلوب زوجتي في كتابة الرسائل؟ رقيق - دقيق - نسائي حقاً - ألم يكن كذلك؟».

«زوجتك! لقد كان الخطاب بخطّك أنت».

«نعم، ولكن ليس لي من فضل فيه إلّا أني نسخت - في ذِلّة وخنوع - تلك الجمل التي يُخجلني أني وقَّعت عليها باسمي. أما الأصل، فلها فيه الفضل - أفكارها الموفقة، وأسلوبها الرقيق. وماذا كان في وسعي أن أفعل؟ لقد كنا قد عقدنا خطبتنا، وأعددنا العدة لكل شيء، وحدّدنا موعد الزفاف تقريباً - ولكني أتكلّم كالأحمق. الاستعداد! الموعد! أقول الحق: كنت محتاجاً لمالها. وفي موقف كموقفي لم يكن بد من اتخاذ أيّ إجراء يحُول دون القطيعة، وأخيراً ماذا كانت تهمّ أية لغة أصوغ بها خطابي، بالنسبة إلى أخلاقي في نظر مريان وصديقاتها. كان لا بدَّ أن يكون لهذا الخطاب غاية واحدة وهو أن أبيّن أنني محتال دنيء، ولم يكن يهم أكان ذلك بأسلوب رقيق أو فظ. قلت في نفسي: لقد نزلت من أعينهن إلى الأبد، وحرمت من صحبتهن إلى الأبد، وقد اعتقدن بالفعل أنني شخص لا أخلاق له. وكل ما سيفعله هذا الخطاب هو أنه سيجعلهن يعتقدن أنني رجل منافق متلوّن. هذه هي الأفكار التي دارت بخلدي عندما نسخت - في حالة في الاستهتار واليأس - كلمات زوجتي، وتخلّيت عن آثار مريان الأخيرة. كانت خطاباتها الثلاثة لسوء الحظ في محفظتي، وإلا لأنكرتُ وجودها، وادّخرتها إلى الأبد - فاضطررت إلى إبرازها ولم أستطِع حتى أن أقبلها. وخصلة الشعر - هذه أيضاً كنت أحملها معي في محفظتي ففتشت «المدام» عنها بكلّ غلٍّ وحقد - الخصلة العزيزة - كل الذكريات، نزعتها منّي ومزقتها.

فقالت إلينور بصوت يشفّ - على كره منها - عن الشعور بالعطف: «إنك مخطئ جداً يا سيد ولبي، وملوم جداً. لا ينبغي لك

أن تتكلم بهذه اللهجة سواء عن السيدة ولبي أو عن أختي. لقد اخترتَ زوجتك بنفسك، ولم يُجبرك عليها أحد، ومن حقّ زوجتك عليك أن تعاملها بأدب واحترام على الأقل. ولا بدَّ أنها تحبك وإلّا لما تزوّجتك. ومعاملتك لها بالجفوة أو الازدراء لا يكِّفر عما ارتكبته في حق مريان؛ ولا أعتقد أنه يرضي ضميرك».

فتنهد تنهداً عميقاً وقال: «لا تحدثيني عن زوجتي - فهي لا تستحق عطفك. هي تعلم أنني لم أكن أحمل لها أية ذرة من الحب حينما تزوجتها. نعم، قد تزوّجنا وقَدِمنا إلى كومب ماجنا لننعم بالسعادة، ثم عدنا إلى لندن لنعيش في مرح وحبور. والآن هل ترثين لحالي يا آنسة داشوود؟ أو أنني قلت ذلك عبثاً؟ هل أصبحتُ في نظرك - ولو درجة واحدة - أقلّ إجراماً ممّا كنت من قبل؟ إنني لم أكن سيئ النيّة دائماً. هل شرحتُ لك عذري في بعض ذنوبي؟».

«نعم، لقد أزلتَ أثر البعض - القليل منها - وبرهنتَ على أنك - بوجه عام - لست ملوماً بقدر ما كنت أعتقد، وبرهَنتَ على أن قلبك أقل خبثاً - أقل خبثاً بكثير. ولكن لا أدري - الشقاء الذي سبّبته - لا أدري هل يمكن أن يكون ما هو أسوأ منه!».

«هل تسمحين بأن تعيدي على مسامع أختك بعد شفائها ما قلته لك؟ وأرجو أن تخففي من ذنبي قليلاً لديها أيضاً كما فعلت معي. لقد قلتِ لي: إنها سامحتني. وإني لآمل أنها إذا ازدادت فهماً لما يكنّه قلبي لها، ولما أشعر به الآن نحوها، جادت عليّ بالعفو من تلقاء نفسها، عفواً طبيعياً رقيقاً متواضعاً. أخبريها عن حزني وندمي - قولي لها: إنّ قلبي لم يتحول عن حبها قط، وقولي لها - إذا شئت - إنها في هذه اللحظة أحب إليّ ممّا كانت في أيّ وقت مضى».

«سأحدِّثها بكل ما أراه ضرورياً لما يمكن أن يسمى نسبياً بأنه

تبرير لتصرّفك. ولكنك لم تحدثني عن السبب الخاص الذي دفعك إلى المجيء الآن ولا كيف سمعت عن مرضها».

«في الليلة الماضية، وفي غرفة انتظار دروري لين التقيت مصادفة بسير جون ميدلتون فكلمني - عندما عرفني - لأول مرة خلال هذين الشهرين، بالدهشة أو الاستياء لمقاطعته إياي عقب زواجي. ولكنه عندما رآني لم يتمالك هذا الرجل الطيب المخلص الغبي الذي يمتلئ قلبه حنقاً عليّ، ويهتم بأمر أختك - أن يخبرني بما يعلم أنه لا بدَّ أن يحزنني كثيراً - وربما لم يكن يعتقد أن ذلك سوف يحزنني. فقال لي بصراحة كعادته: إن مريان تُحتضر بسبب إصابتها بالحمى العفنة في كليفلاند - وأنه تلقى في الصباح خطاباً من السيدة جننجز يقول: إنها على وشك الموت وقد هرب آل بالمر من المنزل خوفاً... إلخ - فاستحوذ عليّ الفزع والهلع إلى حدٍّ لم أستطع معه أن أتظاهر بالتجلّد حتى أمام سير جون الخالي من الفطنة. فرقَّ قلبه لي عندما رأى تألمي. حتى إنه عندما فارقني صافحني بيده. وذكّرني بما سبق أن وعدته به من إهدائه جرو كلب من كلاب الصيد. وكان ما شعرت به عندما سمعت أنها تحتضر - وتحتضر أيضاً وهي تعتقد أنني أنذل مخلوق على وجه الأرض، وتضمر لي الازدراء والبغضاء في لحظاتها الأخيرة - ومَن يدري لعلّ أحداً نسبَ لي مقاصد خبيثة - كنت واثقاً أنّ شخصاً واحداً سيقول عني إنني أستطيع أن أفعل أي شيء - كان ما شعرت به أمراً مفزعاً! - وسرعان ما صحّ عزمي. وفي الساعة الثامنة من صباح اليوم ركبت عربتي. والآن لقد عرفت كل شيء».

فلم تحِر إلينور جواباً. إذ كانت تفكّر وهي صامتة فيما يجلبه الغنى المبكر. وما يترتب عليه من بطالة ولهوٍ وترف من أضرار

فادحة على عقل الرجل وأخلاقه وسعادته - الرجل الذي يجمع إلى جميع المزايا الشخصية والمواهب العقلية طباعاً فطرت على الصراحة والإخلاص. وسجايا تمتاز بالرقة والوداد، لقد علّمته الحياة الإسراف والغرور. وهاتان الخصلتان علّمتاه قسوة القلب والأنانية. وفي الوقت الذي ساقه الغرور إلى الانتصار الأثيم على حساب شخص آخر، ورطه الغرور في حبّ حقيقي اضطره الإسراف - أو وليدته على الأقل وهي الحاجة - إلى التضحية به. وكلّ عيب من هذه العيوب جلب عليه الضرر كما جلب عليه العتاب. إذ أصبح الحب الذي نبذه ظاهرياً مخالفاً بذلك مقتضيات الشرف والعاطفة والمصلحة يسيطر على فكره، بعد إذ أصبح جائزاً شرعاً، وأصبح الزواج الذي من أجله جلب الشقاء - دون رادعٍ من ضمير - على أختها ينذر بأن يجلب عليه هو من الشقاء ما هو أشدّ وأقسى. ثم أفاقت من هذه الأفكار التي استغرقت فيها بضع دقائق حين نهض ولبي الذي استغرق هو أيضاً في أفكار لا تقل عن أفكارها إيلاماً، وهمّ بالانصراف وقال:

«لا فائدة من البقاء هنا يجب أن أنصرف الآن».

«هل ستعود إلى لندن؟».

«كلا - إلى كومب ماجنا. فلدي بعض الأشغال هناك، ومنها إلى لندن بعد يوم أو يومين. . وداعاً».

ومدّ يده ولم ترفض أن تمدّ يدها إليه - فشدّ عليها بعطف وتأثر.

وقال وقد ترك يدها، واستند إلى سجاف المصطلى كأنما قد نسي أنه يريد الانصراف: «هل تحسنين الظنّ بي الآن أكثر ممّا كنت؟».

فأكدت إلينور له ذلك - وقالت: إنها عفَت عنه، ورثَت له وتمنّت الخير - بل أبدت اهتمامها بسعادته - وزوّدته ببعض النصائح الرقيقة التي يرجى أن تؤدي إلى هذه السعادة ولم يكن جوابه مشجعاً إلى حدّ كبير.

قال: «فيما يتعلق بذلك، أرى لزاماً عليّ أن ألتزم نهج الاستقامة في الحياة. أما السعادة المنزلية فهي ضرب من المستحيل على أنه إذا جاز لي أن أعتقد أنك وأختك ستهتمان بمصيري وأفعالي، فقد يكون ذلك وسيلة لالتزامي جادّة الحذر أو على الأقل سيكون أمراً جديراً بأن أعيش من أجله. لقد فقدت مريان إلى الأبد حقاً! لو أتيح لي أن أصبح طليقاً مرة أخرى!

فوبّخته إلينور ومنعته من الكلام.

فأجاب: «وداعاً مرة أخرى، سأنصرف الآن وأعيش في خوف من حادث آخر».

«ماذا تعني»؟!

«زواج أختك».

«أنت مخطئ جداً. لن تفقدها أبداً أكثر ممّا تفقدها الآن».

«ولكن رجلاً آخر سيظفر بها، وإذا قضت الأقدار أن يكون هذا الشخص هو أبغض الناس إليّ، ولكني لن أبقى حتى أفقد عطفك بأن أفهمك أنني أقل الناس رغبة في العفو عمّن جنيت عليه أعظم الجناية. وداعاً - بارك اللّه فيك»!.

وما أن قال هذه الكلمات حتى خرج من الحجرة.

الفصل الخامس والأربعون

انتابت إلينور بعد انصرافه بفترة من الوقت - بل بعد أن تلاشى صوت عربته - طائفة شتى من الأفكار شغلت بها حتى عن التفكير في أختها، وكانت هذه الأفكار تختلف في ذاتها اختلافاً كبيراً ولكنها تمخّضت عن نتيجة واحدة هي الشعور بالأسى.

فقد أثار ولبي الذي كانت منذ ساعة واحدة تمقته باعتباره أتفه إنسان على وجه الأرض، أثار في نفسها - على الرغم من عيوبه وأخطائه - شيئاً من العطف والأسى على آلامه التي جلبتها هذه العيوب عليه، جعلها تشعر نحوه بعد أن افترق الآن عن أسرتها إلى الأبد بشيء من الحنان والأسف يتناسبان - كما اعترفت هي في قرارة نفسها - مع رغبته لا مع ما يستحقه. وكانت تشعر أنّ الأثر الحسن الذي تركه ولبي في نفسها يرجع إلى أمور ينبغي ألّا يُقام لها وزن في نظر العقل، وهي شخصيته الجذابة بدرجة غير عادية، ولهجته الصريحة المحبوبة المرحة ممّا لا يُعدّ مزية في الرجال، ثم المحبة الشديدة التي لا يزال يكنّها لمريان، ممّا لا يجوز له أن يتمادى فيه. ولكنها شعرت أنه سيمر وقت طويل، طويل جداً، قبل أن يضعف هذا الأثر في نفسها.

ولما عادت أخيراً إلى مريان المستغرقة في نومها وجدَتها قد

استيقظت لتوّها وأن النوم الطويل اللذيذ قد أنعشها كما كانت تأمل، وكان قلب إلينور منعماً بشتى الأفكار والانفعالات، فالماضي والحاضر والمستقبل وزيارة ولبي، وسلامة مريان ووصول والدتها المنتظر، كل ذلك أثار في نفسها موجة من الاضطراب والقلق حجبت مظاهر التعب، وكل ما كانت تخشاه أن تتبيّن أختها ما تجيش به نفسها على أنّ ذلك الخوف لم يخالجها إلا قليلاً، لأنه بعد نصف ساعة من انصراف ولبي سمعت صوت عربة أخرى، فنزلت وأسرعت إلى القاعة في الحال لتريح أمها من الشعور بالقلق الرهيب الذي لا مبرِّر له لحظة واحدة، ووصلت إلى الباب الخارجي في الوقت المناسب لتستقبل أمها وتسندها وهي تدخل الدار.

ولما اقتربت السيدة داشوود من المنزل استحوذ عليها الرعب. حتى لقد غلب عليها الظنّ أنّ مريان قد انتهت، فاحتبس صوتها دون السؤال عنها، بل دون أن تحيّي إلينور، ولكن إلينور لم تنتظر السؤال ولا التحية، بل زفَّت إلى أمها البشرى في الحال فتلقّتها أمها بحماستها المعتادة، واستحوذ عليها السرور بقدر ما استحوذ عليها الخوف من قبل، وسارت إلى حجرة الاستقبال تستند إلى ذراع ابنتها وصديقها. وهناك ذرفت دموع الفرح ولكنها ظلّت عاجزة عن الكلام وأوسعت إلينور لثماً وتقبيلاً، وكانت تتحوّل عنها بين الفينة والفينة لتشدّ على يد كولونيل براندون، وتنظر إليه نظرة تعبّر عن الشكر وعرفان الجميل والاعتقاد بأنه يشاركها السرور الذي غمرها في تلك اللحظة. على أنه كان يشاركها هذا السرور في صمت أشدّ من صمتها هي.

وعندما تكشفت عن السيدة داشوود روعة الموقف كان أول ما رغبت فيه هو رؤية مريان، وما هي إلا دقيقتان حتى حضرت ابنتها

المحبوبة التي زادت محبّتها في قلب أمها بسبب غيابها وحزنها ومرضها، وكان لا يحدّ من سرور إلينور - عندما رأت فرحة كل منهما باللقاء - إلا خوفها من أن تحُول هذه الفرحة دون أن تنعم مريان بالمزيد من المنام. ولكن السيدة داشوود كانت تبدي الهدوء، بل الحكمة حيثما تكون صحة إحدى بناتها في خطر. وكانت مريان تشعر بالارتياح لقرب أمها منها. وتشعر بأنها أضعف من أن تجاذبها أطراف الحديث، فاستجابت إلى ما طلبته الممرضات من التزام الصمت والهدوء. وألحّت السيدة داشوود في أن تسهر عليها طول الليل، وذهبت إلينور إلى الفراش استجابة لرجاء أمها، ولكن انفعالاتها النفسية حالت دون الراحة التي استوجَبَتها الليلة التي أرقها فيها السرّ، والساعات العديدة التي انتابها فيها أشد القلق، فكانت ذكرى ولبي لا تبرح فؤادها، ولبي المسكين كما شاءت أن تسمّيه الآن. لقد كانت لا تتمنى شيئاً في العالم إلّا أن تسمع دفاعه عن نفسه، والآن أخذت تلوم نفسها تارة، وتبرئها تارة أخرى لأنها قَسَت في الحكم عليه من قبل، ولكن وعدها بأن تخبر أختها بذلك كان يؤرقها دائماً، وتخشى الوفاء به، وتخشى أثره في مريان، وتشكّ في شعورها بالسعادة مع زوج آخر إذا سمعت هذا التفسير، وتمنّت برهة من الزمن لو كان ولبي أرمل ثم تذكرت كولونيل براندون، فأنحت على نفسها باللائمة وشعرت أنه أولى من غريمه بأختها لما قاسى من الآلام وما أظهره من الوفاء أكثر منه، وتمنّت أي شيء آخر غير وفاة السيدة ولبي.

وممّا خفّف من صدمة الرسالة التي حملها كولونيل براندون إلى بارتون أن السيدة داشوود كانت تشعر بالخوف قبل وصوله، فقد استبدّ بها القلق على مريان إلى حدّ صمَّمت معه على السفر إلى

كليفلاند في ذلك اليوم نفسه دون انتظار أي نبأ آخر، واتخذت الأهبة للسفر قبل وصوله، حتى لقد كانت تنتظر وصول آل كاري بين لحظة وأخرى ليأخذوا مرغريت معهم، إذ لم ترغب أن تأخذها معها خوفاً من العدوى.

وظلّت صحة مريان تتحسّن كل يوم، وكانت البهجة التي تجلّت في نظرات السيدة داشوود وحالتها النفسية، تدلّ على أنها من أسعد الناس في العالم كما صرّحت مراراً. ولم يكن في وسع إلينور أن تسمع هذا التصريح وترى دلائله دون أن تتساءل أحياناً: هل خطر إدوارد على بال أمها؟ ولكن السيدة داشوود كانت مطمئنة بفضل اعتدال اللهجة التي روت بها إلينور ما أصيبت به من خيبة الأمل، بحيث لم تفكر إلّا فيما يزيد من نشوة الفرح التي غمرتها في ذلك الوقت، فقد عادت إليها الآن مريان سالمة من الخطر الذي تردَّت فيه بسبب ما ارتكبته من خطأ - كما أخذت تشعر الآن - بتشجيع مريان على حبّها المشؤوم لولبي. وكان هناك سبب آخر لم يخطر على بال إلينور - يدعوها إلى السرور بشفاء مريان ولكنها أفضَت به إليها على النحو الآتي بمجرد أن سنحت الفرصة لتتحدث معها على انفراد:

«أخيراً أصبحنا على انفراد. لا تعلمين حتى الآن يا عزيزتي إلينور ما أشعر به من السعادة. كولونيل براندون يحبّ مريان. لقد أخبرني بذلك هو نفسه».

فأصغت إليها بكلّ جوارحها، وانتابها الشعور بالسرور تارة، والألم تارة أخرى، والدهشة تارة، وعدم الدهشة تارة أخرى.

«أنت لا تشبهينني أبداً يا عزيزتي إلينور، وإلا فإني أعجب لهدوئك الآن. لو أني وقفتُ لأتمنى أي خير يمكن أن ينال أسرتي،

لكان أحب ما أتمناه أن يتزوج كولونيل براندون إحدى بناتي، وأعتقد أنّ مريان ستكون أسعد زوجة معه».

ولم تكن إلينور تودّ كثيراً أن تسأل أمها عن الأسباب التي تحملها على هذا الاعتقاد، لاقتناعها بأنها لن تستطيع أن تبدي سبباً قائماً على أيّ اعتبار منزّه عن الغرض من حيث سنهما أو أخلاقهما أو عاطفتهما، وأنها تهيم في بيداء الخيال في أي موضوع يهمها. ولذلك آثرت ألّا تسألها، وأن تضرب عن الموضوع صفحاً بابتسامة.

«لقد فتح قلبه كله لي بالأمس في أثناء السفر. وجاء ذلك فجأة وبغير قصد. فأنا - كما تعلمين جيداً - لم أفكّر إلا في الحديث عن ابنتي - وهو لم يخفِ ألمه، فرأيته يعادل ألمي. وربما رأى هو أنّ الصداقة المحضة - كما هي عادة الناس الآن - لا تكفي مبرراً لمثل هذا العطف الصادق - أو لم يرَ ذلك على الإطلاق فيما أظن - واستسلم لعاطفته التي لا تقاوم، فصارحني بحبه الشديد لمريان حباً رقيقاً دائماً. لقد أحبّها يا عزيزتي إلينور منذ أول لحظة رآها فيها».

ولكن إلينور لاحظت هنا - لا لغة كولونيل براندون ولا أقواله - وإنما المحسنات الطبيعية التي يزين بها خيال أمها الخصيب، كما تشاء، كل شيء يسرها.

«حبّه لها لا يُقاس بما شعر به ولبي، أو ادّعى أنه شعر به، حب أشد حرارة بقدر ما هو أشد إخلاصاً وثباتاً - سميه ما شئت - حب ظلّ قائماً طوال الفترة التي علم فيها بحب مريان المشؤوم لذلك الفتى الحقير! - حبّ لا يعرف الأنانية - ولا يشجع أي أمل! - كان يسرها أن يراها سعيدة مع أي شخص سواه - يا له من رجل نبيل! - ما أعظم صراحته، وما أعظم إخلاصه! - لا يمكن أن ينخدع الإنسان فيه».

قالت إلينور: «إن أخلاق كولونيل براندون كرجل ممتاز أمر ثابت لا شك فيه».

فقالت أمها بلهجة الجدّ: «أنا أعرف ذلك وإلا فإني، بعد هذا النذير، آخر مَن يميل إلى تشجيع مثل هذا الحب بله الفرح به. ولكن مجيئه إليَّ بمثل هذا النشاط والمبادرة إلى إظهار الصداقة يكفي للدلالة على أنه رجل من أفاضل القوم».

قالت إلينور: «ولكن أخلاقه لا ترتكز على عمل واحد من أعمال المعروف ما كان ليحدوه إليه إلا حبه لمريان، ولو كان مجرداً من الوازع الإنساني. وقد عرفه آل ميدلتون معرفة وثيقة منذ زمن طويل، وكلاهما يحبّه ويحترمه على السواء وأنا وإن عرفته أخيراً أعرف عنه الشيء الكثير، ولذلك فأنا أقدِّره وأجلّه كثيراً بحيث إذا أمكن أن تكون مريان سعيدة معه، لم أتردد في أن أشاركك الاعتقاد بأن هذا الزواج سيكون أكبر نعمة لنا في الدنيا. ماذا أجبته؟ هل شجَّعت فيه الأمل؟».

«عجباً يا حبيبتي! لم يكن في وسعي أن أحدّثه، أو أحدّث نفسي عن الأمل فقد كان يحتمل في تلك اللحظة أن تكون مريان في النزع الأخير. ولكنه لم يطلب أملاً ولا تشجيعاً. وكل ما في الأمر أنه أفضى بسره من تلقاء نفسه، وتحدَّث حديثاً لم يستطِع أن يكتم فيه عواطفه إلى صديقة تخفّف من آلامه - وليس رجاء لأم. ومع ذلك قلت له بعد فترة من الوقت - لأن القلق كان متسلطاً على ذهني في بادئ الأمر - أنها إذا عاشت - وأنا واثقة من ذلك - فإن أكبر ما يسعدني هو تشجيع زواجكما. ومنذ أن وصلنا، ومنذ أن شعرنا ببرد الطمأنينة كرّرت له ذلك بعبارة أوفى وشجعته بقدر أمكاني، وقلت له: إنّ الزمن - والزمن القصير جداً - سيصنع كل شيء. إن

قلب مريان لا يصحّ أن يظلّ معلقاً برجل مثل ولبي - وإن فضائله كفيلة بأن تمكّنه من الظفر بها قريباً».

«ولكن أرى من حالة الكولونيل النفسية أنك لم تجعليه متفائلاً مثلك».

«كلا، إنه يرى أنّ حب مريان لولبي تمكَّن من قلبها بحيث يتعذَّر زواله قبل زمن طويل. وحتى بفرضٍ أنّ قلبها خلا من حبّه مرة أخرى فهو يشعر بالخجل والحياء بحيث لا يعتقد أنها تستطيع أن تحبّه مع وجود هذا التباين في السن والطباع بينهما. ولكن أرى أنه مخطئ في ذلك فزيادة سنه على سنها يُعد ميزة، لأن ذلك من شأنه أن يُرسي أخلاقه ومبادئه على دعائم ثابتة، وطباعه كما أعتقد هي عين الطباع التي تسعد أختك. وشخصيته وأخلاقه أيضاً كلها مزايا تعزز مركزه. إنّ حبي لا يعميني فهو ليس وسيم الطلعة كولبي. ولكن في قسمات وجهه ما يسرّ العين أكثر. لقد كنت أرى دائماً - إذا تذكرت - في نظرات ولبي ما لا يسرني أحياناً».

ولكن إلينور لم تتذكر ذلك بَيد أنّ أمها استطردت دون أن تنتظر موافقتها:

«وأخلاقه - أخلاق الكولونيل لا تسرّني أكثر ممّا تسرني أخلاق ولبي فحسب، ولكن أعرف جيداً أنها من الطراز الذي يستهوي أختك مريان كثيراً. فرقّة أخلاقه، وصدق مجاملته لغيره وبساطته ومروءته أكثر اتفاقاً مع طباعها الحقيقية من مرح ولبي، وهو المرح الذي يصطنعه غالباً. وأنا أؤكد أنه لو ثبت أنّ ولبي رجل محبوب حقيقة - كما ثبت عكس ذلك تماماً - لما شعرت مريان بالسعادة معه قط كما ستشعر مع كولونيل براندون».

وسكتت - ولم توافقها ابنتها تماماً - ولكنها لم تسمع عدم موافقتها، ولذلك لم تظهر استياءها.

وأضافت السيدة داشوود: «وفي ديلافورد؛ ستكون على مسافة قريبة مني حتى ولو بقيت في بارتون، وأكبر الظنّ - لأني سمعت أنها قرية كبيرة - لن نعدم أن نجد منزلاً صغيراً أو منزلاً ريفياً بالقرب منها يصلح لنا كمنزلنا الحالي».

مسكينة إلينور! ها هو ذا مشروع جديد لنقلها إلى ديلافورد! - ولكنها كانت صعبة المراس.

«ثروته أيضاً! لأنك تعلمين أنّ كل إنسان يهتم بذلك في زمننا، وأعتقد أنها ثروة طيبة وإن كنت لا أعرف قدرها، ولا أرغب في معرفته».

وهنا دخل عليهما شخص ثالث، فقطع عليهما الحديث. وانسحبت إلينور تقلب النظر في الأمر على انفراد، وتتمنى التوفيق لصاحبها، وترثي لحال ولبي في الوقت نفسه.

الفصل السادس والأربعون

على الرغم من أن مرض مريان من شأنه أن يضعف المريض فإنه لم يدم طويلاً بحيث يجعل الشفاء بطيئاً. وقد اطَّرد هذا الشفاء بخطى حثيثة بفضل شبابها وقوتها الطبيعية، ووجود أمها بجانبها، حتى لقد استطاعت في غضون أربعة أيام من وصول هذه الأخيرة أن تنتقل إلى غربة الزينة الخاصة بالسيدة بالمر. ولما انتقلت إليها - بناءً على طلبها الخاص - تاقت إلى لقاء كولونيل براندون لتعبّر له عن شكرها لإحضار أمها، فدعي إلى زيارتها.

وكان التأثر الذي بدا عليه عندما دخل الحجرة، وشاهد نظراتها المتغيّرة، وصافح يدها الشاحبة التي مدّتها إليه من فورها، قوياً إلى حدّ ظنّت معه إلينور أنه صادر عن فرط محبته لمريان، أو شدّة الخجل من معرفة غيره لذلك الحب. وسرعان ما تبيّنت في عينه الحزينة، ووجهه المتغيّر - وهو ينظر إلى أختها احتمال تذكره لما مرّ به من الأحداث الأليمة حين رأى الشبه الذي سبق أن صرّح به واضحاً بين مريان وليزا - ذلك الشبه الذي ازداد الآن قوة عندما رأى عينها الغائرة، وبشرتها الشاحبة ورقدتها الدالة على الضعف وشكرها الحار على المنة التي أسداها إليها.

ولم يكن ما لاحظته السيدة داشوود أقلّ ممّا لاحظته ابنتها

ولكن أثره في نفسها كان يختلف عنه في إلينور اختلافاً كبيراً، ولذلك كانت النتيجة مختلفة اختلافاً كبيراً كذلك، فلم ترَ في سلوك الكولونيل إلا ما ينشأ عن أبسط الإحساسات وأوضحها، ولكنها رأت في أفعال مريان وأقوالها معنى أكثر من مجرد الشكر.

وبعد يوم أو يومين أخذت مريان تزداد قوة بصورة واضحة كلّ اثنتي عشرة ساعة وأخذت السيدة داشوود، مدفوعة برغبتها الخاصة، ورغبة بناتها تتحدث عن العودة إلى بارتون. وكانت خطة صديقيها تتوقف على خطتها هي فالسيدة جننجز لم تستطع مغادرة كليفلاند في أثناء إقامة آل داشوود فيها، كما أنّ كولونيل براندون استجاب لرجائهن جميعاً في أن يعتبر إقامته في كليفلاند أمراً محتوماً إن لم يكن ضرورياً. وقبلت السيدة داشوود بناءً على طلبه وطلب السيدة جننجز أن تستقلّ عربته في العودة حرصاً على راحة ابنتها العليلة، ووعد الكولونيل بكلّ سرور أن يفتدي العربة بزيارة لهن في منزلهن الريفي في غضون بضعة أسابيع، وذلك بناءً على دعوة كل من السيدة داشوود، والسيدة جننجز التي دفعت طيبة قلبها السيدة داشوود لأن تبدي لغيرها من الودّ وكرم الضيافة، ما تبديه هي نفسها.

وجاء يوم الفراق والرحيل، فودّعت السيدة جننجز وداعاً حاراً طويلاً مقروناً بالشكر الصادق والاحترام البالغ، والتمنيات الطيبة جزاءً وفاقاً لما أبدته نحوها من ضروب الرعاية الماضية، كما ودّعت كولونيل براندون وداعاً مقروناً بصداق الودّ، ثم سارت إلى العربة يساعدها براندون الذي حرص على أن تشغل هي نصفها على الأقل وأعقبتها إلينور والسيدة داشوود. وبقي الآخران وحدهما ليتحدثا عن السفر، ويشعرا بالكآبة والملل، إلى أن دعيت السيدة جننجز إلى عربتها لتتسلى بحديث وصيفتها عن فراق

صديقتيها الصغيرتين. ولم يلبث كولونيل براندون أن سار وحده إلى ديلافورد.

وسار آل داشوود في طريقهن يومين تحمّلت فيهما مريان وعثاء السفر دون عناء كبير. وقد أحاطتها رفيقتاها اليقظتان بأكبر مظاهر الحب والرعاية حتى توفر لها أسباب الراحة، وتجلى أثر ذلك في شعورها بالراحة الجسمية والهدوء النفسي، وسُرّت إلينور بصفة خاصة لملاحظة هذا الأمر الأخير لأنها وقد رأت أختها تعاني لوعة الألم أسبوعاً بعد أسبوع، وتكابد من الكرب والغم ما لا تجد من نفسها الجرأة على الإفضاء به، ولا الصبر على كتمانه، أخذت تنظر الآن بعين السرور - الذي لا يشاركها فيه أحد سواه - إلى ما بدا عليها من مظاهر الهدوء النفسي، والذي وإن نشأ فيما تعتقد عن التفكير العميق، فإنه لا بدَّ أن يؤدي في النهاية إلى الرضا السرور.

وعندما اقتربن من بارتون بالفعل، وتراءت لهن مناظر يثير كل حقل وكل شجرة فيها ذكرى أليمة لاذت بالصمت والتفكير، ثم أشاحت عنهما بوجهها، وجلست ترنو إلى الحقول من خلال النافذة ولكن إلينور لم تعجب لذلك، ولم تَلُمها عليه. وعندما رأتها تبكي وهي تساعدها في النزول من العربة، لم ترَ في ذلك إلّا انفعالاً طبيعياً جداً لا يثير إلّا العطف والرثاء. وإذا نظرنا إلى أنه انفعال دعت إليه الظروف كان جديراً بالثناء. وكانت تصرفاتها فيما تلا ذلك تشعر بأنها عادت إلى صوابها، لأنه ما إن دخلن حجرة الجلوس المعتادة حتى أخذت مريان تجول بعينها حولها في نظرات ثابتة، وكأنها مصمِّمة على أن تعوّد نفسها في الحال رؤية كل شيء يمكن أن يذكِّرها بولبي. ولم تتكلم إلا قليلاً. ولكن كلّ جملة كانت تنمّ

عن البهجة والسرور. وكانت ترسل أحياناً بعض الزفرات ولكنها قلما كانت ترسل زفرة دون أن تكفر عنها بابتسامة. وبعد أن تناولت طعام الغداء أرادت أن تعزف على البيانو، فأقبلت عليه، ولكن الأغنية التي وقعت عليها عينها كانت مسرحية غنائية أحضرها ولبي، وتشتمل على بعض ثنائياتهما المحبوبة، وتحمل على غلافها الخارجي اسمها مكتوباً بخطّ يده. ولكنها لم تعجبها فهزّت رأسها وألقتها جانباً. وبعد أن مرّت بأصابعها على مفاتيح البيانو مدة دقيقة شكت من أصابعها، وأغلقت البيانو مرة أخرى ولكنها أكدت وهي تغلقه أنها ستعزف عليه كثيراً في المستقبل.

وفي صباح الغد لم يحدث أي نقص في هذه الأعراض المشجعة، بل على العكس شعرت بالقوة الجسمية والنفسية لما تمتعت به من الراحة، فظهر السرور في نظراتها وكلامها، وأخذت تتوقع بسرور عودة مرغريت ثم تتحدّث عن اجتماع شمل الأسرة مرة أخرى والقيام بنزهاتهم وأعمالهن المشتركة في جو من البهجة والسرور، وتعد ذلك السعادة الوحيدة التي يجدر بالمرء أن يتمناها.

قالت: «عندما يتحسن الجو، وأسترد قوتي، سنقوم كلّ يوم بنزهات طويلة معاً. سنمشي إلى المزرعة الموجودة في نهاية المروج، ونرى حال الأطفال فيها. وسنسير إلى مزارع سير جون الجديدة في بارتون - كروس، وأرض آبي، وسنزور مراراً آثار بريوري القديمة ونحاول أن نصل إلى الأساس الذي قِيل لنا إنها وصلت إليه فيما مضى. وأنا أعلم أننا سنشعر بالسعادة وأننا سنقضي الصيف في سعادة. وأريد ألا أتأخر في الاستيقاظ عن الساعة السادسة أبداً، وسأقسم كل لحظة من وقت الاستيقاظ إلى وقت الغداء بين الموسيقى والقراءة. لقد رسمت خطتي وصممتُ ألا

أشرع في أيّ منهج من مناهج الدراسة الجادة. لقد قرأت جميع الكتب الموجودة في مكتبتنا بحيث لن ألجأ إليها إلا لمجرد الترويح عن النفس. وهناك كثير من الكتب الجديرة بالقراءة في الحديقة، وهناك كتب أخرى أحدث إنتاجاً أستطيع أن أستعيرها من كولونيل براندون. وإذا قرأت ست ساعات يومياً فسأحصِّل في خلال سنة قدراً كبيراً من المعلومات أشعر الآن أنني بحاجة إليها.

أكبرت إلينور فيها هذه الفكرة السامية، ولكنها ابتسمت حين رأت الخيال القوي الذي أفضى بها إلى الكسل والتراخي وجعلها تسترسل في الحزن والتبرّم، يعود فينشط الآن للمبالغة في مشروع يهدف إلى تثقيف العقل وضبط النفس. على أنّ ابتسامتها سرعان ما تحوّلت إلى تنهد حينما تذكرت أنها لم تفِ بوعدها لولبي حتى الآن، وخشيت أن يؤدي ما تفضي به إلى بلبلة ذهن مريان، ويقضي - ولو مؤقتاً على الأقل - على ذلك الأمل الجميل الذي تطمح إليه، وهو أن تشغل وقتها بعمل نافع تشعر فيه براحة البال. ولذلك قررت - رغبة منها في إرجاء ساعة السوء - أن تنتظر حتى تتحسّن صحة أختها. ولكنها لم تعقد هذا العزم إلا لتنقضه.

قضت مريان يومين أو ثلاثة بالمنزل قبل أن يتحسن الطقس بدرجة تسمح لمريضة مثلها بالخروج. وأخيراً جاء صباح لطيف يغري بتحقيق رغبتها، ويبعث الطمأنينة في نفس أمها فرخصت لمريان بالخروج متكئة على ذراع إلينور والمشي إلى الحدّ الذي لا تشعر معه بالتعب في الدرب الموجود أمام المنزل.

وخرجت الأختان تمشيان بالسرعة التي يتطلبها ضعف مريان في رياضة لم تمارسها حتى أصيبت بمرضها الأخير. ولم تكادا تتجاوزان المنزل بالقدر الذي يسمح برؤية التل رؤية كاملة - التل

المشهور الموجود خلف المنزل - حتى توقفت مريان عن السير، ووجّهت نظرها إليه وقالت في هدوء:

«هناك، هناك تماماً» مشيرة بإحدى يديها «على تلك الربوة الناتئة، هناك سقطت، وهناك رأيت ولبي لأول مرة».

وخشع صوتها مع هذه الكلمة ولكنها أفاقت في الحال وأردفت:

إني مسرورة لأن أجد أنه في وسعي أن أنظر إلى هذه البقعة دون أن أتألم كثيراً هل سنتحدث في هذا الموضوع يوماً ما يا إلينور؟ قالت ذلك بلهجة التردّد: «أو سيكون ذلك ضرباً من الخطأ؟ أرجو أن أستطيع التحدث عنه الآن، كما ينبغي أن أفعل».

وطلبت إليها إلينور في حنان ورقة أن تكون صريحة.

قالت مريان: «أما الأسف، فأنا غير آسفة عليه. لا أريد أن أتحدث إليك عمّا شعرت به نحوه، وإنما عمّا أشعر به الآن - الآن، إذا أمكن أن يرتاح بالي في نقطة واحدة - إذا جاز لي أن أعتقد أنه لم يكن دائماً يمثل دوراً، ولم يخدعني دائماً - ولكن أهم من ذلك إذا استطعت أن أتأكد أنه لم يكن قط خبيثاً جداً كما صورت لي الهواجس أحياناً، منذ أن عرفت قصة تلك الفتاة المنكودة الطالع».

ثم سكتت، وتذكرت إلينور كلماتها بسرور عندما أجابت:

«تعتقدين أنك ستشعرين براحة البال إذا استطعت أن تتأكدي من ذلك؟».

«نعم، إن راحة بالي في ذلك - لا لأنه من المفزع أن أتهم شخصاً كان له في نفسي ما كان من المنزلة بمثل هذه النوايا، ولكن

ماذا يقول الناس عني أنا إذا اتهمته بذلك؟ لا شيء في مثل موقفي إلا ما يُقال عن امرأة أحبّت، وتنكبت في حبها جادة الحذر بشكل فاضح».

قالت أختها: «وكيف إذن تعللين سلوكه؟».

«أميل إلى الظن - أوه! كما يسعدني أن أعلن أنه ليس إلا شخصاً هوائياً متقلباً، متقلباً جداً، جداً».

فلم تزد شيئاً ولكنها تساءلت في سرها: أيحسن أن تبدأ قصتها فوراً أم ترجئها حتى تقوى صحة مريان؟ ثم سارتا بعض دقائق في صمت.

وقالت مريان أخيراً وهي تتأوه: «لا أتمنى له من الخير كثيراً جداً عندما أتمنى أن يعاني من الأفكار المؤلمة مثل ما أعاني. إنه سيقاسي منها ما يكفيه».

«هل تقارنين سلوكك بسلوكه؟».

«إنني أقارنه بما كان ينبغي أن يكون عليه. أقارنه بسلوكك أنت».

«لقد كان ثمة تشابه يسير بين موقفينا».

يوجد تشابه بينهما أكثر ممّا يوجد بين سلوكينا. لا يحملنّك الكرم يا أعز الناس عندي أن تدافعي عمّا ترين أنه جدير بالاستنكار والاستهجان. لقد ساعدني مرضي على التفكير - أتاح لي من الفراغ والهدوء ما يسمح لي بالتفكير الجدي. استطعت تماماً أن أفكِّر قبل أن أتماثل للشفاء بوقت طويل. فكّرت في الماضي فلم أرَ في مسلكي منذ أن عرفناه في الخريف الماضي سوى سلسلة من الحماقات ارتكبتها في حقّ نفسي، والقسوة في حقّ غيري. رأيت

أن عواطفي مهّدت الطريق لآلامي، وأن عدم صبري عليها كاد يقودني إلى القبر. إنني أعرف جيداً أنني جلبت على نفسي المرض بإهمالي صحتي إهمالاً، شعرت حتى في ذلك الوقت بأنه ضرب من الإثم. لو أني مت، لكان ذلك انتحاراً. لم أعرف ما تعرّضت له من خطر حتى زال الخطر ولكني أعجب لشفائي مع المشاعر التي أثارتها أفكاري - أعجب لأن حرصي على الحياة - على أن يكون لدي فسحة من الأجل حتى أكفِّر عن سيئاتي في جنب اللّه وفي حقك، لم يقتلني في الحال. لو أني مت، - كم كان موتي يورثك من الشقاء، أنت يا ممرضتي، يا صديقتي، يا أختي! أنت، يا مَن قاسيت أنانيتي ونكدي في الأيام الآخيرة، يا مَن ذقتِ ما يفيض به قلبي من التذمر والتأفف. كيف كنت أعيش في ذاكرتك! وأمي أيضاً! كيف كنت تستطيعين مواساتها! لا أستطيع أن أعبّر عن شدة مقتي لنفسي! كلما نظرت إلى الماضي رأيت واجباً أهملته، وعيباً تماديت فيه. ويبدو لي أني أسأت إلى كلّ إنسان. فالعطف، العطف الدائم الذي غمرتني به السيدة جننجز جزيتها عليه بالاحتقار ونكران الجميل. وآل ميدلتون وآل بالمر وستيل، بل كل مَن تعرفت إليه، كل هؤلاء عاملتهم بالقحة وقلّة الإنصاف، عاملتهم بقلب قاسٍ يتنكر لفضلهم، وطبع شرس يثور على عطفهم - وجون، وفاني على قلّة ما يستحقان - عاملتهما دون ما يستحقان - أما أنتِ فقد أسأتُ إليكِ أكثر ممّا أسأت للجميع، بل أكثر من أمي. وأنا ولا أحد إلا أنا يعرف قلبك وما ينطوي عليه من الأحزان. ومع ذلك فماذا كان أثر ذلك فيّ؟ لم يثر في نفسي شيئاً من العطف يمكن أن يعود بالفائدة عليك أو على نفسي. كان لي فيك أسوة حسنة ماثلة أمامي، ولكن ماذا أخذت منها؟ هل زاد اهتمامي بك وبراحتك؟ هل اقتديتُ بكِ

في صبرك واحتمالك أو خففت من أعبائك بالمشاركة في واجبات المجاملة أو الشكر التي نهضت بها وحدك حتى الآن؟ كلا! لقد أعرضتُ عن القيام بأيّ عمل يقتضيه الواجب أو الصداقة سواء أكنت أعلم أنك حزينة أم كنت أعتقد أنك مسرورة. ولم أرَ أن أحداً يتجرّع غصص الأحزان إلا إياي، غير آسفة إلّا على ذلك القلب الذي هجرني وأساء إليّ، وتركتك - أنت التي صرحت لك بأني أحبك حباً لا حد له - تتجرعين مرارة الحزن من أجلي.

وهنا انقطع سيل اللوم الذي أنحت به على نفسها، فبادرت إلينور إلى تهدئتها فأثنت عليها من فورها - وإن منعها الصدق من تملّقها - وأيّدتها فيما قالته، على النحو الجدير بصراحتها وتوبتها، فشدّت مريان على يدها وقالت:

«أنتِ طيبة جداً، وسيبرهن المستقبل على صدق قولي. لقد وضعتُ خطتي وإذا استطعتُ أن أتمسّك بها فسأسيطر على عواطفي، وأهذب طباعي، فلا تكون مصدراً لإزعاج غيري ولا لتعذيب نفسي. وسأعيش من الآن لأسرتي فحسب. ستكونين أنت وأمي ومرغريت من الآن كلّ شيء لي في هذا العالم. وسأقسِّم حبي كله بينكن. ولن يغريني شيء مرة أخرى بأن أتحوّل عنكن وعن بيتي. وإذا اختلطت بأحد غيركن فلكي أبيّن للناس أن نفسي تواضعت، وأن قلبي قد صلح، وأنه أصبح في وسعي أن أراعي أصول المجاملة - وهي واجبات الحياة الصغيرة، وأعامل الناس برفق وحلم. أما ولبي فإني إذا قلت إنني سأنساه قريباً، أو سأنساه إلى الأبد كان ذلك ضرباً من اللغو. ومهما تغيّرت ظروفي وآرائي فلن أنسى ذكراه ولكن التمسك بأهداب الدين والعقل والعمل الدائب كفيل بنسيان هذه الذكرى.

ثم سكتت وأضافت بصوت خافت: «لو أني عرفت ما يكنّه قلبه لارتاح بالي».

وسمعت إلينور ذلك، وكانت إلينور تفكّر حتى ذلك الوقت فيما إذا كان يحسن أن تفضي بقصتها لأختها في الحال دون أن تشعر على الإطلاق أنها اقتربت من البتّ في الأمر أكثر مما كانت في البداية، ولكنها رأت أنه إذا كان التفكير لا يؤدي إلى البت في الأمر، فإن العزيمة كفيلة بذلك، وسرعان ما وجدت نفسها تدخل في الموضوع.

فأخذت تقصّ الخبر على أختها - كما كانت ترجو - بمهارة وحذق، ومهّدت لحديثها بأن أوصت أختها المتلهفة بالحذر، وسردت بإيجاز وأمانة النقاط الرئيسة التي بنى عليها ولبي دفاعه الأخير، وقدّرت توبته، ولطفت من الأقوال التي أكّد فيها محبته لمريان في الوقت الحاضر، ولم تنبس مريان ببنت شفة، بل ارتجفت وثبتت عينها على الأرض، واستحال لون شفتيها أكثر شحوباً ممّا خلّفه المرض. وانبعث من قلبها ألف سؤال ولكنها لم تجرؤ أن تفصح عن سؤال واحد، وكانت تستمع إلى كلّ كلمة بكلّ جوارحها، وتشدّ دون أن تشعر - على يد أختها، والدموع تغمر وجنتيها.

وخشيت إلينور أن يكون التعب قد حلّ بها، فعادت بها إلى المنزل، ولم تتحدث - إلى أن وصلتا إلى باب المنزل - إلّا عن ولبي وما دار بينهما من حديث - وهي تحزر بسهولة ما يعتمل في نفس أختها من حبّ الاستطلاع، وإن لم تسمح لنفسها بأيّ سؤال يدل على ذلك - وكانت تراعي الدقة في سرد تفصيلات كلامه ونظراته، حيث يؤمن جانب الدقة. وما إن دخلا المنزل حتى افترقت

مريان عن أختها، وصعدت الدرج بعد أن قبَّلت أختها قبلة الشكر مع التفوّه بهاتين الكلمتين من خلال دموعها «أخبري ماما» ولم تشأ إلينور أن تعكِّر على مريان صفو العزلة التي كان لها ما يبررها، فدخلت حجرة الجلوس لتنفيذ وصية مريان عند افتراقهما، وهي تقدِّر باهتمام ما ستسفر عنه وتعتزم إثارة الموضوع من جديد إذا لم تثره مريان.

مكتبة 707
سُر مَن قرأ

الفصل السابع والأربعون

لم تسمع السيدة داشوود دفاع محبوبها السابق، دون أن تبدي تأثرها، ففرحت لبراءته من بعض ما نُسب إليه من الإثم، وأبدت أسفها عليه، وتمنَّت له السعادة. ولكن لم يكن ثمة من سبيل لأن تشعر نحوه بمثل ما كانت تشعر به فيما مضى. ولم يكن ثمة من سبيل لأن يعود إلى مريان متمتعاً بالثقة الكاملة - طاهر الذيل نقياً من الدنس. وما كان لشيء أن يمحو من ذهنها ذكرى الآلام التي كابدتها من جرائه، أو يزيل أثر مسلكه الأثيم نحو إليزا، وما كان لشيء أن يعيد إليه مكانته السابقة في نفسها، ولا أن يضرّ بمصلحة كولونيل براندون.

ولو أن السيدة داشوود سمعت كابنتها قصة ولبي منه هو نفسه - لو أنها شاهدت حزنه وألمه - وتأثرت بنظراته ولهجة حديثه، لكان من المحتمل أن يزداد عطفها عليه، ولكن إلينور لم تستطع ولم ترغب أن تثير في غيرها بالسرد التفصيلي، ما أثاره حديث ولبي في نفسها من مشاعر في بداية الأمر. ذلك أنّ تفكيرها زاد من رصانة رأيها وحمَلها على إحسان الظنّ بولبي. لذلك أرادت أن تقتصر على ذكر الحقائق المجرّدة، وتكشف عن الوقائع التي ترجع في الحقيقة

إلى أخلاقه دون أيّ تزويق من العطف أو الحنان، من شأنه أن يضلل الأذهان.

وعندما اجتمع شملهن جميعاً في المساء، وأخذت مريان تتحدث عنه من تلقاء نفسها مرة أخرى. وكانت أفكارها القلقة المضطربة التي استغرقت فيها بعض الوقت من قبل وهي جالسة، وتورّد وجناتها وهي تتكلم، وتهدّج صوتها - تدلّ بوضوح على أن هذا الحديث كلّفها بعض الجهد.

قالت: «أحب أن أؤكد لكما أنني أنظر الآن إلى كلّ شيء، على نحو ما ترغبان فيه».

وهمَّت السيدة داشوود أن تقاطعها في الحال بحنان يهدئ الأعصاب، لولا أن إلينور أشارت إليها فلزمت الصمت، وكانت إلينور تريد بالفعل أن تسمع رأي أختها النزيه. واستطردت مريان تقول بتؤدة:

«سرَّني كثيراً ما أخبرتني به إلينور صباح اليوم. لقد سمعت الآن تماماً ما أردتُ أن أسمعه». ثم تلاشى صوتها بضع دقائق، ولكنها أفاقت من غشيتها فأضافت بلهجة أهدأ من ذي قبل: «أنا أشعر الآن بالارتياح التام، ولا أريد أي تغيير في حياتي. ولم يكن من الممكن أن أشعر بأية ثقة فيه أو تقدير له. وما من شيء كان يمكن أن يُزيل ذلك من نفسي».

فصاحت أمها: «أعرف ذلك - أعرف ذلك. سعيدة مع رجل فاجر! مع رجل أساء إلى أعز صديق وخير إنسان؟ كلا! - عزيزتي مريان لم تؤتِ قلباً يمكن أن يشعر بالسعادة مع مثل هذا الرجل! فضميرها وضميرها الحساس كان سيشعر بكلّ ما كان ينبغي أن يشعر به زوجها».

وقالت إلينور: «إنك تنظرين إلى الأمر كما يجب أن ينظر إليه تماماً أي إنسان طيب القلب سليم العقل. وربما رأيت كما أرى أنا - لا في هذا الأمر فحسب، بل في أمور أخرى كثيرة - من الأسباب ما يحملك على الاعتقاد بأنّ زواجك كان سيوّرطك لا محالة في متاعب وآلام لا يخفّف منها إلا قليل من الحب من جانبه، وإن كان هذا القليل محلّ شك كبير. فمن المؤكد أنك لو كنتِ تزوجته لذقتِ مرارة الفقر على مرّ الأيام، فمن المسلَّم به أنه رجل مسرفٌ باعترافه هو نفسه، وكل تصرفاته تنبئ بأنه لا يفقه معنى لكلمة إنكار الذات. ومن المؤكد أن مطالبه - بالإضافة إلى قلّة خبرتك - التي تستنزف دخلاً ضئيلاً - وضئيلاً جداً كانت ستجلب عليك ضروباً من الفاقة والعوز، يضاعف من ألمها أنك لم تجربيها ولم تخطر ببالك من قبل، وأنا أعلم أن شعورك بالكرامة والأمانة كان سيدفعك حين تشعرين بسوء حالك إلى الاقتصاد بقدر ما في وسعك. وربما سمح هو لك بذلك طالما كنتِ تقتصدين من متعك، ولكن إذا جاوزت ذلك النطاق - ومهما راعيت من اقتصاد فهل يكفي ذلك لصدّ تيار الخراب الذي بدأ قبل زواجك؟ وحاولت أن تقتصدي من مُتَعِه ولذاته هو - مهما يكن ذلك في حدود الاعتدال ألا يخشى أن تحمليه على النفور منك، والندم على الزواج الذي ألقى به في هذه المآزق، بدلاً من أن تحملي رجلاً أنانياً كهذا على الموافقة على هذا الاقتصاد؟».

فارتعشت شفتا مريان وردّدت كلمة «أناني» بلهجة معناها «هل تعتقدين حقاً أنه رجل أناني؟» فأجابت إلينور: «إن جميع تصرفاته من البداية إلى النهاية قامت على الأنانية. فالأنانية هي التي جعلته يلهو بحبك، وهي التي دفعته حينما أحبّ غيرك إلى تأجيل الاعتراف

بهذا الحب، ثم هي التي حملته أخيراً على الهروب من بارتون. لقد كان رائده في كلّ ذلك هو متعته الخاصة.

«هذا صحيح. لم تكن سعادتي قط هي هدفه».

واستطردت إلينور: «إنه يندم الآن على ما فعل. ولماذا يندم عليه؟ لأنه وجد أنه لم يحقق غرضه. لم يحقق له السعادة. فظروفه المالية غير مرتبكة الآن ولا يعاني شيئاً من ذلك ولكنه يرى أنه تزوج امرأة أقل منك أنساً ولطفاً. ولكن هل يفهم من ذلك أنه لو كان تزوجك لكان سعيداً؟ إن المتاعب كانت ستختلف، كان سيقاسي المتاعب المالية التي لا يقاسيها الآن لأنها قد زالت. كان سيتزوج امرأة لا يشكو من طباعها وأخلاقها، ولكنه كان سيشكو دائماً من الحاجة والفاقة. وربما لم يلبث أن يرى أن المزايا العديدة لامتلاك ضيعة خالية من الديون والحصول على دخل طيب ألزم بكثير، حتى للسعادة المنزلية، من امرأة لا تمتاز إلا بكرم الأخلاق».

قالت مريان: «لا ريب لدي في ذلك. ولست أندم على شيء - على شيء إلا حماقتي».

فقالت السيدة داشوود: «بل قولي حماقة أمي يا ابنتي. لا ريب أنها مسؤولة».

ولم تشأ مريان أن تسمح لأمها بالاسترسال في ذلك. وارتاحت إلينور لشعور كلّ منهما بخطئها، فأرادت أن تتجنب أي حديث في الماضي من شأنه أن يؤلم أختها، فتابعت الكلام في الموضوع الأول، واستطردت من فورها:

«أعتقد أن هناك ملاحظة واحدة يمكن استخلاصها من القصة كلها - وهي أن مشاكل ولبي قد نشأت كلها من الجريمة الأولى التي ارتكبها في حقّ الفضيلة، وهي مسلكه بإزاء إليزا - وليامز. لقد

كانت هذه الجريمة هي مصدر كلّ جريمة صغرى ومصدر متاعبه الحالية كلها».

فتأثرت مريان لهذه الملاحظة كلّ التأثر وأبدت موافقتها عليها. وحملت هذه الملاحظة أمها على تعداد مزايا كولونيل براندون والأضرار التي لحقت به، بلهجة حماسية يمليها الغرض والصداقة معاً. ولكن ابنتها لم يبدُ عليها أنها سمعت كثيراً ممّا قالته.

ورأت إلينور كما توقعت - أن مريان لم تزدد قوة في اليومين التاليين أو الأيام الثلاثة التالية، كما حدث من قبل. ولكنها اعتقدت أن الزمن كفيل بتحسين صحتها طالما ظلّت قوية العزيمة، وحاولت أن تبدو مستبشرة الوجه ناعمة البال».

وعادت مرغريت فاجتمع شمل الأسرة مرة ثانية، واستقر أفرادها في المنزل الريفي في هدوء. وإذا لم يواصلن دراساتهن المعتادة بنشاط كما فعلن عند قدومهن إلى بارتون أول مرة، فقد اعتزمن مواصلتها بنشاط في المستقبل.

وتاقت إلينور إلى معرفة بعض الأخبار عن إدوارد. ولم تكن قد سمعت عنه شيئاً، منذ مغادرتها لندن، أو عرفت شيئاً جديداً عن خططه، أو خبراً مؤكداً عن مسكنه الحالي. وقد تبادلت بعض الخطابات مع أخيها على أثر مرض مريان، ووردت الجملة الآتية، في أول خطاب أرسله جون: «لا نعرف شيئاً عن صاحبنا إدوارد المسكين، ولا يمكن تحري الأخبار في هذا الموضوع المحظور، ولكن المفهوم أنه لا يزال في أكسفورد». وهذا هو كلّ الخبر الذي عرفته عن إدوارد من طريق المكاتبة، لأنه لم يرد أي ذكر لاسمه في الخطابات التالية. على أنه لم يقدّر لها أن تجهل أخباره زمناً طويلاً.

فقد أرسلن الخادم صباح ذات يوم إلى أكستر في مهمة خاصة. وبينما كان يقوم بالخدمة أمام المائدة، وأجاب عن أسئلة سيدته بشأن مهمته، أفضى بما يأتي من تلقاء نفسه:

«أظن أنك تعرفين يا سيدتي أن السيد فيرارز قد تزوج».

ففزعت السيدة داشوود فزعاً شديداً، وصوّبت نظرها إلى إلينور، فرأتها شاحبة الوجه، فارتمت في مقعدها مغشياً عليها.

ونظرت السيدة جننجز من فورها في الاتجاه نفسه، وهي تجيب عن سؤال الخادم، فذعرت حين نظرت إلى وجه إلينور وعرفت كم يعتمل في نفسها من لواعج الأسى. ولم تدرِ بعد لحظة، وقد ساءها حال مريان - أي البنتين أولى برعايتها.

وفهم الخادم أن الآنسة مريان أصيبت بمرض، ففطن إلى استدعاء إحدى الخادمات، فحملتها بمساعدة السيدة داشوود إلى الحجرة الأخرى، وأفاقت مريان من غشيتها حينئذٍ، فتركتها أمها في رعاية مرغريت والخادمة، وعادت إلى إلينور التي لم تزل مشدوهة، ولكنها استعادت رشدها وصوتها بحيث شرعت في سؤال توماس عن مصدر الخبر، ولكن السيدة داشوود تولّت عنها عبء الأسئلة كلها، وبذلك استفادت إلينور من معرفة الخبر، دون أن تبذل مجهوداً في السؤال عنه.

«مَن أخبرك يا توماس أن السيد فيرارز قد تزوج؟».

«رأيت السيد فيرارز بنفسي صباح اليوم في أكستر، كما رأيت امرأته الآنسة ستيل. كانا واقفين في عربة لدى باب «نزل لندن الجديد» عندما ذهبت إلى المنزل لأوصل رسالة إلى سالي المقيمة في بارتون بارك إلى أخيها، وهو من سعاة البريد واتفق أن رفعتُ بصري عندما مررتُ بالعربة، فوقع على الآنسة ستيل الصغرى

فرفعت قبعتي، فعرفتني ونادتني وسألت عنك يا سيدتي وعن الآنسات الصغيرات، ولا سيما الآنسة مريان وأمرتني أن أبلغك أجمل تحياتها وتحيات السيد فيرارز وأسفهما لأنه لم تتح لهما الفرصة لزيارتك، إذ يزمعان السفر على عجل لقضاء بعض الوقت ولكنهما عندما يعودان فسيأتيان ليزوراك.

«ولكن هل أخبرتك يا توماس أنها تزوجت؟».

«نعم يا سيدتي. لقد ابتسمت، وقالت: إنها غيّرت اسمها منذ أن قدمت إلى هذه الجهة. وكانت دائماً فتاة بشوشاً صريحة مؤدبة. ولذلك تبسّطت معها وتمنيت لها السرور».

«هل كان السيد فيرارز في العربة معها؟».

«نعم يا سيدتي رأيته فيها مستنداً إليها بظهره، ولكنه لم يرفع بصره. ولم يكن رجلاً يحسن الحديث قط.

واستطاعت إلينور أن تفسر بقلبها السبب في أنه لم يجلس إلى الأمام وربما ذهبت السيدة داشوود إلى هذا التفسير نفسه».

«ألم يكن في العربة شخص آخر؟».

«كلا يا سيدتي، لم يكن فيها سواهما».

«هل تعرف من أين قدِما؟».

«قدما من لندن مباشرة كما أخبرتني الآنسة لوسي - السيدة فيرارز».

«وهل هما مسافران جهة الغرب؟».

«نعم يا سيدتي. ولكنهما لن يقيما هناك زمناً طويلاً، بل سيعودان قريباً وحينئذٍ يأتيان هنا».

ثم نظرت السيدة داشوود إلى ابنتها! ولكن إلينور كانت تعرف أنهما لن يأتيا، ورأت إصبع لوسي في الرسالة كلها، وكانت واثقة

أن إدوارد لن يقترب منهن قط. وأخبرت أمها في صوت خافت أنه يحتمل أن يذهبا إلى السيد برات بالقرب من بليموث.

وبدا أن خبر توماس قد انتهى، ولكن إلينور كانت ترغب في المزيد كما يبدو.

«هل ودّعتهما عند سفرهما قبل حضورك؟».

كلا يا سيدتي. كانت الجياد خارجة لتوّها. ولكني لم أمكث أكثر من ذلك لأني خشيت أن أتأخر».

«هل كانت السيدة فيرارز تبدو في صحة جيدة؟».

«نعم يا سيدتي. لقد قالت لي: إن صحتها على ما يرام. وفي نظري أنها كانت دائماً - فتاة جميلة جداً - وبدا أنها في غاية السرور».

ولم تستطِع السيدة داشوود أن تفكّر في أي سؤال آخر. ثم لم تلبث أن أمرت توماس بالانصراف كما أمرت برفع المائدة بعد أن لم تصبح إليهما حاجة على السواء، فقد أرسلت مريان تقول: إنها لن تتناول المزيد من الطعام، وكذلك عرفت عنه السيدة داشوود وإلينور، ومن حق مرغريت أن تعدّ نفسها سعيدة الحظ لأنها لم تضطر قبل ذلك إلى العزوف عن طعام الغداء إذا لم تعانِ من القلق ما عانته أختاها أخيراً، ولم يحدث لها ما يحملها على العزوف عن الطعام أكثر من مرة كما حدث لأختها.

وجيء بالفاكهة والنبيذ وجلست السيدة داشوود وإلينور على انفراد، ولاذت كل منهما بالصمت والتفكير فترة طويلة وخشيت السيدة داشوود أن تنبس بكلمة، ولم تجسر أن تقدم أي عزاء لإلينور، ثم تبيّنت حينئذٍ أنها أخطأت حين صدقت وصف إلينور لحالها، وفهمت أن إلينور، روت لها قصتها مخفّفة في ذلك الحين

حتى لا تزداد حزناً على حزن، إذ كانت السيدة داشوود حزينة على مريان حينئذٍ، وتبيّنت أنها انخدعت بما أبدته ابنتها من حرص على رعاية شعورها، فاعتقدت أن الحب الذي كانت تفهمه جيداً فيما مضى هو في الواقع أقل ممّا كانت تعتقد أو أقل ممّا هو عليه كما ثبت الآن، وخشيت أن تكون باعتقادها هذا قد أساءت إلى إلينور، واستهانت بها، بل قست عليها، كما خشيت أن تكون محنة مريان - لأنها محنة ثابتة ماثلة أمام عينها - قد استأثرت بحنانها، وأنستها أنه ربما كان لها في إلينور بنت تقاسي من الآلام ما تكاد تقاسيه مريان، ولكن من المحقّق أنها تقاسيه على نحو أقل استفزازاً للنفس، وأكثر صبراً وجلداً.

مكتبة 707
سُر مَن قرأ

الفصل الثامن والأربعون

أدركت إلينور الآن الفرق بين توقّع حادث مؤلم، مهما تصوّر المرء أنه محقّق الوقوع، وبين الحقيقة نفسها. وتبيّنت الآن أنها كانت تتوقع دائماً - على كره منها - أن شيئاً ما سيحدث ليمنع زواج إدوارد من لوسي، طالماً بقي هو أعزب، وأنه قد يحدث ما يهيئ أسباب السعادة للجميع، كأن يقرّر إدوارد العدول عن هذا الزواج، أو يتوسّط لديه بعض الأصدقاء، أو ينتظر هو سنوح فرصة أفضل لإعداد منزل الزوجية. ولكن إدوارد تزوج الآن بالفعل، فأقبلت على قلبها تعنّفه لما خامره من الأمل الذي ضاعف من إيلام الخبر.

وقد اعتراها شيء من الدهشة في بادئ الأمر لإسراعه بالزواج قبل أن ينخرط في سلك الكهنوت (كما كانت تتصور) وبالتالي قبل أن يظفر بالأبرشية ولكنها سرعان ما رأت أنه من المحتمل أن تكون لوسي - ببُعد نظرها وحرصها على التعجيل بالنظرية - قد تقاضت عن كل شيء إلّا خطر التأجيل، فتزوجا في لندن وأسرعا بالسفر إلى منزل خالها. ترى ماذا كان شعور إدوارد عندما رأى نفسه على مسيرة أربعة أميال من بارتون، وعندما رأى خادم أمها، وعندما سمع رسالة لوسي!

وظنّت أنهما سيستقران قريباً في ديلافورد - المكان الذي تحالف كثير من الأسباب لتحملها على الاهتمام به - المكان الذي تتمنى أن تراه، ولكنها ترغب في تجنبه.

وتصوّرتهما في منزل الأبرشية بعد لحظة، فرأت في لوسي المدبرة البارعة النشيطة التي تجمع في وقت واحد بين الرغبة في المظهر الأنيق، والرغبة في الاقتصاد الشديد، وتخجل من أن تتهم بنصف ما تراعيه من ضروب الاقتصاد، وتبتغي مصلحتها في كلّ فكرة، فتخطب ودّ كولونيل براندون والسيدة جننجز، وكل صديق ثري. أما إدوارد فلم تدرِ ماذا تتصوّره، ولا ما تتمنى أن تتصوره - أو غير سعيد - ولم يسرها شيء - فأعرضت عن التفكير في تصويره.

وأخذت إلينور تمنّي نفسها بأن أحد أقاربهن في لندن سيوافيهن بالخبر، ويقدّم لهن معلومات أوفى، ولكن مرّ يوم في إثر يوم، ولم يرد خطاب ولا خبر، فأخذت تنحي باللائمة على كلّ صديق غائب، وإن لم تقطع بأنه يستحق اللوم، وتتهمه بعدم الاهتمام أو الكسل.

وسألت أمها: «متى تكتبين لكولونيل براندون يا أماه؟» وكان هذا السؤال منبعثاً من لهفتها إلى سماع شيء جديد.

«كتبت له يا حبيبتي في الأسبوع الماضي، وآمل أن أراه لا أن أتلقى منه خطاباً مرة أخرى. لقد ألححت عليه في الحضور إلينا. ولن أدهش إذا زارنا اليوم أو غداً أو في أي يوم آخر».

وكان هذا يعدّ خبراً جديداً وأملاً جديراً بالتطلع إليه، لأن كولونيل براندون سيحمل معه لا محالة بعض الأنباء.

وما أن جزمت بذلك حتى لاحَ لها شبح رجل يمتطي جواداً، فاتجه نظرها إلى النافذة. ووقف الرجل عند الباب. كان رجلاً،

كان هو كولونيل براندون نفسه. الآن ستسمع منه المزيد، فارتعدت لما توقّعت سماعه. ولكن لم يكن هو كولونيل براندون - لا هيئته - ولا طوله. لو جاز لها أن تقول شيئاً، لقالت إنه إدوارد. أعادت النظر. لقد ترجّل لتوه. لقد صدق ظنّها - فقد كان هو إدوارد. ابتعدت عن النافذة وجلست «لقد جاء من منزل السيد برات بقصد زيارتنا، فلأتذرع برباطة الجأش، فلأضبط النفس».

ورأت بعد لحظة أن أمها ومريان شعرتا بخطأ ظنهما، ولاحظت أنه قد امتقع لونهما، وأنهما ينظران إليها وتتهامسان ببعض العبارات، وودّت لو استطاعت أن تتكلم، وأن تفهمهما أنها ترجو ألا يظهر في سلوكهما نحوه، ما يُشعر بالفتور أو الاستخفاف، ولكنها لم تستطع أن تنبس ببنت شفة، واضطرت أن تترك كلاً منهما تتصرف بحسب ما يتراءى لها.

ولم يرتفع صوت بالكلام، بل انتظر الجميع حضور الزائر، وسمعن وقع قدميه على الطريق المفروش بالحصباء، وما هي إلا لحظة حتى كان في الدهليز، وبعد لحظة كان أمامهن.

ولم يكن وجهه عند دخول الحجرة ينمّ عن شدّة السرور حتى بلقاء إلينور. كان وجهه شاحباً من الاضطراب، وبدا عليه وكأنه يتوجّس خيفة من سوء الاستقبال، ويشعر أنه لا يستحق استقبالاً كريماً. ولكن السيدة داشوود استقبلته بنظرة تدل على السرور المصطنع، ومدّت يدها إليه، ورحَّبت به، وذلك نزولاً - كما اعتقدت - عند رغبة بنتها، لأنها اعتزمت في قرارة نفسها حينئذٍ أن تسترشد برأيها في كل شيء.

فتغير لونه، وتمتم بجواب غير مفهوم، وتحركت شفتا إلينور مع شفتي أمها. وعندما انتهت لحظة الاستقبال تمنَّت لو كانت صافحته

هي أيضاً. ولكن الأوان كان قد فات. وبوجه يريد أن يكون طلقاً جلست مرة أخرى، وتحدثت عن الطقس.

واحتجبت مريان بقدر الإمكان عن الأنظار لتخفي ألمها. وكانت مرغريت تفهم بعض القضية لا كلها فرأت من الواجب أن تلتزم الوقار، فجلست بعيداً عنه بقدر الإمكان، والتزمت الصمت الشديد.

ولما فرغت إلينور من إبداء سرورها بجفاف الجو في هذا الفصل حدث صمت رهيب، ووضعت السيدة داشوود نهاية لهذا الصمت، لأنها شعرت أنه يجب عليها أن تعبّر عن رجائها أن يكون قد ترك السيدة فيرارز في صحة طيبة.

فأجاب بالإيجاب بلهجة سريعة.

ثم ساد الصمت مرة أخرى.

واعتزمت إلينور أن تحاول الكلام، وإن خشيت أن يرتفع رنين صوتها فقالت:

«هل السيدة فيرارز في لونجستيبل؟».

فأجاب بلهجة الدهشة «في لونجستيبل! كلا، إن أمي في لندن».

فقالت إلينور: وقد رفعت بعض الشغل من المائدة: «أريد أن أسأل عن السيدة إدوارد فيرارز».

ولم تجرؤ أن ترفع بصرها، ولكن كلاً من أمها ومريان سلَطتا نظرهما عليه فتغير لونه وبدا عليه الارتباك ونظر نظرة المرتاب وقال بعد تردد:

«لعلك تريدني - تريدين السيدة - السيدة روبرت فيرارز».

فردَّدت مريان وأمها لهجة تنمّ عن أعظم دهشة «السيدة روبرت فيرارز؟!».

ومع إن إلينور لم تستطع الكلام فإن عينيها انعقدتا عليه بالدهشة واللهفة نفسهما. فنهض من مقعده، وسار إلى النافذة، والظاهر أنه لم يدرِ ماذا يفعل وتناول مقصاً موضوعاً عليها وبينما أتلف المقصّ وغلافه بأن مزق الأخير إرباً وهو يتكلم، قال بلهجة سريعة:

«لعلك لا تعلمين - ربما لم تسمعي أن أخي تزوج أخيراً - الصغرى - الآنسة لوسي ستيل».

وردّد الجميع كلماته بدهشة يقصر دونها الوصف ما عدا إلينور التي جلست وقد حنت رأسها على الشغل في حالة من الاضطراب جعلتها لا تدري أين هي.

قال: «نعم، تزوجا في الأسبوع الماضي، وهما الآن في دولش».

ولم تستطِع إلينور الجلوس أكثر من ذلك. وكادت تجري من الحجرة، وما إن أغلقت الباب حتى بكت من الفرح الذي ظنت بادئ الرأي أنه لن ينقطع أبداً. ورآها إدوارد الذي كان حتى الآن ينظر في كل مكان إلا إليها، تسرّع بالخروج، وربما رأى - أو سمع - بكاءها لأنه لم يلبث أن استغرق في طوفان في أحلام اليقظة لم تستطع كلمات السيدة داشوود أن تقطعها، لا هي ولا أسئلتها ولا حديثها الودي. وأخيراً - وبدون أن يتفوه بكلمة - غادر الحجرة، وسار صوب القرية - تاركاً إياهن في أعظم دهشة وحيرة لمثل هذا التغير العجيب المفاجئ الذي طرأ على موقفه - حيرة لم يجدن سبيلاً للتقليل منها إلا بالحدس والتخمين.

الفصل التاسع والأربعون

كان من المحقَّق أن إدوارد أصبح طليقاً، على الرغم من أن أفراد الأسرة جميعاً لم يستطعن في الظاهر تعليل ذلك. وكان من السهل أن يعرف الجميع الغرض الذي يستخدم فيه هذه الحرية، لأنه بعد أن عرف مزايا الخطبة الطائشة التي عقدها بدون موافقة أمه منذ أكثر من أربع سنوات كان أقلّ ما ينتظر منه في حالة فشل هذه الخطبة أن يعقد خطبة أخرى من فوره.

والواقع أن مهمته في بارتون كانت مهمة بسيطة. لم تكن إلّا ليسأل إلينور أن تتزوجه. وإذا علم أنه لم يكن عديم الخبرة في هذا الأمر فربما كان من الغريب أن يشعر بالحرج أو الارتباك كما حدث في الحالة الراهنة، وأن يكون في حاجة إلى التشجيع والهواء النقي.

على أنه لا حاجة بنا إلى ذكر كيف أقدم على هذا القرار ومتى سنحت له الفرصة لتنفيذه، ولا بأي لهجة أعرب عن قصده، ولا كيف تمّ استقباله.

وكل ما يمكن أن يُقال هو هذا: عندما جلسن جميعاً إلى المائدة عند الساعة الرابعة بعد وصوله بنحو ثلاث ساعات ظفر بزوجته، وحصل على موافقة أمها. ولم يعرِّف عن حبّه بلهجة تدل على نشوة الطرب فحسب، بل لقد كان في نظر العقل والحقيقة

واحداً من أسعد الناس. والواقع أنه كان يشعر بسرور غير عادي إذ كان يشعر بأكثر من نشوة الانتصار العادي التي يشعر بها مَن ظفر برضاء محبوبته، وهو الأمر الذي أنعم قلبه بالسرور، ورفع من روحه المعنوية. لقد فسخت الخطبة دون أن يشعر بشيء من وخز الضمير، وتحرَّر من الأغلال التي كانت علة شقائه، من امرأة نفر قلبه منها منذ زمن طويل، وسما في الحال إلى كنف أخرى يشعر في ظلها بالطمأنينة التي لا شكّ أن كاد يقطع الأمل منها بمجرد أن تاقت نفسه إليها. وتجلى هذا التغيير بجلاء على وجهه الذي تألق بالبشر والسرور على نحوٍ لم يشهده أصدقاؤه من قبل.

ثم فتح قلبه لإلينور واعترف بكل عيوبه وأخطائه، وتحدّث عن محبته الصبيانية للوسي بالوقار الفلسفي الذي يليق بسن الرابعة والعشرين.

قال: «كان حباً طائشاً باطلاً من جانبي، نشأ عن جهلي بأحوال الدنيا - وعن البطالة. ولو أن أمي أتاحت لي مهنة تشغل وقتي عندما بلغت الثامنة عشرة وخرجتُ من كنف السيد برات لما حدث هذا قط فيما أظن، بل فيما أعتقد، لأنه على الرغم من أني غادرت لونجستيبل وأنا أشعر بحب جارف لابنة أخته حسبما كنت أعتقد حينئذٍ، فإنه لو كان لي مهنة أو عمل يشغل وقتي، ويبعدني بضعة شهور، لنسيت هذا الحب عاجلاً، ولا سيما إذا اختلطت بالناس وهو أمر لم يكن منه بدّ في تلك الحالة. ولكن بدلاً من أن يكون لي عمل أزاوله - بدلاً من أن تختار لي أمي مهنة أمارسها أو تسمح لي باختيارها، عدتُ إلى منزلي لأعيش في بطالة تامة. وظللت طول السنة الأولى بعد ذلك لا أجد حتى هذا العمل الأسمى ألا وهو الالتحاق بالجامعة، إذ إني لم ألتحق بأكسفورد إلا حينما بلغت

التاسعة عشرة. ولذلك لم أجد في العالم عملاً أزاوله إلا التفكير في الحب. ولما كانت أمي لا توفر لي أسباب الراحة في منزلي وكنت لا أجد صديقاً أو رفيقاً في أخي، وأكره التعرُّف إلى أي صديق جديد، كان من الطبيعي أن أختلف إلى لونجستيبل حيث أشعر بأني بين أهلي وعشيرتي وأنزل بينهم على الرحب والسعة، ولذلك قضيت معظم وقتي هناك من سن الثامنة عشرة إلى التاسعة عشرة. وكانت لوسي تغمرني بلطفها وكرمها، وكانت وسيمة المحيا أيضاً، أو هذا ما اعتقدته على الأقل حينذاك. ولم تكن لي خبرة بالنساء، فلم أستطع أن أقارن بينها وبين غيرها، ولم أرَ عيباً من عيوبها. وإذا روعيت جميع الاعتبارات فأرجو - على الرغم من أن هذه الخطبة كانت ضرباً من الحماقة منذ عقدها - ألّا يظن أن هذه الحماقة كانت في ذلك الوقت أمراً يتنافى مع طبيعة البشر أو ذنباً لا يغتفر.

وكان التغيير الذي أحدثته بضع ساعات في نفوس آل داشوود وسعادتهن كبيراً - كبيراً جداً - إلى حدّ ينبئ بأنهن جميعاً سيتمتعن بليلة ساهرة. واستبدّ الفرح بالسيدة داشوود حتى شملتها الحيرة، فلم تدرِ كيف تُوْفِي إدوارد حقه من الحب، ولا كيف تُوْفِي إلينور حقها من الثناء، ولا كيف تعرب عن شكرها لتخلصه من تلك الخطبة مع الاحتفاظ بكرامته، ولا كيف تتيح لهما الفرصة ليتجاذبا أطراف الحديث في حرية تامة، وتنعم في الوقت نفسه - كما كانت تتمنى - برؤيتهما والاجتماع معهما.

أما مريان فلم تستطع أن تعبر عن سعادتها إلا بالدموع، وكانت تعقد المقارنات تارة وتشعر بالأسى تارة أخرى. ومع أن فرحها كان صادقاً كحبها لأختها، فإنه كان قوياً إلى حدٍّ لا يمكن التعبير عنه بالبِشْر أو الكلام.

ولكن إلينور - كيف يمكن وصف شعورها؟ - لقد انتابتها منذ اللحظة الأولى التي علمت فيها بزواج لوسي من شخص آخر، وأن إدوارد قد فارقها، إلى اللحظة التي تلت ذلك مباشرة والتي حقق فيها إدوارد أمله - جميع ألوان الشعور إلا الشعور بالطمأنينة. ولكن حينما انقضت اللحظة الثانية، وحينما وجدت أنّ كل شك وكل قلق قد زال، وقارنت حالها بما كان عليه أخيراً، ورأت أنه تخلَّص بطريقة شريفة من خطبته السابقة، ورأت أنه بادر بالانتفاع من هذا الخلاص فتحدّث إليها وأفضى لها بما يكنّه من حب رقيق دائم على نحو ما كانت تظن من قبل - غمرتها نشوة الشعور بالسعادة والهناءة، وقضت عدة ساعات حتى استرد عقلها رزانته، وقلبها طمأنينته على الرغم من أن النفس الإنسانية تألف بسهولة التغيُّر إلى الأحسن.

ثم تقرر أن يبقى إدوارد في المنزل الريفي أسبوعاً على الأقل لأنه من المستحيل - برغم مشاغله الأخرى - أن يكفي أقل من أسبوع حتى يتمتع برؤية إلينور، ويقول نصف ما يجب أن يُقال عن الماضي والحاضر والمستقبل، فإنه على الرغم من أنّ أي شخصين عاقلين يستطيعان - إذا انهمكا في حديث متواصل بضع ساعات - أن يبحثا من الموضوعات المشتركة أكثر مما يمكن بحثه في العادة، فإنّ أمر العاشقين يختلف عن ذلك، إذ لا يكاد ينتهي الحديث بينهما حتى يُعاد عشرين مرة على الأقل. وكان زواج لوسي أول ما تحدّث فيه العاشقان بالطبع، كما كان مثاراً للدهشة التي لا تنقطع والتي لها ما يبررها. وكانت معرفة إلينور الخاصة بكل من الزوجين من الأمور التي جعلت هذا الزواج يبدو في نظرها من كلّ الوجوه من أغرب ما سمعت من الحوادث التي يحار العقل في تعليلها. فلم تستطع أن تفهم كيف التقى الزوجان ولا الإغراء الذي جذب روبرت إلى

الزواج من لوسي التي سمعته يتحدث عن جمالها بدون أن يبدي أي إعجاب. وهي فترة كانت مخطوبة لأخيه من قبل وبسببها نبذ هذا الأخ من الأسرة. لقد كان هذا الزواج أمراً ينشرح له صدرها، ويسخر منه خيالها، ويحار فيه عقلها.

وكان التعليل الوحيد الذي استطاع به إدوارد أن يفسر هذا الأمر هو أنه عندما التقيا، عرضاً لأول مرة، تملّقت لوسي غروره، وأفضى هذا شيئاً فشيئاً إلى ما حدث بعد ذلك. وهنا تذكرت إلينور أن روبرت سبق أن أخبرها في هاري ستريت بما كان يمكن أن تؤدي إليه وساطته في مسألة أخيه لو أنها تمَّت في الوقت المناسب، فردَّدت ذلك على مسامع إدوارد.

فما هو إلّا أن قال إدوارد: «ذلك أشبه بأخلاق روبرت تماماً» ثم أردف «وربما كان ذلك في رأسه عندما تعارفا أول مرة، وربما لم تفكّر لوسي بادئ الرأي إلّا في حمله على بذل مساعيه الحميدة لصالحي، وربما نشأت مقاصد أخرى بعد ذلك».

على أنه لم يدرِ كم دام الاتصال بينهما، لأنه لم يكن لديه في أكسفورد - التي لبث فيها باختياره منذ أن غادر لندن - وسيلة لتلقي أخبارها إلا منها هي نفسها، وكانت خطاباتها حتى اللحظة الأخيرة لا تقل في عددها ولا في لهجتها الودية عمّا جرت به العادة. ولذلك لم تداخله أدنى ريبة تعدّ ذهنه لما جرى. وأخيراً عندما برح الخفاء في خطاب أرسلته هي نفسها ظلّ كالمشدوه موزعاً بين العجب والهلع والفرح للخلاص منها، وألقى الخطاب إلى إلينور:

سيدي العزيز

لما كنت أعتقد أن حبك قد زال من قلبي منذ زمن طويل، فقد رأيت نفسي في حلٍّ من أن أسبغ حبي على شخص آخر، وليس عندي

شك في أني سأشعر بالسعادة معه، كما ظننت فيما مضى أني سأشعر بالسعادة معك. ولكني أستنكف أن أقبل يد إنسان، وقلبي ملك لآخر. إنني أتمنى بإخلاص أن توفَّق في اختيار زوجتك. ولن يقع علي اللوم إذا لم نظلّ على الدوام صديقين كريمين كما تقضي به صلة القربى التي تربط بيننا. وأستطيع أن أقول وأنا مطمئنة: إنني لا أضمر لك سوءاً. وأنا واثقة أنك ستكون كريماً فلا تسيء إلينا. استولى أخوك على كل حبي. وإذ كان أحدنا لا يستطيع أن يعيش بدون الآخر فقد عدنا لتونا من المذبح، ونحن الآن في طريقنا إلى دولش، لنقضي فيها بضعة أسابيع لأن أخاك يتوق كثيراً إلى رؤية هذا المكان. ولكني رأيت أولاً أن أبعث إليك بهذه السطور القليلة وسأظل دائماً

صديقتك وأختك المخلصة التي تحبّ لك الخير

لوسي فيرارز

لقد أحرقتُ جميع خطاباتك وسأردّ الصورة عند سنوح أول فرصة. أرجو أن تحرق خطاباتي - ولكن أرحب بأن تحتفظ بخاتمي وخصلة شعري.

فقرأت إلينور الخطاب وأعادته إليه دون تعليق.

قال إدوارد: «لن أسألك عن رأيك في إنشائه. وما كنت لأطلعك في الأيام الماضية على أي خطاب منها. إنه قبيح جداً في حالة الزوجة! كم خجلت عندما قرأت الصفحات التي خطتها بيمينها! - وأنا أعتقد أن في وسعي أن أقول هذا هو أول خطاب تلقيته منها منذ أن نشأ بيننا هذا الحب الأحمق، يكفِّر مضمونه عن سيئات أسلوبه.

قالت إلينور، بعد أن أطرقت هنيهة: «كيفما كان الأمر، فقد تزوجا بالفعل، وجلبت أمك على نفسها أنسب عقاب لها، فالثروة التي وهبتها لروبرت - بسبب استيائها منك - مكَّنته من أن يختار زوجته كما يشاء، فكأنها رشت بالفعل أحد أولادها بألف جنيه في العام ليأتي الشيء نفسه الذي حرمت ابنها الآخر من الإرث لأنه كان ينوي أن يفعله. وأظن أنه لن يسوءها زواج روبرت من لوسي كما كان يسوؤها زواجك منها».

«سيسوؤها ذلك أكثر لأنها كانت تحب روبرت دائماً - سيسوؤها ذلك أكثر، ولأنها تحبه ستعفو عنه عاجلاً».

ولم يدرِ إدوارد حقيقة الحال بينهما في ذلك الوقت الراهن، لأنه لم يحاول الاتصال بأي فرد من أفراد أسرته حتى ذلك الوقت، فقد غادر أكسفورد في غضون أربع وعشرين ساعة بعد وصول خطاب لوسي، وإذا كان هدفه الوحيد هو سلوك أقرب طريق إلى بارتون فإنه لم يجد متسعاً للتفكير في أية خطة أخرى لا تمتّ بصلة للمهمة التي من أجلها سَلَكَ هذا الطريق. ولم يكن في وسعه أن يفعل أي شيء آخر حتى يتأكد من مصيره مع الآنسة داشوود. وكان يعتقد أنه إذا أسرع في السعي إلى معرفة هذا المصير، فإنه على العموم لن يلقى استقبالاً قاسياً جداً على الرغم من الغيرة التي داخلته يوماً ما من كولونيل براندون، وعلى الرغم من تواضعه في تقدير مواهبه، والأدب الذي يتحدث به عن شكوكه. وكان عليه أن يفصح عن رغبته، وفعلاً أفصح عنها بأسلوب جميل. أما ما يحتمل أن يقوله عن الموضوع بعد عام آخر فهو متروك لخيال الأزواج والزوجات.

وقد اتضح لإلينور بجلاء أنّ لوسي قصدت إلى الخداع والتنفس

عن حقدها عليه في الرسالة التي بلغتها توماس. والآن وقد عرف إدوارد أخلاقها، لم يصبح لديه شك في أنها فتاة تتصف بالخسّة وخبث الطوية. ومع أن عينيه قد تفتحتا منذ زمن طويل - حتى قبل أن يعرف إلينور - على جهلها وضيق أفقها فإنه كان يعزوهما إلى عدم تعليمها وكان يعتقد إلى أن وصله خطابها الأخير أنها فتاة رقيقة الطباع، طيبة القلب، وتحمل له كلّ الحب، وما من شيء سوى هذا الاعتقاد، كان يحُول بينه وبين إنهاء خطبتها التي ظلّت مصدراً دائماً لقلقه وأسفه، وذلك قبل أن ينكشف أمرها لأمه وتثير عليه ثائرتها بزمن طويل.

قال: «رأيت من واجبي - بصرف النظر عن شعوري - أن أخيِّرها بين استمرار الخطبة أو إنهائها حينما نبذتني أمي، وصار واضحاً أنه لا صديق لي في العالم يشدّ أزري. وفي مثل هذا الموقف الذي لا يبدو فيه ما يثير الطمع أو الغرور في نفس أي إنسان، هل يتسنى لي أن أظن حينما أصرَّت على مشاركتي في مصيري مهما كان بإلحاح وحماس شديدين أن هناك ما يحملها على ذلك سوى الحب الذي لا تشُوْبه أية شائبة من المصلحة أو الغرض؟ وحتى الآن لا يسعني أن أفهم الدافع لها إلى هذا الأمر، وما الفائدة التي تصوّرت أنها ستعود عليها من أن تتزوج رجلاً لا تكنّ له أدنى ذرة من الحب ولا يملك سوى ألفي جنيه في العالم. ولم يكن في وسعها أن تتوقع أن كولونيل براندون سيعطيني أبرشية».

«كلا، ربما ظنَّت أن شيئاً سيحدث لصالحك، وأن أسرتك قد تعطف عليك مع مرور الزمن. وعلى أيّ حال لم تخسر هي شيئاً باستمرار الخطبة لأنه ثبت أنها لم تمنعها من أن تحبّ غيرك، وتفعل ما تريد. وزواجها بك كان بلا شك يُكسبها حسن السمعة، وربما

أكسبها الاحترام بين صديقاتها، وإذا لم تكن هناك فائدة أخرى، فمن الخير لها أن تتزوجك بدلاً من أن تكون عزباء».

وسرعان ما اقتنع إدوارد بالطبع بأنّ سلوك لوسي أمر لا غرابة فيه على الإطلاق وأنه لا أقرب إلى بَدائه الأمور من الدافع الذي دفعها إليه.

وعابت عليه إلينور - بالقسوة نفسها التي يعيب بها النساء الحماقة التي تعدّ من فضائلهن - لأنه قضى وقتاً طويلاً معهن في نورلاند، كان يجب أن يشعر فيه بعدم الوفاء.

قالت: «كان مسلكك - بلا ريب - خاطئاً جداً لأنه - بصرف النظر عن اعتقادي الخاص - جعل أقاربنا يتصورون ويتوقعون ما لم يكن في استطاعتك أن تفعله، نظراً إلى الوضع الذي كنت فيه حينئذٍ».

ولم يستطع أن يدافع عن نفسه بشيء إلّا أنه كان لا يعرف قلبه، وأنه أخطأ في ثقته بخطبته.

«كنت من السذاجة بحيث ظننتُ أنه لا خطر في مجالستكِ وصحبتكِ، ما دمت قد وضعت ثقتي في امرأة أخرى. وأدركت أن معنى الخطبة هو أن أصون قلبي كما أصون شرفي. ثم شعرت بالإعجاب بك، ولكن قلت لنفسي ليس ذلك إلّا صداقة، ولم أدرِ أين وصلت إلى أن بدأت أقارن بينك وبين لوسي. وأظنّ أنني كنت مخطئاً بعد ذلك في إطالة الإقامة في سسكس وكانت الحجة التي أقنعت بها نفسي لا تخرج عن هذه الكلمات: إنّ الضرر واقع عليّ أنا. وأنا لا أضرّ إلا نفسي».

فابتسمت إلينور وهزّت رأسها.

وسرّ إدوارد عندما سمع بقرب زيارة كولونيل براندون للمنزل الريفي إذ كان يرغب في توثيق عرى الصداقة معه وأن تتاح له الفرصة لإقناعه بأنه لم يعُد مستاء لمنحه إياه أبرشية ديلافورد وقال: «من المؤكّد أنه يعتقد بعد الشكر الذي قدمته بطريقة غير كريمة أنني لم أغفر له هذه الهبة قط».

ثم أبدى هو نفسه دهشة لأنه لم يزر الأبرشية حتى الآن. ولكنه كان قليل الاهتمام بالأمر لدرجة أنه كان يدين لإلينور بكل ما يعرفه عن المنزل والحديقة والأرض وساحة الأبرشية وحالة البلاد ومقدار الشعور. وكانت إلينور قد سمعت الكثير عنها من كولونيل براندون وسمعته باهتمام كبير حتى أصبحت مَرجعاً في الموضوع.

بقيت بعد ذلك مسألة معلّقة لم يبت فيها، وعقبته لا بدَّ من تذليلها. لقد جمعتهما المحبة المتبادلة التي يتوّجها ما أعرب عنه أصدقاؤهما المخلصون من الرضا والاستحسان، وكانت معرفة كلّ منهما الوثيقة بالآخر تبشّر بأنهما سيعيشان في ظلّ السعادة. وكل ما كانا يحتاجان إليه هو أن يكون لهما دخل ينفقان منه. وكان دخل إدوارد ألفين من الجنيهات ودخلها ألفاً بالإضافة إلى دخل الأبرشية. وهذا كل ما يمكن أن يُقال أنهما يملكانه، لأنه كان من المستحيل أن تقدم لهما السيدة داشوود شيئاً. ولم تكن أواصر المحبة قد توثقت بينهما بحيث يستطيعان أن يعيشا في رغد بثلاثمائة وخمسين جنيهاً في العام.

ولم يقطع إدوارد الأمل في عطف أمه عليه، وكان يعتمد على هذا الأمل في زيادة دخله ولكن إلينور لم تعوّل على ذلك لأنها رأت أن زواجها بإدوارد معناه أنه لن يستطيع أن يتزوج من الآنسة مورتون، وأن أمه أثنت على اختياره لها بأنه أخفّ ضرراً من اختيار

لوسي، ولذلك خشيت أن جريمة روبرت لن تخدم أي غرض آخر سوى إثراء فاني.

وصل كولونيل براندون بعد أربعة أيام من وصول إدوارد، ليتمّ فرحة السيدة داشوود، ويوليها شرف استقبال المزيد من الأصدقاء الذين زاد عددهم - لأول مرة منذ إقامتها في بارتون - عمّا يتسع له المنزل، فتقرر أن يحتفظ إدوارد بميزة الزائر الأول، ولذلك كان كولونيل براندون يمشي كل ليلة إلى مسكنه في البارك ثم يعود في الصباح المبكر ليقطع، على العاشقين أول حديث لهما قبل طعام الفطور.

وكان كولونيل براندون قد قضى ثلاثة أسابيع في ديلافورد حيث كان عمله الوحيد - في ساعات المساء على الأقل - وتقدير عدم التناسب بين سن الست والثلاثين، وسن السابعة عشرة، ثم قدم إلى بارتون وهو في حالة نفسية سيئة لا يزيلها إلا نظرات مريان الحانية، واحتفاؤها بمقدمه، وكلمات أمها المشجعة. وقد سرى عنه عندما اجتمع بهؤلاء الأصدقاء، وسمع منهم كلمات الثناء. ولم يكن قد بلغه نبأ زواج لوسي، ولا يدري شيئاً عمّا حدث. وقضى الساعات الأولى من زيارته وهو يستمع ويتعجّب، وشرحت له السيدة داشوود كل شيء، ووجد أسباباً جديدة تحمله على السرور بما أسداه للسيد فيرارز، لأنه سيعود في النهاية بالفائدة على إلينور.

ولا حاجة بنا إلى القول إن الرجلين ازداد تقدير كلّ منهما للآخر بازدياد تعارفهما، وما كان الأمر ليكون بخلاف ذلك لأن تشابههما في المبادئ الطيبة، وفي حسن الإدراك، وفي الطباع وطريقة التفكير، كان كافياً لتوثيق عرى الصداقة بينهما دون أي داعٍ آخر. ولكن حبهما لأختين، وحبّ كل أخت للأخرى، جعل الحب

المتبادل بينهما أمراً محتماً وعاجلاً ولولا ذلك لكان من المحتمل أن يكون هذا الحب رهناً بالزمن والرأي الشخصي.

ووصلت من لندن خطابات لو كانت وصلت قبل ذلك بأيام قلائل لاهتزّ لها كل عرق ينبض في جسم إلينور فرحاً وسروراً، ولكنها قرأتها الآن بفتور. كتبت السيدة جننجز لتحكي القصة العجيبة، وتصبّ جام سخطها على الفتاة الخادعة ناكثة الودّ، وترثي لحال إدوارد المسكين الذي أحبّ هذه الفتاة السليطة التافهة، وأصبح بشهادة الجميع كسير القلب في أكسفورد واستطرد «أعتقد أنه لم يحدث قط مثل هذا الخداع والمكر لأنه منذ يومين فقط زارتني لوسي وجلست معي ساعتين، ولم تخامرني أدنى ريبة ولا نانسي نفسها، وهي التي جاءتني - وارحمتاه لها! تصرخ وتبكي في اليوم التالي وهي في فزع شديد خوفاً من السيدة فيرارز - ولا تدري كيف تصل إلى بليموث، لأنه يبدو أن لوسي اقترضت كلّ نقودها قبل أن تتوجه لعقد قرانها لكي تنفقها على زينتها فيما أظن، وليس مع نانسي المسكينة من الدنيا سبعة شلنات - لذلك سرني أن أعطيها خمسة جنيهات لتسافر بها إلى أكسفورد حيث تقيم مع السيدة بيرجس ثلاثة أو أربعة أسابيع رجاء أن تلتقي بالدكتور مرة أخرى. ويجب أن أقول إن امتناع لوسي عن أخذها معهما في العربة هو أسوأ ما في الأمر - مسكين السيد إدوارد! إنّ ذكراه لا تبرح فؤادي، ولكن يجب أن نستدعيه إلى بارتون، كما يجب على الآنسة مريان أن ترفّه عنه».

أما خطابات السيد داشوود فكانت أقرب إلى الجد. قال: إن السيدة فيرارز هي أتعس النساء، وإن فاني المسكينة عانت آلاماً مبرحة بسبب إحساسها المرهف وأبدى دهشته لحياتهما بعد تلقي هذه الضربة، وحمد اللّه على ذلك. وكانت جريمة روبرت لا تغتفر

أما جريمة لوسي فهي أدهى وأمر. وليس من الممكن أن يجري ذكر أحدهما أمام السيدة فيرارز مرة أخرى وحتى إذا أغراها أحد بالعفو عن ابنها في المستقبل، فلن تعترف بأن زوجته هي ابنتها، ولن تسمح لها بالظهور في حضرتها. وقد زادت السرية التي أتمّا بها زواجهما من فظاعة الجريمة لأنه لو أحس الآخرون بأدنى شبهة أو ريبة لاتّخذوا الإجراءات المناسبة لمنع الزواج. وأهاب بإلينور أن تشاركه الأسف لأنه كان من الخير ألّا تتم خطبة إدوارد ولوسي حتى لا تكون الأخيرة سبباً لزيادة شقاء الأسرة، واستطرد يقول:

«لم تذكر السيدة فيرارز اسم إدوارد حتى الآن، وهو أمر لا يدهشنا ولكن ممّا يدعو إلى مزيد الدهشة أننا لم نتلقَّ من إدوارد خطاباً في هذا الشأن، ولعلّ الذي دعاه إلى الصمت هو خوفه من إغضاب الأسرة، ولذلك فإني سأكتب إليه في أكسفورد كلمة موجزة أشير فيها إلى أنني وأخته نعتقد أن خطاباً يبدي فيه فروض الطاعة اللائقة، ويوجِّهه إلى فاني التي تتولى إطلاع أمّه عليه سيكون له وقعٌ جميل في النفوس، لأننا جميعاً نعرف حنان السيدة فيرارز ورقّة قلبها، وأنها لا تتمنى شيئاً أكثر من أن تكون على وفاق مع أولادها.

وكانت هذه الفقرة ذات أهمية بالنسبة إلى مستقبل إدوارد وسلوكه، إذ حملته على محاولة إصلاح ذات البَيْن وإن لم يكن على نحوِ ما أشار إليه أخوهما وأختهما.

فردَّد: «خطاب يتضمن فروض الطاعة اللائقة!» هل يريدان مني أن ألتمس من أمي العفو عن جحود روبرت لها، والإخلال بالشرف في حقي؟! - لا يمكن أن أقدِّم فروض الطاعة - إنني لم أشعر بالخضوع أو الندم بسبب ما جرى، بل أصبحت أشعر بالسعادة

الكبرى، ولكن هذا لا يهم. أنا لا أعرف شيئاً من فروض الطاعة التي يليق بي أن أقدمها».

فقالت إلينور: «جدير بك أن تسأل العفو لأنك أسأت - وأظن أنه يحسن بك الآن أن تعرب عن قلقك لعقد هذه الخطبة التي جلبت عليك غضب أمك».

فوافق على ذلك.

«وعندما تعفو عنك قد يكون من المناسب أن تبدي قليلاً من الخضوع في أثناء اعترافك بالخطبة الثانية التي تكاد تبدو في نظرها هي حمقاء كالخطبة الأولى.

ولم يعارض في ذلك، ولكنه ظلّ يعارض فكرة الخطاب الذي يقدم فيه فروض الطاعة اللائقة. وتيسيراً للأمر رأى بعد أن أبدى استعداده لتقديم فروض الطاعة باللسان لا بالكتابة أن يتوجه إلى فاني، ويطلب إليها أن تشفع له لدى والدته، وقالت مريان بصراحتها الجديدة: إذا اهتم جون وفاني بإصلاح ذات البين فسأعتقد أنهما لا يخلوان من الفضل تماماً».

وبعد أن قضى كولونيل براندون في زيارتهن ما لا يزيد على ثلاثة أيام أو أربعة غادر بارتون مع إدوارد على أن يسافرا إلى ديلافورد مباشرة حتى يتسنى لإدوارد أن يعرف مسكنه الجديد بنفسه، ويساعد ولي نعمته وصديقه في تعزيز الاصطلاحات المطلوبة، وبعد أن يقضي بها إدوارد يومين يتوجه إلى لندن.

الفصل الخمسون

بعد أن أبدت السيدة فيرارز من المعارضة الشديدة الثابتة ما ينفي عنها الوصمة التي كانت تخشى دائماً أن تتهم بها وهي فرط الحنان، سمحت لإدوارد بالدخول عليها، واعترفت ببنوّته مرة أخرى.

وكانت الأحوال قد تقلّبت بأسرتها كثيراً في الأيام الأخيرة، فقد عاشت هي عدة سنوات ولها ولدان، ولكن جريمة إدوارد ونبذه من الأسرة منذ بضعة أسابيع حرمتها من أحد الولدين، ثم عادت فنبذت روبرت كذلك لمدة أسبوعين، فأصبحت محرومة من الولدين، والآن وقد ردّت الحياة إلى إدوارد فقد أصبح لها ولد واحد.

وعلى الرغم من أنها سمحت له بالحياة مرة أخرى، لم يشعر هو بالطمأنينة إلى استمرار هذه الحياة، حتى يكاشف أمه بخطبته الحالية لأنه كان يخشى إذا ذاع نبؤها أن تثور عليه وتنبذه، كما فعلت من قبل. ولذلك كاشفها بالأمر في حذر مقرون بالخوف، واستمعت له بهدوء لم يكن متوقعاً. وحاولت السيدة فيرارز في البداية أن تثنيه بالمنطق عن الزواج من الآنسة داشوود بكلّ حجة أمكنتها، فقالت له: إن الآنسة مورتون فتاة ذات حَسَبٍ ومال،

وعزّزت قولها بأنها ابنة أحد النبلاء، وأن ثروتها تقدّر بثلاثين ألفاً من الجنيهات، في حين أن إلينور بنت رجل عادي لا تزيد ثروتها على ثلاثة آلاف جنيه. وعندما رأت أنه مع تسليمه بصحة حججها لا يميل بأيّ حال إلى الأخذ بها، وجدت من الحكمة أن تنتفع بتجربة الماضي، وتذعن للأمر. وعلى ذلك أصدرت قرارها بالموافقة على زواج إدوارد وإلينور بعد أن أبدت كثيراً من الإرجاء غير الكريم الذي يرجع إلى شعورها بالإباء والكرامة، وحرصها على نفي كل شبهة في أنها تضمر الحب لهما.

ثم جرى البحث بعد ذلك بما تلتزم هي به تجاه زيادة دخلهما، وهنا اتّضح بجلاء أنه وإن كان إدوارد هو ابنها الوحيد الآن، فإنه لا يعدّ بأي حال أكبر أولادها. وإذا كانت قد وهبت روبرت ألف جنيه في العام هبة لا رجوع فيها لم تبدِ أدنى معارضة في رسامة إدوارد حتى يتسنى له أن يحصل على مئتين وخمسين جنيهاً على الأكثر. ولم تتعهد بشيء من الحاضر أو المستقبل أكثر من عشرة آلاف جنيه وهبتها له بالاشتراك مع فاني.

على أنّ ذلك كان كلّ ما يريده، بل أكثر ممّا توقعه، إدوارد وإلينور، وبدا من الأعذار التي تمحّلتها السيدة فيرارز أنها هي الشخص الوحيد الذي دهش لأنها لم تعطهما أكثر من ذلك.

والآن وقد حصلا على الدخل الذي يكفي حاجاتهما، لم يكن ثمة داعٍ للانتظار بعد أن يستولي إدوارد على الأبرشية إلّا إعداد المنزل الذي كان كولونيل براندون يُجري فيه إصلاحات كبيرة رغبة في تهيئة وسائل الراحة لإلينور. وبعد أن انتظرت إلينور بعض الوقت حتى تتمّ هذه الإصلاحات، وبعد أن ذاقت كما هي العادة مرارة الخيبة والإرجاء ألف مرة بسبب ما أبداه العمال من بطء يحار العقل

في تعليله. عدلت - كما هي العادة - عمّا اعتزمته أولاً بصفة قاطعة من عدم الزواج إلّا بعد إعداد كل شيء، فتمّ عقد القران في كنيسة بارتون في أوائل الخريف.

وقضيا الشهر الأول بعد زواجهما مع صديقهما في دار المزرعة، ومن هناك أتيح لهما أن يشرفا على سير العمل في منزل الأبرشية، ويشيرا بما يريان عمله في الحال، كأن يختارا الورق، ويختطا الأشجار، ويخترعا «شادوفاً» لرفع الماء. وتحققت نبوءة السيدة جننجز على ما فيها من تخليط، لأنها استطاعت أن تزور إدوارد وزوجته في أبرشيتهما قبل عيد الملاك ميخائيل، ورأت في إلينور وإدوارد - كما كانت تعتقد بالفعل - زوجين من أسعد الأزواج في العالم. ولم يكن ثمة ما يتمنيانه سوى زواج كولونيل براندون ومريان، ومرعى طيب لأبقارهما.

وزارهما عقب استقرارهما في منزلهما الجديد لأول مرة سائر أقاربهما وأصدقائهما. وقدِمَت السيدة فيرارز لتفقُّد السعادة التي كادت تشعر بالخجل لأنها وافقت عليها، بل تجشم آل داشوود عناء السفر من سسكس تكريماً لهما.

قال جون لأخته - بينما كانا يسيران صباح ذات يوم أمام أبواب ديلافورد هاوس: «لن أقول يا أختي إنني أشعر بخيبة الأمل، فالقول بذلك يكون ضرباً من المبالغة، فأنت على التحقيق من أسعد الفتيات حظاً في الواقع والأمر نفسه، ولكني أعترف أنه يسعدني كثيراً أن أسمي كولونيل براندون صهراً. فأملاكه هنا ومركزه ومنزله، بل كل شيء يبعث على الاحترام، ويدل على جلالة قدره - وأشجاره! - لم أشاهد في أي مكان في دورستشاير من الأشجار ما أراه الآن في ديلافورد هانغر! وربما لم تكن مريان هي المرأة التي

تستهويه تماماً، ولكني أعتقد أنه يحسن بك أن تغريهما بإطالة المكث عندك، لأنه متى شعر كولونيل براندون أنه بين أهله وعشيرته دون أية كلفة، فلا يدري أحد ماذا عسى أن يحدث - فالناس متى خلا بعضهم إلى بعض وغفلت عنهم أعين الرقباء - وفي وسعك دائماً أن تزينيها أكمل زينة، وما شابه ذلك - بالاختصار يحسن بك أن تهيئي لها الفرصة - أنت تفهمينني».

ولكن على الرغم من أن السيدة فيرارز جاءت إليهما بالفعل لتزورهما وتصنَّعت إظهار المودة لهما، فإنهما لم يشعرا بأدنى إهانة عندما كشفت النقاب عن حبها الحقيقي، وكان هذا الحب يرجع إلى حماقة روبرت، ومكر زوجته ولم تنقضِ عدة شهور حتى ظفرا بهذا الحب. وكانت فطنة امرأته الأنانية التي استدرجته في البداية للوقوع في الشرك هي الأداة الكبرى التي خلصته من هذا الحرج، لأنها بما أبدته من التذلل المقرون بالاحترام والتودّد المقرون بالاهتمام، والتملق الذي لا نهاية له استطاعت بمجرد أن سنحت لها أدنى فرصة أن تستميل قلب السيدة فيرارز، وتحملها على الرضا عنه والعطف عليه.

ويمكن أن يُعد مسلك لوسي في هذا الأمر، والثراء الذي ترتّب عليه، مثلاً مشجعاً للغاية لما يمكن أن يؤدّي إليه الحرص الشديد على المصلحة الشخصية - مهما ظهر من العقبات في سبيله، من الحصول على أسباب الثراء دون أن يضحي الإنسان بشيء اللهم إلّا بوقته وضميره. وعندما سعى روبرت إلى التعرُّف إليها أول مرة وزارها سراً في بارلتز بلدنغ لم يكن يريد بذلك إلّا ما نَسبه إليه أخوه. لم يكن يريد إلّا أن يحملها على فسخ الخطبة، ولما كانت العقبة الوحيدة هي حبهما المتبادل، فمن الطبيعي أن يتوقع أن مقابلة

أو مقابلتين كفيلتان بتذليل هذه العقبة على أنه أخطأ في هذه «النقطة»، وفيها فقط، لأنه على الرغم من أنّ لوسي مَنته أن بلاغته كفيلة بإقناعها على مرّ الزمن، فإن الأمر تطلب دائماً زيادة أخرى وحديثاً آخر. حتى يتمّ هذا الإقناع وكلما افترقا ساورتها بعض الشكوك التي لا يمكن إزالتها إلّا بحديث آخر يستغرق نصف ساعة. وبهذه الوسيلة كانت تضطره إلى زيارتها ثم جر ذلك إلى بقية الحوادث الأخرى، فبدلاً من أن يتحدثا عن إدوارد طفقا يتحدثان بالتدريج عن روبرت وحده - وهو موضوع يجب الإكثار من الحديث فيه أكثر من غيره، وأظهرت هي من الاهتمام به ما يعادل اهتمامه - وبالاختصار تجلى لهما بسرعة أنه حلَّ في قلبها محل إدوارد. وكان فخوراً بهذه الغزوة الغرامية، وباحتياله على إدوارد، وبزواجه سراً دون موافقة أمه. وما حدث بعد ذلك مباشرة معروف للجميع، فقد قضيا بضعة شهور وهما يتفيآن ظلالَ السعادة في دولش، لأنها اضطرت أن تقاطع كثيراً من الأقارب والأصدقاء، واضطر هو أن يضع مشروعات عديدة لإقامة منازل ريفية فخمة. ومن هناك عادا إلى لندن واستسمحا السيدة فيرارز بتلك الوسيلة البسيطة التي أوعزت بها لوسي ألا وهي طلب العفو، فوافق هو على ذلك. وكان العفو في البداية لا يشمل إلّا روبرت كما هو المعقول في الواقع، إذ إن لوسي لم تكن ملتزمة بأيّ واجب تجاه أمه، ومن ثم لم يكن محلّ لاتهامها بأية مخالفة، وظلّت بعد ذلك بضعة أسابيع دون أن تظفر بالعفو، ولكن مثابرتها على التذلّل الذي تجلى في سلوكها ورسائلهما، وفي اعترافها بأنّ الذنب في جرم إدوارد يقع عليها، وفي تقديمها الشكر على المعاملة القاسية التي عوملت بها - أكسبتها ذلك العطف السامي الذي أسرها برقته، والذي أدّى بعد ذلك بخطى حثيثة إلى

أعلى درجة من الحب والنفوذ، فأصبحت السيدة فيرارز لا تطيق فراق لوسي كما لا تطيق فراق فاني وروبرت، وصرّحت دائماً أن لوسي هي ابنتها المحبوبة في حين أنها لم تعفِ قط عن إدوارد عفواً صادراً من قلبها لأنه اعتزم أن يتزوج إلينور يوماً ما وفي حين أنها وصفت إلينور بأنها دخيلة عليهم مع أنها تفوق لوسي مالاً وحسباً.

ثم أقاما في لندن، وتلقّيا كلّ مساعدة سخية من السيدة فيرارز، وكانا على أتمّ وئام يمكن تصوره مع آل داشوود، وإذا صرفنا النظر عن الأحقاد والأضغان التي ظلّت قائمة بين فاني ولوسي، والتي اشترك فيها زوجاهما بالطبع، والخلافات العائلية العديدة بين روبرت ولوسي، لم يكن ثمة ما هو أعظم من الوفاق الذي عاشوا في ظله جميعاً.

وربما يحار كثير من الناس في معرفة ما صنعه إدوارد حتى فقد حق الابن الأكبر، ولكن ربما أثار حيرتهم أكثر، ما صنعه روبرت حتى خلفه في هذا الحق. والواقع أنه كان إجراء تبرّره النتائج إن لم تبرّره الأسباب. ذلك أنه لم يظهر قط في أسلوب معيشة روبرت ولا في أسلوب حديثه ما يجعله يأسف على أنّ دخله كان كبيراً بحيث ترك لأخيه أقلِ من القليل، أو أخذ هو أكثر من الكثير. وإذا جاز لنا أن نحكم على إدوارد بإقباله على أداء واجباته في كافة الشؤون، وازدياد محبّته لزوجته وبيته، وابتهاجه وبِشْره الدائم، أمكن القول أنه لا يقل عن روبرت رضاً بما قسّم له، ولا عزوفاً عن الرغبة في استبدال حالة بحال أخيه.

ولم يفرّق زواج إلينور بينها وبين أهلها إلّا بأقل قدر مستطاع، دون أن يؤدي ذلك إلى عدم الانتفاع بالمنزل الريفي، وذلك لأنّ أمها وأختيها كن يقمن معها أكثر من نصف وقتهن. وكان الدافع

الذي حدا السيدة داشوود إلى الإكثار من زيارة ديلافورد مزيجاً من السياسة والسرور، ذلك أن رغبتها في الجمع بين مريان وكولونيل براندون لم تكن أقل ممّا أعرب عنه جون، وإن كانت هي أكثر منه تساهلاً. لقد أصبح ذلك الآن هو هدفها المنشود. فهي على الرغم من حبها لصحبة ابنتها، لم تكن ترغب في شيء رغبتها في تقديم هذه المتعة الدائمة لصديقها المبجل وكذلك كان إدوارد وإلينور يتمنيان أن يشاهدا إلينور في قصر المزرعة. لقد كان كلّ منهما يشعر بآلامه وبالمنن التي طوّق بها جيدهما وكانا يجمعان على أنّ مريان هي جزاؤه على هذه المنن.

وبإزاء هذا التحالف ضدها - والمعرفة الوثيقة بفضائله - والإيمان بحبّه المستهام لها - ذلك الحب الذي تجلى لها أخيراً وإن تجلى لكلّ إنسان آخر قبل ذلك بزمن طويل - ماذا كان يمكنها أن تفعل؟

لقد ولدت مريان داشوود لتواجه مصيراً غريباً. ولدت لتتبين زيف آرائها، ولتناقض بأفعالها أحب مبادئها. ولدت لتنسى حباً خامرها في وقت متأخر ألا وهو سن السابعة عشرة، ولتقدم يدها بإرادتها إلى شخص آخر لا تكنّ له أية عاطفة سوى الاحترام الشديد والصداقة الحميمة! وهذا الشخص الآخر رجل قاسى ما لا يقلّ عمّا قاسته هي من حب سابق، رجل كانت ترى منذ سنتين أنه أكبر سناً من أن يصلح زوجاً لها - رجل لا يزال يستعمل الصدرة الصوفية محافظة على صحته من البرد!

ولكن هكذا كان. بدلاً من أن تذهب ضحية لعاطفة عارمة جارفة كما كانت تعلّل نفسها بذلك يوماً ما - بدلاً من أن تظلّ ملازمة لأمها إلى الأبد، وتجدُ لذتها الوحيدة في العزلة والدراسة

كما اعتزمت أن تفعل فيما بعد حينما ثابت إلى التفكير الهادئ الرزين. بدلاً من ذلك كله وجدت نفسها في سن التاسعة عشرة تستسلم لحب جديد، وتُقبل على أداء واجبات جديدة، وتحل في منزل جديد، لتكون زوجة، وربة أسرة، وراعية قرية.

وشعر الآن كولونيل براندون بالسعادة التي يعتقد أشدّ الناس حباً له أنه جدير بها، ووجد في مريان عزاء له عن كلّ محنة قاساها فيما مضى، وعاد إليه المرح، وتألق وجهه بالبشر بفضل حبّها وصحبتها. وكان كل صديق يرى مسروراً أن مريان تجد السعادة في العمل على إسعاده. ولم تكن مريان تجتزئ من الحب بنصفه، بل كانت إذا أحبَّت أحبت الحب كله، لذلك أصفت زوجها بمرور الزمن كل الحب، كما فعلت مع ولبي من قبل.

ولم يستطِع ولبي أن يسمع عن زواجها دون أن يشعر بوخز الألم. وسرعان ما لقي عقابه الكامل في العفو الذي تطوّعت به السيدة سميث إذ اشترطت عليه أن يتزوج امرأة ذات خُلُق، فحمله ذلك على الاعتقاد أنه لو كان سلك سبيل الشرف مع مريان لفاز بالسعادة والغنى معاً. ولا حاجة بنا إلى الشك في أنّ توبته من سوء السلوك الذي عوقب عليه كذلك كانت توبة صادقة، كما أنه لا شك في أنه ظلَّ ينظر بعين الحسد إلى كولونيل براندون، ويشعر بالأسف على مريان. ولكن يجب ألا نعتقد أنه لم يجد عزاء طول حياته، أو أنه اعتزل المجتمع، أو أخلد إلى الكآبة أو مات كسير القلب، لأن شيئاً من ذلك لم يحدث، فقد عاش ليعمل، ويتمتع بالحياة كثيراً. ولم تكن زوجته دائمة الاكتئاب ولا حياته المنزلية تشوبها المتاعب والأكدار، وقد وجد قدراً كبيراً من السعادة في تربية جياده وكلابه، وفي سائر ضروب الرياضة.

أما مريان فقد ظلّ يحفظ لها - على الرغم ممّا أظهره من عدم الأدب بعد زواجها - تلك المحبة الصادقة التي جعلته يهتم بكلّ ما يصيبها، وظلّ يعتقد في نفسه أنها مثال المرأة الكاملة، وكم من فتاة جميلة من الجيل الصاعد كان يهزأ بجمالها فيما تلا ذلك من الأيام بحجّة أنه لا وجه للمقارنة بينها وبين السيدة براندون.

وأبدت السيدة داشوود من الحكمة ما جعلها تُبقي على المنزل الريفي دون أن تحاول الانتقال إلى ديلافورد. ومن حسن حظ سير جون والسيدة جننجز أن مرغريت - حين اختطفت مريان منهما - بلغت سناً مناسباً للرقص، كما كان مناسباً للحب.

وظل الاتصال الدائم - الذي أملته بالطبع المحبة العائلية القوية - قائماً بين بارتون وديلافورد. ومن مزايا إلينور ومريان ودلائل سعادتهما أنهما استطاعتا أن تعيشا - ولا تحسبن ذلك أقل هذه المزايا شأناً - دون أن ينشب خلاف بينهما، أو يحدث نفور بين زوجيهما، على الرغم من أنهما أختان، وأن كلّ أخت تكاد تعيش بمرأى من الأخرى.

مكتبة 707
سُر مَن قرأ

telegram @t_pdf

جين أوستن

العقل والعاطفة

العقل والعاطفة، العمل الأول لجين أوستن، هي من دون شك إحدى أعظم الروايات الإنجليزية في القرن التاسع عشر.

ترسم جين أوستن، المرأة المولودة عام 1775، بأسلوب حر وبفكاهة ودقة متناهية، صوراً واقعية لرجال ونساء مجتمعها، آخذة بعين الاعتبار طباعهم وأوضاعهم الاجتماعية وطموحاتهم الشخصية ومشاعرهم، مقدمة للقارئ شحنة مركّزة من المتعة والعاطفة تجعل من هذه الرواية إحدى روائع الأدب العالمي.

❖ ❖ ❖

بعد وفاة السيد داشوود، اضطرت زوجته وبناته الثلاث إلى التخلي عن نمط حياتهن المترف والهجرة إلى الريف. تقوم بدور البطولة البنتان الأكبر: إلينور العقلانية ومريان الرومنسية، وتواكب الرواية حياتهما العاطفية.

فمن خلال موضوع الزواج المحوري، تُلقي جين أوستن الضوء على مجموعة من المواضيع الوجودية مثل وضع المرأة في المجتمع، النفاق الاجتماعي ضمن الطبقة الأرستقراطية، البيئة الإنجليزية في بداية القرن التاسع عشر، أهميّة النَّسَب والمال في هذه المجتمعات، فضلاً عن مكانة الحب: السؤال الأبدي الذي يطرح نفسه إلى يومنا هذا.

لوحة الغلاف للفنان شارلز ادوارد بيروغيني

ISBN 978-9953-68-836-7

9 789953 688367

تنمية

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com